دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

مكسيم چوركي

المؤلفات الكاملة

المجلد الأول

الأم

الدكتور
فؤاد ايوب
سهيل ايوب

سلسلة عيون الأدب العالمي
١

نقل هذا الكتاب الى العربية

استناداً الى الترجمتين الفرنسية والانكليزية ،

وروجع نصه الاخير على الاصل الروسي ...

المقدمة

يحتل مكسيم جوركي ، واسمه الحقيقي ألكسي مكسيموفيتش بشكوف، مكانة رفيعة جداً في الأدب الروسي خاصة ، والعالمي بصورة عامة . وهو يعتبر بحق أفضل وريث للأدب الكلاسيكي الروسي في القرن التاسع عشر وأباً للأدب السوفيتي المعاصر ، وخالق مفهوم جديد في الأدب والفن ، ألا وهو المذهب الواقعي الاشتراكي .

ولد جوركي في مدينة نيجني نوفجورود (جوركي اليوم) في الثامن والعشرين من آذار عام ١٨٦٨ من أسره عاملة . إذ كان أبوه صباغاً في البدء ، ثم أصبح نجاراً على ظهر أحد المراكب . لكنه فقد والده ، الذي قضى بجائحة الكوليرا العامة مناطق واسعة من روسيا في تلك الأثناء ، فانتقل الى كنف جده ، وهو بحار سابق على الفولجا استطاع بدأبه ونشاطه ان يرتفع الى مصاف البورجوازية الصغيرة ، فيؤسس معملاً صغيراً للصباغة في نيجني نوفجورود . وفي بيت هذا الجد الطاغية الفارة ابنته منه تاركة له رعاية الطفل اليتيم ، تعرف جوركي للمرة الأولى إلى حيوانية الحياة البورجوازية الصغيرة التي سيضمر لها طوال حياته حقداً لا ينطفىء ، تعرف إليها في قسوة الجد وغطرسته اللامتناهية، وأخلاقه المبنية على أساس المنفعة والربح، ومفهومه المادي عن الله والحياة الآخرة، وفي نزاع العمين الدائب من أجل الأرث، وعربدتها المفرطة ووحشيتها الحيوانية، وفي مئات الحوادث الصغيرة والكبيرة ، التافهة والهامة ، التي تشهدها روحه

الملائكية الصغيرة الطاهرة بالرغم منها ، وتتألم بسببها وتتمرد . ولكنه لمس في الوقت ذاته ، إن في شخص جدته الطيبة الحنون ، أو في كثير من الناس الذين مروا في حياته مروراً ، ولكن تركوا في ذاته أثراً لا يمحى ، النحية الايجابية من الحياة ، وما في صميم الشعب من إمكانيات عظيمة ، وما يرقد تحت السطح القذر العكر من صفو وروعة وجمال ، هذه الأمور جميعاً التي سيصبح في المستقبل بلبلها الصداح ، عارفاً كيف يرفع عنها النقاب بصورة لم يسبقه إليها كاتب أو فنان .

وماتت أمه وهو في العاشرة من عمره ، فاضطر جده في الثانية عشرة الى الخروج إلى ما « بين الناس » كي نستعير ذاب تعبيره، ما دام قد أصبح في سن تسمح له أن يكسب حياته بعرق جبينه . وهكذا ألقى بنفسه في معترك الحياة ، فعمل أجير اسكافي فترة ، وملتقط خروق فترة أخرى ، وغسال آنية آناً ، وصانعاً في مرسم آناً آخر ، وعاملا على ظهر مركب حيناً ، وحمالاً في أحيان أخرى... كان يشتغل كثيراً ، في الليل والنهار، وفي أيام الآحاد والأعياد ، ويقوم بأعمال عديدة ، «بليدة ذليلة » ، لكن لا مفر له منها لرد غائلة الجوع عن نفسه . غير أنه تعرف في الوقت ذاته الى تسلية رائعة استبدت بفراغه ، ألا وهي القراءة... أصبح يقرأ كل ما يقع تحت يده ، وخاصة في الأدبين الروسي والفرنسي ، مما أعانه على فهم الحياة اكثر من ذي قبل ، وألهب تعطشه إلى المعرفة ، فما بلغ السابعة عشرة من عمره حتى ارتاد (قازان) يحدوه الأمل إلى متابعة دروس منتظمة في جامعتها . لكنه لم يستطع لحياته كسباً ، كأجير خباز ، إلا في أشد شروط الاستثمار وحشية ، هذه الشروط التي يصفها في « جامعياتي » الحلقة الثالثة من ذكرياته عن نفسه ، وفي مجموعة قصصه « كونوفالوف » أو « ستة وعشرون رجلاً وفتاة » أو « المعلم » . ولا ريب أن هذه الحياة التي احتك بها ههنا في قازان ، وهي أقبح وأقسى بغلا يقاس مما عرف في نيجني نوفجورود ، هي التي قادته ، بالأحرى من

حب عنيف خائب، الى محاولة للانتحار سنة (١٨٨٨) لم تنجح ، رواها في «حدث في حياة ماكار» . هو لم يعرف حتى الآن من الحياة إلا مرها ـ ومن هذه المرارة استعار اسمه الأدبي ، فجوركي في الروسية تعني المرارة ـ ولم يستطع بعد أن يكتشف ما فيها من جمال ، ولما يزل بعيداً عن سبر أغوار معانيها حتى يدرك لها هدفاً يستحق أن يعيشها المرء من أجله ، مناضلا في سبيل البلوغ اليه . لكن الرصاصة استقرت في رئته ، ولم تقتله ، وإن تركت له ذكرى رافقته طوال حياته .

عندئذ ابتدأت رحلته الكبرى عبر بلاده ، الروسيا ، فلجأ مدة الى الريف حيث عاش قرب الثوري روماس ، وهو من « الشعبيين » الذين لعبوا دوراً هاماً في حياة البلاد الثورية في فترة من الزمن (العقد السادس من القرن التاسع عشر خاصة) ، ثم تفسخت حركتهم وانتقلت إلى خدمة الرأسمالية المتغلغلة أكثر فأكثر في طول البلاد وعرضها . وكان روماس هذا صديقاً لكورولنكو الذي سيلعب دوراً هاماً في مطلع حياة جوركي الأدبية ، لكنه لم يعلّم ذلك الفتى الفار من سفاسف الحياة البورجوازية الصغيرة وبشاعاتها إلا الذعر من الفلاحين والادبار عنهم ، الأمر الذي حدا به إلى مغادرته قاصداً شواطئ بحر قزوين حيث انخرط في شركة للصيد والتي ببطلة قصته « مالفا » .

ومن هناك سار نحو تساريتزين (ستالينجراد اليوم) حيث اشترك في بناء خطوط السكك الحديدية ، عاملاً تارة ، ومراقباً تارة أخرى . لكنه لم يلبث أن مل هذه الحياة فهجرها ، وصعد في قاطرة شاحنة نحو رامبوف ، فريازان ، فتولا ، فموسكو ، حالماً بتأسيس مستعمرة زراعية . ورحل مجدداً من موسكو إلى مدينة نيجني نوفجورود حيث اشتغل بائع جعة مدة ، ثم ناسخاً في مكتب المحامي ليفين ـ وهي الوظيفة الثابتة الأولى التي حصل عليها ... لكن العمل الجديد لم يرقه ، فسرعان ما غادر نيجني ، بعد حب خائب جديد ، وعبر مقاطعات الدون وأوكرانيا

وروسيا الجديدة حيث اشتغل حمالاً على شواطئ روستوف ، وامتهن الصحافة فترة في أوكرانيا . وشاهد مرة ، أثناء تجواله في بعض الضواحي ، جماعة من الفلاحين يعاقبون زوجة زانية ، وقد ربطوها عارية إلى مركبة يجرها بغل عجوز اعتلاها الزوج المخدوع حاملاً سوطاً طويلاً يضرب به الحيوان مرة ، والمرأة مرة أخرى بصورة منتظمة ، فيتفجر الدم منها ، وهي تسير مجهدة مرهقة مطأطأة الرأس ، ووراءها حشد من الرجال والنساء والأطفال ، يضحكون لما يرون ويتمتعون بتسلية لا تسنح في كل حين ، غير منقطعين أثناء ذلك عن توجيه الشتائم وقارص الكلام إلى الزوجة الخائنة ، دون أن يوفروا عنها اللكمات وكتل الطين أو الحجارة من وقت لآخر ؛ فاذا وقعت أرضاً انهال الزوج عليها بالسوط دون رحمة أو شفقة ، حتى تنهض وتعاود المسير . . . هكذا كانوا يعاقبون خيانة المرأة ، أما خيانة الرجل فلا عقاب عليها طبعاً ... شاهد جوركي كل هذا إذن ، فلم يستطع له احتمالاً ، وثارت النقمة في قلبه ضد هذه الوحشية والحيوانية من جهة ، وضد أسباب الجهل وأجيال العبودية التي قادت إليهما من جهة أخرى ، فتدخل في صالح المرأة المسكينة ، الأمر الذي ألقى به بين الحياة والموت ، فاقد الوعي ، في حفرة على جانب الطريق ، فلم ينقذه من المنية إلا بنيته المتينة ، ولذع البرد الذي رد اليه رشده ، ومزور بعض من حمله إلى المستشفى حيث روى له « تشيلكاش » جاره في السرير ، مغامراته في التشرد . وتوجه بعد ذلك إلى أوديسا ، حيث اشتغل حمالاً من جديد ؛ ومن هناك سعى مشياً حتى بلغ تيفليس ، ماراً بيريكوب ، وسنفيروبول ، وكيرش ، وكوبان ، وسهب تيريك ، وطريق جورجيا العسكري . ولم يطل الاقامه في تيفليس ، إذ لا نلبث أن نجده في بيسلان ـ بتروفسك يعمل في بناء سكة الحديد ، ثم في ألاجير ، وفلاديقفقاز ، وسوخوم ـ نوفورودسيك ، وباكو ، ثم في تيفليس مرة أخرى ، حيث اتصل بعدد من المنفيين السياسيين كان أحدهم ، واسمه كالوجني ، أول من أقنع الصحيفة المحلية « القفقاز » بنشر قصته الأولى « ما كارتشودرا » . وكان ذلك عام ١٨٩٢ ،



ولجوركي من العمر أربعة وعشرون عاماً .

وفي هذه الأثناء ، استدعاه ليفين برقياً إلى نيجني نوفجورد ، فعـاد إليها . وبذلك انتهت بالنسبة إليه حياة التشرد والضـرب في الآفاق ، وابتدأت حياة الفكر والقلم .

لكن هذه الحياة الجديدة لم تكن سهلة ميسورة ، فالصحف الكبرى تأبى نشر قصصه ، اللهم إلا « الكنز الروسي » التي نشرت « تشيلكاش » ، و « الأقاصيص الروسية » التي نشرت « أميليان بيلاي » (١٨٩٣) . كان المشرفون على تلك الصحف الكبرى والمجلات يجدونه مجرداً مصطنعاً ، غير ملتزم للاخلاق، الأمر الذي يجب أن نجد له تعليلاً — ونجد فيه برهاناً — على التباعد القائم في ذلك الحين بين الأدب والحياة . . . وهـذا ما أدركه جوركي حق الادراك ، فراح يفتش عن طرق جديدة للأدب ، وهو يتحسس دربه تحسساً ، ويسير نحو غايته بخطاً وئيدة ، لكنها ثابتة راشدة غير ضالة .

٢

ذلك ان الأدب الروسي ـ في نهاية القرن التاسع عشر ، وبعد عدة اجيال من سيطرة الرأسمالية وتغلغلها السريع في سائر انحـاء الحياة وتفانيها في محاولة اللحاق بالتطور الرأسمالي في اوروبا الغربية الذي سبقها بعدة عصور ـ قد أخـذ للمرة الأولى في تاريخه يبتعد عن تقاليده الانسانية والديمقراطية ، فاذا أكثر أشكال الفكر والفن رجعية تجتاحه ، من الصوفية حتى الرمزية ، كما راح مفهوم « الفن من أجل الفن » ، المعاكس لمفهوم الكتاب الروسيين عن رسالة الأديب والفنان الاجتماعية، ينمو ويزدهر تشجعه الصحافة والنقدالبورجوازيان ويضفيان عليه أبهى الحلل وأزهاهـا .

وفي الوقت ذاته أخذت روح التشاؤم والانحلال والانهيار ، وهي على طرفي نقيض مع روح التفاؤل التقليدية في الأدب الروسي ، تثبت سيطرتها وتوطيدهـا

أكثر فأكثر، فلا يشذ عن ذلك إلا تولستوي وكورولنكو وحدهما. إن الجو في ختام هذا القرن التاسع عشر، لثقيل الوطأة، كثيف الظل، مرهق القسوة... والرجعية تنتصر في كل مكان وتعلن انتصارها على رؤوس الأشهاد في وقاحة وشماتة. وكل فكر خير يجد كل جهد عبثاً لا طائل من ورائه، فينطوي على ذاته، كئيباً، خائر القوى، يرسم لنا لوحة عن مجتمع يعاني سكرات النزع الأخير دون أمل في شفائه، ولا رجاء في إحيائه وبعثه.

تلك هي الحال عند جارشين مثلاً: شخصيات معذبة، مريضة الوجدان، تثقل عليها وطأة مشكلة الشر وترهقها، فلا تجد لها خلاصاً حتى ولا في المسيحية كما هي الحال عند أغلب أبطال دستويفسكي مثلاً. إنهم قوم لا يعرفون لماذا يعيشون، ويموتون دون أن يدروا للمنية سبباً أو غاية. لا بل إن الحيوانات والنباتات نفسها تتعذب أيضاً، فالألم يغمر الكون بأسره، ولا يفلت من طائفته أي كائن على الاطلاق. وإن الناس ليسعون، كالمجانين، يريدون أن ينزعوا الشر المتأصل في العالم، إنما عبثاً يحاولون، فالشر أقوى جذوراً من البشر.

وينتحر الكاتب في الثانية والثلاثين...

وكذلك الأمر عند تشيخوف. إن القصاص الكبير يرسم صورة كاملة لمجتمعه، إنما القاع الذي يرسم عليه مفعم بالكآبة والأسى. إنه لا يؤمن بالموجيك، بل إن «فلاحيه» أناس حط منهم البؤس وأهلكتهم الخمرة، أخلاقهم حيوانية، وإيمانهم هذيان وسخافات وأباطيل. وهو لا يؤمن بالمثقف أيضاً، لأنه لا يعرف إلا ذلك المثقف المنحدر من الطبقة البورجوازية الصغيرة التي يختار تشيخوف أبطاله منها، وهو يمثل طبقته أفضل تمثيل في أنانيتها، وماديتها، وتفاهة حياتها وحقارتها. أما نبلاؤه فقوم يتفسخون في أملاكهم، قد عفا عليهم الدهر، فلا يرجى منهم بعد

الآن تحسين أبو خير . أما أصحاب الحرف ، والباعة والتجار ، هؤلاء الذين يشكلون أسس الطبقة التي يصفها تشيخوف في المحل الأول ، فحياتهم مثل فكرهم محدودة رتيبة ، خالية من كل مثل أعلى ، ألاهم إلا المال . ويا له من رب يعبده الانسان ! ولعل شرارات من التمرد ، من الخبز ، تنطلق من الطلاب فيريدون أن يهبوا حياتهم ويكرسوها في سبيل غاية عظمى ، لكن سرعان ما تخبو نارهم وتنطفىء عندما ترهقهم مشاغل الحياة اليومية ، مشاغل طبيب ريف منعزل في بيئة جاهلة ، أو مشاغل أستاذ غارق في تفاهة حياة المدينة الصغيرة ، أو موظف تغمره هموم وظيفته وهو يسعى ، زاحفاً على بطنه أمام رؤسائه ، وراء الترقية أو زيادة المرتب . ورجل الفكر إذن ؟ إنه لا يدري ، هو الآخر ، معنى للحياة أو غاية من ورائها ، فاذا ما سألته فتاة عن مبدء للحياة أجاب : لست أدري . ويبقى العمال ؛ ولكن لا يكادون يحتلون مكاناً في كتابات القصاص الروسي ، فاذا ظهروا فهم مثل الآخرين ، أناس ترهقهم حياة الشقاء والبؤس التي يقضون ، فرديون أنانيون ، لم يدركوا بعد معنى الأخوة والتضامن ، ولم تجمعهم مصائبهم المشتركة . إن كلاً منهم يفكر بتعاسته الخاصة ، وبعمدته الخاصة أيضاً ، وليس لديه وقت ليفكر فيه بتعاسات الآخرين ، حتى ولا بوجودهم . إن التزاحم ما يزال يقيم هوة بينهم ، وفجوة واسعة لم يعبروها بعد ، ولم يدركوا أيضاً ضرورة اجتيازها . إن أبطال تشيخوف قوم تعتصرهم قبضة الحياة اليومية التي لا يستطيع أي مثل أعلى ، وأية عاطفة مجردة ، مقاومة لها ، بحيث تفوح من مؤلفاته ، بصورة عامة طبعاً ، رائحة ذلك التشاؤم الذى تحدثنا عنه ... عبث كل جهد ، فليستسلم الانسان إذن لمصيره دون مقاومة ، ولينتظر كيفما كان نهاية الحياة .

أما أبطال سولوجوب فلا يستسلمون فحسب ، بل يكرهون الحياة أشد الكراهية ، ويسعون ، بما فيهم الأطفال الصغار ، وراء الخلاص منها

ووضع حد لها . والذين يعيشون منهم ، أو يريدون الحياة ، فهم أقرب الى الأشباح منهم الى البشر . هذه الحياة ان هي الا ملل ، وفودكا ، وفضائح ومخاصمات ، ويأس ، وتفاهة ...

٣

في هـذا الهمود العام الشامل رنت ضحكة متشردي جوركي الوقحة . هؤلاء لم يملوا الحياة ، رغم الجوع والبؤس والتشرد ، لا بل هم على العكس ينهلون منها في تعطش ، ويعبون من منابعها في نهم دون خوف أو تردد . إن الحياة الجديدة قد ألقت بهم بعيداً عن ركبها ، ونبذتهم واحتقرتهم . هي تضرب صفحاً عن الكائن الانساني الكامن فيهم ، ولا تعنيها انسانيتهم في كثير أو قليل ، ففي شريعة الغاب المسيطرة ، حيث أصبح البشر ذئاباً يعض بعضهم بعضاً ، ليس من محل إلا للقوة العاتية الظالمة التي لا تعرف رحمة بل تبطش دون أدنى تردد ، تبطش بقوة لا أثر للشفقة فيها . إن الانسان ، في هذه الحياة الجديدة ، لا يجد في أخيه الانسان إلا جسراً يعبر عليه لبلوغ أهوائه وتحقيق مطامعه . وهؤلاء المتشردون ، الذين لا يحصى لهم عدد ، إن هم في واقع الأمر إلا حجارة هذا الجسر ليس غير ، قيمتهم تقدر بما يستطيعون أن يقدموا لرأس المال ، ما أحتاج إليهم ، من منفعة أو فائدة ؛ فان هم أضحوا عالة عليه ، قذفهم عنه بعيداً ، وداسهم بأقدامه كالحشرة الحقيرة . أما هم فيعبرون الأرض الروسية الطيبة في أرجائها الأربعة ، جياعاً لا يملكون كسرة خبز يسدون الرمق بها ، يتسترون بالأسمال ، ولا مأوى لهم يلجأون إليه ليلوذوا بحماه من البرد والصقيع ، لكنهم يملكون تحت الأسمال قلباً ، قلباً يفتقر إليه المجتمع الجديد ، ويملكون إحساساً نيراً بالحرية والكرامة الانسانية لم تستطع الحياة البورجوازية المتدفقة في عنف وجبروت ، ولا أساليبها القرصانية في تنظيم العلاقات بين الناس ، أن تقضي عليها .

لقد قضى جوركي بينهم زهرة شبابه ... سبع من السنوات الطافحة بالتعطش إلى الحياة وهو يجوب وإبام أرجاء الأرض ، « ينظر إلى الروسيا » على حد تعبيره . ومما لا ريب فيه أنه اكتسب في هذه الفترة الطويلة نسبياً من الزمن شيئاً آخر غير المغامرة ومشاهدة غرائب الأمور . لقد جرب الحياة واختبرها ، هذه الحياة التي أراد مرة أن يضع لها حداً ثم تعلم كيف يحبها ويتعشقها ويدعو الناس إلى الاعتراف منها حتى الارتواء — ولا ريب أنهم لن يرتووا . وفي احتكاكه الصميمي بهذه الحياة تعرف إلى « الشعبيين » — أنقاض حركة ثورية انهارت وعفا الزمن عليها — ولما يزالوا يشرفون مع ذلك ، لفقدان من يحتل مكانهم ، على سائر الحلقات الثورية التي اشترك فيها . غير أن جوركي وجدهم يعيشون في الماضي ، وقد ضلوا الدرب فتخلفوا عن الأحداث ، فعموا بالتالي عن مشاهدة التطور الرأسمالي في روسيا ، وعن أهميته بالنسبة إلى حياة البلاد وتطور الحركة الثورية فيها ، لا بل انقلبوا شيئاً فشيئاً إلى أعوان للبورجوازية الكبيرة الساعية أكثر فأكثر إلى السيطرة على سائر مرافق البلاد وسياستها . وهكذا علمه هؤلاء المثقفون الخياليون الذين يحيون في عالم الطوبارية كيف يحتقرهم ويبتعد عنهم ليتلمس طريقاً أخرى للخلاص ، الخلاص من بشاعات الحياة الكريهة .

ولقد وجدها ...

وجدها في التأمل الشخصي والعمل الثوري جميعاً ...

كان أول الطريق الجديدة اتصاله بعمال السكك الحديدية في تيفليس عام ١٩٨١ . ويومذاك كانت الحركة الثورية لا تزال « في تطور رحمي » كما يقول لينين ، حركة ضعيفة لم يشتد ساعدها ، وإن ابتدأت تعي آفات المستقبل على مستوى ضيق جداً . فلا عجب إذن إذا ألقى جوركي بنفسه فيها ،

بعد أن يئس من الأنتليجنتزيا Intelligentzia [1] الشعبية ، ليبحث في الاحتكاك بالواقع عن أسلوب سليم في التفكير ، وفي الممارسة ، يستطيع أن يعتنقه هو ، وأن يعتنقه معه رفاقه في البؤس .

ومع ذلك ظل المتشرد بطله حتى ذلك الحين ، إذ ليس من السهل نسيان تلك التجربة الواسعة التي مر فيها طوال سبعة أعوام في وقت لما يعرف الماركسية فيه بعد ، ولم يتعرف فيه الى وعي طبقي كامل ، يتماشى مع تنظيم ثوري متين يستطيع أن يؤمن مطاليب ذلك الوعي – ألاهم إلا عند متشرديه أنفسهم – الأمر الذي لم يتوصل إليه إلا فيما بعد ، وهو صحافي في نيجني نوفجورود ، عندما بدأ اتصالاته ببروليتاريا المعامل .

والحقيقة أن هؤلاء المتشردين كانوا يشكلون ، حوالي السنة الثمانين من القرن الحالي ، طبقة خاصة بكل معنى الكلمة . لقد كانوا يعدون قرابة الخمسة ملايين ، بينما كان عدد العمال في الفترة ذاتها لا يزيد عن مليون واحد . وكانت حياتهم تضفي عليهم صفة طبقة اجتماعية متميزة ، فيعون هم أنفسهم وحدتهم الاجتماعية هذه وعياً يزيد أو ينقص ، الأمر الذي يتجلى بكل وضوح في تعابيرهم الخاصة مثلاً ، أو في شعاراتهم العسكرية أيضاً . لا بل يمكن القول أيضاً إن هؤلاء المتشردين كانوا يؤلفون ، في فترة لما تنشأ فيه حركة ثورية عمالية أو فلاحية ، نوعاً من الحركة الثورية إن صح التعبير ، أو مرحلة من مراحل نشوئها . ففي الوقت الذي انسحب فيه الفلاحون جميعاً تقريباً من الميدان الثوري ، ويئس « الشعبيون » أنفسهم منهم ، وفي الوقت الذي كانت فيه الأزمة الاقتصادية الناشبة أظفارها ومضاربات السوق تثير العمال بعضهم على بعض في تزاحم رهيب وراء اللقمة ، دون أن يدركوا التضامن والوحدة معنى ، وكان هؤلاء العمال ، غير الواعين ،

(١) اصطلاح روسي ، أخذته سائر لغات العالم ، للدلالة على طبقة المثقفين والمفكرين عامة .

ينضمون الى رجال الشرطة في تفريق مظاهرات طلاب الجامعات . في ذلك الوقت ذاته كان أولئك المتشردون ، وهم ضحايا تلك الأزمة نفسها في المحل الأول ، يتحدون في كتلة واحدة ، ويرعون حقداً طبقياً بكل معنى الكلمة . كانوا يكرهون ، بصورة عامة ، كل أولئك الناس المتأنقين ، اللائى معدتهم ، الحاملين على أجسادهم شيئاً غير الأسمال البالية . بل إن بعضهم يدرك أيضاً أصل البلاء ، هذه العلاقات الاقتصادية الجديدة بين الناس . ولسوف ينقلون معهم ، عندما تزول الأزمة وتتلاشى الضائقة ، هذا الحقد وتلك الوحدة اللذين علمتهم إياهما الحياة ، إلى المعمل الذي سيجد فيهم احتياطياً من اليد العاملة رخيصاً بخس الثمن .

وهكذا وجد جوركي أناساً ينقلون أفكاره ، ويقولون عن البورجوازية رأيه فيها . هؤلاء قوم تملك حياتهم محتوى حياً هو الحقد على البورجوازي ، أي الحقد على من ما ثار عليه طوال العشرين عاماً حين كان في بيت جده ، أو عند معلميه ، أو في تيار الحياة الجارف الذي استسلم إليه فترة طويلة . هذا ملاذ يلجأ اليه ، هو الذي يكن أعظم البغض للبورجوازي الصغير خاصة، وذلك الملاذ يعج بالحقد على هذا البورجوازي الصغير ذاته ، لا بل يجعل من هذا الحقد مبرراً لوجوده . ناهيك أن هؤلاء المتشردين هم وحدهم الذين وجدوا الحرية التي ما أكثر ما تمناها، حرية الحياة في الطبيعة في استقلال تام ، وهذه الحرية ليست فارغة ولا كاذبة ، وليست انحلالاً أو ادعاء الحق في كل شيء ، فيما يخصهم وما لا يخصهم ؛ كلا ، بل هم قوم يجابهون الواقع في صراحة ، فيعرفون أنفسهم أولاً وحقيقتهم ، ويعرفون ما يريدون ويسعون إليه ، ويعرفون أصدقاءهم وأعداءهم على السواء ، ويعرفون أخيراً كيف يكونون مستقلين ، بمقدار ما يعرفون أنهم طبقة خاصة لا تستطيع أن تأمل من سواها شيئاً ما على الإطلاق ... وتلك هي ، دون أدنى ارتياب ، الحرية الحقيقية ؛ وإنها تتجلى بكل وضوح في أنهم لا يخضعون بالرغم من بؤس

الحياة التي يعيشون ، لتلك الشريعة البائسة بمجتمعهم ، فلا يحسدون البورجوازي على حياته ، بل يحتقرون هذه الحياة والذي يحياها ، لأنهم يجدون أنفسهم أفضل منه بما لا يقاس . أو ليست هذه حرية عظمى ؟

ولقد وجد عندهم ، فوق ذلك ، ما هو معدوم عند البورجوازية ، وما لم يجد في ذلك الحين عند العمال أيضاً ... وجد عندهم الاخلاص والتضامن . كانوا يعيشون في « اشتراكية » تامة ، لا بل في « شيوعية » مطلقة أيضاً ، يقتسمون فيما بينهم ما يربحون جميعاً بالعدل والقسطاط ، دون تردد أو حسد أو نقمة . ذلك عندهم أمر طبيعي ، وضرورة من ضرورات حياتهم .

ولعل في كل هذا شيئاً من الرومانطيكية ، بمعنى أن جوركي يضفي على أبطاله صفات لا يملكونها في الحقيقة ، ويجعلهم ينطقون بأفكار هي في واقع الأمر أفكاره الخاصة ، لأنهم أعجز في مثل حالتهم عن أن يتوصلوا إليها ، حتى ليجعل من ذلك المعدم الشريد بطلاً عظيماً . هذه الرومانطيكية أمر لا ريب فيه ، لكنها لا تنفي مع ذلك واقعيته الجوهرية . إن جوركي ليدين ، في الحقيقة ، واقعاً يحط من قيمة الانسان ، الظالم والمظلوم معاً ، الضحية والجلاد على حد سواء . ولكنه يبرر في الوقت ذاته أفضل السمات الانسانية عند أولئك الذين ما يزالون يتحلون بها ، وإن استدار عنهم الناس لأنهم وضعوا في المصاف الدنيا اجتماعياً . وهذا الموقف الواقعي هو الذي يقود ، بالضرورة ، إلى تلك النظرة الرومانطيكيه إلى الأمور ، نعني بها الثقة بالانسان وبالقوى الكامنة فيه التي لم تجدب ولن تموت ، والثقة بانتفاضه يوماً على واقع يدينه ويشوه صورته . وجوركي لا ينكر أن هذا الثائر الاجتماعي الذي هو نموذج الانتقال بين الانسانية الروسية القديمة والجديدة ، والذي يحس أن العالم يسير في طريق ضالة وفي غير الصراط المستقيم ، لا يستطيع شيئاً في الحقيقة سوى الاحتجاج ، فهو إذن بطل عديم النفع اجتماعياً ، لا يقدر مطلقاً على الانتقال من مرحلة

القول إلى مرحلة العمل ، فان فعل فلكي يبرهن عن عجزه وضعفه أمام الواقع المؤلم الذي لا يستطيع له تبديلاً (وهذا ما يجب أن نفتش عن سببه في وضع هذه الطبقة الاجتماعي طبعاً) . لكن جوركي يعني به ذلك الشعور الثوري الكامن في جماهير أنصاف البروليتاريين الصائرة سريعاً إلى احتياطي ضخم للثورة الصاعدة ، يعني به احتقار المال والملكية ، وازدراء مجتمع قائم على أساس المال والملكية ، يعني به شعور الوحدة والرفقه بين البؤساء ، هذا الشعور الذي يعجزون عن صنع أي شيء بدونه ، يعني به أخيراً ذلك العنفوان الذي يأبى الشر فلا ينصاع إليه أو يسالمه .

وجوركي واقعي أيضاً لأنه يصف الطبيعة والناس ، كما هم في الطبيعة ، (وهذا لا يعني طبعاً أنه من أتباع المذهب الطبيعي في الأدب كما يريد بعض النقاد أن يجعلوا منه) . إنه يصف هذا الكون على حقيقته ، في خيره وفي شره ، لكنه يعرف كيف يدخل إلى أعمق أعماق النفس الانسانية ليكتشف فيها الخير المرذول الذي يفتش له عن مخرج ومتنفس . ولذلك فهو ، (أي جوركي) ، لا يترك في نفس القارىء ذلك الفراغ المؤلم الذي يتركه فيها الكتاب الطبيعيون ، بل يترك إحساساً راسخاً أن الحال لن تدوم ، ولا يمكن أن تدوم على هذا المنوال طويلاً ، لأن هناك القوة القادرة على تبديلها . وليس مرد ذلك إلى أن جوركي يتعمد السكوت عن شر واضح ، أو غض النظر عن ضعف بين في الانسان ، بل لأنه يجد الخير أقوى من الشر في تلك الأكثرية الساحقة التي ينتصر الخير فيها دائماً ، ولأنه ينتصر فيها ، فهو سيبعث عندها القوة لسحق كل الشر الموجود في العالم ، وإذا كان قد صور مشاهد بشعة ، وأشخاصاً بشعين ، فليس لمجرد التصوير فحسب ، بل لأنه يبغي من وراء ذلك غاية أسمى لا ريب أنها القضاء على الأسباب التي تجعل بعض الناس وبعض المشاهد على تلك البشاعة .

وقليل هم أولئك الأدباء الذين يجارونه في وصفه للطبيعة ، أو للحوادث اليومية بين الناس ، أو للنماذج البشرية . وإن المرء ليتصور ، عند ما يقرؤه ، أنه يرى صورة فوتوغرافية شفافة التقطها يد فنان ماهر ، أبرزت للعين كل ما قد يخفي عن العين عادة ، بحيث يسمح الشفوف فيها برؤية الأعماق إلى جانب السطح الظاهري ، وبحيث تخفي الظلال أخيراً بعض ما يشوه الصورة ويدنسها ، لأن المصور لم يتعمد التلاعب بها والانتقاص منها .

ذلك أن جوركي قد فهم ، على خير وجه ، مهمة الأديب ودور الفنان . ولقد كانت مهمته الخاصة أن يعطي عن الواقع الروسي صورة حقيقية حية تبين لسائر الناس عبث العلاقات الاجتماعية ومخالفتها للعقل والمنطق ، وحقارة اساليب التفكير والشعور المرتبطة بحياة الطبقات المالكة ، وتوقظ الثقة بالقوى الخلاقة ، الراقدة حتى ذلك الوقت أو العاجزة ، التي تكمن في ذات الانسان وتتطلب إطلاق عقالها وتحريرها .

ولهذه الأسباب مجتمعة جاء متشردو جوركي يبثون روح التفاؤل في جو أواخر القرن التاسع عشر المفعم بروح اليأس والتشاؤم والانهيار . إنهم يعلنون عن العاصفة ، هذه التي ستجتاح كل ما عتق وبلي ، والتي ستجدد كل شيء ، روسيا نفسها والانسانية جمعاء . وبذلك يكون قد جسد ، في أسلوب أدبي رائع ، كل المشاعر التي تختلج في أعماق النفس الروسية ، الآتية السنون التالية بأكبر البراهين عن صدقها وحقيقتها . وهذا هو الفن الجديد الذي حمله جوركي إلى الأدب القائم على أن نكتشف في الحاضر بذور المستقبل الكامنة ، وأن نعجل بالتالي في تفتحها وازدهارها ، هذا الفن الذي سيشكل محتوى الأدب الجديد وميزته الرئيسية .

٤

نحن لما نبلغ الواقعية الاشتراكية طبعاً ، ولكن مما لا ريب فيه أننا نسير نحوها بخطاً سريعة . ما هو هذا المذهب الجديد إذن ؟ فلنلاحظ قبل كل شيء أنه ليس « تكنيكاً » أدبياً جديداً ؛ بل هو يقف ، على العكس ، في وجه سائر المذاهب المدعية إرجاع الفن إلى مجرد تكنيك فقط ، هذه التي يشملها النقد السوفييتي الحديث تحت إسم « المذهب الشكلي » . وهذا لا يعني أنه يقف من الشكل موقف اللامبالاة . ولكنه يرى فقط أن ذلك الشكل لا يمكن أن يكون غاية في حد ذاته ، بل هو سبيل إلى إيضاح الفكر ليس غير ، وإلى جعلها أكثر تأثيراً ، وأقرب منالاً ، وأجمل عرضاً في الوقت ذاته .

إذن فالواقعية أولاً ، وجوركي يصر كل الاصرار على هذه الناحية ، لأن المذهب الجديد ، مثله في ذلك مثل الواقعية الكلاسيكية التي يرث عنها ، نقدي في المحل الأول . إنه يحلل الواقع ، ويكشف اللثام عما يلحق بالنفس البشرية من تشويه في المجتمع الرأسمالي ، هذا التشويه الذي لما تبرأ منه تماماً ؛ حتى بعد الانتقال إلى مرحلة الاشتراكية . والكاتب نفسه ليس منزهاً عن هذه الشوائب ، وهو لا يقيم من نفسه دياناً أعلى عليها ، لكنه عند ما يعمل على كشف القناع عنها في البيئة التي تحيط به ، يحاربها عندئذ في ذات وجدانه إذن ، وفي كلتا الحالين يحفر لها قبرها . وهذه الواقعية لا تنسى أن الناس لا يتبدلون إلا في بطء عظيم ، لا يتبدلون ما لم تتبدل الظروف التي يعيشون في ظلها ، وهم إنما يتبدلون بصورة أبطأ من هذه الظروف على أية حال ، فلا بد لهم إذن ، قبل كل شيء ؛ من تبديل شروط حياتهم ؛ وجعلها ملائمة للتقدم في طريق الخير والحق والجمال . وإن مهمة الأديب تقوم في أن يساعدهم على ذلك ؛ يعني على فهم الأسباب التي تعترض طريقهم ، وعلى النظر في نفوسهم في الوقت ذاته يستجلون فيها الفاسد من الجيد ؛ والطالح من الصالح ؛ فاذا ما ألموا

بأطراف العالمين الخارجي والداخلي ، سعوا إلى الخلاص من الحواجز القائمة في وجوههم ، وبذلك فقط يتحقق التطور والتقدم .

لكن هذا التحليل النقدي وحده لا يكفي . إنه لا يرى إلا الجانب الميت من الأشياء . والواقعية القديمة لم تكن تنظر إلى العالم وتحكم عليه وتدينه إلا على ضوء مبدأ مجرد ، أخلاقي تارة وميتافيزيائي تارة أخرى ، يجابه الكاتب واقعه به ، بوضوح في بعض الأحيان ، وبشاعرية محضة في أحيان أخرى . وإذا آمن الكاتب أحياناً بمبدأ إيجابي ، فهو عاجز عن أن يعطي عن الحقيقة إلا صورة سلبية دائماً . ومن هنا كان التمزق في كتابات الواقعيين ، كبلزاك مثلاً أو فلوبير بصورة خاصة . لا بل إن تلك الواقعية الكلاسيكية كانت تكتفي ، في أغلب الأحيان ، بأن تقدم مجرد وصف للحقيقة القائمة كما هي ، فهو تصوير فوتوغرافي ينقل عن الواقع نسخة طبق الأصل ، لكنها آنية جامدة . أما الواقعية الجديدة فهي بالأحرى تصوير حي ، متحرك ، يظهر البشر في التاريخ ، أي في نشاطهم وفي تطورهم ، في صنعهم ذلك التاريخ الذي يعيشون فيه . ذلك أن القضية ، بالنسبة إلى المذهب الجديد ، ليست مجرد التصوير لبشاعات الحياة ، ولا مجرد الحقد على هذه البشاعات فحسب ، بل قضية وصف الانسان وهو يقضي عليها ، ويبني في الوقت ذاته أسساً جديدة لحياة جديدة . إنها المستقبل في الحاضر ، أو إنها الحقيقة في تطورها الثوري كما يقول فادييف . إنها مزيج من الواقعية ورومانطيكية جديدة ثورية ، إنها واقعية رومانطيكية .

إذن فالرومانطيكية ثانياً ، لأنه إذا لم تكن القضية بالنسبة إلى الأدب الجديد مجرد إخفاء الجوانب السلبية من الحياة وغض النظر عنها ، بل انتقادها ، فان هذا النقد يجب أن يتم بصورة لا تنحط الحياة معها إلى مستوى تلك الجوانب السلبية ، بل بصورة تدعو إلى القضاء عليها وتجاوزها . وهذا هو العنصر الرومانطيكي في المذهب الجديد . لكنه ليس هنا بمجرد أحلام لا تجدي ، يهرب

اليها الكاتب من حقيقه واقعة المؤلمة ، بل هي ههنا تتحلي بميزة جديدة ، ألا وهي ثوريتها ، بحيث لا تبعد المذهب الجديد عن الواقعية ، بل تزيد ، على العكس من ذلك تماماً ، حظ الواقعية الاشتراكية من الواقعية ، كما يقول فاديف أيضاً ، إذ تصبح آفات الماضي ، في ضوء المستقبل ، اكثر جلاء ووضوحاً . إن إنساناً جديداً يولد ويكتسب خصائص جديدة في اتصاله بالحياة ، وفي إيجاده الحلول لما يعترض طريقه من مشاكل أكثر أو أقل تعقيداً ، وهذه الخصائص الجديدة يتوجب على الكاتب أن يراها ويخمنها عندما تكون غامضة أو خفية بعد ، وأن يرفعها حتى درجة الوعي ومنطقة الشعور .

وهكذا يتلاشى ذلك التمزق الذي كثيراً ما أوقع كبار الروائيين الواقعيين فريسة له ، كما يزول التناقض بين الواقعية والرومانطيكية . قديماً كان الفن عاجزاً عن أن يكون إلا واقعياً أو رومانطيكياً في وقت واحد ، أما بعد الآن فان الفكرة لا تنفصل عن الحوادث ، بل تجد لها تعبيراً في منطق الحوادث ذاتها ، والحقيقة التي تحياها لا تقوم في وجه إبداع الخيال أو تعترض سبيله ، بل إن الحياة اليومية ، من زاوية النظر الجديدة ، تتراءى إبداعاً رائعاً في كل من لحظاتها ، تتراءى خلقاً لا ينفصل شعره عن نثره . وبعد الآن ليس من تناقض بين العالمين الخارجي والداخلي ، بل إن البطل يكتشف ذاته في الممارسة ، كما أن الممارسة ترفع النقاب عن البطل الحقيقي . وهكذا لم تعد الحياة عبثاً ، بل نضالاً عنيفاً جباراً في سبيل تحقيق أهداف تاريخية كبرى ، يجد فيه كل من الفكر والقلب والارادة مكانه المعين . إن الرومانطيكية الثورية هي ذلك الاخلاص للمستقبل الذي لم يعد الحلم في ظله هرباً من الواقع ، بل أصبح مبدأ فعالاً ، وشرطاً للابداع والتقدم .

٥

ونستطيع القول ، دون خوف كبير من العثار ، ان هذه هي الميزة الرئيسية لمجمل الأدب الروسي ، « أكثر الآداب إنسانية على الاطلاق » كما يقول ألكسي تولستوي ، وبخاصة أدب القرن التاسع عشر – وهو أروع مراحله – الذي يعتبر الأدب السوفييتي المعاصر الذي بدأه جوركي امتداداً له ووارث أفضل خصائصه.

ذلك أن الأدب الروسي لم يخضع قط لمشاكل الفن من أجل الفن ، كما حدث لأكثر الآداب الأخرى ، حتى في أوج نموها وازدهارها . كان يسعى قبل كل شيء ، كما يقول الكاتب الفرنسي پروسبير ميريميه ، وراء الحقيقة ، أما الجمال فيأتي في المحل الثاني دائماً . والأحرى بنا أن نقول مع نيكراسوف ، الشاعر الروسي الكبير ، إنه كان يجمع الجمال والحق والخير ، في صعيد واحد . كان منبراً يعلم الأدباء الناس منه الاخلاص للمصلحة العامة ، ومرآة تعكس – على خير وجه – كل الاتجاهات التقدمية المتفتحة على مر السنين .

وكذلك فان الأدب الروسي أدب نضالي ، بغيته مقاومة القيصرية وتعسفها وظلمها ، وحكمها المطلق ، والدفاع في الوقت ذاته عن المظلومين ، والمعذبين في الأرض ، وكل من أجحف النظام القائم حقه . تلك هي تقاليده منذ أيام پوشكين ، هذا الشاعر الكبير الذي غنى ثورة الديسمبريين ، تلك المحاولة الجريئة ضد قيصر مستبد متعسف . ومنذ ذلك الحين وسائر شعراء روسيا يتغنون بالحرية ، وسائر كتابها يكتبون عنها . وإن هذه المقاومة لنظام الحكم القائم ، وتلك الروح النضالية التي يتحلى بها الأدب الروسي ، هما اللتان تفسران ازدهاره العظيم ، وخاصة في القرن التاسع عشر ، كما تقول روزا لوكسمبرغ . وكذلك هما توضحان غناه وعمق محتواه ، وكمال شكله وحداثته ، وبصورة خاصة قوته الخلاقة المحيية . وثمة جملة من المفكرين – هرتزن ، بيلنسكي ، تشيرنيشيفسكي ، دوبروليوبوف بيساريف – قد أصلوا مؤلفات الكتاب نار تقدم الحامية ، وبذلك وضعوا مفاهيم طبيعة الفن التي لما يزل الأدب الروسي ينهل من معينها حتى اليوم .

وأخيراً فان الأدب الروسي يتحلى بسمة خاصة لا نجدها في الآداب الأخرى على الاطلاق ؛ تلك هي التفاته باستمرار نحو المستقبل ، قوته النبوئية إن صح التعبير ، وامتلاؤه بتوقع شيء لا يمكن تعيينه بالضبط ، انتظار « كارثة » قريبة لا مفر منها . والحقيقة أن كتاب القرن التاسع عشر كانوا يحسون أن روسيا تقف على « شفا الهاوية » وأنها لا بد متردية فيها ، ولذلك فان مؤلفاتهم تعكس الثورة المضاعفة التي تكتمل ، الاجتماعية والداخلية ، هذه الثورة التي ليست غزارة انتاجهم سوى نتيجة مباشرة لها .

و « الكارثة » لا تعني أبداً الانهيار والانحلال ، بل فترة العذاب والألم التي ستجتازها روسيا عندما تتجدد ، قل إن شئت إنها آلام المخاض والولادة . ولعل جوجول ودستويفسكي يعبران عن هذه الناحية بوضوح أكثر من بقية الكتاب. فعند جوجول أن روسيا « ترواكا » ستنطلق عبر الفضاء خبباً في إعصار هائل ، وستمر من أمام أوروبا المتطلعة إليها بأعين ذاهلة مدهوشة : إن روسيا ستسبق العالم . أما دستويفسكي فعنده أن « الحجر الذي رفضه البناؤون سوف يصبح حجر الزاوية » . وأن الشعب الروسي « حامل الله » سوف يقول يوماً ما « كلمة جديدة الى العالم » . وإن فكرة الشعب الذي « يحمل الله » ، وفكرة كون روسيا « روما ثالثة وأخيرة » بعد روما الأولى والقسطنطينية روما الثانية روما يقع على عاتقها عبء تاريخي عظيم هو إنقاذ العالم ، فكرتان راسختان في نفوس سائر الروسيين على الاطلاق، وأقل ما يقال عنهما إنهما تعبران عن الايمان العميق الراسخ بالشعب الروسي الذي سينهض ويتجدد (كما يدعوه جوجول أن يفعل) ، وبذلك يجدد معه الانسان والانسانية جمعاء .

وجوجول هو الذي وضع الأساس الواقعي للقصة الروسية في رائعته الخالدة « النفوس الميتة » . إنه يصف الأشخاص والبيئات التي يمثلها هؤلاء الأشخاص ، ويشكلون نتاجاً طبيعياً لها . وبذلك يعلن أن الأدب ، والفن عامة ، لا يمكن أن يكونا إلا منحازين بوعي منها أو بدون وعي . إن الأدب مسؤول اجتماعياً، ومن

واجب الأديب أن يجند نفسه للعمل الاجتماعي ، أي لخدمة الشعب بأسره .

وهكذا سعى الأدباء الروسيون،منذ عهدجوجول ، رغم مناهضتهم للمجتمع ونقمتهم على واقعهم القاسي ، ألا يكونوا فرديين في المبدأ بل عملوا على أن يخلقوا فناً عمومياً يتناوله الشعب بأسره . وأن يحققوا رسالتهم الاجتماعية بفضح إجحاف النظام القائم وتعسفه . وتبيان الطريق المؤدية إلى الحقيقه المثلى والعدالة الكاملة اللتين أضحى الأدب يبحث عنها في المحل الأول ، ويبحث عن الوسائل القمينة بتحقيقها . إن أساسه هو العذاب المنبثق من مصير الانسان والشعب الموجع ، من السعي إلى خلاص الانسانية المعذبة .. وهذا يترافق بالضرورة بادراك وهن أسس الحضارة التي يعيش فيها الأديب ، وبالتالي حتمية « كارثة » الكلاسيكيه ذات الحدود الثابتة والقواعد الجامدة ، والحواجز التي لا يحصر عددها . ان هذه الثقافة ، بمفهومها العام ، تشكل درعاً في وجه الفكر يمنع عنه النفحات التي تهب من المستقبل المجهول . أما روح الأدب الروسي فمتجهة نحو المستقبل ، نحو نهاية الأشياء ، ومفتوحة لكل ما سوف يكون .

وتلك هي واقعة الأدب الروسي ورومانطيكيته ايضاً ، واحدتان في الجوهر مع الواقعية الاشتراكية الجديدة ، وإن اختلفتا شكلاً لأن الظروف قد اختلفت والسبل قد اتضحت ، والأهداف قد أصبحت جلية بينة .

٦

هذه الواقعيةالاشتراكية تتفق كل الاتفاق مع العقلية البروليتارية الجديدة ، وبصورة خاصة مع عقلية سيد العالم الجديد ؛ نعني به رجل العمل .وإذا كان دور الأدب أن يكتشف الجديد في الحياة ، وأن يصفه ويبين الامكانيات الكامنة فيه ، فان هذا الجديد اليوم هو الانسان العامل ؛ ودور الطبقة العاملة في تطور المجتمع والتاريخ .

لقد اكتشف جوركي هذا الجديد وهو في نيجني نوفجورود عام ١٩٠٢ ، حيث سنحت له الفرصة لأن يحتك بالمنظمات الاشتراكية المحلية . وعندئذ خطا بأدبه خطوة جديدة الى الأمام ؛ وسرعان ما استبدل بالمتشرد في قصصه ذلك الانسان العامل ؛ اللامتناهي القوى ؛ الواعي لمكانته في الحياة ؛ وقواه وامكانياته التي لا ينضب لها معين ؛ الساعي الى تبديل الواقع الذي يعيش فيه ؛ العارف سبيله إلى ذلك . انه تلك « الترواكا » المنطلقة عبر الفضاء ؛ التي أصبحت تعرف مصيرها حق المعرفة ؛ ومصيرها هو النصر الأكيد ؛ الأمر الذي يبعث التفاؤل في نفوس ركابها ؛ وينحي التشاؤم عنها جانباً .

ولقد أثبت هذا الانسان الجديد قدرته الجبارة في نضال إثر نضال مدى خمسة أعوام من ١٩٠٠ حتى ١٩٠٥ . ثم في ثورة عام ١٩٠٥ التي صهرته في بوتقتها صهراً جديداً ؛ وهي إن فشلت فقد حملت رغم كل شيء برهاناً ساطعاً عن عظمة الامكانيات الغالية مراجلها في قلب الطبقة العاملة ؛ هذه المراجل التي بدأت تنفجر وتنطلق ؛ وترسل مع شرارتها اللامعة بشائر العالم الجديد . فلا عجب إذن إذا تقدم جوركي بفنه ؛ في تلك الفترة بالذات مرحلة جديدة توافق الأحداث الجديدة .

وكانت « الأم » عام ١٩٠٦ .

هذه ليست فصلاً من فصول كفاح شعب في سبيل حريته . ولا صورة عن نضال طبقة عاملة تريد تحت الشمس مكاناً لها ؛ وتطالب في الحياة بحق لها . وهي ليست قصة العمال في كل مكان؛ في كل بقعة من بقاع العالم ؛ هؤلاء الذين أدركوا دورهم التاريخي الأعظم في تحرير المجتمع ؛ أو هم لا يزالون يتحسسونه تحسساً؛ ولعلهم في بعض الأحيان لم يدركوه بعد . وهي ليست قصة الانسانية جمعاء ؛ في صعودها المستمر نحو إنسانية أكثر كمالاً ؛ ونحو حقيقة أكثر عظمة ؛ ونحو عقل أعظم شأناً وحرية . إنها في الحق كل ذلك ؛ وبالاضافة إليه قصة امرأة ؛

قصة « أم » من أفراد الطبقه العامـلة ، « امرأة » قضت جل سني عمرهـا حتى الأربعين أو يزيد في حياة لا معنى لهـا ولا هدف ، قضتها في الظلمة القاتمة كما عبرت هي نفسها عن ذلك ، لا تـكاد تدرك حتى حقيقة إيمانها بالله الذي تعبد حتى يـكون لهـا عقيدة سياسية تدافع عنها ، ومع ذلك فان الفعالية الثورية الخـائض غمارها فتاها ورفاقه المتكتلون حوله قـد اجتذبتها إليها شيئاً فشيئاً ، وجعلت منها بالتدريج مناضلة إنسانية فذة ، وإحدى بطلات العالم الجديد الذي ما برح في دور المخـاض .

وجوركي لم يبدع ذلك أو ينسجه من خيوط مخيلته نسجاً ، بل إن أبطاله في الحقيقة أبطال موضوعيون ، يلتقي المرء بهم في الحياة عند كل خطوة من خطواته. وهو نفسه قد عرف نماذجهم في نيجني نوفجورود في شخصية العامل بيوتر زالاموف وشخصية أمه . وعند ما كتب قصتهم لم يتوخ من ذلك أن يبين الأثر المتعاظم للفكرة العمالية الطليعية في جماهير العمال الواسعة فحسب — ولو فعل ذلك ما كان أكثر من تزيين لعقيدة سياسية ليس غير — بل أراد على العكس ، وههنا تكون جدارته ، أن يلقي ضوءاً ساطعاً على إشعاع هؤلاء الأبطال الاشتراكيين الذين لم تفقرهم الطاعة العمياء لعقيدة مجردة ، بل على العكس أغناهم الايمان بقوى الشعب العميقة الخلاقة ، والاخلاص لقضيته الكبرى ، ومحبـة الانسانية والعدالة حيث يلتقي ، ربمـا المرة الأولى في التاريخ ؛ العقل والقلب والارادة جميعاً على صعيد واحد . إنه يريد أن يبين كيف تستطيع سائر القوى الشعبية أن تنقلب ؛ في هذا النضال المباشر لتحرير الانسان ؛ قوى ثورية عاتية إذا ما بلغت الوعي السياسي الضروري لها ؛ هذا الوعي الذي يشتق أبطال « الأم » منه حقيقتهم التاريخية ؛ وعظمتهم التاريخيـة أيضاً .

ولذلك لا يقوم الكتاب على عقدة محبوكة تنتهي عندما تجد لها حلاً ؛ ولا على مصائر فردية معينة يروي قصتها ؛ بل بالأحرى على تطور العلاقات الطبقية التي

تعكس المصائر الفردية تناقضاتها العميقة ؛ وعلى فعل بنية اجتماعية معينة في طبيعة البشر ؛ وفي أسلوب حياتهم وتفكيرهم وإحساسهم ؛ ولذلك لا تضعف خاتمة الكتاب ؛ الذي انتهى بادانة بافل وأندريه وتوقيف الأم ؛ الايمان بالنصر النهائي الذي ستحرزه القيم الانسانية التي يحملها أولئك الأبطال في نفوسهم ويدافعون عنها. ذلك أن المصير الفردي لكل انسان لم يعد بعد اليوم مستقلاً قائماً بذاته ؛ بل أضحى مرتبطاً كل الارتباط بالحركة الثورية ؛ دوره قائم في تقويتها وتوطيدها ؛ فاذ حقق هذا الدور فقد بلغ الغاية من وجوده؛ مهما كانت خاتمته بعد ذلك . حتى إذا تم ذلك ارتفع نشيد الحياة مغرداً في قلب بشائع الحياة البورجوزاية هذه ؛ وفي أكثر شروط الاستثمار الرأسمالي وحشية وفظاعة: إنه نشيد انسجام الكائنات جميعاً وتوافقها ؛ الكائن الانسان مع الكائن الانسان ؛ ومع كل الكينونة التي يعيش فيها؛ نشيد يدعو إلى تحقيق حياة معقولة سعيدة يكون العمل قلبها النابض؛ ويكون سيدها الانسان الفعال ؛ الطافح خيراً ؛ الملتفت نحو الغد أبداً .

وبذلك يكون جوركي قد حقق؛ للمرة الأولى ؛ في أروع صورة وأكملها ؛ دور الأديب الاجتماعي كما يجب أن يكون . ولا ريب أن «الأم» في حمى النضال الثوري؛ جزء لا يتجزؤ من هذا النضال جاء بعد خيبة ثورة ١٩٠٥؛ حين كانت الموجة الثورية في جزر وانكماش ؛ في وقت بدأ اليأس فيه يدب في قلوب الكثيرين ؛ يبعث الايمان في النفوس من جديد ؛ وينير آفاق المستقبل ؛ ويجند للنضال القوى المبعثرة .

وقد كان لجوركي ما أراد
ولذلك أصبح كتابه خالداً ...

الدكتور فؤاد أيوب

الأم

القسم الأول

١

كانت صفارة المصنع تدوي بعنف ، كل صباح ، في الجو الدبق المثقل على الضاحية العالية ؛ فيخرج ، ملبين صاغرين لندائها المرتجف ، أناس انقبضت وجوههم وتجهمت ، وأنهك التعب عضلاتهم وأجهدها ، ولم ترد عليهم يقظتهم المبكرة ما يحتاجون إليه من راحة وقوة . كانوا ينطلقون من بيوتات صغيرة غبراء اللون أشبه بالخنافس المذعورة ، ويستحثون الخطاء في الفجر البارد المظلم ، عبر الشارع غير المرصوف ميممين شطر جدران العمل الشاهقة التي تنتظرهم في طمأنينة باردة غير عابئة ، مضيئة الطريق الموحل بعشرات من الأعين الزيتية المستديرة . وكان الوحل يتكسر تحت أقدامهم ، والجو يتمزق بشتائم قبيحة ، أو آهات عميقة تطلقها حناجر ناعسة مبحوحة ؛ فيما أصداء أخرى تبلغ آذان هؤلاء القوم ، ألا وهي جعجعة الآلات الثقيلة وضجيجها ، وغليان البخار وصفيره . وكانت المداخن العالية ، القاتمة ، السود ، تشرف على المؤسسة بأسرها كأنها مسلات شامخة تنذر بالويل والثبور .

فإذا ما انقضى النهار وراحت الشمس ، وهي تأوي إلى مضجعها ، تجد لها على زجاج النوافذ انعكاسات متعبة ، تقيأ المصنع أولئك القوم من أحشائه الحجرية وكأنهم فضلات لا حاجة به إليها ؛ فيتبلقون — من جديد — الشوارع

الوسخة ، متعفرة وجوههم ومسودة بالدخان ، متألقة أسنانهم الجائعة ، فائحة من أجسادهم رائحة زيت الآلات اللزجة . ثمة بعض النشاط ، بل ثمة غبطة أيضاً ، يترددان الآن في أصواتهم . لقد انتهى العمل الى يوم آخر ، والعشاء والراحة ينتظران في الدار ...

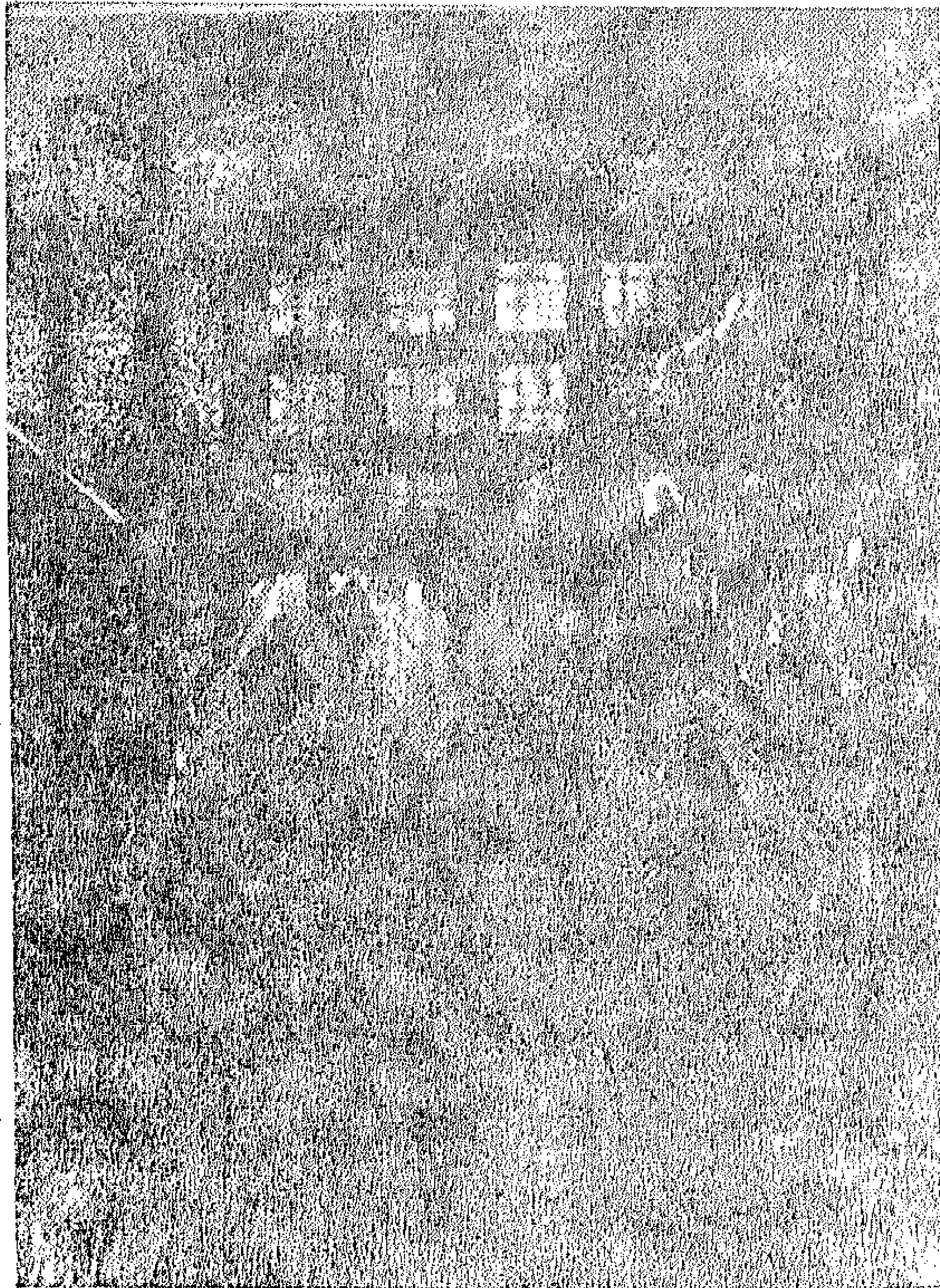
لقد استهلك المعمل النهار بأسره ، وامتصت آلاته من عضلاتهم كل ما تحتاج إليه من قوة . ويمر اليوم هكذا ، دون أن يترك أثراً ، ويتقدم المرء خطوة جديدة في اتجاه لحده . لكنه يتوقع الآن ، بالرغم من ذلك ، بعض الأفراح ، أفراح الراحة في حانة تعج بالدخان والقذارة ؛ وإنه لسعيد بذلك ...

وفي أيام الآحاد ، كان القوم ينامون حتى العاشرة ، ومن ثم يرتدي المتزوجون الوقورون منهم أفضل ثيابهم ، ويغدون إلى الكنيسة ، موجهين اللوم — أثناء ذلك — إلى الشباب لعدم مبالاتهم بأمور الدين والآخرة . فاذا ما انتهت خدمة القداس الالهي ، قفلوا راجعين إلى دورهم ، وأكلوا الفطاير اللذيذة ، ثم استسلموا من جديد للنوم حتى المساء .

إن التعب المتكدس خلال الأيام يفقد الشهية ، فلنيهوها إذن بالشراب ، ولنخرشوا المعدة الكسول بلذع الفودكا الحارق الملتهب بها .

وإذا أتى المساء ، أخذوا يتجولون في الشوارع ... والذين يقتنون جزمة لبسوها ، وإن كانت الأرض جافة ؛ والذين يملكون مظلة حملوها ، وإن كان الطقس جميلاً لا ينذر بالمطر .

وإذا ما تلاقى الأصحاب دار الحديث بينهم حول المصنع والآلات ، أو تناقلوا الشكوى ضد رؤسائهم وتعسفهم ، فهم لا يفكرون أو يتكلمون إلا في الأمور المتعلقة بعملهم . وفيما ندر ، كانت ومضات من الافكار الجزيئة المتلثمة تخترق أجواء أيامهم الرتيبة المملة حتى إذا عادوا إلى بيوتهم ليلاً أخذ



ويستحثون الخطا في الفجر البارد المظلم ...

االرجال يتخاصمون مع زوجاتهم ، أو يضربوهن في غالب الأحيان ، دون أن يأبهوا لما يلحق أكفهم من الأذى. أما الفتيان فيترددون على الحانة ، أو يحيون الحفلات في المنازل حيث يعزفون على الأكورديون ، وينشدون أغاني بشمة مرذولة وهم يرقصون ، ويتبادلون السباب ، ويعبون الخمرة دون حساب. وسرعان ما كانت الفودكا تتسرب إلى رؤوسهم ، هم الذين أضناهم التعب وأرهقهم ، فيتقد في صدورهم هيجان مريض عصيّ على الادراك يسعى وراء منفذ له ، فيتمسكون بأتفه الأسباب كي يطلقوا العنان لمشاعرهم ، مزمجرين في وجوه بعضهم بعض بوحشية حيوانية تنتهي دائماً باصطدامات دامية ، كثيراً ما ينتج عنها اضرار بالغة. ومنها القتل في بعض الأحايين ...

كان إحساس بالحقد الدفين يسيطر على علاقاتهم الانسانية ؛ وكان ذلك الاحساس قديماً قدم ذلك التعب الذي لا شفاء له في عضلاتهم. إنهم يولدون ، وذلك المرض الروحي فيهم ، يرثونه عن آبائهم ، فيرافقهم كشبح مظلم طوال حياتهم حتى القبر ، يدفعهم دون انقطاع إلى ارتكاب أفعال تثير وحشيتها المدعة المفى الاشمئزاز والنقمة جميعاً.

وكان الفتيان ــ في أيام الأعياد ــ يؤمون منازلهم في ساعة متأخرة من الليل ، متمزقة ثيابهم متلطخة بالأقذار والأوحال ، مظلمة عيونهم ، دامية أنوفهم ، وهم يتبجحون أحياناً ، في اعتزاز فارغ ، بما كالوا لرفاقهم من لكمات ، أو يكشرون عن أنيابهم ، في أحيان أخرى ، غاضبين أو باكين لما نالوا من إهانات ، وما لحق بهم من أذى ، سكارى ، بائسين ، مدعاة للشفقة ومثاراً للاشمئزاز. وكثيراً ما كان الآباء والأمهات يعودون بأبنائهم إلى الدار ، وهم يلعنونهم بفظاظة وبذاءة ، من حيث وجدوهم يتمرغون في ظل أحد الأسوار ، أو على أرض إحدى الحانات في حالة من الغيبوبة الثملة ، فيرفقون بأجسادهم المترهلة ويوسدونهم الفراش في كثير أو قليل من العناية ، كي يوقظوهم في الصباح

عندما تصرخ صفارة المعمل الصاخبة ، فيأتي دويها هادراً في تيار مظلم خلال نور الفجر المنبثق .

كانوا يشتمون أبناءهم ويضربونهم باستمرار ، لكن قتال الفتيان وعربدتهم الدائمة كانا مقبولين لديهم كأمر لا مفر منه ولا مهرب . لقد كان الآباء أيام كانوا شباباً ، يتقاتلون أيضاً ويعاقرون الخمرة ، ويتلقون كذلك اللكمات من آبائهم وأمهاتهم ... هكذا كانت الحياة دائماً ، يجري تيارها الموحل ببطء واستمرار ، مشدوداً إلى درب لا تتبدل من عادات للتفكير والسلوك قديمة قدم الزمان . وإن الرغبة في إدخال أي تغيير على كل ذلك لم تساور يوماً أحداً منهم على الاطلاق .

وفي بعض الأحيان ، كان يأتي المعمل أناس غرباء يستدعون الانتباه للوهلة الأولى بسبب حداثة قدومهم . وكان الاهتمام الضئيل الذي يحيونه يعيش مدة من الزمن مدعوماً بما يروون من أقاصيص عن الأماكن التي جاؤوا منها وعملوا فيها . إنما ، سرعان ما كانت البدعة تمضي ، ويعتاد الناس عليهم ، ويكفون عن الشعور بوجودهم . وكان يتضح ، مما يروي هؤلاء القادمون حديثاً ، أن حياة الشعب العامل واحدة في كل مكان . وإن كان الأمر كذلك ، فماذا بقي لهم كي يتحدثوا عنه ؟

وكان بعض هؤلاء المهاجرين يتحدثون أحياناً عن أمور غريبة لم يسمع بها من قبل في ذلك المكان ، فلا يناقشهم أحد ، بل يصيخ الجميع إليهم في شيء من الانكار والارتياب . وكان الحديث يثير في البعض حقداً أعمى ، وفي آخرين ذعراً غامضاً وقلقاً مبهماً ، وفي فريق ثالث خيالاً شاحباً من الأمل يعكر صفوهم ، ويقودهم إلى الاستزادة من الخمرة بغية طرد تلك الأفكار غير المرغوب فيها ، التي تجعل الحياة أصعب وأشد عسراً .

وكان العمال ، إذ لاحظوا في شخص ما أمراً شاذاً غير عادي ، أخذوه

عليه ، وراحوا يراقبونه بيقظة وحذر ، وكأنهم يخافون أن يشوش الانتظام الممل لتلك الحيوانات التي هي - وإن كانت عسيرة شاقة - هادئة غير مضطربة على الأقل . لقد اعتادوا أن يشعروا بثقل الحياة متساوياً في سائر الأوقات ، وأصبحوا يرون في كل تبديل ، بعد أن يئسوا من التخفيف عنهم ، وسيلة قمينة بمضاعفة بؤسهم وشقائهم والاستزادة منها ،

كان العمال يتوارون ، في سكون ، عن أولئك الذين ينطقون بآراء جديدة ويتجنبون طريقهم . وهكذا اختفى القادمون الجدد ساعين وراء أماكن أخرى . وفي الحالات النادرة حيث يؤثرون البقاء في المعمل ، كانوا يصبحون مثل أقرانهم ، أو يعيشون حياة انعزالية منفردة ،

وبعد خمسين عاماً من مثل هذه الحياة ، كان المرء يموت ...

٢

هكذا كان يعيش ميخائيل فلاسوف، وهو ميكانيكي غزير الشعر، ذو عينين صغيرتين تلمعان بحذر وارتياب ولؤم وضيع تحت حاجبيه الكثين، كان أحسن ميكانيكيي المصنع وأقوى رجال الضاحية، لكن كثير الفظاظة مع رؤسائه بحيث لم يكسب من المال إلا النزر اليسير. وكان ينال بالسوء بعض الناس، في كل يوم أحد، حتى أبغضه الجميع وخافوه. ولقد باءت سائر المحاولات للتعويض عليه من نوع عملته بالفشل الذريع؛ فقد كان يلتقط حجراً، أو هراوة، أو قضيباً من الحديد كلما لاحظ أن بعض الناس ينوون مهاجمته، ويغرس قدميه متباعدتين في الارض، ويروح ينتظر العدو في هدوء وسكينة. وكان منظر ساعديه المكسوين بالشعر، ووجهه المفعم أبداً بالتحدي والاستفزاز، النامية عليه - منذ العينين حتى العنق - لحية سوداء كثة. يكفي ليلقي الرعب في قلب أشجع الناس وأشدهم إقداماً، وكان الجميع يخشون، بصورة خاصة، عينيه الصغيرتين القاسيتين اللتين يخيل للناظر إليهما أنهما تخترقان كل شيء كحربتين من الفولاذ، واللتين يحس كل من يشخص إليهما أنه في حضرة قوة متوحشة متحفزة أبداً للضرب دون أثر من خوف أو رحمة. كان يصيح في أعدائه بصوت أجش، وأسنانه الصفر تلمع من خلال لحيته:

- هنا اغربوا عن وجهي، يا أبناء الكلبة!

فيولي هؤلاء الأدبار، مزمجرين بالمديد من الشتائم الجبانة في تقهقرهم.

ويهتف فلاسوف في إثرهم ، وعيناه محتدتان كمخرزين مدببين !

ـ يا ابناء الكلبة :

ثم يتبعهم شامخ الأنف ، وهو يهتف متحدياً :

ـ حسناً ، من يرغب في الموت ؟

لكن أحداً لم يرغب في ذلك ...

كان يتكلم قليلا ، وكلمتا « ابن الكلبة » أكثر ما يتردد على لسانه من أقوال ، ينعت بها رجال الشرطة ، ورؤساءه ، وأقرانه في المصنع ، أما زوجته فلا يدعوها إلا « بالكلبة » فيقول لها مثلاً :

ـ أنظري هنا أفلا ترين أن سراويلي ممزقة ، أيتها الكلبة ؟

وذات مرة ، عندما كان ابنه بافل في الرابعة عشرة من عمره ، أراد أن يمسك به من شعره ، ولكن الفتى التقط هراوة ثقيلة ، وقال باقتضاب وفظاظة :

ـ لا تمسني !

فسأل الأب ، متقدماً من ابنه الطويل النحيل ، مثل خيال يقترب من شجرة فارعة :

ـ ما هذا ؟

فقال الفتى بهدوء . رافعاً الهراوة في يده :

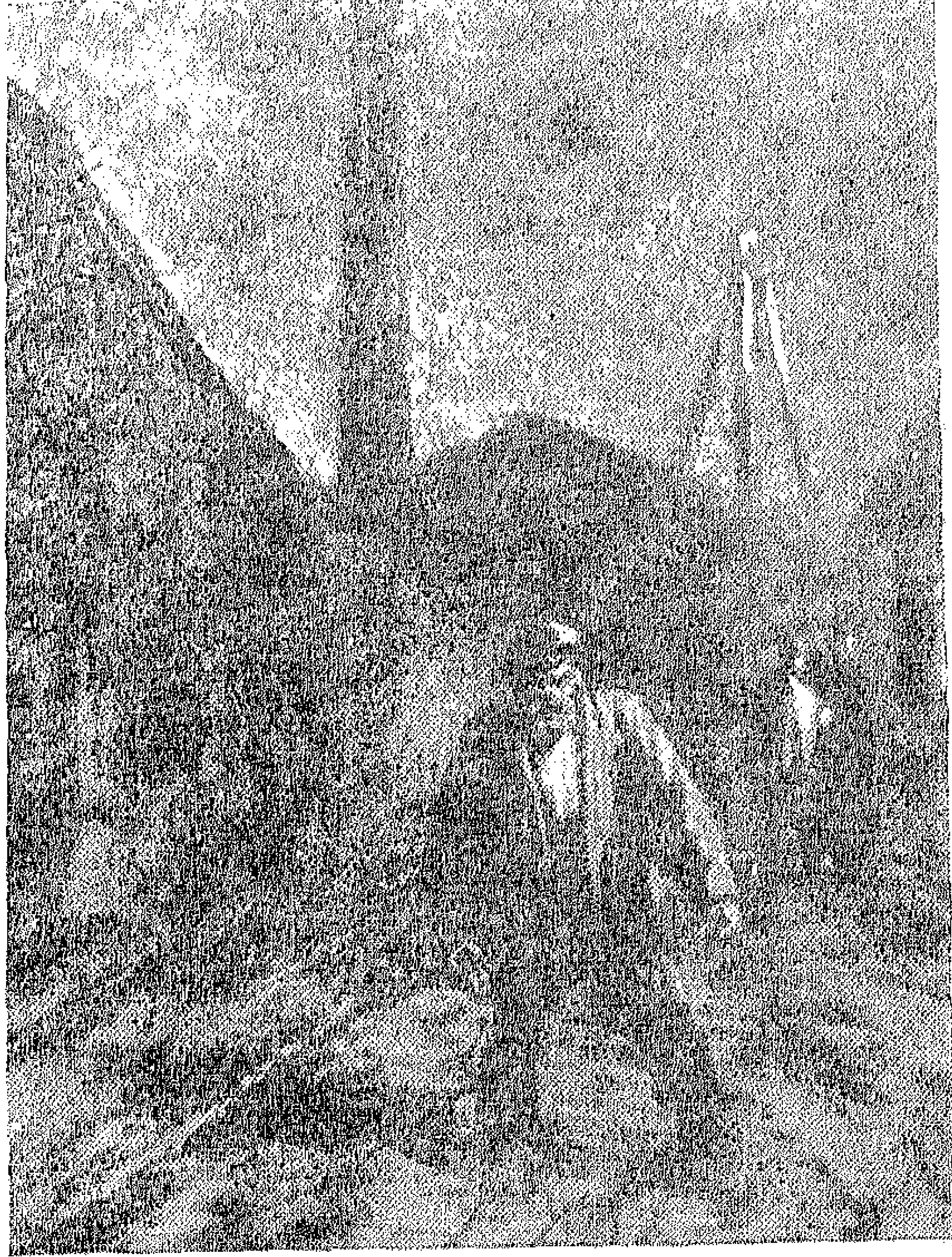
ـ لقد اكتفيت ، ولم أعد أطيق مزيداً !

فنظر اليه الأب برهة ، ثم أخفى يده الكثة الشعر وراء ظهره ، قائلاً في ضحكة قصيرة :

ـ حسناً !

وأضاف ، بعد أن صعد بزفرة حرّى :

ـ إنك ابن كلبة على أية حال .



ويهتف فلاسوف في إثرهم : « يا أبناء الكلبة »

وبعد فترة قصيرة من ذلك الحادث قال لامرأته :

ـ لا تسأليني مالاً بعد اليوم . أن بافل سيقوم بأودك من الآن فصاعداً .

فوجدت المرأة الجرأة على الجواب بقولها :

ـ وأنت ستسكر بكل أجورك ، على ما أظن ؟

ـ هذا ليس من شأنك ، أيتها الكلبة . سأتخذ خليلة إن رغبت في ذلك .

ولم يتخذ خليلة . لكنه تجاهل منذ ذلك الحين حتى وفاته بعد سنتين تقريباً ، وجود ابنه ولم يكلمه قط .

كان علك كلباً يماثله ضخامة وكثافة شعر ، يتبعه الى المعمل كل صباح ، ثم ينتظره عند البوابة مساء كل يوم . وكان فلاسوف يقضي أيام العطل متنقلاً من حانة الى حانة ، دون أن ينبس ببنت شفة مكتفياً بتفحص وجوه الناس وكأنه يفتش عن شخص ما ، وكلبه يجر ذيله الغليظ وراء سيده النهار بطوله ، حتى اذا عاد فلاسوف ثملاً إلى البيت ، وجلس للعشاء ، أطعمه من ذات الصحن الذي يأكل منه . ولم يكن يلعنه أبداً أو يناله بالضرب ، ولكنه لم يكن ليذلله أيضاً . إذا انتهى من العشاء ، كان يلقي بالأواني أرضاً إن تأخرت زوجه عن رفعها ، ثم نضع زجاجة من الفودكا أمامه ، ويستند بظهره إلى الجدار ، ويغمض عينيه ، ويفتح فمه ، ويعول بأغنية ما بصوت يرسل في بدن المستمع قشعريرة باردة ، وكانت الأصداء البشعة الكئيبة تتداخل في شاربيه ، وتدفع منها ما علق بها من فتات الخبز ، فيمسح الميكانيكي لحيته وشاربيه بأصابعه الثخينة ، ويتابع الغناء دون تواني أو كسل ، كانت كلمات أغنيته غامضة غير مفهومة ، أما اللحن فيذكر بعواء الذئاب في زمهرير الشتاء . وكان يغني ما دام في الزجاجة شيء من الفودكا ، فاذا فرغت استلقى على الدكة ، أو ألقى برأسه على المنضدة ، ونام حتى تدوي الصفارة . وكان كلبه ينام إلى جانبه ...

ومات بنزيف داخلي . ظل خمسة أيام يتململ في فراشه وقد اسود وجهه ، وانغلقت عينـاه ، وانطبقت أسنانه ، وبين الفينة والفينة ، كان يصيح بامرأته :

ـ أعطيني بعض الزرنيخ . سميني .

ووصف له الطبيب لزقة من خردل ، وأضـاف أنه لا بد من إجراء عملية لميخائيل ونقله إلى المستشفى في ذلك اليوم بالذات . فلهث ميخائيل :

ـ إذهب إلى الشيطان ! فسأموت بدون مساعدتك ، يا ابن الكلبة !

وعندما ذهب الطبيب ، وراحت الزوجة ترجوه ، وهي تزرف الدمع الثخين ، أن يقبل باجراء تلك العملية ، هز قبضته في وجهها وقال :

ـ إذا شفيت فلن تزداد حالك إلا سوءاً على سوء ...

ومات في الصباح ... في ذات اللحظة التي دوت فيها الصفارة . ورقد في نعشه فاغر الفم ، مقطب الحاجبين استياء . قبره امرأته ، وابنه ، وكلبه ، ودانيللو فيزوفشيكوف (وهو لص قديم وسكير عربيد طرد من المصنع)، وبعض المستعطين ... وبكت امرأته قليلاً ، وبهدوء كثير ، أما بافل فلم يذرف الدمع أبداً ... وكان الناس المارة الجنازة بهم يقفون ، ويرسمون إشارة الصليب ويقولون :

ـ يجب أن تكون بيلاجيا سعيدة جداً لموته !

وأضاف بعضهم :

ـ لقد مات كلباً مثلما عاش !

وعاد القوم ، بعد أن واروا النعش التراب . أما الكلب فظل مضطجعاً على الأرض الرطبة يشم القبر في سكينة وهدوء . وبعد بضعة أيام وجدوه مقتولاً ...

٣

رجع بافل فلاسوف إلى البيت شديد السكر ، ذات أحد عقيب موت أبيه بأسبوعين ، ودلف إلى البيت مترنحـا ، وتجمع في مقعد عند رأس الطـاولة ، وراح يضرب عوارضها الخشبية بقبضة يده كما اعتاد أبوه أن يفعل صائحاً بأمه :

ـ العشـاء !

جلست الأم بجانبه ، ولفت ذراعيها حول عنقه ، ثم جذبت رأسه إلى صدرها . لكنه أبعدها عنه صائحاً :

ـ هيا ، يا أمي ! عجلي !

فرددت الأم في حزن وعطف ، متخلصة من قبضة يده :

ـ أيها الولد المجنون !

فتمتم بافل متلعثماً ، وهو يحرك لسانه الخشن بصعوبة فائقة :

ـ وإني عازم على التدخين أيضاً ! هاتي غليون أبي .

تلك كانت أول مرة يقرب الخمرة فيها . وقد أنهكته الفودكا بمفعولها ، لكنها لم تذهب بوعيه تماماً ، فراح هذا السؤال يدوي في رأسه دون انقطـاع :

ـ أأنا سكران ؟ أأنا سكران ؟

شعر بالضيق تجاه حنان أمه وعطفها ، وتأثر بمظاهر الكآبة والحزن في عينيها . وأحس رغبة في البكاء . إنما راح يتظاهر ، كيما يتغلب على هذا الشعور ، بأنه أشد سكراً مما هو عليه حقيقة .

وداعبت الأم شعرها المشتبك الرطب ، قائلة بلطف ورقة :

ـ ما كان يجب أن تفعل هذا ...

بدأ يحس بالغثيان والقرف ... وبعد نوبة شديدة من الأقياء حملته الأم الى فراشه ، ووضعت منشفة مبلولة على جبينه الشاحب . رد هـذا عليه بعض رشده ، لكن الأشياء ظلت تسبح فيما حوله وتدور ، كما بقيت أجفانه ثقيلة حتى ليعجز عن رفعها . وشخص من خلال أهدابه ، وذلك الطعم الكريه يملؤ فمه ، إلى وجه أمه المريض ، مفكراً :

يبدو أنني لا أزال صغيراً جداً . فالآخرون يشربون ولا يصيبهم شيء ، أما أنا فقد أصبحت مريضاً ...

وأتاه صوت أمه الحنون من مكان سحيق جداً :

ـ وكيف تستطيع إعالتي إذا ما طفقت تدمن بنت الكرم ؟

فأجاب ، مغلقاً عينيه بشدة :

ـ الجميع يشربون ...

فتنهدت الأم ... إنه على حق ... فهي نفسها تعرف أن الحانة هي المكان الوحيد الذي يجد الناس فيه قطرات من السعادة .

وقالت مع ذلك :

ـ لكن لا تعتد أنت على الشرب . لقد شرب أبوك عنه وعنك وما يزيد أيضاً ... أفلا يكفيني ما لقيت من شقاء على يديه ؟ أفلا ترحم أمك قليلا ؟

تذكر بافل ، وهو يصغي إلى هذه الكلمات الحزينة الناعمة ، أنه لم يكن يشعر بوجود أمه في الدار تقريباً أثناء حياة أبيه ، فهي تحيا في سكون وخوف

دائم من الضرب والصفع . ولقد ظل ، هو الآخر ، بعيداً عن الدار ما استطاع إلى ذلك سبيلاً تجنباً لملاقاة أبيه . فشب بعيداً عن أمه غير مؤتلف لها ، أما الآن ، فقد راح يشخص إليها بشدة وثبات ، وهو يصحو من سكره شيئاً فشيئاً ..

كانت طويلة القامة ، على شيء من الانحناء إلى الأمام ؛ يتحرك جسدها ، الذي حطمه العمل المرهق وضرب زوجها المستمر ، دون ضجة ، مائلاً قليلاً إلى أحد الجانبين وكأنها تخاف أبداً أن ترتطم بشيء ما . وكان وجهها العريض البيضوي الشكل الذي جعدته السنون وحفرت فيه غضوناً كثيرة عميقة يتوضأ بعينين سوداوين يطفح منها الذعر والكآبة جميعاً ، مثلها مثل معظم عيون النساء في الضاحية . وكان يعلو حاجبها الأيمن ندبة عميقة تجر الجفن الى العالي ، موحية بأن أذنها اليمنى ترتفع أيضاً عن مستوى الأذن اليسرى ، فيضفي ذلك على وجهها سيماء من يصيخ السمع دائماً ، خائفاً مرتعد الفرائص ، إلى جلبة بعيدة سيئة المآل .. وكانت خيوط من البياض تلمع في شعرها الأسود الكثيف . لقد كانت بكليتها ، رقة وكآبة وإذعاناً ...

انحدرت دموع بطيئة على خدها ، فقال ابنها بهدوء :

ـ مهلاً ، لا تبكي ! اعطيني لأشرب .

سآتيك بعض الماء المثلج

لكنها وجدته ، إذ عادت ، يغط في النوم ، فوقفت طويلاً تترنى إليه ، يرتعض القدح في يدها فيقرع الثلج فيه جدرانه المعدنية . وأخيراً وضعت القدح على المائدة ، وسقطت بهدوء جاثية على ركبتيها أمام الايقونات . كانت أصداء الحياة الثملة في الخارج تصطدم بجدران النافذة ، وأكورديون يزعق في ذكنة مساء الخريف ورطوبته ، وشخص ما يغني بصوت عالي النبرة أجش الجرس ، وشخص آخر يتشدق بسلسلة من

الشتائم القبيحة . وأصوات بعض النسوة تعكر سجو الليل ، منهوكة هائجة . . .

وأخذت الحياة تجري ، في دار آل فلاسوف الصغيرة ، في هدوء وسكينة أكثر من ذي قبل ، تختلف نوعاً ما عنها في البيوت الأخرى . كانت دارهم تقوم على حافة الضاحية فتشرف على منحدر - إن لم يكن على جوف مرتفع - يقود إلى المستنقعات الموحلة . وكان ثلث الدار يتألف من المطبخ وغرفة صغيرة ملحقة به ، أما الثلثان الباقيان فغرفة مربعة واسعة ذات نافذتين ، يحتل سرير بافل إحدى زواياها ، ويحتل الزاوية الأخرى مائدة ودكتان . وكان بقية الأثاث يتألف من بعض المقاعد ، ومغسلة تعلوها مرآة صغيرة ، ومن صندوق يحوي ثيابها ، وساعة تثبت في الحائط وأيقونتين قائمتين في زاوية ثالثة من الغرفة .

فعل بافل كل ما ينتظر أن يفعل شاب مثله ، فابتاع لنفسه أكورديوناً ، وقميصاً ذا ياقة منشاة ، وربطة عنق زاهية الألوان ، وجزمة ، وعصا ، فأصبح بذلك مثله مثل سائر أقرانه على حد سواء . وكان يذهب مساءً إلى الحفلات ، ويتعلم كيف يرقص البولكا والكادريل ، ويعود في عشيات الآحاد إلى البيت ثملاً ، متألماً أبداً من تأثير الفودكا . وكان يفيق صباح الأثنين ، وفي رأسه صداع ، وفي قلبه حرقة ، وفي وجهه شحوب وعلائم البؤس والألم .

سألته أمه ذات مرة :

- هل قضيت وقتاً طيباً مساء البارحة ؟

فأجاب بامتعاض وانفعال مكتوم :

- الضجر . . الضجر ! . الجميع يتحركون بجمود كالآلات . يفضل أن أخرج لصيد السمك ، أو لعلي أبتاع بندقية أصطاد الطيور بها .

كان يعمل بأمانة وغيرة ، فلا يرتكب أبداً ما يستحق اللوم عليه . وكان ساكتاً على الدوام ، يطفح الاكتئاب من عينيه الزرقاوين الواسعتين، مثله في ذلك مثل أمه ، ولم يشتر بندقية أو يخرج للصيد ، لكن ما أسرع أن اتضح أنه يحيد عن الدرب التي يسلكها الجميع دونما تفريق ، إذ أصبح اشتراكه في الحفلات قليلاً ، كما أنه يعود الى المنزل صاحياً أيام الآحاد ، بالرغم من تعبه . واستطاعت عين الأم الحادة الثاقبة أن تلاحظ تحولاً متزايداً في وجه ابنها الأسمر النحاسي ، وجداً متعاظماً في عينيه ، وانضماماً في شفتيه يجعلها منطبقتين بشدة في خط قاس يضم الكثير من الحزم والصرامة . كان يخيل اليها أنه يضم في جنباته حزناً يرعاه ، أو أن علة ما تمتص عافيته . وكثيراً ما كان أصحابه يأتون لزيارته فيما سبق ؛ أما الآن ، حين أمسوا لا يلقونه في الدار إلا في الندرى ، فقد انقطعوا عن المجيء اليه . واغتبطت أمه - حين رأته يختلف عن سائر الشباب في المعمل - وإن لم تستطع أن تخفي القلق والخشية لدى شعورها بأنه يوجه طريق حياته ، في كثير من العزم والعناد ، بعيداً عن تيار الحياة المظلمة التي تحدق به .

كانت تسأله من حين لآخر :

- أواثق أنت ، يا باشا ، من سلامة صحتك ؟

فيجيب :

- إنني لعلى أحسن حال !

فتتأوه وتقول :

- ما أشد هزالك !

وبدأ يجلب كتباً إلى الدار ... كان يقرؤها خفية ويخبئها عندما ينتهي منها في حرز أمين . وفي بعض الأحيان ، كان ينسخ شيئاً من أحد

تلك الكتب ثم يخفي الورقة . . . كانا يتكلمان قليلاً ، ولا يلتقيان إلا في فترات قصيرة جداً ؛ فهو يحتسي شايه في الصباح صامتاً ، ثم يغادر المنزل إلى عمله ... وعند الظهيرة يجيء لتناول الغداء ، فيتبادل وإياها — أثناء الطعام — بعض الملاحظات العابرة ، ومن ثم يختفي من جديد حتى المساء ... فاذا عاد بعد انتهاء العمل اغتسل وتناول عشاؤه ، ثم قصد يقرؤ مدة طويلة . وذات يوم أحد ، غادر البيت منذ الصباح الباكر ولم يعد إلا في ساعة متأخرة من الليل . وعرفت أنه يقصد المدينة أحياناً حيث يشهد المسرح من وقت لآخر . لكن أحداً من المدينة لم يأت لزيارته قط . وكان يبدو لها أن كلام إبنها يتناقص باستمرار على مر الأيام . بيد أنها لاحظت في حديثه كلمات جديدة لا تفهمها ، فيما تلك التعابير القاسية الفظة التي كان يستعملها قبلاً تتوارى شيئاً فشيئاً من أحاديثه . واسترعى انتباهها كثير من التفاصيل الجديدة في سلوكه ، فهو لا يتحذلق الآن في تأنقه ، بل يزيد من العناية فقط بنظافة جسده وثيابه . وقد صارت حركاته أكثر حرية واتزاناً ، وتصرفاته أكثر بساطة وأقل شراسة . ومع ذلك . انشغل بالها وقلق لهذه التبدلات التي لم تجد لها تعليلاً — لا بل إن عناصر جديدة ظهرت في علاقاته معها ، فهو ينظف أرض الغرفة أحياناً ، ويرتب سريره في أيام الاحاد دائماً ، ويسعى بصورة عامة إلى معاونتها في عملها . . . إن أحداً من الرجال الآخرين في الضاحية لم يفعل ذلك قط .

وفي ذات يوم ، حمل معه إلى البيت صورة وعلقها في الحائط . كانت هذه الصورة تمثل ثلاثة أشخاص غارقين في نقاش عميق ، وهم يخثون الخطا — بخفة ولهفة — على طول الطريق .

قال بافل يشرح لها معنى الصورة :

– إنه المسيح القائم من بين الأموات في طريقه إلى قرية عمواس .
أعجبت أمه بالصورة ، لكنها قالت في نفسها :

– لماذا لا تذهب إذن إلى الكنيسة ما دمت مغرماً بالمسيح حتى هذا الحد ؟

وتضاعف عدد الكتب على الرفوف الجذابة التي صنعها نجار من أصدقاء بافل. وبدأت الغرفة تأخذ مظهراً جميلاً لطيفاً . كان يدعوها أمي عادة ، لكنه شرع يخاطبها باحترام أكثر ، ويستعمل صيغة الجمع في حديثه معها . ومن حين لآخر ، كان يتوجه إليها بكثير من الحنان والرأفة قائلاً :

– لا تقلقي من أجلي ، يا أماه ، فلربما تأخرت في العودة هذا المساء !

وكانت تحب ذلك ، وتشعر بوجود شيء رزين قوي في هذه الكلمات .

لكن قلقها نما وتضاعف ؛ وبالرغم من أنها لم تعد تدري له سبباً ، فقد ازداد قلبها ثقلاً يوماً بعد يوم ، وهي تشعر – بغموض – أن ثمة شيئاً غير عادي وراء تلك الأمور . لا بل إنها كانت تستاء من ولدها في بعض الأحيان ، وعندئذ تأخذ في التفكير :

– إن الناس يتصرفون كما يجب أن يتصرفوا ، أما هو فمثله مثل الرهبان ، جدي أبداً ورزين دائماً . ذلك لا يلائم سنه .

ثم تعود فتقول في نفسها :

– لربما علق بفتاة ما في مكان آخر !

لكن صحبة الغواني تتطلب مالاً ، وهو ينقدها كامل أجوره تقريباً ...

ومرت الأسابيع والشهور على هذا المنوال، حتى انصرم عامان من هذه الحياة الصامتة الغريبة الملأى بالأفكار الغامضة ، الطافحة بالمخاوف المتزايدة أبداً .،.

٤

في ذات مساء ، بعد العشاء ، أسدل بافل ستائر النافذة وعلق المصباح القصديري في الحائط فوق رأسه، ثم جلس في إحدى الزوايا مستغرقاً في القراءة فخرجت أمه من المطبخ حيث كانت تغسل الصحون ، ثم اتجهت نحوه ببطء وتمهل . رفع رأسه وأمعن النظر فيها متسائلاً ؟ فتمتمت، وهي تقفل راجعة بسرعة إلى المطبخ ، وجفناها يرفان في اضطراب وعصبية :

ـ لا شيء ، يا باشا ، لا شيء على الاطلاق .

لكنها غسلت يديها، بعد نضال قصير مع أفكارها ، واقتربت مرة أخرى من لكنها ، وقالت بسكينة :

ـ كنت أريد أن أسألك عما تقرؤ طوال الوقت .

فأطبق الكتاب وقال لها :

ـ إجلسي ، يا أماه !

فجلست أمه متثاقلة إلى جانبه، وقومت من اعوجاج ظهرها ، ثم تهيأت لسماع أمور فائقة الخطورة .

تكلم بافل ، دون أن ينظر إليها ، بصوت خفيض لم يخل ، لسبب ما ، من القسوة :

ـ إني أقرؤ كتباً ممنوعة . هي ممنوعة لأنها تقول الحقيقة عن

الجماهير العاملة . وهي تطبع في الخفاء ، وإذا وجدوها عندي ألقوا بي في غياهب السجن ، في السجن لأني أريد معرفة الحقيقة . هل تفهمين ؟

وعلى حين غرة ، أحست صعوبة كبرى في التنفس ... فتحت عينين واسعتين، وشرعت تنظر إلى فتاهـا وقد خيل إليها أنه غريب عنها تراه المرة الأولى . كان صوته متبدلاً ، لكن أعمق وأثرى وأشد رنيناً . وكان يفتل شاربه الكث ، ويرنو إلى الزاوية بصورة غريبة من تحت جفنيه المسبلين . ساورها الخوف من أجله ، وأشفقت عليه في الوقت ذاته .

استفسرت :

ـ ولماذا تفعل ذلك ، يا باشا ؟

فرفع رأسه وزوأ النظر فيها ، ثم أجاب في هدوء وطمأنينة :

ـ لأني أريد معرفة الحقيقة !

كان صوته ناعماً لكن ثابتاً ، وكان عزم عنيد يتقد في عينيه ، حدثها قلبها أن ابنها قد نذر نفسه ، حتى الأبد ، لشيء رهيب محوط بالأسرار . كانت تعتبر كل شيء في الحياة أمراً محتوماً لا مفر منه ولا مهرب ، وكانت معتادة الاستسلام دون سؤال أو تذمر ، ولذا استسلمت تبكي الآن في هدوء وبكل بساطة ، دون أن تجد الكلام في قلب يعتصره الألم ، واللهفة ، والغم ...

قال لها بافل بلهجة ناعمة حنون ، هدهد إليها ـــ مع ذلك ـــ أنها كلمات الوداع :

ـ لا تبكي ! فكري فقط في نمط الحياة التي نعيش ! هذه أنت قد سلخت من العمر أربعين عاماً ، فماذا رأيت خلالها ؟ كان والدي يضربك ـ وأنا أدرك الآن أنه كان يخفف بذلك المتاعب عنه ، وينفس كل شقاء الحياة التي كان يعيش ، كان ذلك الشقاء يرهقه إرهاقاً دون أن يدري من أين يأتي . لقد عمل طوال ثلاثين عاماً ، بدأ يعمل يوم لم يكن المصنع بأسره أكثر من



وعلى حين غرة أحست صعوبة كبرى في التنفس . . .

محلين صغيرين ؛ أما الآن فقد أصبح سبعاً من البنايات الضخمة . إن المعامل تنمو ، والشعب يفنى كي يعمّرها .

كانت تصغي إليه بلهفة ، لكن بخوف ايضاً لتلتهب عيناه بنورٍ حبيبٍ إلى النفس ، وهو يستند بصدره إلى المائده وينحني عليها حتى يلامس وجهها المبلل بالدموع ، ويتفوه بأول حديث له عن الحقيقة التي اهتدى إليها أخيراً . كان يتحدث عن الأمور التي أصبحت واضحة بينة بالنسبة إليه بكل قوى فتوته ، وبكل حماسة التلميذ الفخور بمعرفته ، المؤمن كل الايمان بحقيقتها . إنه يتحدث ليجرب نفسه اكثر منه ليقنع والدته ؛ وكان يتوقف أحياناً ، تعوزه الكلمات ، ثم يصبح شاعراً بذلك الوجه المتألم الماثل أمامه بعينيه اللطيفتين البارقتين من خلال غشاءٍ من الدموع ، الناظرتين إليه في ذعر وعجب. أشفق عليها ، فطفق يتحدث من جديد ، لكن عنها وعن حياتها هذه المرة ، فقال :

ـ ما هي الأفراح التي عرفت ؟ ماذا خلّف لك الماضي من ذكريات ؟

أصغت إليه وهزت رأسها بكآبة ، وهي تحس شيئاً جديداً مجهولاً ، شيئاً مفرحاً ومؤلماً في وقت واحد ، يمسح برفق وحنوٍ على قلبها الموجع الأسوان . كانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها إنساناً يتحدث عنها وعن حياتها، بحيث أثارت الكلمات في خاطرها أفكاراً غامضة أبعدتها عنها منذ زمن سحيق ؛ بل أحيت فيها ـ بكل هدوء ـ شعوراً ميتاً بالاستياء من الحياة ، وأفكار الشباب البعيد ومشاعره . في ذلك الحين كانت تتحدث عن الحياه مع أصدقاء صباهـا وفتوتهـا ؛ كانت تتحدث وإياهم عن كل شيء في آخر تحليل . لكن سائر صديقاتها ، وهي معهن ايضاً ، لم يفعلن سوى الشكوى دون السعي وراء ايجاد تعليلٍ لقساوة الحياة التي يعشنها . وهذا ولدها يجلس أمامها الآن فيمس شغاف قلبها كل ما تعبر عنه عيناه ، ووجهه ، وكلماته ؛ فيمتلىء ذلك القلب فخراً بهذا الابن الذي يفهم جيداً حياة أمه والذي يتحدث إليها عن آلامها ويعطف عليها.

لكن الأمهات لم يكن يوماً ليتمتعن بالحنان ، والعطف والشفقة ...

إنها تعرف هذا ، وتعرف أن كل ما قال عن حياة النساء هو الحقيقة المألوفة المرة ؛ ولذلك تحس الأن مشاعر لطيفة تضطرب في صدرها وتدب ، وتدفيء قلبها بعطف غير معهود .

قطعت عليه الحديث متسائلة :

ـ وماذا تنوي أن تفعل ؟

فأجاب :

ـ أن أدرس أولاً ، ثم أعلّم الآخرين . نحن ، العمال ، يجب أن ندرس ، يجب أن نفتش ونفهم أسباب العناء في حياتنا .

كانت سعيدة إذ ترى عينيه الزرقاوين ، وعهدها بهما صارمتين قاسيتين على الدوام ، تمتلآن الآن بنور ناعم ، حلو ، لطيف . تاهت بسمة هادئة على شفتيها ، وإن كانت الدموع لما تزل ترتجف في غضون وجنتيها . كان يتنازعها عاملان : شعور بالفخر بابنها الذي وعى ، بكل ذلك الوضوح ، مرارة الحياة ، وإدراكها أنه ما يزال شاباً ، وأنه يتكلم بصورة تختلف كثيراً عن سائر الآخرين ، وأنه أخذ على عاتقه أن يخوض المعركة وحيداً ضد هذه الحياة المألوفة لدى جميع الناس ، وهي منهم ...

وأرادت أن تقول له :

ـ ماذا تستطيع أن تفعل ، أنت وحدك ، يا حبيبي ؟

لكنها أشفقت أن تتلف إعجابها به ، هو الذي كشف ، بغتة ، عن ذكاء لم تكن تنتظره منه ، وإن يك مشوباً بكثير من غرابة الأطوار . ورأى بافل الابتسامة على شفتي أمه ، والانتباه في وجهها ، والمحبة في عينيها ، فبدا له أنه نجح في إفهامها الحقيقة التي يدافع عنها ويذود ، واعتراه شعور مستجد بالاعتزاز بقوة كلماته رفع من إعانه بنفسه . وانثال يتكلم بحماسة ، يبسم تارة ،

ويعبس تارة أخرى ، وترن كلماته في بعض الأحيان بكثير من الحقد ، فتجفل الأم لدى سماعها هذه الكلمات القاسية الرنانة ، وتهز رأسها إذ تسأله بنعومة :

ـ أحق ما تقول يا باشا ؟

فيجيب بثبات :

ـ نعم ، إنه لكذلك !

ويشرع يحدثها عن أولئك الذين أرادوا مساعدة الشعب ، فزرعوا الحقيقة بين الناس،الأمر الذي لاحقهم من أجله أعداء الحياة كالوحوش المفترسة،وألقوا بهم في ظلمات السجن ، وحكموا عليهم بعبودية الأشغال الشاقة ...

صاح متحمساً :

ـ لقد رأيت مثل هؤلاء الناس ، إنهم ملح الأرض !

وأحفلت ذعراً لدى التفكير بهؤلاء الناس ،وودت مرة أخرى أن تستوضح فتاها : هل الحقيقة ما يقول ؟ ولكنها لم تجرؤ على ذلك . أخذت تصغي ، منقطعة الأنفاس ، إلى أقاصيصه عن أناس لا تفهمهم ، هم الذين علموا ابنها ان يقول تلك الأمور الخطرة ويفكر فيها .

وأخيراً قالت له :

ـ سينبلج الصبح عما قريب ، فهلا أصبت بعض الراحة ؟

فوافق بقوله :

سأذهب إلى الفراش الآن .

ثم انحنى عليها وسأل :

ـ أفهمت ما قلت ؟

فردت ، وهي تتنهد :

ـ نعم !

وتدفقت الدموع من عينيها مرة أخرى ، وصاحت وهي تشهق :

ـ سيؤول ذلك بك إلى الدمار يا بني !

فنهض ، وطفق يتمشى في الغرفة جيئةً وروحة ، ثم قال :

ـ حسناً ، أنت الآن تعلمين ما أفعل ، وإلى أين أذهب . لقد رويت لك كل شيء ، فان كنت تحبينني ، يا أماه ، فلا تعترضي سبيلي .

فهتفت :

ـ أواه يا عزيزي . لربما كان من الأفضل ألا تروي لي شيئاً .

فأمسك بيدها وضغط عليها بحرارة،فغمرها ذلك الاحساس الدافئ الفائضة به كآبة أماه ، المتجلي في ذلك الضغط الغريب غير المعتاد على يدها .

قال بصوت متكسر :

ـ إني لن أفعل ما يسوؤك ، إنما أطلب إليك أن تحترس لنفسك . إحترس جيداً .

ثم أضافت في كآبة ، دون أن تفهم ماهية الخطر الذي يهدد ولدها :

ـ إنك تزداد نحولاً يوماً بعد يوم .

وأحاطت جسده القوي المتين بنظرة تطفح محبة وحناناً ...

ـ فليكن الله معك ، وعش كما تجد مناسباً أن تعيش ! معاذ الله ان أقف في طريقك . بيد أني أسألك شيئاً واحداً فقط : لا تك متهوراً في حديثك مع الناس . ينبغي أن تحمل في نفسك الخوف منهم . إنهم يبغضون بعضهم بعضاً ، ويعيشون جميعاً في الطمع ، والحسد ، والغيرة ، ويبتهجون إذ يلحقون الأذى ببعضهم البعض . فاذا أخذت تكشف عن حقيقتهم وتتهمهم أبغضوك ودمروك .

وقف فتاها في فجوة الباب يستمع إلى كلماتها الموجعة ، ثم تبسم عندما انتهت من حديثها وقال :

ـ إنك لعلى حق ، فالناس أشرار جميعاً ! لكني إذ علمت أن في العالم شيئاً كالعدالة بدوا لي أفضل من ذي قبل .

وابتسم من جديد ثم أضاف :

أنا نفسي لا أعرف كيف حدث ذلك . في طفولتي كنت أخاف من جميع الناس . ثم عندما شببت كنت أكرههم جميعاً ، أبغض البعض لدناءتهم ، والآخرين دون أن أدري لماذا ، هكذا لمجرد البغض . أما الآن ، فكل شيء يبدو لي غير ما كان عليه . لعل السبب في ذلك أني أشفق على الناس . لقد رق قلبي نوعاً ما عندما تحققت أن الناس جميعاً ليسوا بمسؤولين عن حقارتهم ودناءتهم.

وكف عن الكلام ، وكأنه يصغي إلى صوت في داخله . ثم أضاف بهدوء وإمعان نظر :

ـ تلك هي الحقيقة إذن .

فتنهدت أمه وقالت ، وهي تنظر إليه :

ـ أواه ، أيها المسيح المخلص ! أي تبدل خطير قد طرأ عليه !

وعندما استغرق في نومه ، نهضت من فراشها بهدوء وذهبت اليه . كان بافل مستلقياً على ظهره ووجهه الصارم الممتلئ عزماً ينعكس بوضوح على غطاء الوسادة الأبيض . وقفت الأم هناك حافية القدمين ، في ثياب النوم ، ويداها تضغطان على صدرها ، وشفتاها تتحركان دون ضوضاء، ودموع كبيرة تتدحرج ببطء وعلى وجنتيها الذابلتين ...

٥

ومرة ثانية ، عادا إلى حياتها الصموت ، متباعدين متلاصقين في وقت واحد . وذات يوم عطلة في منتصف الأسبوع ، التفت بافل إلى أمه وهو يغادر البيت ، وخاطبها قائلا :

ـ سيزورني ، نهار السبت القادم ، بعض الضيوف من المدينة .

فرددت والدته :

ـ من المدينة ؟

وتملكها فجأة نشيج عنيف دفع بالدموع إلى عينيها ...

سأل بافل متضايقاً :

ـ ما بالك يا أماه ؟

فمسحت عينيها بطرف مئزرها ، وقالت وهي تتنهد :

ـ لست أدري ... لا شيء البتة ...

ـ أخائفة أنت !

فتمتمت موافقة :

ـ نعم ...

فانحنى عليها ، وخاطبها بفظاظة كما تعود أبوه أن يفعل ، قائلا :

ـ هذا الخوف هو دمارنا ، والذين يستثمروننا يستغلون هذا الخوف

ويضاعفون في ذعرنا .

فغمغمت والدته ، والشقاء يرتجف مع ارتجافات صوتها :

ـ لا تغضب ! كيف يمكنني ألا أخاف ؟ لقد قضيت حياتي والخوف يعتصرني . إن روحي قد شبت والخوف معاً .

فقال في لهجة عذبة :

ـ إصفحي عني ، إنما ليس هناك من سبيل آخر .

وذهب . . .

ظلت طوال ثلاثة أيام ترتعد فرقاً ، ويكف قلبها عن الخفقان كلما تذكرت أنْ سيؤم بيتها أولئك القوم الغرباء المخيفون الذين دلوا ابنها على الدرب التي يسير عليها الآن . . .

وعاد بافل مساء السبت من المعمل ، فاغتسل وارتدى ثياباً نظيفة ، ثم خرج بعد أن قال لأمه ، دون أن ينظر إليها :

ـ إن سأل عني أحد ، فقولي إني لن أتأخر عن العودة . ولا تجزعي محبة بالآلهة !

فتراخت في ضعف على دكة قريبة ؛ فاقترح بافل بعد أن اختلس منها نظرة سريعة :

ـ لعلك ترغبين في الذهاب إلى مكان ما ؟

فآلمها كلماته ... وقالت :

ـ كلا ، ليس بي رغبة !

كان ذلك في أواخر تشرين الثاني ، وقد تساقط ثلج ناعم جاف ، طوال النهار ، على الأرض المتجمدة التي أخذت تتكسر تحت أقدام الفتى المنصرف ، فيبلغ صوت فرقعتها سمع الأم المتعذبة . وكان الظلام الشديد يخيم في الخارج ويتعلق بإطارات النوافذ ، وكأنه يتربع منتظراً في تحفز

وعداوة . وبقيت الأم جالسة في مكانها ، تشد بكلتا يديها على الدكة الخشبية ، وعيناها ترقبان الباب ولا تحيدان عنه .

خيل إليها أن أناساً أشراراً ، يرتدون ثياباً غريبة ، يخبون في الظلمة من كل جانب ، وأن خطوات متلصصة تحاصر المنزل ، وأصابع محاذرة تتحسس الجدران ...

وسمعت صوتاً يصفر لحناً شرعت أصداؤه تنساب رقيقة في السكون ، حزينة متناسقة ، تتيه في الظلمة الفارغة وكأنها تسعى وراء شيء ضاع منها . وأخذ الصفير يزداد قرباً ، ثم انقطع بغتة عند النافذة تماماً ، وكأن خشب الحائط قد قد امتصه عن آخره . وتردد عند الباب وقع أقدام مضطربة ... فأجفلت الأم ، وهبت على قدميها واقفة ، وقد ارتفع حاجباها بشدة .

وفتح الباب ، وبدا فيه أولاً رأس تغطيه قبعة عريضة من الجلد ، ومن ثم خطا جسد مديد عبر الباب المنخفض إلى داخل الغرفة ، وانتصب الشخص الدخيل ولوح بذراعه اليمنى تحية ، وقال وهو يتنهد بشدة وضجيج :

ـ عمي مساء !

فانحنت الأم دون أن تحري جواباً ...

ـ هل بافل هنا ؟

وخلع الزائر ببطء سترته المصنوعة من الفرو ، ورفع إحدى رجليه ليمسح بقبعته عن حذائه ما علق به من الثلج ، وكرر العمل نفسه بالرجل الثانية ، ثم ألقى بقبعته في إحدى الزوايا ، وتقدم مترنحاً عبر الغرفة . وبعد أن تفحص بدقة أحد المقاعد ، وكأنه يتأكد من متانته ، جلس أخيراً وتثاءب وهو يستر فمه بإحدى يديه . كان رأسه حسن الصورة ، مستدير الشكل ، ووجهه حليقاً باستثناء شاربه المسترسل إلى المنتهى . طفق

يتفحص الغرفة باعتناء بعينيه الواسعتين الرماديتين الجاحظتين ، ثم سأل وهو يلف ساقاً على ساق ، ويتأرجح إلى الأمام والخلف في مقعده :

ـ أهذا كوخ ملككما ، أم تقطناته بالأجرة ؟

فأجابت الأم من حيث جلست قبالته :

ـ بل بالأجرة !

ـ ليس هو بالمكان الجميل .

ـ سيأتي باشا عما قريب ، فانتظره قليلا .

فرد الرجل الطويل :

ـ وهذا ما أنا فاعله .

شجعها هدوؤه ، وصوته الرقيق ، ومحياه البسيط . كانت نظرته صريحة تبعث على الارتياح ، وشرارات من المرح تسطع في أعماق عينيه الصافيتين . كان في طلعته المنحنية ، الذابلة ، المتطاولة الساقين ، شيء جذاب يتوجه إلى القلب مباشرة . وكان يرتدي قميصاً أزرق ، وسرويل عريضة سوداء تنضم حول حذائيه . أرادت أن تسأله عن هويته ، وعن المكان الذي جاء منه ، وعما إذا كان يعرف ابنها منذ زمن طويل . . . ولكنه مال إلى الأمام ، على حين غرة ، وبدأ الحديث سائلا :

ـ من الذي لطمك بكل هذا العنف على رأسك ، يا أميمة !

كان صوته لطيفاً ، وعيناه تضحكان دون خبث ، ومع ذلك فقد جرح سؤاله شعورها .

سألته في أدب بارد ، من خلال شفتين منضمتين :

ـ وما شأنك في ذلك ، أيها الفتى !

فقال ، منحنياً في اتجاهها بكل جسده :

— ليس هذا بما يسوؤك، يا أميمة ! سألتك ذلك لأن الأم التي تبنتني كانت تحمل ندبة تشبه هذه كل الشبه . وكان الرجل الذي تعيش معه السبب في تلك الندبة إذ ضربها مرة بقالب الأحذية . لقد كان إسكافياً كانت هي غسالة ، أما هو فاسكافي . ولقد التقطته من مكان ما اسوء طالعها اللامتناهي - وهو العربيد الذي لا يصلح لشيء ، وكان ذلك بعد أن تبنتني . لشد ما كان يضربها ! كان جلدي يتشقق عندئذ خوفاً .

وجرد هذا الاعتراف الأم من سلاحها ، فبدأت تخاف لئلا يغضب بافل إذا علم أنها أجابت الرجل الغريب بكل تلك الحدة . قالت ، وعلى شفتيها ابتسامة مذنبة :

— لم يسؤني ذلك حقاً . ولكنك سألتني ذلك بصورة مفاجئة باغتتني . ليس زوجي الذي ترك لي هذه الندبة ، أسكنه الله جنان ملكوته . ألست تترياً !

هز الرجل ساقيه ، وانفجر ضاحكاً حتى بدت ضواحكه ، ولاحت أذناه وقد تراجعتا إلى الخلف . لكنه سرعان ما استرد جده ورزانته :

— كلا ! لم أصبح كذلك بعد !

فقالت الأم مبتسمة ، وقد أدركت النكتة :

— إن في حديثك رطانة غير روسية .

قال الضيف ضاحكاً :

— إن لهجتي أفضل من اللغة الروسية . أنا أوكراني من مدينة كانييف .

— وأنت هنا منذ زمن طويل .

فقال ، وهو يفتل شاربيه :

— لقد عشت في المدينة سنة أو أكثر . ثم جئت المصنع هنا منذ شهر تقريباً .

ثمة قوم طيبون هنا ، ابنك ، وبعض الآخرين أيضاً . أعتقد أني سأبقى هنا طويلا .

أحبته ، وأرادت أن تكافئه بطريقة من أجل تلك الكلمات التي قالها عن ابنها فسألت :

— لعلك ترغب في تناول كأس من الشاي ؟

فأجاب وهو يهز كتفيه :

— ولم أتناوله وحدي . انتظري حتى يأتي الباقون ، وعندئذ تكرميننا جميعاً .

فذكرتها كلماته بمخاوفها . . . قالت في نفسها :

— لو أن الباقين يماثلونه لطفاً فقط !

وعلا من جديد وقع أقدام عند مدخل الدار ، وفتح الباب بسرعة ، فهبت الأم مرة أخرى على قدميها . ولشد ما كانت دهشتها عظيمة عندما وجدت فتاة في ميعة الصبا تدخل المطبخ . كانت الفتاة أقرب إلى القصر ، ذات وجه مسطح كوجوه الفلاحين ، وقد جمعت شعرها الأشقر في جديلة واحدة كثيفة . سألت في لهجة عذبة :

— هل تأخرت ؟

فأجاب الأوكراني ، متطلعاً من خلال الباب :

- كلا ، لم تتأخري . أجئت ماشية طوال الطريق ؟

- طبعاً ! هل أنت أم بافل ميخائيلوفيتش . عمي مساء ، أنا أدعى ناتاشا .

فسألتها الأم :

- ولقبك :

- فاسيليفنا . وأنت ما إسمك

— بيلاجيا نيلوفنا .

— وهكذا ، فقد تعارفنا الآن ؟

فقالت الأم ، وهي تتنهد بلطف وتبتسم للفتاة :

— نعم !

وسأل الأوكراني ، وهو يساعد الفتاة على خلع معطفها :

— أكان الطقس بارداً ؟

— لاذع عبر الحقول ... يا لها من ريح عصوف !

كان صوتها غنياً صافياً ، وفمها صغيراً ، وشفتاها ممتلئتين ، وقامتها قصيرة مستديرة ، حية كالخوخة الناضجة . وبعد أن خلعت معطفها ، راحت تدلك خديها الموردين بيدين صغيرتين محمرتين بتأثير الصقيع ، ثم دخلت عجلى إلى الغرفة الثانية وهي تضرب الأرض بشدة بنعلي حذائها .

همست الأم لنفسها :

— إنها لا تلبس جزمة .

وقالت الفتاة ، وهي ترتجف :

— بر ـ ر ـ ر ... أنتما لا تتصوران كم أنا متجمدة !

فصاحت الأم ، وهي تسرع إلى المطبخ :

— لحظة واحدة وأهيىء السماور ، لحظة واحدة فقط .

كان يؤتى لها أنها تعرف هذه الفتاة منذ طويل ، وأنها تحبها بكل عطف الأم الرؤوم وحنانها . كانت مسرورة لمرآها ، وكذلك ارتاحت نفسها عندما فكرت في عيني الضيف الزرقاوين اللطيفتين . وراحت تبتسم ، وهي تصغي إلى الحديث في الغرفة المجاورة ...

قالت الفتـاة :

— ما الذي يحزنك ، يا ناجودكا ؟

فأجاب الأوكراني في هدوء :

ـ لا شيء على الإطلاق ! إن للأرملة عينين رائعتين ، وكنت أفكر أن عيني أمي ربما كانتا مثلها أيضاً . إني كثيراً ما أفكر بأمي ، فيخيل إلي أنها يجب أن تكون على قيد الحياة .

ـ ولكنك رويت لي أنها ماتت ؟

ـ تلك حاضنتي التي ماتت ، وأنا أتحدث عن إمي الحقيقية . لا ريب أنها تستعطي الان في مكان ما على أرصفة كييف ، وتشرب الفودكا ، والشرطة تلطمها على وجهها كلما شربت وثملت . . .

وفكرت الأم ، وهي تتنهد :

ـ يا للصبي المسكين !

وقالت ناتاشا ، في عجلة ، شيئاً رقيقاً مؤثراً ، فعاد صوت الأوكراني يتردد من جديد :

ـ إنك ما زلت طفلة ، ولم تجتازي الكثير من التجارب بعد . إن ولادة إنسان في العالم أمر صعب للغاية ، والأصعب من ذلك أيضاً تعليمه أن يكون شريفاً .

ـ يا لها من حقيقة .

هتفت الأم بذلك في نفسها ، وأحست بدافع يحدوها لأن تقول للأوكراني شيئاً لطيفاً . لكن الباب انفتح على غير انتظار ، ودخل منه نيقولاي فيزوفشيكوف ، ابن اللص القديم دانيللو . وكان نيقولاي مشهوراً في المؤسسة بجفوته الناس ، وانعزاله عنهم ، وإعتباره إياهم جميعاً وضعاء منحطين .

سألته الأم في دهشة :

ـ ماذا تريد يا نيقولاي .

فقال دون أن يحييها ، وهو يمسح وجهه العريض المجدور براحة يده :

ـ هل بافل هنـا ؟

ـ كلا !

فألقى نظرة إلى الغرفة ، ثم دخلها وقال :

ـ مساء الخير ، أيها الرفاق !

وفكرت الأم في استهجان :

ـ أهو أيضاً منهم ؟

وازداد عجبها عندما رأت ناتاشا تقدم إليه يدها ، وكأنها سعيدة برؤيته ...

وتبع نيقولاي اثنان آخران يكادان أن يكونا صبيين عرفت الأم أحدهما ، وهو فتى قاني القسمات ، مجعد الشعر ، عريض الجبهة ، يدعى فيودور ، وهو ابن أخ سيزوف ، المعلم المساعد في المصنع ، أما الثاني فكان خجولاً ذا شعر صقيل يكاد أن يلتصق برأسه ؛ لم تكن تعرفه ، لكن لم يكن فيه ما يبعث على الذعر .

وأخيراً ظهر بافل ، يصحبه عاملان شابان لم يكونا مجهولين عندها .

قال بافل بلطف :

ـ هل هيأت السماور ؟ شكراً جزيلاً .

فسألته ، وهي لا تدري كيف تعبر عن امتنانها لشيء غامض غير محدود .

ـ أأشتري بعض الفودكا ؟

فقال بافل ، وهو يبتسم بحنان كثير :

ـ كلا ، فلن نحتاج إلى ذلك !

وخطر لها ، بغتة ، أن ابنها قد بالغ في وصف خطورة هذا الاجتماع حتى يضحك منها ، فسألته برقة :

ـ أهؤلاء هم الناس الخطرون !

فأجاب بافل ، وهو يتسلل إلى الغرفة المجاورة :

ـ هم أنفسهم .!

فصاحت الأم خلفه :

ـ إنك لا تعني ذلك حقاً ؟

ثم فكرت في تواضع :

ـ إنه لمّا يزل صبياً !



٦

عندما أصبح السماور جاهزاً ، حملته الأم إلى الغرفة المجاورة حيث تجمهر الضيوف ، جلوساً حول المائدة ، إلا ناتاشا التي قعدت في الزاوية تحت المصباح وبين يديها كتاب صغير . كانت تقول :

- كي نفهم السبب في قذارة حياة الناس . .

فأضاف الأوكراني مقاطعاً :

- والسبب في أنهم ، هم أيضاً ، قذرون حتى هذه الدرجة ...

- لا بد من إلقاء نظرة على أصول حياتهم ...

فقالت الأم ، وهي تصب الشاي :

- أنظروا يا أعزائي ، أنظروا في ذلك جيداً !

فصمت الجميع . . .

سأل بافل ، وقد زوى ما بين حاجبيه :

- ما الأمر ، يا أماه .

- ما الأمر .

تلفتت حواليها ، فرأت الجميع يتطلعون إليها بثبات ، فغمغمت باضطراب :

- أواه ، كنت أحدث نفسي ، وأفكر فيما عنكم من إلقاء نظرة ...

فضحكت ناتاشا ، وابتسم بافل في شاربيه ، وقال الأوكراني :

ـ شكراً من أجل الشاي ، يا أميمة .

ـ تفضل أن تفوه بشكرك بعد أن تتذوقه .

ثم أضافت ، وهي تصرو إلى ولدها :

ـ هل يزعجكم وجودي ؟

فأسرعت ناتاشا تجيبها :

ـ وكيف يمكن أن يزعج وجود المضيفة ضيوفها . لكن ، يا إلهي ، لو أنك تسرعين فقط وتعطيني بعض الشاي الساخن . إن سائر أعضائي ترتجف ، وقدمي قد تجمدتا حتى أصبحتا كالجليد .

كان صوتها شاكياً ، وكأنها طفلة صغيرة ، فهتفت الأم بسرعة :

ـ حالاً ، حالاً !

وعندما انتهت ناتاشا من تناول الشاي ، صعدت زفرة عميقة ، وألقت ضفيرتها الكثة عن كتفيها ، ثم أخذت تقرأ في الكتاب ذي الغلاف الأصفر المزين بالرسوم ، وراحت الأم تصب الشاي وتستمع إليها ، وهي تحاول ألا تثير ـ أثناء ذلك ـ أدنى ضجة على الاطلاق . كان صوت الفتاة الرنان يمتزج بهمهمة السماور المتأملة ؛ فيما ينتشر ، عبر الغرفة ، نسيج رائع من الأقاصيص المحدثة عن بشر متوحشين كانوا يقطنون يوماً الكهوف ويصطادون بالحجارة ... وكان ذلك كله يتردد كاحدى سير الجن ، والأم تسترق النظر دون انقطاع إلى ابنها ، تشاء أن تسأله كيف يمكن أن تكون مثل هذه المعرفة ممنوعة محرمة . وسرعان ما تعبت من الاستماع إلى المطالعة فراحت تدرس ضيوفها بنظرات مختلسة حتى لا ينتبه أحد منهم ، أو ينتبه ابنها ، إلى ذلك .

كان بافل يجلس إلى جانب ناتاشا ، وكان أجمل الحاضرين طلعة . وكانت ناتاشا ، المنكبة فوق الكتاب ، تدفع من وقت لآخر خصلات الشعر

المنزلقة على صدغيها . وكانت تتفوه بين الفينة والفينة ، وهي تهز رأسها وتخفض صوتها ، بملاحظات من عندها ؛ فتكف عندئذ عن النظر إلى الكتاب ، وتأخذ تتطلع إلى الوجوه المحيطة بها في كثير من الحنان والعطف . وكان الأوكراني ، المتكىء على إحدى جوانب المائدة ، ينظر إلى أرنبة أنفه ، ساعياً إلى رؤية طرفي شاربه الذي يفتله بين أصابعه . وكان فيزوفشيكوف يقعد على كرسيه مستقيماً كالعصا ، ويداه تدلكان ركبتيه ، ووجهه المجدور ، العديم الحاجبين ، الرقيق الشفتين ، خال - كالقناع - من كل تعبير . وكان لا يحيد بناظريه عن صورته المنعكسة على نحاس السماور اللماع دون أن يرف جفناه مطلقاً ، لا بل كان يؤتى للناظر إليه أنه لا يتنفس أيضاً . وكان فيودور الصغير يصغي إلى القراءة ، ويحرك شفتيه دون ضجة ، وكأنه يردد كلمات الكتاب لنفسه ؛ بينما جلس رفيقه منحنياً بكل جسده ، ومرفقاه يستندان إلى ركبتيه ، وخداه يعتمدان راحتيه ، وابتسامة مفكرة تتيه على شفتيه . وكان أحد الشابين اللذين جاءا مع بافل أحمر الشعر مجعده ، ذا عينين خضراوين مرحتين ، لا ينقطع عن الحركة فوق مقعده ، وكأنه يريد أن يقول شيئاً ؛ أما الشاب الآخر ، وهو ذو شعر أشقر مقصوص ، فلا يفتأ يداعب رأسه بيده وهو مطرق يشخص إلى الأرض ، بحيث لم تستطع الأم رؤية وجهه أبداً . وأحست الأم شيئاً غير مألوف لديها مطلقاً ، وتذكرت من وراء صوت ناتاشا أمسيات صباها الصاخبة ، وحديث الشباب القذر ومداعباتهم السمجة ، هؤلاء الشباب الذين كانت تفوح من أنفاسهم رائحة الفودكا دائماً . وعندما تذكرتهم ، انقبض قلبها أسفاً لحياتها وإشفاقاً على نفسها .

وتذكرت كيف خطبت لزوجها ، لقد أمسك بها في إحدى تلك الأمسيات في الممر المظلم ، وضغط جسدها على الجدار بعزم ، وسألها

بصوت خشن أجش :

- أتريدين الزواج مني ؟

وقد أذاها ذلك وجرح كرامتها ، بَيدَ أنه استمر يضغط على ثدييها بأصابعه الغليظة ، وينفخ أنفاسه الحارة الرطبة في وجهها .

سعت جاهدة للافلات منه فلم تنجح إلا في الاستدارة جانباً ، فزمجر قائلا :

- إلى أين تذهبين ؟ أعطيني جواباً أولاً :

ولم ينضُ مرشفاها شيئاً ، وامد انقطعت أنفاسها ألماً وحياءً ...

وقال :

- كفاك دلالاً ، أيتها الغبية . إني أعرفك ، أنا أعرفكن جميعاً ؛ فأنت الآن ، في صميم قلبك ، مسرورة للغاية .

وفتح أحدهم باب الممر ، فأفلتها من قبضته ببطء ، وقال :

- سوف أرسل خاطباً يوم الأحد المقبل ...

ولقد فعل ...

أغلقت الأم عينيها ، وصعدت زفرة حرى ، بينما ارتفع صوت فيزوفشيكوف محتجاً :

- أريد أن أعرف كيف يجب أن يعيش الناس ، لا كيف كانوا في الماضي يعيشون .

فقال الفتى الأحمر الرأس ، وهو ينهض :

- ذلك صحيح .

فهتف فيودور يقول :

- إنني لا أوافقكما على ذلك .

وتبع ذلك نقاش حامي الوطيس اتقدت الكلمات فيه كألسنة النيران الزاهرة الملتهبة . ولم تفهم الأم مبعث صراخهم ، وإن وجدت أن أحداً

منهم لم يفقد زمام نفسه أو يلجأ إلى تلك الكلمات البذيئة التي اعتادت سماعها على الدوام ، هذا بالرغم من أن وجوه الجميع قد احمرت حدة وهياجاً .

قالت في تعليل ذلك :

ـ إن وجود الفتاة بينهم يكبح جماحهم .

وحلّت لها سيماء الرزانة التي تعلو وجه ناتاشا ، وهي تراقب الجميع بانتباه ، وكأنها تجد هؤلاء الفتيان أطفالاً صغاراً ليس غير .

صاحت أخيراً ، على حين فجأة :

ـ انتظروا لحظة ، أيها الرفاق .

فخيم الصمت على الجميع ، وراحوا يتطلعون إليها . . .

ـ إن من يقولون منكم إن واجبنا أن نعرف كل شيء هم على حق ، ذلك أنه ينبغي أن نشعل نبراس المعرفة في أنفسنا حتى يشع على أولئك الذين أظلمت عقولهم وغمرهم الجهل بظلمه المقوت . يجب أن نملك جواباً صحيحاً شريفاً لكل شيء . يجب أن نعرف كل الحقيقة ، ونتبين كل البهتان ...

كان الأوكراني يصغي وهو يهز رأسه بتوافق مع كلماتها ، أما فيزوفشيكوف ، والأحمر الرأس ، وأحد الشابين اللذين جاءا في رفقة بافل ، فقد شكلوا فريقاً واحداً . ولسبب ما استاءت الأم منهم ...

وعندما انتهت ناتاشا من الكلام ، نهض بافل وقال في هدوء تام ، وهو ينظر إلى الثلاثة معاً :

ـ أهي معدة ممتلئة فقط ما نسعى إليه ؟ أبداً ! لا شيء من هذا القبيل ! يجب أن نبين لأولئك الذين يركبون ظهورنا ، ويضعون العصابة في ذات الوقت على عيوننا ، إننا نرى كل شيء . لسنا بأغبياء ، وكذلك لسنا بحيوانات لا تطلب إلا معدة ممتلئة . نحن نريد أن نعيش حياة جديرة بكائنات بشرية . يجب أن نبرهن لأعدائنا أن حياة العبودية التي ألجمونا

بها لا تمنعنا أن نكون مساوين لهم فكرياً ، لا بل متفوقين عليهم أيضاً .

كان شعور من الفخر والاعتزاز يجتاح صدر الأم إذ تسمع إلى هذه الكلمات.

حقاً ، ما أجمل حديثه :

وقال الأوكراني :

ـ ثمة عدد غفير من الناس يجدون كفافهم من الطعام ، لكن الأخيار بينهم قلة . يتوجب علينا أن نبني جسراً فوق مستنقعات هذه الحياة العزجاء يقودنا إلى مملكة الأخوة الانسانية المقبلة ، ذلك هو الواجب الذي يواجهنا ، أيها الرفاق .

فاعترض فيزوفشيكوف بفظاظة :

ـ ما دامت ساعة القتال قد حلت ، فما جدوى القعود مكتوفي الآيدي إذن ؟

ولم ينفرط عقد الاجتماع إلا بعد منتصف الليل . فسبق فيزوفشيكوف والأحمر الشعر الباقين في مغادرة المكان ، الأمر الذي استاءت منه الأم أيضاً . فقالت في نفسها ، وهي تنحني لهما في شيء من الجفاء :

ـ لشد ما أنتما مسرعان !

وسألت ناتاشا :

ـ هل تصحبني إلى المنزل ، يا ناخودكا ؟

فأجاب الأوكراني :

ـ طبعاً ، وهل في ذلك من ريب ؟

وقالت الأم تخاطب ناتاشا المرتدية ثيابها في المطبخ :

ـ إن جواربك رقيقة خداً بالنسبة لهذا الطقس البارد ، لعلك لا تمانعين في أن أشتغل لك زوجاً من الجوارب الصوفية ؟

شكراً لك ، يا بيلاجيا نيلوفنا . إنما الجوارب الصوفية مثار للحكة .

فقالت الأم :

- ولكني سأنسجها لك من نوع لا يثير الحكة .

فنظرت إليها ناتاشا من خلال أهدابها بثبات أحست الأم تجاهه ببعض الارتباك ، فأسرعت تضيف بهدوء :

- يجب أن تغفري لي حماقتي ، ولكني قلت ذلك من أعماق قلبي .

فأجابت ناتاشا بهدوء مماثل ، وهي تضغط يد الأم بحماسة :

- يا لك امرأة طيبة !

وقال الأوكراني ، وهو ينظر في عينيها وينحني ليعبر الباب خلف ناتاشا :

- طابت ليلتك ، يا أميمة .

نظرت الأم إلى ابنها... كان يقف على عتبة الباب يبتسم ، فسألته في ارتباك:

- ما الذي تضحك منه ؟

- هكذا ، فرحاً ؟

فردت خانقة :

- قد أكون عجوزاً حمقاء ، إنما أستطيع بعد أن أفهم جيداً .

فقال :

- عظيم هذا ! لكن . يحسن بك أن تذهبي إلى الفراش ، فلقد مضى من الليل أكثره .

- إني في طريقي إليه ...

وراحت تدور حول المائدة ترفع عنها الصحون والأقداح ، وهي سعيدة جداً ، حتى ضاقت أنفاسها من شدة السعادة . كانت مغتبطة إذ كان كل شيء جميلاً ، وانتهى بخير وسلام ...

قالت :

- لقد صنعت حسناً ، يا باشا ، بدعوتهم . إن الأوكراني لطيف جداً ، وأما الفتاة .. فيالها من شيء صغير ، لطيف ، حبيب ! .. من هي ؟

فأجاب بافل باقتضاب ، وهو يسير في الغرفة جيئة وذهوباً :

ـ إنهـا معلمة !

ـ لا ريبة أنها فقيرة جداً ، فلباسها سيئ للغاية ، وهي لا تحتاط لنفسهـا من البرد . أين هم أهلها ؟

ـ في موسكو .

قال بافل ذلك ، ثم وقف قبالة والدته ، وقـال لها برقة وشيء كثير من الرزانة :

ـ إن والدها غني جداً ، وهو مساهم في شركة الفولاذ ويملك عدة أبنية ، ولكنه طردهـا لأنها اختارت هذه الطريق في الحيـاة . لقد شبت في الدفء ورغد العيش ، واعتادت الحصول على كل ما ترغب فيه ، أما الآن فهي تمشي سبعة فراسخ ، في الليل ، وحدها دون رفيق ...

شدهت الأم لهذا الخبر ، فوقفت في وسط الغرفة تنظر إلى ابنهـا وبجفناها يرقان ، ثم سألته بهدوء :

ـ هل غدت الآن إلى المدينة ؟

ـ نعم !

ـ يا الله ، وهي ليست خائفة ؟

فضحك بافل وأجاب :

ـ تستطيعين أن تتأكدي ، من تلقاء نفسك ، كونها ليست خائفة .

ـ ولكن لماذا ؟ كان يمكن أن تقضي الليل هنا ، فتنام معي ...

ـ هذا شيء غير مرغوب فيه ، فقد تراها العيون في الصباح هنا ، وذلك ما لا نريد .

فشخصت امه من خلال النـافذة ، غارقة في لجة من التفكير ، ثم قالت بصوت خفيض :

ـــ بافل إني لا أفهم ما في ذلك من ... خطر ، ومن ... ممنوع ... إنكم لم تفعلوا شيئاً مؤذياً ، أليس كذلك ؟

لم تكن واثقة تماماً من ذلك ، فكانت تسعى وراء تأكيد فتاها له .

تفحصها بافل بانتباه ، ثم أجاب بثبات :

ـــ إننا لا نرتكب خطأً على الاطلاق ، ومع ذلك فاننا جميعاً سنستقر في غياهب السجن يوماً ما ، يجب أن تعلمي ذلك .

فبدأت يداها ترتعشان ثم سألته بصوت مختنق :

ـــ ربما ، بارادة الله ، ستفلتون من ذلك بطريقة ما ؟

فأجابها في لطف :

ـــ كلا ! لست أريد خداعك ، فليس من ذلك مفر .

وابتسم ...

ـ إذهبي إلى الفراش الآن ، فأنت منهوكة القوى . طابت ليلتك ...

وعندما أصبحت وحيدة ، توجهت الى النافذة ، وأخذت تنظر الى الخارج ... كان كل شيء ما وراء النافذة بارداً مغطىً بالسحب . وكانت ريح صرصر تنفخ الثلج عن سطوح المنازل الصغيرة الناعسة ، وتصطدم بالجدران ، وتهمس بشيء ما وهي غضبى ، ثم تنحدر حتى الأرض لتثير عاصفة من ندف الثلج الجافة تملأ الشارع بها .

همست الأم في رقة وسكينة :

ـــ كن رحوماً بنا ، أيها الحبيب يسوع !

كانت الدموع تزدحم في قلبها ، وتوقع الكارثة التي تحدث عنها ابنها بكل تلك الثقة يرفرف في صدرها كفراشة تحت جنح الظلام . وخيل إليها أنها ترى أمامها سهلاً مغموراً بالثلج تهب فوقه ريح بيضاء خافقة ، وتعصف به وهي تعول بحدة وعنف . وثمة شبح صغير أسود لفتاة تترنح في وسط السهل .. كانت الريح

تلتف حول ساقيها ، وترفع ثيابها ، وتصفع وجهها بالثلج القارس ، وهي تتقدم بصعوبة وقدماها الصغيرتان تغوصان في الأوحال . وكان البرد لاذعاً ، والظلام مخيماً ، وجسدها يتقوس إلى الأمام مثل عرق وحيد من العشب ينحني تحت تأثير نفحات ريح الخريف ، وجدار الغابة يرتفع في المستنقعات إلى يمينها حيث تهامس أشجار البتولا الناحلة والحور المعراة بيأس قاتل ؛ وهناك ، من بعيد جداً ، كانت أنوار المدينة تتلألأ ...

همست الأم وهي ترتعد خوفاً وفرقاً :

— أيها المخلص الحبيب ، ارفق بها !

٧

وتعاقبت الأيام ، الواحد تلو الآخر ، مثل حبات المسبحة تشيد الأسابيع والشهور ... وفي كل يوم سبت ، كان أصدقاء بافل يجتمعون في داره ، وكلا اجتماع يمثل خطوة جديدة في الطريق الطويلة الصاعدة التي يرتفع عليها الشعب نحو هدف بعيد ...

وانضم أناس آخرون إلى رفاقه القدماء حتى ضاقت بهم الغرفة الصغيرة في منزل آل فلاسوف . وثابرت ناتاشا على الحضور منهوكة ، متجمدة ، لكنها مرحة أبداً . ونسجت لها أم بافل زوجاً من الجوارب وضعتها ، هي نفسها ، في قدمي الفتاة الصغيرتين ، فضحكت ناتاشا في البدء ، ثم عادت بغتة هادئة جادة ، وقالت بصوت مخفوض :

ـ كان لي ، ذات يوم ، ممرضة كانت هي الأخرى لطيفة بصورة مدهشة . ما أغرب ذلك ، يا بيلاجيا نيلوفنا ! إن الشعب العامل يرزح تحت نير حياة قاسية ذليلة ، ومع ذلك فهو ألطف من أولئك ...

وكانت تعني قوماً بعيدين كل البعد عنها ...

قالت بيلاجيا :

ـ وأنت أيضاً ، يا لك فتاة لطيفة محرومه من أهلك وجميع ...

وتنهدت ، ولاذت بالصمت عاجزة عن التعبير عن أفكارها . وعندما

نظرت في وجه ناتاشا ، أحست من جديد ذلك الشعور من الامتنان لشيء غامض غير محدود . . . وجلست على الأرض قبالتها ، بينما كانت الفتاة تبتسم ، مفكرة ، مطرقة الرأس .

رددت :

ــ محرومة من أهلي ؟ ذلك ليس بذي بال . إن والدي إنسان قاس ، وكذلك أخي . وهو سكير أيضاً . وأختي البكر تعيسة الحياة ، إذ تزوجت رجلا يكبرها بعدة سنين ، كثير الثراء ، لكنه وضيع ومقتر جداً . وإني لآسف من أجل والدتي . إنها امرأة بسيطة مثلي ، هزيلة كالفأرة ، سريعة الركض كالفأرة أيضاً ، تخاف من كل شيء . . . وإني لأريد في بعض الأحيان ، بصورة مخفية ، أن أراها . . .

فقالت الأم ، وهي تهز رأسها بكآبة :

ــ يا لك من مسكينة !

ورمت الفتاة بسرعة رأسها إلى الخلف ، ومدت يدها كمن تدفع شيئاً ما بعيداً عنها .

ــ أوه ، كلا ! إني أكون فرحة جداً في بعض الأحيان ، سعيدة حتى الحد الأقصى .

واصفر وجهها ، واتقدت عيناها الزرقاوان ، وقالت بصوت خفيض مؤثر ، واضعة يديها كتفي الأم :

ــ لو أنك تعلمين ، لو كنت تستطيعين فقط أن تفهمي عظمة الغاية التي نعمل لها !

فمس قلب بيلاجيافلاسوف شيء يقرب من الحسد كثيراً ؛ وقالت بكآبة ، وهي تنهض عن الأرض :

ــ إني عجوز لا أصلح لمثل ذلك ، وأمية بالاضافة إليه ...

... أصبح بافل يتكلم أكثر فأكثر ، يتكلم زمناً طويلا بحماسة أعظم من ذي قبل ، وهو يزداد نحولاً دون انقطاع . وصور لأمه أن نظرته ترق ، وصوته يصبح ألطف . ويجمل مظهره أبسط إذ ينظر إلى ناتاشا أو يتحدث معها .

فكرت :

ـ أرجو أن يكون الأمر كذلك باذن الله !

وابتسمت ...

وفي كل مرة يحتد النقاش بينهم أثناء اجتماعهم ، كان الأوكراني يهب ناهضاً ، ويقف هناك يتأرجح إلى الأمام والخلف مثل مطرقة الناقوس ، وهو يتفوه بكلمات قليلة ، لطيفة ، بسيطة ، سرعان ما تعيد الهدوء الى الجميع ... وكان فيزوفشيكوف متجهماً أبداً ، يحث الآخرين دائماً على إتيان هذا الشيء أو ذاك . فيبدأ ، هو أو الأحمر الرأس الذي كانوا ينادونه صموئيلوف ، كل المجادلات يعضدهما فيما يذهبان إليه إيفان بوكتين الكبير الرأس الذي يبدو كمن اغتسل في ماء قلوي حتى لم يبق عليه شعرة واحدة . ولم يكن ياكوف سيموف ، النظيف الثياب ، الحليق الوجه ، يتكلم إلا قليلا ؛ فان فعل فبوقار جم ... وكان هو وفيودر مازين ذو الجبين العريض يدعمان بافل والأوكراني في سائر المناقشات ...

وفي بعض الأحيان كان نيقولاي إيفانوفيتش ، وهو رجل يحمل نظارتين ولحية شقراء قصيرة ، يحتل مكان ناتاشا . ولقد ولد نيقولاي هذا في إحدى المقاطعات النائية ، الأمر الذي يتضح من لكنته في لفظ بعض الأحرف ، وخاصة أل التعريف . وكان يأتي وحيداً بصورة عامة . فيتحدث عن أبسط الأمور عن الحياة العائلية والأطفال ، عن السوق والشرطة ، عن ثمن الخبز والطعام ، وعن سائر تلك الأشياء الخاصة بحياة الشعب اليومية . ولكنه كان يفعل ذلك

بأسلوب خاص ، بحيث يكشف كل ما فيها من بهتان مناف للمعقول ، وما فيها من بلاهة ومدعاة للهزء والسخرية ، لكن مضر بالجماهير ملحق بها الأذى . كان يخيل للأم أنه جاء من بعد سحيق ، من واقع مختلف ، حيث يعيش الجميع حياة ميسورة شريفة . وكان كل شيء هنا غريباً عليه ، فلا يستطيع أن يعتاد هذه الحياة فيقبلها كأمر محتوم لا مفر منه . إنه يكرهها ، فيثير فيه هذا البغض رغبة هادئة دائبة في تبديلها . كان وجهه مصفراً ، تحيط عينيه خطوط دقيقة . وكان صوته ناعماً ، ويداه دافئتين أبداً . وكان يضم مجموع يد بيلاجيا فلاسوف بين أصابعه كلما صافحها ، فتحس على الدوام الهدوء والراحة لمثل هذه التحية .

كانت وجوه أخرى من المدينة تظهر في هذه الاجتماعات ، ومن بينها فتاة طويلة ، ناحلة القد ، ذات عينين واسعتين ووجه شاحب تدعي ساشا . وكان في حركاتها وطريقتها في السير شيء خليق بالرجال ، فهي تعقد ما بين حاجبيها الكثيفين السوداوين بصرامة ، بينما يرتجف الجناحان الرقيقان لأنفها المستقيم عندما تتحدث . كانت هي أول من أعلن ، ذات يوم ، في صوت جاف قاسي النبرات :

— نحن ... اشتراكيون !

وعندما سمعت الأم هذا شخصت إلى الفتاة في ذعر ساكن . فلقد بلغها ، ذات يوم ، أن الاشتراكيين اغتالوا القيصر . وكان ذلك في أيام صباها عندما هب الملاكون يريدون ، كما تقول الرواية ، أن ينتقموا لأنفسهم من القيصر الذي حرر عبيدهم ، وأقسموا أن يقصوا شعورهم حتى يقتلوه ، فلقبوا بالاشتراكيين لهذا السبب . أما الآن ، فإن بيلاجيا لا تستطيع أن تفهم لماذا يسمي ابنها أصدقاؤه أنفسهم بالاشتراكيين .

وعندما انصرف الجميع ، اقتربت من ابنها وسألته :

ـ هل أنت اشتراكي يا پاشا ؟

فقال ، وهو يقف تجاهها قوياً متين البنيان :

ـ نعم ! لماذا تسألين ؟

فتنهدت ، وأسبلت أجفانها ...

ـ أصحيح ذلك ، يا بني ؟ ولكنهم ... ضد القيصر ، لا بل إنهم قتلوا أحد القياصرة أيضاً .

فأخذ بافل يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، وهو يداعب خده بيده . ثم قال ، بعد ضحكة قصيرة :

ـ نحن لسنا في حاجة إلى ارتكاب مثل هذه الأمور .

ثم تحدث إليها طويلاً ، بصوت هادىء رزين ... وفكرت ، وهي تنظر في وجهه :

ـ إنه لن يرتكب إثماً أبداً ! إنه لا يستطيع ذلك .

وتكررت بعد ذلك الكلمة المخوف على مسمعها مراراً وتكراراً حتى نعمت شفرتها الحادة ، واعتادت أذنها على سماعها ، كما اعتادت على سماع عشرات من الكلمات الأخرى غير المفهومة . ولكنها لم تحب ساشا ، بل كانت تشعر بالاضطراب والانقباض في حضرتها .

تحدثت عنها ذات يوم إلى الأوكراني ، وهي تضم شفتيها باستياء :

ـ يا لها من فظة . لا تنفك تصدر الأوامر للجميع . أنت يجب أن تفعل هذا ، وأنت يجب أن تفعل ذاك .

فقهقه الأوكراني ضاحكاً وقال :

ـ لقد أصبت المرمى . حسناً ، لقد أصبت الحقيقة في كبدها ، يا أميمة ! ما رأيك في هذا ، يا بافل ؟

والتفت إليه ، وغمز بعينه مشيراً إلى الأم ، ثم أضاف :

— ذلك هو النبل بعينه !

وقال بافل بجفاء :

— إنها لفتاة رائعة !

فوافق الأوكراني بقوله :

— صحيح جداً . ولكن ثمة شيئاً واحداً لا نفهمه . أن كل شيء بالنسبة إليها « يجب » ، أما بالنسبة إلينا فهو « يمكن » و « لا بد منه » ...

كانا يتجادلان في أشياء غير مفهومة ...

ولاحظت الأم أيضاً أن ساشا تعامل بافل بصرامة ودقة أكثر من الباقين ، حتى لتصيح في وجهه أحياناً ، وعندئذ لا يقول بافل شيئاً ، بل يضحك ، وينظر في وجه الفتاة بتلك النظرة الرقيقة التي كان يخص بها ناتاشا من قبل . وذلك أساء إلى الأم أيضاً ...

كانت بيلاجيا تطرب أحياناً لذلك المرح المفاجئ الذي يأخذهم جميعاً على حين غرة ، الأمر الذي يجري عادة في تلك الأمسيات حيث يقرؤون ما تحمل الصحف من أخبار حركة العمال في الخارج . كانت أعين الجميع تشع عندئذ فرحاً ، فيصبحون جميعاً سعداء بشكل غريب صبياني ، يضحكون ضحكتهم النقية الصافية ، وكل منهم يربت بعطف على كتف الآخر . ويصيح أحدهم وكأنه ثمل بخمرة الغبطة :

— مرحى لرفاقنا الألمان !

وصاحوا في مرة أخرى :

— عاش العمال الايطاليون !

وكان يبدو عليهم ، وهم يرسلون تلك الصيحات البعيدة إلى أصدقاء بعيدين عنهم ، مجهولين منهم ، لا يستطيعون فهم لغتهم ، أنهم واثقون من سماع أولئك الناس المجهولين لهم ، وفهمهم منبعث غبطتهم وفرحهم .

قال الأوكراني ، وعيناه تطفحان بنور محبة تحتضن العالم بأسره :

— ينبغي أن نكتب إليهم حتى يعلموا أن لهم أصدقاء يعيشون هنا في روسيا ، ويؤمنون بذات عقيدتهم ويعملون لها ، ويحيون من أجل الهدف نفسه ، ويفرحون بانتصاراتهم .

كانوا يتكلمون ، والابتسام يعلو شفاههم ، عن الفرنسيين والبريطانيين والسويديين كما لو كانوا أصدقاء لهم ، وأناساً أعزاء على قلوبهم يحترمونهم ويقاسمونهم أفراحهم وآلامهم .

في تلك الغرفة الصغيرة ولد شعور بالقربى الروحية مع عمال العالم أجمع . وكان هذا الشعور يؤثر في الأم نفسها ، ويصهرهم جميعاً في روح واحدة عظيمة .. وبالرغم من عدم إدراكها لذلك الشعور ، فقد كان يستهويها بقوته الفتية المسكرة ، وبهجته ، وبالأمل النابض فيه . . .

قالت للأوكراني ذات مرة :

— إني لأعجب لكم . كل الناس لكم رفاق ، اليهود والأرمن والنمسويون . وأنتم سعيدون أو حزينون من أجلهم جميعاً .

فصاح الأوكراني :

— من أجلهم جميعاً يا أميمة ، جميعاً دون استثناء . نحن لا نعرف فرقاً وأمماً . . . بل نعرف رفاقاً فحسب ، وأعداء فحسب ، سائر العمال رفاق لنا ، وجميع الحكومات والأغنياء أعداؤنا . عندما تلقين بصرك على الأرض ، وترين ما أكثر عددنا نحن العمال ، وما أعظم قوانا ، يجتاحك فرح لا حدود له ، ويرقص العيد في قلبك . إن الفرنسي والألماني يحسان ذات الشعور عندما يريان الحياة ، وكذلك الايطالي ، يا أميمة . نحن جميعاً أبناء أم واحدة ، وتلك هي عقيدة أخوة العمال في العالم أجمع ، العقيدة التي لا تغلب . وإن تلك الفكرة لتدفئ قلوبنا ، إنها الشمس تشع

في سماء عادلة . وتلك السماء هي قلب الانسان العامل . إن الأشتراكي ، كائناً من كان ، وبأي اسم يدعى ، هو أخ لنا في الروح حتى آخر الزمن : البارحة ، واليوم ، وإلى الأبد ! ...

كان ذلك الايمان الصبياني المتين يتجلى أكثر فأكثر بينهم ويزداد علواً ، وهو ينمو بقوة جبارة عاتية . وعندما كانت الأم تنظر اليه ، كانت تحس بصورة خارجة عن إرادتها ، أن العالم قد اكتسب — في الحقيقة — شيئاً عظيماً حسناً كالشمس التي تنظر إليها بذات عينيها .

وكثيراً ما كانوا يغنون ، فينشدون بأصوات عالية سعيدة تلك الأغاني البسيطة التي يعرفها كل الناس . ولكنهم كانوا ينشدون ، أحياناً ، أغاني جديدة جدية في تناسق جميل ، ولكن بلحن غير معهود . كانوا ينشدونها بأصوات خفيضة وكأنهم يرتلون في الكنيسة ، فتحمر وجوه المغنين وتشحب ، فيما قوة هائلة تنبض في الكلمات القوية الرنانة .

وكانت إحدى تلك الأغاني الجديدة تزعج الأم بصورة خاصة ، فهي لم تكن تفصح عن الآمال الموجعة التي تحسها نفس جريحة تهيم خلال شعاب الارتياب والقلق ، ولا كانت تعكس شكاوى المخلوقات المسحوقة بوطأة الفاقة والخوف . الفاقدة لكل شكل أو لون أو كيان ؛ ولا كان يسمع فيها ذلك الأنين المفجع الصادر عن قوى عمياء تلتمس لها مكاناً رحباً ، ولا تلك الصيحات المتحدية المفعمة بجرأة غير هيابة ، المستعدة لان تلقي بنفسها في الخير والشر على السواء . لم يكن يتردد في تلك الأغنية ذلك الشعور المبهم بالأذى والتعطش للانتقام ، القادر على تدمير كل شيء ، والعاجز عن بناء أي شيء ؛ ولا كان في تلك الأغنية شيء من العالم السلافي القديم البالي .

لم تستمرىء الأم كلمات تلك الأغنية القاسية ولحنها الجاف ، ولكن شيئاً

أعظم من الكلمات واللحن كان يختبىء وراء حداء اللحن والكلمات ، فيجرهما معاً ويثير في القلب إحساساً بشيء لا يمكن للفكر أن يحتويه . كانت ترى هذا الشيء في أعين الفتيان ووجوههم ، وتحس أنه يعيش ضمن صدورهم ، فتستسلم لقوة أكبر من أن تنحصر في أية كلمات أو لحن . وكانت تصغي على الدوام إلى هذه الأغنية بانتباه أكبر وتأثر أعمق من سواها . فهم ينشدونها بعذوبة تفوق رقة الأغنيات الأخرى ، لكن صداها يتردد مع ذلك بقوة أكبر ويغمر القوم كأحد ألحان يوم آذار ، اليوم الأول من الربيع المقترب ...

وكان فيزوفشيكوف تقول في جفوة :

ــ لقد آن الوقت لكي ننشد هذه الأغنية في الشوارع خارجاً !

وعندما ألقي أبوه في السجن ، مرة أخرى جزاء سرقته الأخيرة ، قال فيزوفشيكوف لرفاقه :

ــ نستطيع الآن أن نجتمع في داري .

وفي كل مساء تقريباً ، كان أحد أصدقاء بافل يرد البيت معه بعد العمل ، فيقرآن ويسجلان بعض الملاحظات ، وهما على عجلة من امرهما ينسيان معها أن يغتسلا . وكانا يتناولان العشاء ويحتسيان الشاي والكتب بين أيديهما ، وقد أضحى حديثهما يزداد صعوبة ، يوماً بعد يوم ، على مفاهيم الأم . وكثيراً ما كان بافل يقول :

ــ نحن في حاجة الى صحيفة ...

وازدادت حمى الحياة وعجلتها ، وأصبح القوم يسرعون الخطا ويتنقلون بخفة من كتاب إلى آخر كأسراب النحل تذهب من زهرة الى زهرة .

قال فيزوفشيكوف :

ــ لقد بدأوا يتحدثون عنا ، وسيشرعون عن قريب بملاحقتنا .

فلاحظ الأوكراني قائلا :

— لقد خلقت الأسماك لتقع في الشبكة!

كانت الأم تزداد تعلقاً به يوماً بعد يوم ، وكان يخيل إليها — كلما ناداها يا أميمة — أن يد طفل ناعمة تمسح على خدها . وكان الأوكراني يقتطع الحطب يوم الأحد إذا كان بافل مشغولا ،وفي ذات يوم ، جاءها وهو يحمل لوحاً كبيراً من الخشب على كتفه ، ثم أخذ الفأس وصنع — بسرعة وإتقان — عتبة للباب بدل العتبة المهترئة . وفي مرة أخرى أصلح السور دون أن يحس به أحد. وكان يصفر على الدوام بنغم حزين حبيب أثناء عمله .

قالت لابنها ذات يوم :

— فلنأخذ الأوكراني جاراً لنا ، ذلك أفضل لكما ؛ فلا يحتاج أحدكما لأن يركض إلى بيت الآخر دائماً .

فأجاب بافل وهو يهز كتفيه :

— ولماذا تحملين نفسك عناء جديداً ؟

— هراء ! لقد عانيت الكثير طوال حياتي بدون سبب معقول . فلا تحمل الآن بعض العناء من أجل رجل طيب مثله .

فقال الابن :

— فليكن ما تقولين . وسأكون سعيداً إذا جاء .

وهكذا انتقل الأوكراني إلى دارها ....

* * *

٨

بدأ البيت الصغير القائم في أقصى الضاحية يلفت الأنظار ويثير الفضول... فعشرات من الأعين الظانة ظن السوء تتفحص جدرانه بعناية كبيرة، وأجنحة الشائعات القذرة تحوم في اضطراب حوله، والناس يسعون جاهدين لاكتشاف ذلك الأمر الخفي الذي أحسوه مختبئاً وراء حيطان المنزل المنتصب على شفا المنحدر. وفي بعض الأحيان، كانوا يتلصصون ليلا من خلال النوافذ، أو يقرعون الزجاج، ثم يولون الأدبار فزعاً دون تأخر. وفي ذات يوم، اعترض سبيل بيلاجيا في طريقها إلى السوق صاحب الحانة بيكونتسوف. وهو رجل عجوز جميل المحيا، يرتدي دائماً وشاحاً قرمزي اللون، وتحيط ربطة عنق حريرية سوداء عنقه المترهل باستمرار. وكان أنفه المدبب البراق مركوباً، في كل الأوقات، بنظارتين صنع إطارهما من عظم السلحفاة، الأمر الذي أكسبه لقب «ذي العيون العظيمة».

صب على الأم وابلا من الكلمات الجافة المتكسرة دون أن يستريح ليتنفس أو يتلقى جواباً...

قال لها:

— كيف حالك، يا بيلاجيا نيلوفنا، وكيف حال ابنك؟ إنه لا يفكر في الزواج، أليس كذلك؟ ومع هذا، فهو في سن موافقة للتأهل فيما أعتقد..

إن الأولاد، كلما تزوجوا باكراً، خففوا عن والديهم العناء والمشقة. والانسان يكسب جسداً وروحاً في جو العائلة، مثله مثل الفطر في إناء للخل. لو كنت مكانك لزوجته واسترحت، فالأيام الحاضرة تتطلب عيناً ساهرة تراقب تصرفات المرء، وقد أخذ الناس يعيشون حسب هواهم فيخلطون في التفكير، ويتحررون في العمل حتى استحقوا منا اللوم والعتاب. إن الفتيان لم يعودوا يؤمون كنائس الله أو يقتربون من الأماكن العامة، بل هم يتنحون الزوايا المظلمة ليتهامسوا بأسرارهم. وما الذي يدعوهم الى التذمر بودي معرفة ذلك! وما الذي يدفعهم لتحاشي الناس؟ وما الذي يخاف المرء أن يقوله أمام الناس علانية؟.. في الحانة مثلا! أسرار!.. إن المكان الوحيد للأسرار هو كنيستنا الرسولية المقدسة. وكل الأسرار الأخرى المحاكة في الخفاء هي وليدة الشذوذ والاختلاط العقلي. أتمنى لك صحة جيدة، يا بيلاجيا نيلوفنا.

ورفع قبعته بطريقة ذات مغزى، ولوح بها في الهواء، ثم انصرف تاركاً الأم في خضم من البلبلة والحيرة... ولاقتها في السوق، ذات يوم آخر، جارتها ماريا كورنوزوفا، وهي أرملة حداد تكسب عيشها ببيع الطعام عند بوابة المعمل. قالت لها:

— انتبهي لولدك هذا، يا بيلاجيا.

فسألت الأم:

— ماذا تعنين؟

فأسرت لها ماريا بصوت خفي:

— إن الشائعات تتردد، وهي شائعات سيئة وربي. يقولون إنه يؤلف جمعية سرية كجمعية «الخليستي» (١). وهم يسمونها شيعة، ويقولون إنهم سيأخذون،

(١) كلمة روسية مشتقة من السوط، أطلقت على فرقة دينية كان أعضاؤها يجلدون بعضهم بعضاً بالجلد المبرح (المترجان).

عما قريب ، يجلدون بعضهم بعضاً مثل الخليستي تماماً .

- كفى هراء ، يا ماريا !

فقالت البائعة المتجولة :

- لا نار بدون دخان ...

قصت الأم هذه الأحاديث على ابنها ، فاكتفى بهز كتفيه ، بينما طفق الأوكراني يضحك ضحكته العميقة الناعمة .

قالت الأم :

- والفتيات حانقات أيضاً . فأنتم فتيان رائعون تصلحون للزواج وأكثر . تعملون دون كلل ولا تسكرون ، ومع ذلك فلا تعيرونهن انتباهاً ، وهن يقلن إن فتيات ذوات سمعة مريبة يأتين لزيارتكم من المدينة .

فقال بافل ، وقد عبس استياءً واشمئزازاً :

- أوه ، طبعاً .

وقال الأوكراني ، مصعداً تنهدة عميقة :

- كل إناء بما فيه ينضح . وإنك لتفعلين حسناً ، يا أميمة ، إذا أوضحت لهؤلاء الفتيات الصغيرات ما هي الحياة الزوجية . وعندئذ لا يتسرعن على هذه الصورة وراء خلع رقابهن .

فقالت الأم :

- يا لله ! إنهن يرين كل شيء بوضوح ، ويفهمن جيداً . ولكن أية أمور أخرى مخبأة لهن ؟

وقال بافل :

- إذا كن يفهمن فليبحثن وراء سبيل للخلاص .

وتطلعت الأم إلى وجهه القاسي ، وقالت :

- ولماذا لا تعلمونهن ؟ أدعوا أكثرهن ذكاء ليأتين إلى هنا !

فقال الابن بجفاء :

— ذلك لن يفيد شيئاً .

فسأل الأوكراني :

— وماذا لو جربنا ؟

فصمت بافل قليلا قبل أن يجيب :

— وعندئذ يشرعون بالخروج من هنا أثنين إثنين ، ولا يلبث البعض أن يتزوجوا ، ويكون ذلك خاتمة المطاف ..

فاستغرقت الأم بالتفكير ....

كان تقشف بافل الرهباني يحيرها ، فهي ترى أن الجميع ، حتى الرفاق الذين يكبرونه سناً ، كالأوكراني مثلا ، يأخذون التوجيه منه ، إنما خيل إليها أنهم يخافونه أيضاً ، وأن احداً منهم لا يحبه بسبب صرامته هذه .

وفي ذات مساء ، بعد أن سعت الى فراشها وتركت ابنها والأوكراني يقرآن ، استطاعت أن تسمع ، من خلال الحاجز الخشبي الرقيق ، ما يدور بينهما من حديث خافت .

هتف الأوكراني على حين غرة :

— إني احب ناتاشا هذه .

فأجاب بافل بعد لحظة صمت :

— أنا أعرف ذلك !

وسمعت الأوكراني ينهض ببطء ويذرع الغرفة حافي القدمين . ثم أخذ يصفر بنعومة وإهمال ، وعاد يقول مرة أخرى :

— إني لأتساءل عما اذا كانت قد لاحظت ذلك !

فلم يحر بافل جواباً ...

خفض الأوكراني صوته ، وعاد يسأل :

— ما رأيك في الأمر ؟

— لقد لاحظت ذلك ، وهذا ما دعاها إلى الامتناع عن المجيء الى هنا.

فجر الأوكراني قدمه بشدة على الأرض ، وعاد يصفر صفيراً خفيتاً .

سأل :

— ماذا لو صارحتها ؟

— تصارحها بماذا ؟

— أصارحها ... أني ...

قال الأوكراني ذلك بصوت مخفوض ، بيد أن بافل قاطعه قائلا :

— وما الذي يدعوك الى ذلك ؟

فسمعت الأم الأوكراني يتوقف عن المسير، وخيل اليها أنه يبتسم ...

— أعتقد أنك إذا أحببت فتاة فلا بد أن تصارحها بعواطفك . وإلا فأي فائدة ترجى منها ؟

فأغلق بافل الكتاب بشدة ، وسأل :

— وماذا تنتظر أن ينتج عن ذلك ؟

سكت كلاهما لحظة طويلة ، وأخيراً سأل الأوكراني :

— حسناً ؟

فقال بافل ببطء :

— ينبغي عليك يا أندريه ، أن تمعن النظر جيداً فما تريد . فلنفرض أنها تحبك — وأنا أرتاب في ذلك — وأنك تزوجت منها . يا للصفقة الجميلة هي مثقفة ... وأنت رجل عامل ... ويأتي الأولاد فتضطر أن تتحمل وحدك عبأهم ومسؤوليتهم ... وإن ذلك يتطلب جهداً كثيراً . وستصبح الحياة نيراً ثقيلا في سبيل رغيف من الخبز ، في سبيل الأطفال وأجرة البيت. وعندئذ ، تخسركما القضية معاً .

خيم السكون برهة على الغرفة ، ثم عاد بافل إلى الحديث ، لكن صوته كان أعذب هذه المرة :

— من الأفضل ، يا أندريه ، أن تدع كل هذا جانباً ولا تثقل عليها .

— ومع ذلك ، فقد كان نيقولاي إيفانوفيتش يبشر دائماً بأن الحياة يجب أن تكون مستكملة القوى الجسدية والروحية ... أتذكر ذلك ؟

— نعم ، ولكن ذلك محرم علينا . أتستطيع أنت أن تبلغ الكمال ؟ ذلك لم يخلق لك يا أندريه ، فالمرء عندما يهوى المستقبل ويعيش له ، يتوجب عليه أن يتنازل عن كل شيء حاضر .. عن كل شيء ، يا أخي !

فأجاب الأوكراني بصوت مختنق :

— ولكن ذلك مؤلم .

— كل شيء كذلك الآن . أمعن النظر .

وخيم الصمت من جديد، إلا رقاص الساعة الذي يدق الثواني بوضوح رنان . وقال الأوكراني :

— نصف قلبي يحب ، والنصف الآخر يبغض ، أتسمي هذا قلباً ؟

وعلا حفيف تصفح أوراق الكتاب. لا ريب أن بافل قد عاد يقرأ من جديد.

استلقت الأم ، مغمضة العينين ، لا تجرؤ أن تتنفس ، وهي تتألم من صميم قلبها من أجل الأوكراني . وكان إشفاقها على إبنها أعظم . فكرت :

— يا حبيبي المسكين ! يا أيها الشهيد ! يا أيها الضحية !

وعلى حين فجأة ، انفجر الأوكراني قائلاً :

— وهكذا ، فأنت تعتقد أن عليّ الاعتصام بالصمت ؟

فأجاب بافل بهدوء :

— ذلك أشرف ما يمكن أن تفعل !

— ذلك ما سنفعله إذن .

وأضاف الأوكراني ، بعد ثوانٍ قليلة ، في رقة وكآبة :

- سيكون ذلك كثير القسوة ، يا بافل ، عندما تقع بدورك فيه .

إنه قاسٍ منذ الآن !

ونفخت الريح على جدران المنزل ، وثابر الرقاص على تسجيل مرور الزمن بدقة وأمانة ...

قال الأوكراني بتمهل :

- هذا ليس هزلاً ، أليس كذلك ؟

فطمرت الأم وجهها بين الوسائد وراحت تبكي دون أن تثير أدنى ضجيج ...

وفي الصباح ، خيل إليها أن أندريه قد تقلص حجمه واصبح أدعى إلى العطف والمحبة ، أما ابنها فكان مثله أبداً ، مستقيم العود ، نحيلاً ، صامتاً ...

كانت تنادي الأوكراني ، حتى ذالك الحين ، أندريه أو نيزعوفيتش ، أما اليوم فتوجهت إليه دون قصد منها :

- أندريوشا ، يفضل أن ترمم حذائيك وإلا أصابك منها برد .

فأجاب ضاحكاً :

- سأشتري زوجاً جديداً يوم الدفع المقبل .

ثم ألقى بذراعه الطويل حول كتفها ، وقال :

- لربما كنت أمي الحقيقية بعد كل هذا ، ولكنك ترفضين الاعتراف بذلك لشدة قبحي ، أليس كذلك ؟

فربتت على يده دون أن تجيب . كان بودها أن تقول أشياء كثيرة لطيفة ، ولكن قلبها كان منقبضاً شفقة وأسى ، والكلمات ترفض أن تغادر شفتيها . . .

٩

أخذ الناس في الضاحية يتحدثون عن الاشتراكيين الذين يوزعون مناشير مكتوبة بالحبر الأزرق ، تنتقد بشدة وعنف إدارة المعمل ، وتحدث عن إضرابات في بطرسبرج ، وفي جنوب الروسيا ، وتدعو العمال إلى الاتحاد في الدفاع عن مصالحهم الخاصة .

وغضب الكهول الذين كانوا يكسبون أرباحاً جزيلة من المعمل، واستشاطوا غيظاً ، وشرعوا يقولون :

— إنهم مشاغبون ، ويجب أن تحطم أفواههم لمثل هذه الأمور .

وحملوا المناشير إلى روسائهم ...

أمـا الفتيان فقرأوها في حماسة وقالوا :

— إنهم يقولون كل الحقيقة !

لكن أكثرية العمال لم يتحمسوا لتلك المنـاشير كثيراً . كان العمل المنهك قد أرهقهم وامتص كل قواهم . قالوا :

— لن يجدي ذلك فتيلا ، فهل يمكن أن تنقذنا مثل هذه الأشياء ؟

ومع ذلك ، فقد أحدثت المناشير اضطراباً وهياجاً عظيمين ، وعند ما انصرم أسبوع دون أن يصدر منها شيء جديد ، أخـذ العمال يدمدمون بينهم وبين أنفسهم :

- يبدو أنهم أقلعوا عن الاستمرار فيها !

بيد أن مناشير جديدة ظهرت ، على أية حال ، يوم الاثنين اللاحق ، فشرع العمال يتهامسون مرة أخرى ويلغطون . . .

وظهر في المعمل ، وفي الحانة ، أشخاص لا يعرفهم أحد ؛ وكان هؤلاء الناس لا ينفكون يراقبون ما يجري حولهم ، ويطرحون الأسئلة ، ويدسون أنوفهم في أمور الجميع على حد سواء ، فيثيرون الارتياب ، بحذرهم الشديد المبالغ فيه ، أو بأساليبهم في فرض أنفسهم على الناس .

وأدركت الأم أن كل هذا الهيجان وليد أعمال ابنها ، ورأت كيف يتألب الناس حوله ، فأخذ القلق على سلامته يساورها ممزوجاً بالاعتزاز والفخر .

وفي ذات مساء ، قرعت ماريا كورنوزوفا نافذة آل فلاسوف ، وقالت في همس مرتفع إذ فتحت الأم النافذة :

- حاذري يا بيلاجيا ، إنهم آتون الليلة لتحري منزلك ، وكذلك سيفتشون داريْ آل مازين وآل فيزوفشيكوف ...

واصطفقت شفتا ماريا الغليظتان بسرعة ، ثم شخرت من خلال أنفها الكبير ، وتنهدت وهي تختلس النظر يميناً وشمالاً ، وكأنها تبحث عن شخص ما في الشارع ، وقالت :

- وأنا لا أعرف شيئاً ، ولم أرو لك شيئاً ، ولم أرك هذا النهار ... أسمعت؟

ثم اختفت . . .

وتهاوت بيلاجيا ، بعد أن أغلقت النافذة ، خائرة القوى متخاذلة على أحد المقاعد . غير أن نذير الخطر الذي يهدد ابنها ما لبث أن أهاب بها ، فنهضت في الحال ، وارتدت ثيابها بسرعة ، وغطت رأسها بوشاح ، ثم خرجت تعدو في اتجاه دار فيودور مازين . كان مريضاً ، فلم يذهب إلى العمل ذلك النهار ... وإذ دخلت وجدته جالساً إلى النافذة يطالع كتاباً ،

وهو يعنى بيده اليمنى التي كان إبهامها مرتخياً بشكل غير طبيعي . شحب لونه لدى سماعه الأخبار الجديدة ، ثم قفز واقفاً على قدميه وهو يتمتم :

ـ إنها وربي تحية رائعة !

وسألت بيلاجيا ، وهي تمسح العرق عن جبينها بيد مرتجفة :

ـ فما العمل الآن ؟

فرد فيودور ، وهو يدفع شعره إلى الخلف بيده السليمة :

ـ انتظري لحظة ، ولا تجزعي !

ـ لكنك مذعور أنت الآخر !

فاحمرت وجنتاه ، وهتف :

ـ أنا ؟

ثم ابتسم مدركاً حالته ، وقال :

ـ نعم ... يا للشيطان ! يجب أن نعلم بافل بذلك . سأرسل إليه من يخبره . أما أنت فارجعي إلى الدار ولا تقلقي . إنهم لن يقتلونا ، أليس كذلك ؟

وعندما بلغت الدار جمعت سائر الكتب ثم راحت تطوف في البيت ، وهي تضمها إلى صدرها ، تنظر إلى الموقد تارة ، وما تحت الموقد تارة أخرى ، وحتى في برميل المياه أحياناً . وتخيلت أن بافل سيعود حالاً من العمل ، إنما لم يفعل ... وأخيراً جلست ، منهوكة القوى ، على دكة في المطبخ والكتب تحتها . وبقيت هنالك طويلا ، لا تجرؤ على الحركة ، حتى عاد بافل والأوكراني إلى الدار .

صاحت ، لدى رؤيتها لهما :

ـ هل تعرفان ؟

فأجاب بافل :

ـ نعم ، إننا نعرف . هل أنت خائفة ؟

- إني خائفة ، خائفة جداً !

فقال الأوكراني :

- يجب ألا تخافي . ذلك لا يفيد شيئاً .

ولاحظ بافل :

- إنها لم تهيىء السماور أيضاً !

فقالت الأم بلهجة المذنب ، وهي تنهض وتشير إلى الكتب :

- نعم ، بسبب هذه .

فانفجر الابن والأوكراني ضاحكين ، الأمر الذي سكن من روعها قليلا . وانتقى بافل بعض الكتب ، وذهب بها إلى الفناء الخارجي ليخفيها ...

وقال الأوكراني ، وهو يشعل النار تحت السماور :

- ليس ثمة ما تخافين منه ، يا أميمة . لكن من المخجل حقاً أن يضيع الناس وقتهم في مثل هذه السخافات ... إن رجالاً بالغين ، قد تحصروا السيوف ولبسوا المهاميز في أرجلهم ، سيأتون إلى هنا ، وينبشون كل شيء . وسينظرون تحت السرير ، وتحت الموقد ، وينزلون إلى القبو إن كان في دارك قبو ، ويصعدون إلى السقيفة ، وإلى السطح ، وستعلق خيوط العناكب في وجوههم ، وسينفخون في أنوفهم اشمئزازاً ، وسيتضايقون ، ويخجلون ، وبسبب من ذلك سيتظاهرون بأنهم شرسون غاضبون ، لأنهم يدركون تماماً نتانة مهنتهم وهوانها . ولقد شعروا بالضيق الشديد ، ذات مرة ، وهم يهاجمون أشيائي حتى إنهم تركوا كل شيء وانصرفوا ... وفي مرة أخرى أخذوني معهم ، وألقوا بي في السجن ، وتركوني هناك طوال أربعة شهور ... وأنت لا تفعلين شيئاً في السجن ، بل تجلسين ، وتظلين هكذا جالسة على الدوام . ثم تأتيك مذكرة إحضار إلى المحكمة ، فيقتادك الجنود خلال الشوارع ، ويشرع قاض كبير يوجه إليك بعض الأسئلة .

إن القضاة ليسوا بأذكياء دائماً ، بل هم يثرثرون كثيراً ، ثم يأمرون الجنود بالعودة بك إلى السجن . وهكذا يتقاذفونك ذهاباً وإياباً مدة طويلة ... فلا بد لهم ، على أية حال ، أن يفعلوا شيئاً كي يكسبوا أجورهم . وأخيراً ، في هذا العدو الذي لا ينتهي ، يطلقون لك الحرية ... وهذا كل شيء ...

هتفت الأم به مكتئبة حزينة :

يا له من أسلوب في الحديث ، يا أندريوشا !

فرفع وجهه الأحمر حيث كان جاثياً ينفخ النار في السماور وسألها ، وهو يفتل شاربيه :

- ما باله ؟

- كأن أحداً لم يؤذك أبداً !

فأعلن مبتسماً ، وهو ينهض ويهز رأسه :

- أفي أية بقعة من العالم نفس لم ينلها الأذى ؟ لقد آذوني كثيراً حتى لم أعد ألاحظ ذلك مطلقاً . ما عساك تفعلين ما دام الناس قد جبلوا هكذا ؟ إن ملاحظتك الأذى لا تفعل إلا اعتراض سبيلك ، وإنه لمضيعة للوقت أن تفكري فيما يؤذيك . هكذا هي الحياة ! كنت أجن فيما قبل ، وأحنق على الناس ، ثم وجدت ذلك لا يجدي فتيلاً ، ورأيت الأمر لا يستحق أن يغضب المرء له . إن كل إنسان يخاف مبادهة جاره له ، ولذلك يحاول أن يتغذى جاره قبل أن يتعشاه هذا ... وهكذا هي الحياة ، يا أميمة !

كانت كلماته تتدفق برفق فتطرد بعيداً مخاوفها من التفتيش المقبل ، وكانت عيناه الجاحظتان تبتسمان ... ألفته خفيف الحركة بالرغم من عدم رشاقته .

وتنهدت الأم ، ثم نبرت بحرارة :

- جعل الله حياتك سعيدة ، يا أندريوشا !

فسعى الأوكراني إلى السماور من جديد، وأكب أمامه مرة أخرى، وتمتم:

ـ لو أني وهبت قليلاً من السعادة لما رفضتها، ولكني لن أستجديها أبداً.

ورجع بافل من الفناء، وقال بثقة وهو يبدأ حمامه:

ـ إنهم لن يجدوها بتاتاً.

ثم التفت إلى أمه، وهو ينشف يديه، وخاطبها بقوله:

ـ إن ظهرت لهم خائفة، فسيفكرون عندئذ على هذا المنوال: لا بد أن يكون في هذا البيت شيء يجعلها ترتجف هكذا! أنت تعلمين أننا لا نرتكب شراً، وأن العدالة في جانبنا، وسنعمل طوال حياتنا من أجل هذه العدالة، وتلك هي جريمتنا الوحيدة، فلماذا تخافين إذن؟

فقطعت على نفسها عهداً:

ـ سأمسك زمام نفسي، يا باشا!

ولكنها ما لبثت، في اللحظة التالية، أن انفجرت تبكي بصورة مؤثرة أسيفة...

ـ لو أنهم يسرعون فقط، وينهون الأمر في أقرب وقت!

لم يأتوا ذلك المساء... وفي الصباح قطعت الأم على الشابين طريق السخرية منها، إذ كانت السابقة إلى الضحك من نفسها قالت:

ـ لقد جزعت قبل أن يحين وقت الجزع!

* * *

١٠

جاؤوا بعد شهر تقريباً من ذلك المساء المقلق... كان نيقولاي فيزوفشيكوف قد قدم لرؤية بافل وأندريه.. واستغرق ثلاثتهم في جدال يتعلق بالجريدة . وكان الليل قد جثم ، والأم قـد سعت إلى فراشها ، تسمع وهي تغفو أصواتهم الهادئة القلقة . ثم نهض أندريه ، واجتاز أرض المطبخ متلصصاً ، وأجاف الباب خلفه . وعلا في الدهليز ضجيج دلو يتدحرج ، ثم فتح الباب بعزم واندفع الأوكراني منه إلى المطبخ وهامساً بصوت عال :

- إن المهاميز تجعجع في الشارع !

فوثبت الأم من فراشها ، واختطفت ثيابها بيدين مرتعشتين ؛ وظهر بافل في مدخل الباب ، وهمهم بهدوء :

— عودي إلى فراشك ، فأنت ... لست على ما يرام

وسمع في الرواق الخارجي حفيف أقدام محاذرة متأنية ، فدنا بافل من الباب وفتحه بعزم وهو يقول :

— من هناك ؟

وظهر في الحال شخص طويل القامة ، ومن خلفه شخص آخر ، فيما دفع اثنان من رجال الدرك بافل إلى الخلف ، ووقف كل منها على أحد جانبيه . وارتفع صوت خشن ساخر يقول :

— لسنا من كنتم تنتظرون ، أليس كذلك ؟

كان المتكلم ضابطاً فارع القامة ، نحيل العود ذا شاربين أسودين مائلين إلى الشقرة . واتجه أحد رجال شرطة الموقع ، واسمه فيدياكين ، نحو سرير الأم ، وجمجم وهو يلمس قبعته بأحدى يديه ، ويشير بالأخرى إلى وجه بيلاجيا :

— تلك هي أمه ، يا صاحب السعادة .

ثم أضاف ، مشيراً إلى بافل :

— وهذا هو !

فاستوضح الضابط ، وهو يضيق فرجة عينيه :

— بافل فلاسوف ؟

فأومأ بافل إيجاباً . . .

وتابع الضابط ، وهو يفتل شاربيه :

— لدي أمر بتحري بيتك . انهضي أيتها المرأة ، من يوجد هناك ؟

وألقى نظرة من خلال الباب ، ثم دخل الغرفة المجاورة حيث جلجل صوته يقول :

— ما اسمك ؟

وظهر شاهدان عند عتبة الباب .. كان أحدهما السباك العجوز تفيريا كوف ، والآخر واقد النار ريبين ، وهو رجل ثقيل الجثة ، أسمر الوجه ، يستأجر غرفة في دار تفيريا كوف . حيا الأم بصوت أجش خفيض :

— عمي مساء ، يا نيلوفنا !

أما هي فكانت تردد لنفسها دون انقطاع ، وهي ترتدي ثيابها ، مستحثة شجاعتها وجلدها :

— أبداً لم أسمع بمثل هذا الأمر ، كيف يأتون في منتصف الليل هكذا ،

والناس نيام ؟ ثم هم يدخلون الدار أيضاً .

ازدحمت الغرفة، وفاحت بقوة من أرجائها، لسبب ما ، رائحة شمع الأحذية، وكان دركيان ورئيس شرطة المخفر المحلي يتناولون الكتب من فوق الرفوف بصخب وضجيج ، ويرميان بها على المنضدة أمام الضابط ، فيما دركيان آخران يضربان على الجدران بقبضات أيديهما، ويفتشان تحت المقاعد ، لا بل تسلق أحدهما الموقد في جهد عظيم . وكان الأوكراني وفيزوفشيكوف يقفان جنباً إلى جنب في إحدى الزوايا ، وقد امتلأ وجه نيقولاي المجدور بلطخات حمر ، وهو يرمق بعينيه الصغيرتين الرماديتين وجه ذلك الضابط ، ولا يحيد بهما عنه . ووقف الأوكراني يفتل شاربيه ، حتى إذا دخلت الأم الغرفة أرسل ضحكة قصيرة ، وهز رأسه لها مشجعاً .

ولكي تتغلب الأم على خوفها وجزعها ، لم تمل إلى أحد الجانبين كعادتها دائماً ، بل مشت منتصبة القامة ، مرتفعة الصدر ، الأمر الذي أغدق على هيئتها مظهر عظمة وأبهة مضحكتين . وراحت تدب على الأرض بتحد صاخب ، إلا أن حاجبيها كانا يرتجفان ...

كان الضابط يختطف الكتب بأصابع يده البيضاء الصغيرة ، ويقلب صفحاتها بسرعة ، ثم يلقيها جانباً بجفاء وقوة ، فيتساقط بعضها على الأرض دون أن تحدث ضجيجاً . وكان الجميع سكوتاً ، والأصداء الوحيدة المترددة هي لهث الشرطة المتصببين عرقاً ، وقرقعة مهاميزهم ، وبعض أسئلتهم الطارئة :

— أفتشت هنا ؟

واستندت الأم إلى الحائط بالقرب من ولدها بافل ، وذراعاها متشابكتان كذراعيه ، وعيناها تلاحقان كل حركات الشرطة وسكناتهم ، وهي تحس ضعفاً شديداً يتسلط على ركبتيها ، وغشاوة مظلمة جافة تستر عينيها .

وارتفع صوت نيقولاي الحاد ، فجأة ، يرعد وسط ذلك السكون :



وارتفع صوت نيقولاي الحاد ، فجأة يرعد وسط
ذلك السكون .

— لماذا تلقون الكتب على الأرض ؟

فوجمت الأم.. وانتفض رأس تفيريا كوف وكأن أحدهم دفعه بعزم، وزمجر ريبين رامياً نيقولاي بنظرة ثابتة .

ضيق الضابط فرجة عينيه ، وساقط نظرة على وجه نيقولاي المتحجر المجدور ، وشرع يقلب صفحات الكتب بسرعة أكثر من ذي قبل . وأحياناً ، كان يفتح عينيه الرماديتين الواسعتين محملقاً ، وكأنه يشكو ألماً ممضاً ، وهو على وشك الانفجار باكياً في احتجاج عاجز .

قال فيزوفشيكوف مرة ثانية :

— هيه ، أنت أيها الجندي ! إلتقط الكتب من الأرض !

واستدار رجال الدرك جميعاً ، وشخصوا إليه . ثم انحرفوا بأبصارهم جهة الضابط . فرفع الأخير رأسه ، وغمر وجه نيقولاي العريض بنظرة فاحصة ثاقبة ، ثم جمجم من أنفه :

— م-مْ-مْ ! إلتقطوها !

فأكب دركي على الأرض ، وراح يجمع الكتب المبعثرة ...

همست الأم في أذن بافل :

— يجدر بنيقولاي أن يمسك لسانه !

فهز كتفيه ، ونكس الأوكراني رأسه ...

— من يقرأ هذه التوراة ؟

فأجاب بافل :

— أنا !

— ولمن كل هذه الكتب ؟

فأجاب بافل :

— هي لي !

فقال الضابط ، مستنداً بظهره إلى مسند مقعده :

— حسناً ، حسناً جداً !

وطقطق بأصابع يديه الرشيقتين ، ومد ساقيه تحت الطاولة ، وفتل شاربيه ، ثم قال مخاطباً نيقولاي :

— أأنت أندريه ناخودكا ؟

فرد نيقولاي ، وهو يتقدم منه :

— نعم !

فأمسك الأوكراني به من كتفه ، ودفعه إلى الوراء :

— لقد التبس الأمر عليه فأخطأ ، أنا هو أندريه ...

فرفع الضابط يده ، وهز إصبعه الصغيرة في وجه فيزوفيشكوف مهدداً :

— يحسن بك أن تنتبه لخطواتك جيداً !

ومن ثم عاد يقلب أوراقه ، باحثاً متفحصاً ...

كان الليل ، بنور قمره الأضحيان الصافي ، يطل من النافذة ، بارداً غير مبال ؛ والثلج يتكسر تحت أقدام شخص ما يمر بالمنزل متباطئاً .

سأل الضابط :

— ناخودكا ؟ هم ! ألست ذلك العصفور الذي اعتقل في الماضي بتهمة جريمة سياسية ؟

— نعم . مرة في روستوف ، وأخرى في ساراتوف ... إنما كان رجال الدرك هناك أكثر تأدباً .

فأغمض الضابط عينه اليمنى ، ثم فركها ... وأخيراً أبان ، مكشراً عن أسنانه الصغيرة :

— هل بلغك ، مصادفة ، من هم أولئك المُدرَة الذين يوزعون مناشير سرية مجرمة في المصنع ؟

فكشر الأوكراني ، وهز عقبيه ، وهم أن يقول شيئاً ... وإذا نيقولاي يقتحم الميدان قائلا !

— هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها سافلا ساقطاً !

وخيم سكون عميق عميق ، وجمد كل شيء لحظة قصيرة ...

وازدادت الندبة في وجه الأم بياضاً ، وأسبل جفنها الأيمن ، وأخذت لحية ريبين السوداء ترتجف بشكل غريب ، فدفع أصابعه في وسطها يمشطها ، ثم أغلق عينيه .

قال الضابط :

— إحملوا هذا الكلب من هنا !

فقبض الدركيان على نيقولاي من ذراعيه ، ودفعاه بقسوة داخل المطبخ حيث وقف ، وضرب الأرض بقدمه ، وصاح :

— انتظروا ! أريد أن أرتدي ثيابي !

ودخل مفوض الشرطة قافلا من الساحة ، وقال :

— لم نجد شيئاً هناك .. لقد فتشنا كل مكان .

فهمهم الضابط باستهزاء :

— طبيعي . إننا نتعامل مع رجل بارع مجرب .

وأصغت الأم إلى صوته الضعيف المرتجف ، وراحت تشخص بخوف إلى وجهه الأصفر ، وهي تحس أنها أمام عدو لدود عمر قلبه بغضاً كاذباً لعامة الشعب . إنها لم تحتك بمثل هؤلاء الناس إلا في الندرى ، ولقد كادت أن تنسى وجودهم تقريباً . وفكرت :

— إذن ، فهؤلاء هم الذين أقلقتهم المناشير وأزعجتهم .

— يا أندريه أونيزيموف .. الابن غير الشرعي الذي يحمل اسم ناخودكا ، أنت موقوف !

فسأل الأوكراني بهدوء :

- ولِمَه ؟

فقال الضابط برقة خبيثة :

— ستكتشف ذلك فيما بعد ؟

واستدار إلى بيلاجيا ، وسألها :

— أتحسنين القراءة والكتابة ؟

فأجاب بافل :

— كلا ! إنها تجهل ذلك .

فصاح الضابط بحدة :

— أنا لا أسئلك أنت . أجيبي . أيتها المرأة !

كانت حوانب الأم قد طفحت بكراهية شديدة لهذا الرجل . وانتابتها نوبة من الارتعاش على حين غرة فكأنها سقطت في ماء بارد كل البرودة ، وانتصبت مستقيمة العود ، وقد شحبت الندبه في وجهها، وارتخى حاجباها كثيراً فوق عينيها . قالت ، وهي تلوح بيدها :

— لا حاجة تدعوك للصياح ، فأنت لما تزل صغيراً حتى تعرف معنى الهم والقلق .

فقال بافل ، وهو يحاول اعتراض طريقها :

فصاحت ، وهي تندفع في اتجاه المنضدة :

— هدئي من روعك يا أماه !

- انتظر ، يا بافل ! لماذا تأخذ هؤلاء الناس ؟

فصاح الضابط ، وهو ينهض :

— هذا لا يعنيك أبداً!اصمتي!أحضروا فيزوفشيكوف ، فهو موقوف أيضاً.

ثم راح يقرأ ، من جديد ، ورقة أمسك بها قريباً من أنفه ، وجيء

نيقولاي ... فتوقف الضابط عن القراءة وصاح :

- إنزع قبعتك عن رأسك !

وتقدم ريبين من بيلاجيا ، ودفعها بكتفه بلطف ، وقال :

ـ لا تقلقي يا أماه !

وسأل نيقولاي ، مغطياً بصوته قراءة مذكرة الاجراءات :

ـ وكيف أستطيع نزع قبعتي إذا كانوا يمسكون بكلتا يدي ؟

وصاح الضابط . رامياً بالورقة على المنضدة :

وقعوها !

راحت الأم ترقبهم يوقعون ، وقد استكنت حمياها وتلاشت جرأتها ، وغصت عيناها بالدموع ، دموع الأذية التي لا مرد لها . لقد ذرفت مثل هذه الدموع خلال عشرين عاماً من حياتها الزوجية ، ولكنها كادت تنسى خلال السنوات القليلة الأخيرة ، معنى تلك الدموع ولذعتها المؤلمة الحارة .

حدجها الضابط بنظره طويلا ، ثم قال مكشراً في ازدراء وترفع :

ـ الأفضل أن توفري دموعك ، أيتها الأم ، وإلا لم يبق لك منها شيء للمستقبل القريب .

فأجتاحتها موجة ثانية من الغضب المر ...

ـ إن للأم دائماً ، ما يكفيها من الدموع لكل شيء ـ لكل شيء ! وإن كانت لك أم ، فهي لا بد تعرف ذلك !

فوضع الضابط أوراقه متسرعاً في محفظة جديدة لامعة ، وأصدر أوامره بالمسير في لهجة عسكرية .

قال بافل بحرارة وهدوء ، وهو يصافح رفيقيه :

ـ إلى اللقاء ، يا أندريه ؛ إلى اللقاء ، يا نيقولاي !

فقال الضابط ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

ــ ستجتمع بها عما قريب ، هذا أمر لا ذرارة فيه .

راح فيزوفشيكوف يتنفس بصعوبة ، واحتقن الدم في عنقه الغليظ ، والتمعت عيناه بغضب شديد قاس . أما الأوكراني فأومض وجهه بابتسامة لطيفة ، وهز رأسه ، وأسر شيئاً في أذن الأم . فرسمت الأم إشـارة الصليب فوق رأسه ، وقالت :

ــ إن الله يرى من هو المحق ...

وأخيراً تجمهر أولئك الذين يرتدون سترات رمادية ، واتجهوا إلى الممر ، ثم اختفوا ، وقرقعة مهاميزهم تثير ضجيجاً مزعجاً . وكان ريبين آخر من غادر المكان ، وهو يحدج بافل بنظرة طويلة .

ــ حسناً ، إلى اللقاء !

قال هذا مفكراً ، ثم لفظه الباب ، وهو يسعل في لحيته ... وعقد بافل يديه خلف ظهره ، وراح يذرع أرض الغرفة ببطء وتمهل ، وهو يخطو فوق الكتب والثياب المبعثرة على الأرض ،

قال بصوت كئيب :

ــ أرأيت هذا هو أسلوبهم في ذلك .

ورمقت الأم فوضى الغرفة بنظرة إنكار ، وسألت في أسف وأسى :

ــ ولم كان نيقولاي وقحاً هكذا ؟

ــ أعتقد أنه كان خائفاً .

وهمهمت ، وهي تلوح بيديها :

ــ لقد دخلوا ــ وقبضوا عليهم ــ واقتادوهم ــ هذا كل شيء !

إن ابنهـا لم يعتقل ، ولذلك يخفق قلبهـا في شيء أكثر من الهدوء . ولكن أفكارها شلت تماماً أمام ذلك الحادث غير المفهوم الذي كانت شاهدة عليه .

— لقد سخر منا ، ذلك الرجل الأصفر الوجه ، وحاول إخافتنا ...
فقال بافل في حزم مفاجيء :
— حسناً ، يا أماه ، تعالي نرتب كل شيء .
ناداها « أماه » بتلك اللهجة التي يستعملها عندما يشعر بالعطف عليها .
فدنت منه ، ونظرت في وجهه ، ثم سألته بهدوء :
— هل آلمك ؟
— نعم ، فذلك صعب جداً . ليتهم أخذوني مع الآخرين .
وخيل اليها أن الدموع تترقرق في عينيه ، فتنهدت وقالت وهي تجاهد كي تخفف عنه الألم الذي استشعرته في غموض :
— صبراً ، فلسوف يأخذونك أيضاً .
— ذلك لا ريب فيه .
واعتصمت بالصمت لحظة ، ثم قالت أخيراً :
— ما أقساك ، يا بافل ! يجدر بك بالأحرى أن تطمئن والدتك وتهون عليها ، فأنا أقول أشياء مخيفة ، وأنت تزيد الشر تفاقماً .
فتطلع إليها ، ثم دنا منها وقال :
— لست أدري كيف أفعل ذلك ، يا أماه . يجب أن تعتادي عليه .
فتنهدت ، وصمتت لحظة ، ثم سألته وهي تحاول ألا يختنق صوتها :
— أتعتقد أنهم يعذبون الناس ؟ وأنهم يمزقون أجسادهم ويحطمون عظامهم ؟ كلا فكرت في ذلك ... أواه ، يا عزيزي ، ما أبشعه !
— إنهم يحطمون الروح ، وهذا أكثر أذية . عندما يضعون أيديهم الوسخة على روحك ...

١١

واتضح في اليوم التالي أنهم ألقوا القبض أيضاً على بوكين ، وصموئيلوف ، وسوموف ، وخمسة آخرين . . . وفي العشية ، جاء فيودور مازين على غير انتظار . لقد فتشوا بيته أيضاً ، وهو مسرور جداً ، يغمر قلبه الشعور بصيرورته بطلاً بكل معنى الكلمة .

سألته الأم :

— أكنت خائفاً ، يا فيودور ؟

فشحب وجهه ، وقست تقاسيمه ، وارتجف جناحا أنفه :

— خفت أن يضربني الضابط . كان بدين الجثة ، ذا شعر أسود ، وأصابع غزيرة الشعر ، ونظارتين سوداوين فوق أنفه توهمان أنه فاقد العينين . وكان يضرب الأرض بقدمه ، ويصيح : « سوف ألقي بك في السجن » . إن أحداً لم يضربني قط ، حتى ولا والداي ، فأنا ابنهما الوحيد ، وهما يحبانني كثيراً .

وأغمض عينيه برهة وضمّ شفتيه بشدة ، ودفع بشعره الى الخلف بحركة رشيقة من كلتا يديه :

— إذا جرؤ أحد يوماً على أن يضربني ، فسألقي بنفسي فيه كالمدية ، وأعضه بأسناني . وليقتلوني بعدئذ ، فذلك أفضل لي .

فقالت الأم متعجبة :

— إنك أضعف من أن تستطيع ذلك ، وأظنك لست بالمقاتل الشديد ...

فأجابها فيودور بصوت خافت :

— إنما سأقاتل على أية حال .

قالت الأم لبافل ، بعد أن انصرف فيودور :

— سوف يكون أول من يولي الأدبار .

ولكن بافل لم يحر جواباً ...

وبعد دقائق ، فتح باب المطبخ ، ودلف ريبين منه قائلا ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

— مرحباً ، يا قوم . هأنذا هنا مرة أخرى . البارحة أتو بي قسراً ، أما الآن فقد جئت بمحض إرادتي .

وصافح بافل بحرارة ، وأمسك بيلاجيا من كتفها ، وسأل :

— ما رأيك في قدح من الشاي ؟

تفحص بافل ، في سكينة ، وجه الضيف العريض ، الخمري اللون ، بلحيته السوداء الكثة ، وعينيه السوداوين . وكانت نظرته طافحة بمعان شتى .

ودلفت الأم إلى المطبخ كي تهيىء السماور ، أما ريبين فجلس واعتمد المائدة بمرفقيه ، ورنا إلى بافل برهة ثم قال ، وكأنه يتابع حديثاً سابقاً لم ينته :

— حسناً ، إني أريد محادثتك بصراحة تامة ، فقد ظللت أراقبك زمناً طويلا ، ولاحظت قبل كل شيء ، باعتباري جاراً لك تقريباً ، أن بعض الناس يأتون منزلك دون انقطاع ، ولكنهم لا يسكرون أو يأتون أمراً إدّاً . ولا مفر من ملاحظة الناس عندما يحسنون السلوك ، فالمرء يتساءل عندئذ عما حدث ، وعما يدفعهم إلى ذلك . وأنا نفسي عرضة

للانتظار الآن ، لأني أختلي بنفسي دون الناس .

كان كلامه يتدفق ثقيلاً هادئاً . وهو يسرح لحيته بيد سوداء كبيرة ، ويشخص بامعان في وجه بافل :

— لقد شرع الناس يتحدثون عنك ، منهم صاحب البيت الذي أسكن فيه ، وهو يدعوك كافراً لأنك لا تذهب إلى الكنيسة ، وأنا لا أذهب أيضاً . ثم هناك تلك المناشير ، أهي من صنعك ؟

— نعم .

فصاحت الأم جزعة ، وهي تطل برأسها من خلال باب المطبخ :

— ماذا تقول ؟ إنك لست الوحيد في هذا .

فضحك بافل ، وكذلك فعل ريبين ، وقال هذا الأخير :

— حسناً .

وتنهدت الأم ، وابتعدت مستاءة نوعاً ما من طريقتهما في تجاهل كلماتها .

وعاد ريبين يقول :

— فكرة عظيمة هذه المناشير ... فهي تثير الناس . لقد أصبح عددها تسعة عشر منشوراً ، أليس كذلك ؟

— نعم .

— وهذا يعني أني قرأتها جميعاً . إن بعض ما تحويه ليس واضحاً ، والبعض الآخر ليس ضرورياً ، ولكن عندما يكون عند المرء أمور كثيرة يريد الافضاء بها ، فمن الصعب ألا يدس بينها كلمة زائدة أو كلمتين .

وابتسم ريبين ، فكشف عن أسنان متينة بيض ، وعاد يقول :

— ثم جاء التفتيش ، وذلك الذي حملني اليكم أكثر من أي شيء آخر . أنت والأوكراني ونيقولاي ، ثم أظهرتم جميعاً ...

ولما أعوزته الكلمات المناسبة ، جنح إلى الصمت ، وهو يتطلع من النافذة

إلى الخارج ، وينقر بأصابعه على المائدة :

ــ أظهرتم قوة الركيزة التي تستندون عليها ، إن صح التعبير . . .

« إذهب أنت إلى واجبك ، يا صاحب السعادة ، ونحن نلتفت أيضاً إلى واجبنا » . والأوكراني أيضاً طيب رائع ، وعندما أسمعه أحياناً يتحدث في المصنع أقول في نفسي : ليس من وسيلة لسحقه ، والموت وحده يستطيع أن يقهره . إنه لقوي الشكيمة ، نُحتَ من صخر . هل تثق بي ، يا بافل ؟

فأجاب بافل باشارة من رأسه :

ــ نعم ، إني أثق .

ــ حسناً ! أنظر إليَّ ــ إن لي من العمر أربعين عاماً ــ فأنا أكبرك سناً بمرتين إذن ، وأستطيع القول إني رأيت من أمور الدنيا أكثر مما رأيت أنت بعشرين مرة . ولقد قضيت في الجندية ما يزيد عن ثلاث سنوات. تزوجت مرتين . وزوجتي الأولى ماتت ... وهجرت الثانية . ولقد ذهبت إلى القوقاز ، ورأيت « الدوخوبورتسي »(١). إنهم لا يعرفون كيف يبارون الحياة يا أخي ، إنهم لا يعرفون ...

كانت الأم تصغي بلهفة إلى حديثه القاسي ، وهي سعيدة جداً بأن يفتح مثل هذا الرجل الكهل قلبه أمام ابنها . ولكنها وجدت أن معاملة بافل له جافة نوعاً ما ، وأرادت أن تعوض عن تلك الجفوة بحسن ضيافتها . قالت :

ــ لعلك تحب أن تأكل شيئاً ، يا ميخائيلو إيفانوفيتش ؟

ــ شكراً ، أيتها الأم ، فلقد تناولت عشائي . وهكذا تعتقد يا بافل أن الحياة ليست كما يجب أن تكون ؟

---

(١) فرقة دينية

ونهض بافل ، وطفق يراوح ويغادي في الغرفة ويداه خلف ظهره ، وقال :

ـ إنها تتجه في الصراط القويم ، ألم تأت بك إلي بقلب مفتوح ؟ إنها تجمعنا قليلاً قليلاً ، نحن الذين نقضي العمر في العمل ، وسيجيء اليوم الذي تجمع فيه كل البشر معاً . إن الحياة قاسية وصعبة بالنسبة إلينا ، ولكن الحياة نفسها تفتح أعيننا على أكثر معانيها مرارة ، وترينا كيف نعجل في حل قضاياهـا .

فقال ريبين :

ـ هذا صحيح ، فالانسان يحتاج إلى إصلاح وتجديد واسعين . فالمرء إذا لحق القمل به أرسلته إلى الحمام ، ودلكته جيداً ، ثم أعطيته ثياباً نظيفة . وعندئذ يصبح مقبولاً من جديد ، أليس كذلك ؟ ولكن ، كيف نستطيع تنظيف المرء من الداخل ؟ تلك هي القضية !

فراح بافل يتكلم في حماسة واندفاع عن الله ، والقيصر ، والمعمل ، والسلطات ، وعن النضالات الخائض غمارها العمال في البلاد الأخرى دفاعاً عن حقوقهم . وكان ريبين ينقر على الطاولة أحياناً وكأنه يحـدّد المقاطع والمواقف في حديث بافل . وكثيراً ما كان يهتف :

ـ تلك هي القضية ! تلك هي القضية !

وضحك مرة ، وقال بهدوء :

ـ إنك ما زلت حدثاً ، ولم تتعلم كيف تعرف الناس .

فأجاب بافل برزانة ، وهو يقف أمام ريبين :

ـ فلندع الكلام عن الشيوخ والفتيان جانباً ، ولنرَ الحق في أي صف يقف .

ـ إذن فأنت تعتقد أنهم حاولوا أن يخدعونا فيما يتعلق بالله أيضاً ؟ هو ذلك ، فأنا أعتقد أن ديانتنا لا تنفع شيئاً .

وهنا تدخلت الأم في الأمر. كانت - كلما تحدث ابنها عن الله، وعن الأمور ذات العلاقة بأيمانها به، هذا الايمان العزيز على قلبها والمقدس في نظرها - تسعى إلى ملاقاة عين فتاها، وتتوسل إليه في صمت ألا يجرح قلبها بكلمات إلحاده القاسية. ولكنها كانت تخمن، خلف ذلك الالحاد، إيماناً؛ فيواسيها ذلك ويرفه عنهـا،

كانت تفكر :

- كيف أستطيع فهم أفكاره :

هدهد لها أن ذلك الرجل الكهل لا بد مستاء مثلها من كلمات ابنها. لكن إذ طرح ريبين ذلك السؤال بكل هدوء، لم تعـد تستطيع أن تمالك نفسها، فصاحت :

- أما فيما يتعلق بالرب، فخير لكما أن تكونا أكثر روية فيما تقولان.

وأرسلت نفساً عميقاً عميقاً، ثم أضافت بحماسة مضاعفة :

- يمكنكما أن تفكرا فيما يروقكما. أما أنا، المرأة العجوز، فلن يبقى لي شيء ألتفت إليه في آلامي لأسأله الغوث والمعونة إذا ما طرحتما الله بعيداً عني.

واخضلت عيناها بالدموع، وأخذت يداها ترتجفان وهي تغسل الصحون.

قال بافل بلطف :

- إنك لم تفهمينـا.

وقال ريبين بصوته العميق المتماهل :

- إصفحي عنا، يا أمـاه.

وأرسل ضحكة قصيرة، وهو يختلس النظر إلى بافل، ثم أضاف :

- لقد غاب عن بالي أنك أكبر سناً من أن تستأصلي ما فيك من ثآليل.

وتابع بافل :

ـ أنا لم أكن أتحدث عن الله الطيب الرحيم الذي تؤمنين به . بل عن ذلك الآله الذي يحاولون باسمه جعل الشعب بأسره ينحني أمام إرادة البعض الشريرة .

فصاح ريبين ، وهو يضرب الطاولة بقبضة يده :

ـ تلك هي القضية ! لا بل قد استأجروا من أجلنا إلهاً كاذباً . وهم يحاربوننا بكل ما تقع عليه أيديهم دون تفريق ! فكري في هذه اللحظة، يا أماه ! إن الله قد خلق الانسان على صورته ومثاله ، وهذا يعني أنه يشبه الانسان ، ما دام الانسان يشبه الله . ولكننا نحن أشبه بالوحوش الكاسرة منا بالآلهة ؛ والكنائس إنما تلوح بفزاعة في وجهنا ليس غير . إن علينا أن نبدل إلهنا يا أماه ، وعلينا أن نطهره كذلك . لقد أحاطوه بالأكاذيب والافتراءات ، وشوهوا وجهه كي يقتلوا أرواحنا .

كان يتحدث بعذوبة ، ومع ذلك وقعت كل كلمة من كلماته صفعة على رأس الأم الذاهلة التي أجفلت خوفاً من ذلك الوجه العريض المكتئب في إطار لحيته السوداء . وعجزت عن تحمل البريق الأسود في عينيه الباعثتين في قلبها جزعاً مؤلماً .

قالت ، وهي تهز رأسها :

ـ لا ، لا ، إني ذاهبة ، فسماع مثل هذه الأمور يتجاوز قواي .

ودفت إلى المطبخ ، فيما ريبين يقول لبافل :

ـ أرأيت ، يا بافل ؟ ليس الرأس ، بل القلب ... ذلك هو الأمر الأهم . القلب هو مكان خاص جداً بالنفس الانسانية ، ولا يمكن أن ينمو فيه شيء آخر على الاطلاق .

فقال بافل بعزم :

ـ العقل وحده يقوى على تحرير الانسان .

فعاد ريبين يقول بصوت مرتفع :

ــ العقل لا يهب الانسان القوة . إن قلبه من يهب القوة ، لا عقله .

وخلعت الأم ثيابها ، ومضت إلى فراشها دون أن تتلو صلواتها . كان إحساس بارد مقيت يعتصرها في قبضتيه . ولم يعد ريبين . الذي بدا لها للوهلة الأولى ذكياً باعثاً على الاهتمام ، يثير فيها الآن إلا شعور العداوة والنفور .

كانت تفكر ، وهي تستمع إلى صوته :

ــ الكافر ! الملحد ! ما الذي أتى به إلى هنا ؟

لكنه تابع حديثه بثقة هادئة :

ــ لا يمكن أن نترك المكان المقدس فارغاً ! فالمكان الذي يحتله الله من القلب البشري هو أكثر الاماكن إيلاماً . فان أنت نزعته من هناك ترك جرحاً كبير جداً . يجب إذن أن نفكر في إيمان جديد ، يا بافل . يجب أن نخلق إلهاً يكون صديقاً للانسان . تلك هي القضية !

فهتف بافل في حماسة :

ــ هناك المسيح !

ــ المسيح لا يملك جرأة روحية . لقد قال : لو ترفع عني هذه الكأس ! ثم هو اعترف بقيصر . كيف يمكن لله أن يعترف بسلطة دنيوية على مخلوقاته ؟ هو نفسه القوة المهيمنة الوحيدة . يستحيل أن يقسم نفسه أجزاء هذه حصة الله ، وتلك حصة الانسان . ولكن المسيح قبل بالتجارة ، وكذلك بالزواج ثم إنه كان مخطئاً عندما لعن شجرة التين ــ أكانت شجرة التين تستحق اللوم لأنها لم تحمل ثمراً ينوعاً ؟ وكذلك النفس البشرية لا تستحق اللوم إنْ لم تحمل ثمراً صالحاً . أأنا الذي بذرت هذا الشر في نفسي ؟

ظل الصوتان يتشابكان في الغرفة ، يلتحمان ويتدافعان في نضال شديد ، والأرض تصر تحت وقع أقدام بافل وهو يذرعها روحةً جيئة . وعندما كان بافل يتكلم ، كانت سائر الأصداء تتلاشى تماماً ، فاذا تكلم ريبين استطاعت الأم أن تسمع صوت تأرجح الرقاص ، وطقيق الجليد على جدران الدار .

– سأقول ذلك بكلماتي الخاصة ، كلمات الوقاد : إن الله لهيب خالص ، وهو يعيش في القلب . وقديماً قيل : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان الله » . وهكذا ، فان الكلمة هي الروح .

فعقب بافل يقول باصرار :

– الكلمة هي العقل !

– حسناً ، فالله إذن في القلب والعقل معاً ، وليس في الكنيسة . الكنيسة هي لحد الله .

واستغرقت الأم في النوم ، فلم تشعر بريبين وقتما غادر المنزل ...

بيد أنه أصبح منذ ذلك الحين ضيفاً دائماً . فان كان ثمة أحد من رفاق بافل ، جلس ريبين في إحدى الزوايا دون أن يقول شيئاً ، أللهم إلا أن ينطق – فيما ندر – بهذه الكلمات :

– تلك هي القصة !

وفي ذات مرة لف الجماعة بنظرته السوداء ، وقال مستاءً :

– يجب أن نتحدث عن الأشياء كما هي الواقع لا كما سوف تكون.. من يعرف ذلك ؟ عندما يحصل الناس على حريتهم ، فعندئذ يقررون أفضل الأمور لهم . لقد كفاهم ما حشيت أدمغتهم به حتى الآن دون أن يطلبوا ذلك . لقد آن الوقت ليعطوا فرصة يفعلون بها شيئاً من تلقاء أنفسهم، ولربما أرادوا أن يرفضوا كل شيء ، جمل الحياة والمعرفة . ولربما وجدوا

أن كل شيء ، كألـّه الكنيسة ، موجه ضدهم . ضعوا الكتب بين أيديهم ، يجدوا بأنفسهم الأجوبة على أسئلتهم . تلك هي القضية :

وإن كان وبافل معاً ، دخلا مباشرة في نقاش لا ينتهي ، لا يفقدان خلاله أبداً ، زمام نفسيهما . وكانت الأم تصغي إليهما في قلق واضطراب ، وتلاحق كل كلمة من كلماتهما ، جاهدة أن تفهم معنى أقوالهما . وكان يخيل إليها أحياناً أن الرجل العريض المنكبين ، الأسود الذقن ، وابنها المديد القامة ، المتين البنيان ، فقدا البصر تماماً . فهما ينطلقان أولا في أحد الاتجاهات ، ثم في اتجاه آخر ، يفتشان عن طريق للخروج ، ويمسكان بكل شيء بين أصابعهما القوية العمياء ، متنقلين من مكان إلى آخر ، دافعين بالأشياء على الأرض ليطآها بأقدامهما . كانا يرتطمان بالأشياء . ويتحسسانها ، ثم يقذفان بها بعيداً دون أن يفقدا إيمانهما وآمالهما .

علمَاها أن تسمع كلمات مخيفة في صراحتها وجرأتها . ولكن هذه الكلمات لم تعد تؤلمها بذات القوة التي أوجعتها بها في المرة الأولى — لقد تعلمت أن تدفع بها بعيداً عنها . وكانت تميز ، أحياناً ، وراء الكلمات الجاحدة بالله إيماناً ثابتاً به ، فتبسم عندئذ ابتسامة هادئة صفوحاً ، واستمر ريبين لا يروق في عينيها ، وإن لم يعد يثير نفورها أبداً .

وفي كل أسبوع ، كانت تحمل إلى الأوكراني في سجنه كتباً وثيابا نظيفة ، ونالت الأذن مرة في رؤيته ؛ فروت بحنان ، عندما عادت ، أثر تلك المقابلة فيها . قالت :

- إنه لم يتبدل أبداً . طيب على الدوام لكل الناس ، وكل الناس يمازحونه . إن ذلك يؤلمه جداً ، ولايظهر أوجاعه .

فعلق ريبين على ذلك بقوله :

ــ هذا حسن . فالحزن مخبأ ، ونحن في داخله . وقد تعودنا مثل هذا الثوب . وليس في هذا ما يستحق الفخر . ولكن ، ليس كل الناس قد وضعوا عصابات على أعينهم . ثم ان البعض يسجنون أنفسهم بأنفسهم ، تلك هي القضية ! فان كنا أغنياء ، فليس أمامنا إلا التجهم وتحمل ذلك ...

* * *

١٢

أخذ اهتمام الضاحية بمنزل آل فلاسوف الصغير الأغبر يتضاعف يوماً بعد يوم . وكان ذلك الاهتمام ممزوجاً بالريبة وبشعور غير واع بالعداوة والنفور . لكن فضولاً آمناً كان يغلي في قلب البعض ، فيقترب غريب من بافل أحياناً وهو يختلس النظر يمنة ويسرة ، ويقول :

– إسمع أيها الأخ ، إنك تقرأ الكتب وتعرف القوانين ، أفلا تستطيع أن توضح لي ؟...

ويروي له الملتمس قصة ظلامة ارتكبها رجال الشرطة أو إدارة المعمل . وإذا كانت الحالة معقدة عسيرة . أعطى بافل الرجل كلمة منه إلى محام من معارفه في المدينة . ولكنه كان يوضح القضية بنفسه كلما استطاع إلي ذلك سبيلا .

وبدأ الناس يحترمون ، شيئاً فشيئاً ، هذا الشاب الرزين الذى يتكلم ببساطة وجرأة ، ويحتفظ بعينيه مفتوحتين أبداً ، وأذنيه واعيتين على الدوام ، ويغوص بعناد إلى أعماق كل نزاع ، ويجد دون انقطاع ، وفي كل مكان ، السلك المشترك الذي يربط الناس بعضهم ببعض .

ولقد اكتسب بافل هيبةً خاصة بعد حادث « كوبيك المستنقع » ...

كان مستنقع كبير مكسو بشجر الشوح والبتولا يمتد حول المعمل حتى

يكاد أن يحيط به في شبه حلقة منفرجة . وكان هذا المستنقع ينشر في الصيف أبخرة صفراً كثيفة ، وسحباً عظيمة من بعوض يبذر الحمّى في طول المؤسسة وعرضها . ولما كان ملكا للمعمل ، فقد قرر المدير الجديد تجفيفه بحيث يستخرج منه الوقود ويستفيد من الأرض في الوقت ذاته . فأصدر أمره أن يُحسم كوبيك واحد من كل روبل من أجور العمال ليخصص لمصاريف تجفيف المستنقع ، متذرعاً بأنه إنما لجأ إلى ذلك في سبيل تحسين شروط معيشة العمال .

واستشاط العمال غيظاً واعترضوا ، بصورة خاصة ، على أن هذا الحسم الجديد من أجورهم لا يشمل العمال الذين سيجففون المستنقع نفسه .

وكان المرض قد احتجز بافل في الدار يوم السبت الذي أعلن فيه المدير تلك الضريبة الجديدة ، فلم يدر بها . وفي اليوم التالي ، قدم سيزوف لزيارته ، وهو سباك محترم ، رافقه ماخوتين الميكانيكي ، المديد القامة ، السريع الانفعال . وبعد أن تحدث ماخوتين إلى بافل عن قرار المدير ، قال له سيزوف بلهجة ذات مغزى :

— إن الأكبر سناً بيننا قد اجتمعوا وناقشوا الأمر ملياً . ولقد قرر الرفاق أن يرسلونا إليك باعتبارك شخصاً مطلعاً لتعلمنا عما إذا كان ثمة قانون يسمح للمدير أن يكافح البعوض بقروشنا .

وقال ماخوتين وعيناه الضيقتان تبثان اللهب :

— تذكروا فقط ! إن هؤلاء اللصوص قد أخذوا أموالنا منذ أربعة أعوام كي يبنوا حماماً . ولقد جمعوا ثلاثة آلاف وثمانمائة روبل يومذاك . أين هي الآن ؟ نحن لم نر أثراً لأي حمام على الاطلاق .

وأوضح لهما بافل عدم شرعية ذلك الحسم ، والفائدة الأكيدة التي يجنيها المعمل من تجفيف المستنقع ، فخرج الرجلان عابسين . وبعد أن شيعتهما الأم ، قالت وهي ترسل ضحكة قصيرة :

ـ إنّ الشيوخ أنفسهم قد بدأوا يستعملونك أدمغة لهم .

ولم يجبها بافل ، بل جلس إلى المائدة وشرع يكتب طوال عدة دقائق ، ثم توجه إليها قائلا :

ـ لي رجاء عندك يا أماه ، ألا وهو الذهاب الى المدينة وتسلم هذه الرسالة الى صاحبها .

ـ أهي خطرة ؟

ـ نعم ، فاني مرسلك الى المكان الذي يطبعون فيه جريدتنا ، فمن الضروري جداً أن تظهر قصة هذا الكوبيك في العدد المقبل .

ـ حسناً ، إني ذاهبة في الحال

قالت هذا وشرعت ترتدي ثيابها ...

كانت تلك هي المهمة الأولى التي ينتدبها ولدها لها، وقد قبلتها سعيدة بصراحته في شرح الموقف دون خداع أو مواربة .

قالت :

ـ إني أفهم ، يا پاشا ، فهم يسرقونهم دون حياء. ما هو اسم ذلك الرجل.. بيجور ايفانوفيتش ؟

وعادت الى الدار مساء شديدة الأعياء ، ولكنها كثيرة المرح والبهجة ، وقالت لابنها :

ـ لقد رأيت ساشا ، وهي ترسل اليك تحياتها ؛ أما بيجور ايفانوفيتش هذا فرجل بسيط كثير المرح ، وإن له لأسلوباً طريفاً في الحديث .

فقال بافل في عذوبة :

ـ إني سعيد باستلطافك لهم .

ـ إنهم أناس بسطاء ، يا پاشا ، وإنه لشيء جميل أن يتواضع الانسان ولا يشمخ بأنفه . ثم إنهم يحترمونك كثيراً ...

ولازم بافل الدار يوم الاثنين أيضاً لأنه لم يسترد عافيته بعد .
وقدم فيدور مازين أثناء فرصة الغداء يعدو منقطع الأنفاس ، منفعلا سعيداً ، وصاح :

— هيا بنا ، فالمعمل بأسره في هياج هادر ، ولقد بعثوا بي في طلبك ، سيزوف وماخوتين يقولان إن بامكانك شرح الأمور أفضل من أي إنسان آخر .
ولسوف ترى ماذا يجري هناك ...

وابتدأ بافل يرتدي ثيابه ، دون أن ينطق حرفاً ...

— لقد جاءت النسوة أيضاً ، وهن يضفن زعيقهم إلى صراخ الرجال .

وقالت الأم :

— إني قادمة أيضاً ! ماذا هم فاعلون ، يا ترى ؟ إني قادمة أيضاً !

فقال بافل :

— تعالي ، هيا بنا !

مضوا يحثون الخطا ، في صمت ، خلال الشوارع ... كانت الأم منقطعة الأنفاس تقريباً لشدة انفعالها ، تشعر أن أمراً عظيم الخطورة سيحدث عما قريب ... وكان جمهور من النساء يتخاصمن ويتصايحن عند بوابة المعمل . وما تسلل ثلاثتهم الى الساحة الكبيرة ، حتى وجدوا أنفسهم وسط حشد كبير يزمجر في هياج شديد . ولاحظت الأم أن سائر الأنظار متجهة نحو حائط المصهر ، حيث كان سيزوف ، وماخوتين ، وفيالوف ، وخمسة أو ستة آخرون من العمال ذوي النفوذ ، يعلون كومة من الحديد العتيق تجاه الحائط الآجري تماماً .

وصاح بعضهم :

— هذا هو فلاسوف آت .

— فلاسوف ؟ فليأت إلي هنا !

وصاحت أصوات من أماكن مختلفة :

— هدوءاً !

وتعالى صوت ريبين المنتظم من مكان قريب :

— لسنا نناضل من أجل الكوبيك ، بل في سبيل العدالة ! تلك هي القضية ! وليس الكوبيك بالعزيز علينا حتى هذه الدرجة ، فهو ليس اكثر استدارة من سواه وإن كان أثقل ، لأن فيه من الدم الانساني أكثر مما في روبل المدير بما لا يقاس . ليست القيمة في الكوبيك ، بل في الدم ، في العدالة . تلك هي القضية !

سقطت كلماته في قلب الحشد الذي تلقفها بلهفة ، فأثارت بينه هتافات حادة :

- أنت على حق ، يا ريبين !

حسناً قلت ، أيها الوقاد !

— ها هو ذا فلاسوف !

واختلطت الأصوات في إعصار من الضجيج طغى على زمجرة الآلات ، وصفير البخار ، وطنين المعادن . وتراكض العمال من كل حدب وصوب وهم يلوحون بأذرعتهم ، ويحرضون بعضهم بعضاً بكلمات حادة قاسية . كان الاستياء الكامن أبداً في تلك الصدور المتعبة يولد الآن ويطلب مخرجاً . كان يحلق في الجو منتصراً ، وينشر أجنحته أوسع فأوسع ، ويشد قبضته على خناق الناس ، ويجرهم في يقظته . ويلقي بهم بعضهم في وجه بعض ، ويغمرهم بلهيب تحوله المنتقم . وهب فوق الحشد سحابة من الغبار والهباب ، فالتمعت انفعالاً الوجوه المتصببة عرقاً ، وبكت الخدود دموعاً سوداً ، وبرقت العيون والأسنان جميعاً في الوجوه المسودة .

وظهر بافل فوق كومة الحديد، حيث كان سيزوف وماخوتين واقفين وصاح:

— أيها الرفاق !

ولاحظت الأم شحوبا شديداً في وجهه، وارتعاشاً في شفتيه، فتحركت الى الأمام دون وعي، تشق لنفسها طريقاً خلال الازدحام الشديد .

صاحوا بها في حدة :

- ما بالك أيتها العجوز ؟ إبقي مكانك !

ودفعوها بالمناكب فلم تأبه لذلك، ولم تن عن عزمها، بل استمرت تشق طريقها بكتفيها ومرفقيها، تحدوها الرغبة في الوقوف إلى جانب ابنها .

وعندما أفرغ بافل ما في صدره من الكلمات التي كانت تطفح معنى ومغزى بالنسبة إليه أحس حلقه ينقبض في فرحة المناضل وهنائه . وامتلكته الرغبة الجامحة في إلقاء قلبه إلى هؤلاء الناس، هذا القلب الملتهب بأحلام العدالة .

- أيها الرفاق !

هتف بهم، وهو يستقي من هذه الكلمة قوته وإشراقه، ثم أضاف :

— نحن الذين نبني الكنائس والمعامل، نحن الذين نصهر القيود، ونصوغ النقود، نحن تلك القوة الحية التي يطعم منها الجميع ويحيون منذ المهد حتى اللحد..

فصاح ريبين :

تلك هي القضية .

دائماً، وفي كل مكان، نحن الأولون في العمل، والآخرون في اكتساب الاعتبار . من يهتم بنا ؟ من ذا الذي فعل يوماً أبسط الأشياء من أجل منفعتنا وخيرنا ؟ لا بل هل نظر إلينا أحد، في يوم من الأيام، على أننا كائنات بشرية ! أبداً .

فردد صوت كرجع الصدى :

— أبداً .

ويزداد كلام بافل بساطة وهدوءاً كلما انطلق فيه، بينا الحشد يزداد منه اقتراباً، ويذوب في جسد وحيد يعيش بألف رأس ورأس، ويحملق في وجه



« نحن تلك القوة الحية التي يطعم منها الجميع ويحيون منذ المهد حتى اللحد » .

بافل بآلاف الأعين ، ويلتقف بلهفة العطشان كل كلمة من كلماته ...

- إننا لن نكون أحسن حظاً ما لم ندرك أننا رفاق جميعاً ، أننا عائلة واحدة من الأصدقاء الذين يجمعهم رباط وحيد ، ألا وهو النضال من أجل حقوقنا .

فصاح أحد الحاضرين بصوت جاف ، وكان يقف قريباً من الأم :

- تكلم عن الموضوع .

فصفعه صوتان ينصبان من جهتين مختلفتين :

- لا تقطعه .

وعبست الوجوه المسودة تفصح عن ارتياب متشائم ، ولكن عيوناً كثيرة كانت تبحث ، متأملة ، عن وجه بافل حيث يقف فوق أكوام الفولاذ .

ولاحظ بعضهم :

- إنه اشتراكي ، ولكنه ليس أحمق .

وقال عامل طويل أعور ، وهو يدفع الأم من كتفها

- إنه يتكلم بجرأة وشجاعة ، وهذا عظيم جداً !

- لقد آن الأوان لنا ، أيها الرفاق ، كي تقاوم القوه الجشعة التي تعيش من جهدنا وعملنا ، لقد دقت الساعة كي ندافع عن نفوسنا ، وكي ندرك أنه ليس من يغيثنا سوى أنفسنا . المجموع للفرد ، والفرد للمجموع ، ذلك يجب أن يكون شعارنا اذا أردنا التغلب على العدو .

فصاح ماخوتين ، وهو يهز قبضته في الهواء :

- إنه يقول الحقيقة ، أيها الاخوان !

وتابع بافل :

- أدعو المدير !

وكان إعصاراً مباغتاً من ريح صرصر جفول اكتسح الحشد بأسره ، فترنح كموجة عاتية ، فيما انطلقت عشرات الأصوات تصيح :

ـ أدعو المدير !

أرسلوا وفداً اليه !

شقت الأم ، من جديد ، طريقها مقتربة من ولدها ، ونظرت إليه ووجهها يطفح فخراً واعتزازاً . هو ذا بافل ، فتاها ، يقف بين هؤلاء العمال الشيوخ المحترمين ، والجميع الية مصغون . يوافقون على أقواله ... وكانت سعيدة لأنه لم يحتدم غيظاً ، لا ولم يقسم الأيمان المغلظة كما يفعل الباقون .

كانت الشتائم ، والهتافات ، والكلمات الجارحة ، تنهال من كل حدب وصوب كالبرد فوق سطح القصدير الرنان . وتطلع بافل نحو القوم الذين احتفوا به ، وبدا عليه أنه يفتش عن شيء ما بعينيه الواسعتين المريضتين .

ـ عينوا الوفد !

ـ فلاسوف !

ـ ريبين ، فان له أسناناً مخيفة .

وفجأة ، تعالت هتافات مكتومة بين المحتشدين :

ـ لقد جاءمن تلقاء نفسه .

ـ المدير ، المدير !

وأفسح المتجمهرون الطريق لرجل طويل القامة . متطاول الوجه ، مدبب اللحية :

ـ اسمحوا لي .

كان يقول ذلك، وهو يدفع العمال عن طريقه باشارة خفيفة من يده لم يكن يريدها أن تنال منهم مساً . وكانت عيناه متضيقتين ، وهو يتفحص وجوه العمال بنظرات خبيرة تدل عن سيد للرجال واسع التجربة . وأخذ القوم ينتزعون قبعاتهم ويتحنون له أثناء مروره ، فيما هو يتابع طريقه دون أن يرد تحياتهم ، زارعاً الصمت والبلبلة بين المحتشدين الذين طفقوا يتبسمون ، في حيرة واضطراب،

ويرسلون صيحات مكتومة كالأطفال حين يعبرون عن ندمهم وتوبتهم بعد أن يضبطوا في الجرم المشهود.

واجتاز الأم، فانزلقت نظراته القاسية على وجهها انزلاقاً، ثم توقف تجاه كومة الحديد. ومد أحدهم يده ليساعده على اعتلائها، فرفض تلك اليد وتسلق الكومة من تلقاء نفسه بحركة نشيطة، ووقف مقابل بافل وسيزوف.

— ما معنى هذا الاجتماع؟ ولماذا توقفتم عن العمل؟

خيم الصمت برهة وجيزة، وتموجت رؤوس القوم كسنابل القمح، ولوح سيزوف بقبعته، وهز كتفيه، وصر إلى الأرض مطرقاً،

صاح المدير بحدة:

— أجيبوا على سؤالي.

فتقدم بافل وقال في صوت مرتفع، وهو يشير إلى سيزوف وريبين:

— لقد انتخب ثلاثتنا، من قبل رفاقنا، كي نطلب إليك إلغاء قرارك المتعلق بحسم الكوبيك.

فسأل المدير، دون أن يتكلف التطلع إلى بافل:

— لمَ؟

فأجاب بافل بصوت مرتفع أيضاً:

- لأننا نعتبر مثل هذه الضريبة ظلماً.

— أتعتقدون أن نيتي في تجفيف المستنقع قد أملتها علي الرغبة في استثمار العمال لا الرغبة في تحسين شروط معيشتهم؟ أهذا ما تظنون؟

فهمهم بافل:

— نعم!

فاستدار المدير إلى ريبين، وسأل:

— وأنت أيضاً؟

إننا جميعاً نعتقد الشيء نفسه .

فاستدار الى سيزوف :

ــ وأنت ، أيها الرجل الطيب ؟

ــ وأنا أيضاً . ليفضل أن تترك لنا كوبيكاتنا هذه .

ونكس سيزوف رأسه مرة أخرى ، وعلت شفتيه ابتسامة مذنبة .

فاكتسح المدير الجمهور بنظرة بطيئة ، وهز كتفيه ، ثم استدار نحو بافل وحدجه بنظرة فاحصة :

ــ يبدو عليك أنك رجل مثقف نوعاً ما . أيعقل أنك ، أنت الآخر ، لا تدرك حسنات مثل هذا التدبير ؟

فأجاب بافل بصوت أراده أن يكون مسموعاً من الجميع :

ــ لو أن المعمل يجفف المستنقع على حسابه الخاص ، لأدركنا جميعاً عندئذ تلك الحسنات .

فقال المدير في جفوة :

ــ ليس المعمل مؤسسة خيرية . إني آمركم جميعاً بالعودة إلى عملكم .

وشرع يهبط عن الكومة ، وهو يتحسس الحديد بعناية فائقة ، دون أن ينظر الى أي من المحتشدين .

فارتفع دوي استياء شديد من الحشد ....

توقف المدير في مكانه ، وسأل :

ــ ما بالكم ؟

فحطم السكونَ صوت وحيد :

ــ إذهب واشتغل بنفسك .

فرعدَ المدير في جفاء ، وبلهجة ذات مغزى :

ــ إن لم تعودوا الى العمل في خمس عشرة دقيقة ، فسأصدر أمري بتسريحكم جميعاً .

وشق طريقه ، مرة أخرى ، وسط الحشد ، فاذا زمجرة ثقيلة ترتفع خلفه هذه المرة وتروح تشتد كلما ابتعد ...

ـ جربوا أن تتكلموا معه !

ـ إليكم عدالتكم ! يا لها من حياة !

واستداروا نحو بافل وصاحوا :

ـ ماذا ينبغي علينا أن نفعل الآن ، أيها اللبيب ؟

ـ لقد ألقيت خطبة رائعة ، ولكن عندما أطل الرئيس بوجهه تبدلت جهة الريح .

ـ هيا يا فلاسوف ، قل لنا ما نفعل .

ولما ازدادت الأسئلة والصيحات إلحاحاً ولجاجة ، قال بافل :

ـ إني أقترح ، أيها الرفاق ، أن نترك العمل حتى يتنازل عن فكرة الحسم الجائرة .

فقفزت التعليقات في هياج وانفعال شديدين :

أتعتقد أننا مجانين لا ندرك ؟

ـ ولكن هذا يعني الاضراب !

ـ أمن أجل كوبيكين أصفرين نفعل ذلك ؟

ـ لماذا لا نُضرب ؟

ـ سيسرحوننا جميعاً !

ـ ومن يقوم بالعمل له عندئذ ؟

ـ إنه سيجد الكثيرين الذين يرضون بذلك .

ـ يا للخونة !

١٣

هبط بافل عن كومة الحديد ، واتخذ موقفه الى جانب أمه .

كان هياج شديد يطغى على الحشد كله فيلغطون ، ويتناقضون ، ويتصايحون في حمية فائقة .

واقترب ريبين من بافل ، وقال له :

—إنك لن تستطيع أبداً أن تحملهم على الاضراب . هم جماعة شرهون جداً ، ولكنهم بليدون خامدون ، تلك هي القضية ! ولن يتبعك أكثر من ثلاثمائة منهم . إن السماد كثير جداً ، ولن تستطيع مذراة واحدة أن ترفعه كله ...

واعتصم بافل بالصمت ... كان الحشد الأسود الجسيم يتموج أمامه ،يبحث عن عينيه في رجاء ملحاح . وراح قلبه يخفق في لوعة ، وبدت له كلماته وقد تلاشت دون أن تترك أي أثر ، مثل قطرات منفردة من المطر سقطت على أرض ظمأى . واقترب العمال منه ، الواحد تلو الآخر ، يهنئونه على خطابه ، ويبدون جميعاً ارتيابهم من نجاح الاضراب لأن العمال ، في رأيهم ، لم يدركوا بعد قوتهم جيداً ، ولم يفهموا مصلحتهم كما يجب .

كانت موجة من الاستياء تغمر قلب بافل الذي شرع يشك في قوته . إنه يشكو صداعاً يثقل على رأسه ، ويحس خواء هائلاً في هذا الرأس المتعب . واقد

كانت الحماسة تفعم قلبه فيما مضى ، إذ يتصور انتصار الحقيقة التي يتعشقها ، أما الآن فقد أصبح ذلك الايمان يبدو له ، بعد أن أفاض بالتعبير عنه أمام ذلك الحشد، شاحباً ، ضعيفاً ، أعجز عن الوصول إلى تحقيق أبسط الأمور وأيسرها . وطفق يتهم نفسه . كان يحسب أنه خلع على حلمه ثوباً لا يليق به ، ثوباً قاتماً ، حقيراً ، أخفى عن عيون العمال جمال الحقيقة التي يكسوها وأبعدهم عن روعتها . وعاد إلى بيته متعباً ، ذليلاً ، مطأطأ الرأس ، يتبعه ـ عن قرب ـ أمه وسيزوف ، فيما ريبين يسير بجانبه ، ولا ينقطع عن الطنين في أذنه :

- لقد تكلمت حسناً ، وإنما لم تتوجه إلى القلب . تلك هي القضية ! ينبغي عليك أن تتحدث إلى قلوبهم وأن تلقي بالشرر في المركز بالضبط . لست تستطيع إقناع الشعب بمحاكمتك ، فهذا الحذاء لا يناسب تلك القدم ، إنه صغير جداً وضيق جداً .

وكان سيزوف يقول :

ـ لقد حان الوقت لنا ، نحن الشيوخ ، أن نفتش لنا عن مكان في المقبرة يا بيلاجيا . ثمة نوع جديد من البشر ينمو حالياً . كيف عشنا ، أنت وأنا ، جاثيين على ركبنا ، ضاربين الأرض بجباهنا ، منحنيين لمن هم أفضل منا . أما في هذه الأيام ، فلعل الناس قد استعادوا رشدهم ـ لست أدري ـ أو لعلهم يرتكبون خطأ أفدح منا ، ولكنهم ليسو مثلنا على أية حال . خذي الشبيبة مثلا ، هم يخاطبون اليوم المدير وكأنهم مساوون له ... حسناً ، وداعاً ، يا بافل ميخائيلوفيتش . لقد كانت طريقتك في الدفاع عن الشعب رائعة حقاً . فليكن الله في عونك يا أخي ، لعلك تجد مخرجاً من كل هذا . فليكن الله في عونك .

ومضى ...

غمغم ريبين :

ـ هيا، إذهب ، وامض إلى الموت ! إن الناس أمثاله ليسوا بكائنات إنسانية،

بل هم طين يصلح أن يكون ملاطاً للحجارة . لاحظ منْ صاحوا يريدونك أن تكون موفداً ، يا بافل . إنهم هم الذين أذاعو تلك الاشاعات القائلة إنك اشتراكي مشاغب . إنهم هم أنفسهم . لقد فكروا : إنه سيسرّح ، وهو يستحق ذلك .

فقال بافل :

— إنهم على حق ، إذا اعتبرنا الأشياء من وجهة نظرهم .

— الذئاب أيضاً على حق عندما تمزق إخوتها إرباً إرباً .

كانت سحابة غبراء تغشى وجه ريبين ، وصوته يكشف عن اضطراب غير معهود :

— إن الناس لا يريدون الاستماع إلى الكلمات العارية — يجب أن تتألم ، ينبغي أن تغمس كلماتك في الدم ...

ظل بافل طوال النهار حائراً مبلبل الفكر ، يتنقل في أرجاء الدار على غير هدى ، متعباً ، كئيباً ، مضطرباً بصورة غريبة ، تلتهب عيناه وتبدوان كأنهما تفتشان عن شيء ضائع . أدركت الأم ذلك فاستوضحته في حذر :

— ما بالك ، يا باشا ؟

— لقد أصابني صداع .

— هلا اضطجعت ، وسأدعو لك الطبيب .

فأسرع يجيب :

— كلا ، لا تزعجي نفسك .

ثم أضاف ، في همس خفيض :

— إني صغير جداً وضعيف جداً . ذلك هو العناء . إنهم لا يصدقونني ، ولا ينضمون إلى قضيتي ، وهذا يعني أني لا أعرف كيف أشرحها لهم وأبين معانيها . إني أحس بعجزي وبالاشمئزاز من نفسي .

فشخصت الى وجهه المتأمل ، وسعت الى مواساته فأعلنت في رقة :

ـ إنتظر قليلاً ! لسوف يفهمون غداً ما لم يفهموا اليوم .

فهتف :

ـ لقد آن لهم أن يفهموا !

ـ حتى أنا أرى أنك على حق .

فاقترب بافل منها :

ـ أنت رائعة ، يا أماه .

قال هذا ، ثم استدار عنها مبتعداً ، فأجفلت وكأنما طعنتها كلماته الهادئة ، والتفتت اليه ، ويدها تضغط على قلبها ، تنعم بعطفه وحنانه ...

في تلك الليلة ، بعد أن رقدت واضطجع بافل في سريره يقرأ كعادته، جاء رجال الدرك وأخذوا ينقبون البيت وهم يهدرون في غضب ، يصعدون إلى السطح ويخرجون الى الفناء في حركة دائبة . وتصرف الضابط الأصفر الوجه في سخرية مهينة كما فعل في المرة الأولى . وهو يتلذذ بتصويب طعناته الى القلب من بافل وأمه . وقبعت الأم صامتة في إحدى الزوايا لا تحيد بعينيها عن وجه فتاها الذي يحاول إخفاء عواطفه ، وإن كانت أصابعه تهتز كلما ضحك الضابط . وأدركت مبلغ ما يبذل من جهد ومن ألم كي يمتنع عن الرد على الضابط . ومبلغ ما يحز في قلبه وهو يتحمل نكات الدرك وسخريتهم ، ولم تكن خائفة هذه المرة مثلها في المرة الأولى لقد نما بغضها لهؤلاء الضيوف الرماديين الليليين فاستهلك مخاوفها وطغى عليها .

وهمس بافل في أذنها :

ـ سيأخذونني معهم .

فأجابت بصوت خافت ، وهي تحني رأسها :

ـ أعلم ذلك .

إنها تدرك أنهم سيلقون به في السجن بسبب ما قاله للعمال في ذلك الصباح ... ولكن الجميع قد وافقوه فيما ذهب اليه . وهكذا فسوف يهبون كرجل واحد للدفاع عنه بحيث لن يطول اعتقاله ...

وأرادت أن تلقي بذراعيها حول عنقه ، وأن تبكي . وكان الضابط يقف إلى جانبها يراقبها بعينيه الضيقتين ، ترتجف شفتاه وشارباه وكأنه يضحك في سره . وصور لبيلاجيا أن هذا الرجل إنما ينتظر دموعها ، وشكاواها ، وتوسلاتها ، فجمعت كل قواها ، وضغطت على يد ابنها وهي تقول ببطء ، وصوت خافت ، وتنفس ضعيف :

— إلى اللقاء ، يا باشا ! هل أخذت كل ما تحتاج اليه ؟

- نعم ! لا تستوحشي !.

- فليكن الله معك ...

وبعد ما ساقوه بعيداً تهالكت على دكة ، وراحت تجهش في البكاء دون ضوضاء . جلست وظهرها إلى الحائط ، كما اعتاد زوجها أن يفعل ، رهقها الحزن والادراك المؤلم لعجزها وضعفها . ألقت رأسها إلى الوراء ، وأطلقت صيحة طويلة بطيئة سكبت فيه كل مرارة قلبها المكلوم ، بينما طفق ذلك الوجه الأصفر الجامد بشاربيه الرفيعين ، وعينيه الضيقتين اللتين تبرقان سروراً ولذة ، يثقل على فكرها ويعذبها . وتراكمت في صدرها سحب سود من المرارة والكراهية لأولئك الناس الذين يحرمون الأمهات من أبنائهن لأن هؤلاء يسعون وراء العدالة والحق ليس غير .

كان البرد قاسياً ، وقطرات المطر تضرب على النوافذ في عنف ، وهدهد لها أن أشباحاً ذات وجوه حمر لا عيون فيها ، وسواعد طويلة جداً ، تخطوا في الليل حول بيتها كالحرس ، ومهاميزها تدوي في خفوت . جمجمت في فكرها :



القت رأسها الى الوراء، وأطلقت صيحة طويلة بطيئة ...

– لو أنهم أخذوني ، أنا الأخرى !

ودوّت الصفارة تدعو الناس إلى العمل ، فارتفع دويها ذلك الصباح بطيئاً ، أجش الصوت ، متردداً .

وأبلق الباب ودلف ريبين منه . وقف تجاهها وسأل ، ماسحاً عن لحيته قطرات المطر :

– هل أخذوه ؟

فأجابت ، وهي تتنهد :

– نعم ، لقد فعلوا ! لعنة الله عليهم !

فضحك ريبين ضحكة مقتضبة ، وقال :

– كان يجب أن ننتظر ذلك . لقد فتشوا بيتي أيضاً ، ومروا بأصابعهم على كل شيء ، وتفوهوا بشتائم كثيرة . إنما لم يرتكبوا إلا قليلاً من الأذى . وهكذا ، لقد أخذوا بافل إذن ! إن المدير يغمز بعينه ، والدركي يومىء برأسه ، وإذا شخص آخر موقوف ! إنهما متفاهمان على العمل بصورة مدهشة ، فأحدهما عسك الشعب من القرنين ، والآخر يستدر لبنه حتى يجف .

صاحت الأم ، وهي تنهض :

– ينبغي لكم أن تدافعوا عن بافل . فما فعل كان في سبيل الجميع .

– من ينبغي له ؟

– الجميع!

– كذا ! إذن ، فذلك هو رأيك ؟ هذا لن يحدث أبداً ! إنهم يستجمعون قواهم منذ مئات السنين ... وقد أغمدوا في قلوبنا عدداً لا يحصى من الحراب ، فكيف نستطيع توحيد صفوفنا دفعة واحدة ! يجب أولاً أن ننتزع تلك الحراب ، بعضنا من قلوب البعض .. تلك الحراب هي التي تحول دون تكتلنا في صفوف متراصة متحدة .

ومضى بخطاً وئيدة وهو يضحك ... وقد تركت كلماته اليائسة في الأم أكثر بؤساً منها في أي وقت آخر .

ـ ماذا إذا ضربوه ؟ اذا عذبوه ؟ ..

وتخيلت جسد ولدها محطماً يدمى من الضرب ، فعصف بقلبها خوف بارد ، وراحت عيناها توجعانهـا .

وفي ذلك اليوم ، لم تشعل النار في الموقد ، ولم تهيء غداءها ، ولم تحتس الشاي . وإذا حل المساء ، تناولت كسرة من الخبز فقط . ولمـا حبت الى فراشها تلك الليلة ، أحست أن حياتها لم تكن في يوم من الأيام باردة موحشة مثلها الآن . لقد اعتادت ، خلال السنين القليلة الأخيرة ، أن تعيش وهي تتوقع ـ باستمرار ـ شيئاً عظيماً رائعاً ، محوطاً بنشاط الشبان المبتهج وضجيجهم ، معتادة على رؤية وجه ابنها المحرض على تلك الحيـاة الجيدة ، ولكن الخطرة في الوقت ذاته . أما الآن ، فلقد ذهب ... وذهب معه كل شيء آخر ...

* * *

١٤

ولم ينقض ذلك النهار ، والليلة التي أعقبته ، الا بعد طول سهاد لا ينتهي . وحل اليوم التالي ، فاذا هو يجر أذياله أكثر تمهلاً من اليوم السابق . كانت تنتظر وفود شخص ما ، لا تدري هويته على وجه التحقيق ، لكن أحداً لم يأت . وهبط المساء ، وجن .. الليل أيضاً . وزفر المطر البارد فوق الجدران وتدحرج عليها ، وصفرت الرياح ، وهي تعصف من خلال المدخنة ، وأسرع شيء يجري تحت أرض المنزل مثيراً ضوضاء خافتة ، وانزلقت قطرات من المطر عن السطوح ، فاختلط صدى سقوطها على الأرض مع دقات الساعة بصورة غريبة ، وبدا لها المنزل بكامله وكأنه يتأرجح مترنحاً ، وقد أحال الحزن كل ما يحيط بها غريباً ، متيناً ، عديم الحياة ...

وقرع زجاج النافذة .. مرة .. مرتين . كانت قد تعودت مثل هذا القوع فلم يعد يخيفها مطلقاً ، ولكنها هبت هذه المرة في انتفاضه سرور ، وقد لمست شرارة غبطة قلبها الكئيب . إن آمالاً غامضة غير منتظرة تهيب بها ، فتلقي على كتفيها وشاحاً ، وتهرول الى الباب تفتحه .

ودخل صموئيلوف ، يتبعه شخص آخر اختبأ وجهه وراء ياقة معطفه المرفوعة ، والقبعة الغارقة في جبينه حتى الحاجبين . سألها صموئيلوف ، دون أن يلقي عليها تحية المساء :

— أأيقظناك ؟

كان صوته ، على خلاف عادته ، قلقاً مكتئباً ...

أجابت الأم ، وهي تراقب القادمين بنظرات مستفهمة :

— لم أكن نائمة .

ونزع رفيق صموئيلوف القبعة عن رأسه، وصعد زفرة عميقة مبحوحة ، ومد للأم يداً عريضة غليظة الأصابع ، وهو يسألها مثل صديق قديم :

— سلاماً ، يا أماه ! أفلا تذكرينني ؟

فهتف بيلاجيا ، وقد أحست بالسعادة بغتة لسبب لم تدركه جيداً :

— أهذا أنت ، يا ييجور إيفانوفيتش !

فأجاب ، وهو يومىء برأسه العريض الذي طال شعره حتى أشبه رأس شماس الكنيسة :

— هو ذاته !

كانت ابتسامة جميلة تعلو محياه ، وعيناه الصغيرتان الرماديتان ترنوان بعطف جم الى الأم . وكان في نظر جميع الناس أشبه بالسماور ، صغير القامة ، مستدير الجثة ، ثخين العنق ، قصير الذراعين . وكان وجهه يبرق بكل أساريره ، وتنفسه صاخباً يجيش ويدمدم على الدوام بشيء غريب يجتاح صدره بعمق وسعة .

قالت الأم :

— أدخلا الغرفة الأخرى ريثما أرتدي ثيابي .

بصوت مرتفع :

— ان نيقولاي إيفانوفيتش ، وأنت — فيما يبدو — تعرفينه جيداً ، قد خرج من السجن هذا الصباح ، يا أماه ...

فقاطعته الأم بقولها :

— ما كنت أدري أنه في السجن .

ـ لقد بقي فيه طوال شهرين وأحد عشر يوماً ، وشاهد الأوكراني هناك وهـذا الأخير يهديك تحياته ، وكذلك شاهد بافل الذي يسألك ألا تقلقي أبداً . وهو يقول أخبروها أن كل من اختار طريقه ، قـد اختارها بكل ثقة كي يتمتع من حين لآخر بلذة الراحة في السجن ، وهذا ما يكفله لنـا حرص رؤسائنا الدائب وعطفهم علينا . والآن ، فسأنتقل إلى العمل ، يا أمـاه : هل تعلمين عـدد الأشخاص الذين أعتقلوا البـارحة ؟

فهتفت الأم :

ـ لماذا ؟ وهل أوقف أحد خلاف بافل ؟

فقاطعها ييجور إيفانوفيتش بهدوء قائلا :

ـ لقد كان بافل الموقوف التاسع والأربعين ، ولا ريب أن الادارة ستسعى الى توقيف عشرة آخرين ، هذا الشاب مثلا .

فقال صموئيلوف عابساً :

ـ نعم ، أنا أيضاً .

وأحست بيلاجيا أن التنفس ، لسبب ما ، قد أصبح أيسر عليها . وومضت هذكرة الفكرة خلال ذهنها :

ـ على الأقل ، فهو ليس وحيداً هناك .

وعندما انتهت من ارتداء ثيابها لحقت بضيفها ، وهي تبتسم لها في مرح :

ـ لست أعتقد أنهم سيحتفظون بهم طويلا مـا داموا قـد أخذوا هذا العدد الكثير .

فقال ييجور إيفانوفيتش :

ـ لقد أصبت . واذا استطعنا أن نفسد عليهم ـ بطريقة ما ـ هذا المشهد ، فلسوف يتراجعون وقد لفوا أذنابهم بين أقدامهم . وإليك المشكلة

كلها : اذا توقفنا عن توزيع المناشير في المعمل ، فان رجال الدرك سيستفيدون من هذه الفرصة ، ويستغلونها ضد بافل وبقية رفاقه النبلاء المعتقلين .

فصاحت الأم في جزع :

- ماذا تعني ؟

فأجاب ييجور إيفانوفيتش في هدوء :

— الأمر بسيط جداً ! يا أماه ! إن الدرك يفكرون أحياناً بصورة منطقية ويجيدون الاستنتاج . تصوري ذلك جيداً : لقد كان بافل طليقاً ... فكانت هناك صحف ومناشير . لقد اعتقل بافل ... فلم يعد هناك صحف أو مناشير . النتيجة : لقد كان بافل هو الذي يوزع تلك الصحف والمناشير ، أليس كذلك ؟ وعندئذ يأخذون يتهمون الجميع . لقد اعتاد رجال الدرك افتراس الناس بصورة فظيعة ، حتى يتركوا منهم إلا بعض آثار لا تعني شيئاً .

فمجمجت الأم في كآبة :

— إني أفهم . يا إلهي ! ولكن ماذا عسانا نفعل في هذا الشأن ؟

فجاء صوت صموئيلوف من المطبخ يقول :

— لقد ألقوا القبض على سائر رفاقنا تقريباً ، فليأخذهم الشيطان . وينبغي علينا متابعة العمل الآن ، لا من أجل قضيتنا فحسب ، بل كي ننقذ رفاقنا أيضاً .

وأضاف ييجور ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

— وليس ثمة من يعمل . إن لدينا الكثير من المناشير الرائعة ، أعددتها بنفسي جميعها . ولكن ، كيف السبيل لادخالها إلى المعمل ؟ .. تلك مشكلة لم نجد لها حلاً بعد .

وقال صموئيلوف :

— لقد شرعوا يفتشون سائر الداخلين عند البوابة .

وأحست الأم أنهما ينتظران منها شيئاً ، فقالت في لهفة :

— كيف يمكن إنجاز ذلك ، كيف ؟

فظهر صموئيلوف في مدخل الباب :

— ألك معرفة بالبائعة كورزونوفا ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟

— نعم ، وماذا في ذلك ؟

- تحدثي إليها ، ولعلها تقبل أن تحمل المناشير إلى الداخل .

فهزت الأم رأسها معارضة ، وقالت :

— أوه ، كلا ! إنها ثرثارة . ومنذ اللحظة التي يعرفون فيها أنها حصلت عليها بواسطتي ... أن المناشير تخرج من هذا البيت .. أوه ، كلا !

ثم أضافت ، على حين غرة ، وكأن وحياً قد هبط عليها :

— أعطيانها ... لي أنا ! وسأدبر الأمر ، وأجد طريقة ناجحة . سأطلب إلى ماريا أن تصطحبني كمساعدة لها ، إذ لا بد لي من كسب عيشي بطريقة ما ، وهكذا سأحمل طعاماً لأبيعه للعمال في المصنع ... سأدبر الأمر على أحسن وجه ...

وضمت يديها إلى صدرها ، وأسرعت تؤكد لزائريها أنها ستنجز كل شيء على أكمل وجه دون أن تلفت الانظار ، أو تسمح بافتضاح أمرها . ثم أضافت أخيراً في شبه إشراق :

— وليروا أن يد بافل تمتد إليهم حتى من السجن ، فليروا ذلك جيداً .

أشرق وجه الثلاثة معاً ، وفرك ييجور إيفانوفيتش يديه وقال :

— عظيم ، يا أماه ! لا بل إنك لا تقدرين روعة ذلك . إنه ، بكل بساطة سهل للغاية .

وقال صموئيلوف ، وهو يفرك يديه أيضاً :

ـ إذا نجح هذا فسأذهب إلى السجن وكأني ذاهب إلى فراش النوم .

وصاح بيجور بصوت أبح :

ـ إنك أروع نساء العالم إطلاقاً ، يا أماه ! إنك كنز لا يقدر بثمن .

فابتسمت الأم ... كان من الواضح بالنسبة إليها أن الادارة لا تستطيع اتهام بافل بتوزيع المناشير ، إذا استمرت هذه على الظهور في المعمل . وشعرت أنها قادرة على القيام بهذا الواجب ، فارتعش جسدها كله فرحاً وبهجة .

قال بيجور :

ـ عند ما تزورين بافل في سجنه ، أخبريه أن له أماً رائعة .

فضحك صموئيلوف ، وقال :

ـ سوف أكون الأسبق إلى رؤيته .

ـ قل له إني سأقوم بكل ما يجب ، وليطمئن بالاً .

وسأل بيجور :

ـ وإذا لم يرسلوا صموئيلوف إلى السجن ؟

ـ إذن ، فلا حيلة لنا في ذلك .

وانفجر كلا الرجلين ضحكاً . وعند ما أدركت الأم غفلتها ، راحت هي الأخرى تضحك في ارتباك هادىء ، وقد انحنت قليلا إلى الأمام . ثم قالت ، مطرقة إلى الأرض ببصرها :

ـ ما أصعب أن يرى المرء الآخرين يزعجون أنفسهم من أجل ذويه ؟!

فهتف بيجور :

ـ ذلك طبيعي جداً ، ثم لا تجزعي من أجل بافل ولا تراعي ، فلسوف يعود من السجن أفضل منه حين دخل إليه ، فالمرء يجد هناك

راحة جيدة وفرصة للتحصيل أيضاً ، وهذا ما لا يتهيأ لامثالنا وقتما نكون أحراراً طليقين . لقد دخلت السجن ثلاث مرات ، وفي كل مرة خرجت بجليل الفائدة قلباً وعقلاً ، ولو لم يكن ذلك لذة بالمعنى الصحيح للكلمة .

فقالت ، وهي تتطلع إلى وجهه ، بصراحة ودون مواربة :

— إن التنفس يكلفك جهداً كبيراً .

فرفع إصبعه في وجهها ، وأجابها :

— إن لذلك سبباً خاصاً . إذن ، فلقد اتفقنا على كل شيء ، يا أماه ؟ غداً سأرسل تلك البضاعة إليك ، فيأخذ الدولاب بالدوران من جديد مبدداً ظلمات العصور . والآن لا مناص من أن نهتف مرحى ثلاث مرات من أجل حرية الكلام ، وثلاث مرات من أجل القلب الانساني أيضاً . إلى اللقاء في فرصة أخرى .

وقال صموئيلوف ، وهو يصافحها :

— وداعاً . لم يكن في استطاعتي اقتراح مثل هذا الأمر على أمي نفسها .

فقالت بيلاجيا ، وهي تود التخفيف عنه :

— الجميع سيفهمون يوماً ما .

وبعد أن مضيا أترست الباب خلفها بالمزلاج ، وجثت في وسط الغرفة تمزج صلواتها بأصداء المطر المتساقط . كانت تصلي دون كلمات ، لمجرد قلقها على أولئك القوم الذين أدخلهم بافل في حياتها . وهدهد إليها أن سائر هؤلاء الناس البسطاء ، القريبين إلى بعضهم البعض بصورة غريبة ، الوحيدين مع ذلك من دون البشر جميعاً ، هدهد إليها أنهم يتحركون رائحين غادين بينها وبين الأيقونات .

وفي صباح اليوم التالي ذهبت لزيارة ماريا كورزونوفا في ساعة مبكرة ، فاستقبلتها هذه ، وسخة الثياب كثيرة الضوضاء كعادتها أبداً ، واستوضحتها

في لطف، وهي تضرب على كتفها بيد قذرة :

— أتحسين الوحدة ؟ خفني عنك ! لقد أمسكوا به وساقوه بعيداً ، أليس كذلك ؟ حسناً ، فليس ثمة ما يخجل المرء منه . لقد كانوا قبلاً يسجنون الناس لأنهم يسرقون ، أما الآن فهم يزجون بهم هناك لأنهم يقولون الحقيقة . لعل بافل لم يفه بما كان يجب عليه أن يقول، ولكن ما فعله كان من أجل صالح الجميع ، والكل يعرفون ذلك ، فلا تقلقي . حتى إذا رفضوا الاعتراف به ، فانهم يعلمون على الأقل من هو المذنب في هذا كله ، لقد أردت أن آتي لزيارتك ، ولكني لم أجد فسحة من الوقت ، فالنهار ينقضي في الطبخ والبيع ، ولكنك سترين .. أني سأموت شحاذة تستندي الأكف رغم كل شيء . ما أبشع ذلك ! إنهم يسرقونني هنا ، ويسرقونني هناك ، مثل سرب من الصراصير ! وكلما اقتصدت عشرة روبلات جاء أحد أولئك السكيرين وابتلعها . أن يرزق المرء امرأة ، تلك صفقة خاسرة محزنة ! ذلك آخر ما أتمنى لأي إنسان على الأرض . إذا عشت وحيدة .. فالحياة لا معنى لها ، فان أتاك رجل .. فقد انتهت حياتك إذن ..

فقالت بيلاجيا ، تقطع عليها ثرثرتها :

— لقد جئت أسألك أن تتخذيني مساعدة لك .

— ما معنى هذا ؟

وحينما شرحت لها الأم ما ترمي إليه وتصبو ، هزت ماريا رأسها وأعلنت :

— طبعاً . أتذكرين كيف كنت تخبئينني من زوجي ؟ والآن فاني سأخفيك عن الجوع . إن من واجب الجميع أن يقدموا العون لك ، باعتبار أن ابنك اعتقل في سبيل المصلحة العامة .. إنه فتى رائع ، والجميع يقولون ذلك وهم يشعرون جميعاً بالأسف من أجله . صدقيني .. لن يستفيد الرؤساء

شيئاً من هذه الاعتقالات . أنظري إلي مـا يجري في المعمل ! الأمور سيئة للغاية ، يا عزيزتي . إنهم يعتقدون ، هؤلاء الرؤساء ، أنهم إذا نهشوا المرء من عقبيه فسيتوقف عن الركض . إنهم يضربون عشرة . فاذا مائة يجنون . فليحذروا من الشعب ، فهو يتحمل طويلا ، ولكنه ينفجر بعنف في النهاية .

وظهرت الأم ، بنتيجة هذا الحديث ، في المعمل ظهر اليوم التـالي ، وهي تحمل سلتين مملوءتين بأطعمة ماريا ، بينما ذهبت البائعة نفسها إلى السوق تعقد هناك الصفقات مع التجار .

* * *

١٥

التفّ العمال حول البائعة الجديدة في الحال، وسألونها وهم يهزون رؤوسهم دلالة الموافقة :

— أبدأتِ تعملين، يا بيلاجيا ؟

وأسرع بعضهم يؤكدون لها أن غيبة بافل لن تطول، وحرك آخرون عواطفها بكلمات قليلة عطوفة . لا بل ذهب البعض إلى أبعد من ذلك فلعنوا المدير والدرك ، الأمر الذي وجد له صدى وترجيعاً حلوين في قلبها المكلوم . ولكنها لم تعدم من يتفرس فيها بنظرات تعبر عن الرضى والسرور. بل إن أشعيا غوربوف ، مراقب الدوام ، قال لها من خلال أسنانه المنطبقة :

— لو كنتُ الحاكم لشنقت ابنك ! وهو يستحق ذلك لأنه يقود الناس نحو الضلال .

أرسل هذا الوعيد السافل قشعريرة باردة في كل أعضائها . ولم تجب أشعيا ، بل اكتفت بالنظر طويلا في وجهه الصغير المغضن ، ثم أطرقت بعينيها وهي تصعد الزفرات .

كان المصنع يفور باضطراب شديد ويمور ؛ والعمال يتكتلون في جماعات صغيرة يتهامسون ويلغطون ؛ والمراقبون القلقون ينتقلون من مكان إلى آخر ؛ والشتائم ترتفع من هنا وهناك ، ترافقها في بعض الأحيان ضحكات خبيثة .

ومر بجانبها شرطيان يقودان صموئيلوف . كان يسير بينهما ويده الواحدة في جيبه ، ويده الأخرى تعبث بشعره ، يتبعهم حوالي مائة من العمال يشتمون الشرطيين ويوسعونهما سخرية وتهكما . هتف أحدهم :

— أأنت ذاهب في عطلة يا صموئيلوف ؟

وأضاف آخرون :

— إنهم يكرّمون رفاقنا في هذه الأيام ، ويرسلون الينا حرساً يرافقوننا في تطوافنـا .

وتبع ذلك شتيمة بذيئة ...

صاح عامل طويل أعور :

— يبدو أن القاء القبض على اللصوص لم يعد اليوم أمراً ذا بال ، وهكذا قد شرعوا يعتقلون الناس الشرفاء .

وارتفع صوت من بين ذلك الحشد يقول :

— لو أنهم يتحلون بما يكفي من الأدب فيمسكوهم ليلاً على الأقل . ولكنهم يفعلون ذلك في وضح النهار .. أولئك الكلاب .

عبس الشرطيـان ، وراحا يستحثـان الخطا محاولين ألا يلاحظـا شيئاً ، متظاهرين أنهما لا يسمعان تلك النعوت المنهالة عليهما من كل حدب وصوب . . .

وتقدم منهمـا ثلاثة عمـال يحملون قضباناً طويلة من المدن ، وهم يصيحون :

— حذار ، أيها الصيادان !

وأومأ صموئيلوف إلى الأم ، وقال باسماً :

— ها نحن ذاهبون إلى هناك !

فانحنت له في صمت... لقد أثر في قلبها رؤية هؤلاء الفتيان الشرفاء الأذكياء

يذهبون الى السجن والابتسامة تعلو شفاههم ، فطفحت نفسها عليهم بعاطفة الأم الرؤوم وحنانها .

وبعد ما عادت من المعمل ، قضت بقية النهار مع ماريا تساعدها في عملها ، وتستمع إليها في ثرثرتها التي لا تنتهي. ولم تعد إلى بيتها الخاوي ، البارد ، الكئيب. إلا في ساعة متأخرة من المساء . ظلت طويلا تهيم على وجهها من مكان الى آخر . مضطربة لا تجد السكينة الى قلبها درباً ، لا تدري ماذا تصنع بنفسها ، يراودها القلق لأن ييجور إيفانوفيتش قد تأخر كثيراً رغم هبوط الليل وحلول الظلام ، فلم يحمل اليها المناشير الموعودة بها .

وكانت ندف ثقيلة من ثلج الخريف تساقط وراء النافذة . متعلقة بأطارها برهة وجيزة من الزمن قبل أن تذوب بسكينة وتنزلق عنها تاركة وراءها خطوطاً ندية . وراحت تفكر في ولدها ...

وقُرع الباب في حذر ، فطارت الأم اليه ترفع عنه المزلاج ، فدلفت منه ساشا . إن الأم لم ترها منذ زمن بعيد ، فكانت أولى الانطباعات التي تركتها فيها الآن بدانة لم تعهدها فيها من قبل قط .

هتف بها مستبشرة بقدوم من يزجي ولو جزءاً صغيراً من الليل معها ، فينقذها من وحدتها المؤلمة :

— نعمت مساءً . لم أرك منذ زمن بعيد ، هل كنت في سفر ؟

فعالتها الفتاة ، وهي تبتسم :

— كلا ، وإنما كنت في السجن ، أنا ونيقولاي ايفانوفيتش معاً .. هل تذكرينه ؟

— بالطبع أذكره ! لقد روى لي ييجور إيفانوفيتش البارحة أنهم أطلقوا سراحه . ولكني لم أكن أعرف شيئاً عنك . .. لم يذكر لي أحد مطلقاً أنك كنتِ هناك أنت الأخرى ...

فقالت ساشا ، وهي تجيل نظرها في الغرفة :

ـ لا بأس عليك . أرغب في تبديل ثيابي قبل قدوم ييجور إيفانوفيتش .

ـ لقد ابتللت كثيراً .

ـ لقد جلبت معي الصحف والمناشير ...

فصاحت الأم في لهفة :

ـ هاتها ! هاتيها !

فحلّت الفتاة أزرار معطفها وهزت جسدها بقوة فاذا النشرات تتساقط على الأرض كما تتساقط الأوراق عن أشجارها ، فتسرع الأم في جمعها ضاحكة طروباً :

ـ لقد كنت أتساءل من أين جئت بكل هذه السمنة حالما رأيتك .. ظننت أنك تزوجت ، وتنتظرين الآن وليداً . يا إلهي ! ما أكثر ما حملت ! هل قطعت الطريق بأسرها مشياً على الأقدام ؟

فقالت ساشا :

ـ نعم .

وعادت . كعهد الأم بها أبداً ، باسقة القامة ناحلة العود . ولكن بيلاجيا لاحظت أن في خديها ضموراً زاد في اتساع عينيها . وأن ثمة دوائر سوداً تحيط بها من الأسفل ، فهتفت وهي ترفّ وتهز رأسها في أسى :

ـ وكيف تفعلين هذا ، وأنت في أشد الحاجة الى الراحة بعد خروجك من السجن البارحة فقط ؟

فقالت الفتاة المرتعشة الأوصال :

ـ هكذا اقتضى الأمر . هاتي حدثيني عن بافل ميخائيلوفيتش . أكان شديد الاضطراب عندما أخذوه ؟

ولم تنظر ساشا إلى الأمام عندما طرحت هذا السؤال ، بل حنت

رأسها ، وراحت تصفف شعرها بأصابع مرتجفة . قالت الأم :

— لم يضطرب كثيراً ، فهو ليس من الذين يخونهم جلدهم .

فسألت الفتاة في صوت مخفوض :

— أهو قوي البنية ؟

— لم يمرض قط في حياته . ولكنك ترتجفين بكليتك . لحظة وأقدم لك قدحاً من الشاي مع قليل من شراب العناب .

ذلك لطف عظيم منك ، إلا أنه سيزعجك كثيراً ... فالوقت متأخر جداً. دعيني أهيئ ذلك بنفسي .

فأجابت الأم في لهجة عتاب ، وهي تضرم النار في السماور :

- أ أتركك تفعلين وأنت على هذا الاعياء !

ودلفت ساشا بدورها إلى المطبخ ، واقتعدت دكة هناك ، وقد وضعت إحدى يديها خلف رأسها . قالت :

لينهك السجن قوى الانسان في كل شيء . آه من ذلك المرض الملعون ! ليس شيء أسوأ منه أبداً ! عندما تعلمين أن هنالك كثيراً من العمل ، ومع ذلك فأنت تجلسين كالحيوانات في أقفاصها ...

فسألت الأم :

- ومن سيكافئكم من أجل كل هذا ؟

ثم ردت على سؤالها بنفسها ، وهي تتنهد :

— لا أحد إلا الله ! ولكني أعتقد أنك لا تؤمنين به أنت أيضاً .

فأجابت الفتاة في اقتضاب ، وهي تهز رأسها نفياً ؟

- كلا !

فقالت الأم في اندفاع :

- لست أصدقكم .

ثم أضافت في اقتناع عميق راسخ ، وهي تمسح غبار الفحم عن أصابعها بمئزرها :

= أنتم لا تفهمون ايمانكم نفسه ، كيف يمكن ان تعيشوا مثل هذه الحياة إن كنتم لا تؤمنون بالله ؟

وفجأة ، علا ضجيج أقدام في الرواق الخارجي وصدى غمغمة خافتة ، فأجفلت الأم ، وهبت الفتاة على قدميها بسرعة وهمست :

ـــ لا تفتحي الباب اذا كانوا من الشرطة فانكريني ! ... لقد أخطأت المنزل وأغمي علي على وصيد الباب ، وأنت نضيت عني ثيابي ووجدت المناشير . هل فهمت ؟

فأسرت الأم ، وقد تأثرت حتى أعماق قلبها :

ـــ أيتها العزيزة المسكينة ، ولم يجب أن أقول هذا ؟

ونبرت الفتاة ، وهي تصيخ السمع عند الباب :

ـــ انتظري لحظة ، فقد يكون بيجور ...

كان هو حقاً ، مبلل الثياب حتى الجسد ، تعباً حتى الاجهاد . قال :

ـــ آه ! أرى أنك أطلقت العنان للسماور ! ليس ما ينعش قواك ، يا أماه ، مثل السماور أبداً . وأنت وصلت هنا ، يا ساشا ؟

واستمر يتكلم دون انقطاع ، وهو يخلع معطفه الثقيل ، ويملأ المطبخ بصدى تنفسه الأجش :

إن السلطات لا تحب هذه الصغيرة ، يا أماه ، فاذا جرؤ السجان على إهانتها ، أعلنت الاضراب عن الطعام حتى يعتذر . ولقد ظلت طوال ثمانية أيام دون أن تأكل ، فأوشكت على مغادرة الحياة نتيجة لذلك . ما رأيك في هذا ؟ ليس سيئاً ، أليس كذلك ؟ هل رأيت في حياتك مثل بطني ؟

وأمسك معدته المنتفخة بشكل يبعث على الضحك،ومرق الى الغرفة الاخرى وهو لا ينقطع عن الحديث حتى أغلق الباب خلفه .

سألت الأم في دهشة :

— أرفضت الطعام حقاً طوال ثمانية أيام ؟

فأجابت ساشا ، وهي ترتعش برداً :

— كان يجب أن أفعل شيئاً لأجبره على الاعتذار .

ووجدت الأم في صراحة الفتاة وثبات جأشها ظلا من اللوم والعتاب . فكرت :

— تلك هي حقيقتها إذن !

واستفهمت بعد برهة :

— وماذا لو مت ؟

فقالت الفتاة في صوت خافت :

— لم يكن لي في ذلك حيلة . ولكنه اعتذر ، لست تستطيعين السماح للناس بالاعتلاء عليك .

فزمزمت الأم في تماهل :

— كـ ... ذا ! ومع ذلك فهذا كل ما يفعله الرجال ... أن يعتلوا علينا ، نحن النساء ، طوال حياتنا .

وقال ييجور وهو يفتح الباب :

— حسناً ، لقد تخلصت من حملي . هل جهز السماور ؟ اسمحي لي باحضاره .

وحمل السماور الى الغرفة المجاورة ، قائلاً أثناء ذلك :

— لقد كان أبي العزيز يشرب ما لا يقل عن عشرين قدحاً من الشاي يومياً ، وبفضل ذلك عاش في سلام وصحة جيدة حتى الثالثة

والسبعين ، ووزنه يتجاوز المائة كيلو غراماً وهو يخدم كاهناً في مدينة فوسكريسنك ...

فهتفت الأم :

— هل أنت ابن الأب ايفان ؟

— هو كذلك ، ولكن من أين لك المعرفة بسيدي المحترم ؟

- إني من مدينة فوسكريسنك أنا الأخرى ...

- من مسقط رأسي إذن ؟ وابنة من تكونين ؟

— ابنة جيرانكم ، آل سيريجين .

— ابنة الأعرج نيل ؟ إني أعرفه جيداً ، فلقد سنحت لي الفرصة السعيدة أكثر من مرة بالتمتع بشده أذني .

ووقفا تجاه بعضها البعض يضحكان ويتطارحان آلاف الاسئلة . وراحت ساشا تنظر إليها مبتسمة ، وهي تترشف الشاي في نهم كثير . ولكن رنين الأقداح نبه الأم أخيراً الى واجباتها :

- أوه ، أرجو المعذرة . لقد استرسلت في الثرثرة وغابت كل الاشياء عن بالي ... حقاً ! ما أجمل أن يلقى المرء شخصاً آخر من مرتع صباه وملهى فتوته !

- بل أنا التي يجب أن أستميحك العذر لأني تصرفت كما لو كنت في بيتي الخاص . لكن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة وما يزال أمامي طريق طويلة لا بد من عبورها .

فسألت الأم في دهشة :

- إلى أين تذهبين ؟ ألى المدينة ؟

- نعم .

- ولماذا تذهبين ؟ لقد هبط الليل ، والمطر ينهمر بشدة ، وأنت منهكة

القوى شديدة الاعياء . إقضي الليل هنا . سينام ييجور إيفانوفيتش في المطبخ .
وننام أنت وأنا ، هنا سوية .

فقالت الفتاة بكل بساطة :

ـ كلا ، يجب أن أذهب .

وقال ييجور :

ـ من سوء الحظ أن الآنسة مضطرة إلى الذهاب . إنهم يعرفونها هنا ويجب ألا ترى غداً في الشوارع .

ـ لكن كيف تذهب ؟ وحدها ؟

قال ييجور ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

وحدها .

وصبت الفتاة قدحاً من الشاي ، وتناولت قطعة من الخبز الأسود وذرت عليها شيئاً من الملح ، وانشالت تأكل وهي تنظر إلى الأم مفكرة متمعنة .

قالت بيلاجيا :

كيف تجرؤين على ذلك ؟ وناتاشا أيضاً ؟ أنا لن أقدر على ذلك مطلقاً ... إني أخاف .

فقال ييجور :

ـ وهي تخاف أيضاً . أنت تخافين ، أليس كذلك ، يا ساشا ؟

فأجابت الفتاة :

ـ بالطبع أخاف .

وتطلعت الأم إليها والى ييجور ، وهتفت :

ـ يالكم من قوم ... متيني الأعواد .

وعندما انتهت ساشا من احتساء قدح الشاي صافحت ييجور في صمت

وعبرت إلى المطبخ ، فلحقت بها الأم تشيعها . قالت ساشا :

ـ اذا رأيت بافل ميخائيلوفيتش ، فبلّغيه أطيب تحياتي . لا تنسى هذا ، أرجوك .

واستدارت على حين غرة ، بعد أن وضعت يدها على قبضة الباب ، وقالت :

ـ هل أستطيع أن أقبّلك ؟

فعانقتها الأم في سكون وقبّلتها بحرارة ...

شكراً لك !

قالت الفتاة هذا ، وهي تومىء برأسها ، ثم اختفت .

وعندما عادت الأم الى الغرفة أنفذت بصرها من خلال النافذة قلقةً وجلى ... كانت ندف رطبه من الثلج تتساقط في الظلمة البهيمة المخيمة ...

سأل ييجور :

ـ هل تذكرين آل بروزدروف ؟

كان يجلس ، وقد بدّ ما بين ساقيه ، يحتسي الشاي مثيراً ضوضاء صاخبة . وكان وجهه محمراً ، راضياً ، ندياً بما يتصبّب عليه من عرق .

قالت الأم مفكرة ، وهي تتجه صوب المائدة :

ـ نعم إني أذكرهم .

وجلست ، وشرعت ترنو الى ييجور في أسى :

ـ يا إلهي ! مسكينة ساشا ! كيف تصل المدينة ؟

ـ ستبلغها متهدمة القوى ، لا ريب في ذلك . إن السجن قد أضناها ، يخيل إلي أنها قد أضحت الآن مصابة في رئتها ...

فسألت الأم في رقة :

من عساها تكون ؟

ـــ إبنة أحد ملاكي الأرض . وأبوها ، حسب أقوالها ، خنزير كبير .
هل تعلمين يا أماه ، أنهما كانا ينويان الزواج .

من هما ؟

ـــ هي وبافل . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، كما ترين بعينيك ... عندما يكون هو طليقاً ، تكون هي في السجن ، والعكس بالعكس .

وقالت الأم ، بعد برهة من الصمت :

ـ ما كنت أعلم . إن بافل لا يتحدث عن نفسه أبداً .

وعظم إشفاقها على الفتاة ، فالتفتت إلى ضيفها وقالت في أستياء غير مقصود :

ـــ لم لمْ ترافقها إلى بيتها ؟

فأجاب هو في هدوء :

ـــ لأني لا أستطيع ذلك ، فلديَّ كثير من المشاكل هنا في الضاحية . وسوف أقضي النهار ، منذ الصباح الباكر ، متنقلاً من مكان لآخر . وهذا ليس بالأمر السهل لمصاب بالربو مثلي .

ـ إنها فتاة رائعة !

جهرت الأم بهذا ، وقد شغل بالها ما رواه لها ييجور تواً ، وآلمها أن تعرف ذلك من غريب ولا تعرفه من ولدها مباشرة ... فعبست ، وعقدت ما بين حاجبيها ، وضمت شفتيها بقوة وعنف .

وأومأ ييجور برأسه ، وأبان :

ـــ وإنها لكذلك حقاً . لأرى أنك تأسفين من أجلها ، وإنك لتخطئين في ذلك . إن قلبك سينهار إذا أخذت تحسين الاشفاق من أجلنا جميعاً نحن المتمردين . فالحقيقة أن أحداً منا لا يتمتع بحياة سهلة . لقد عاد أحد رفاقي منذ مدة قريبة من المنفى ، وعندما بلغ نيجني نوفجورود ،

كانت زوجته وابنه ينتظران في سمولنسك ، وعندما ذهب الى سمولنسك ، كانا قد أصبحا في سجن بوسكو . لقد جاء دور زوجته الآن في الذهاب الى سيبيريا . ولقد كانت لي ، أنا أيضاً ، زوجة جميلة رائعة كما يهواها القلب ... لكن أعواماً خمسة من مثل هذه الحياة أودت بها إلى القبر .

وأفرغ كأس الشاي دفعة واحدة في جوفه وتابع قصته . حدثها عن الأشهر التي قضاها في السجن ، وعن السنوات التي سلخها في المنفى . حدثها عن مصائب مختلفة ، عن أساليب الضرب والتعذيب في السجن ، وعن أخبار الجوع في سيبيريا . وراحت تراقبه ، وتعجب لتلك البساطة الهادئة التي يروي بها سيرة حياته الطافحة عذاباً واضطهاداً ...

ـ ولكن ، فلنمض الى العمل الآن ...

وتبدلت لهجته ، وأصبح وجهه أكثر رزانة ، وجهر يسألها ـ بدقة كبيرة ـ كيف تنوي إدخال المطبوعات الى المعمل ، حتى ذهلت لمعرفته التامة بكل التفاصيل ودقائق الأمور ،

وعندما انتهيا من هذا الموضوع ، عادا يتذكران مدينتها الأولى . كان هو يتحدث مازحاً ، أما هي فتهيم متأملة خلال شعاب ماضيها ، فيصوَّر لها أنه يشبه ، الى حد بعيد ، مستنقعاً شبت فيه بين أكوام التراب أشتال صغيرة من التنوب الأبيض والحور النحيل ترتجف فرقاً وجزعاً ، وأن تلك الأشتال تنمو ببطء شديد ، ثم تسقط وتذوب بعد خمس سنوات من العيش في هذه التربة المتعفنة . شهدت تلك الرؤيا فانبثق في صدرها حزن عميق ، وظهر أمام عينيها من جديد شبح فتاة قاسية الملامح ، عنيدة القسمات ، تشق دربها خلال ندف الثلج الرطبة ، وحيدة ، متعبة ، محطمة القوى ... وإن ابنها يجثم الآن في السجن ، وفي غرفة ضيقة ذات طاقة

صغيرة مشبكة الحديد . لعله لم ينم بعد ، بل يضطجع في تلك الساعة من الليل ويفكر . . . لا يفكر فيها ، في أمه ، وإنما يفكر في شخص آخر أعزّ على قلبه . وتتالت أفكارها المؤلمة ، مثل سحب كثيفة سود تغمر روحها بالظلمة القاتمة ...

وقال بيجور باسماً :

– أنت متعبة يا أماه ، هيا بنا الى الفراش .

فتمنت له ليلة طيبة ، وحبت الى المطبخ بحذر وقد أفعمت قلبها مرارة تحزّ في نفسها .

وفي اليوم التالي ، توجه بيجور إليها ، وهما على مائدة الافطار ، وأعلن :

– اذا ألقوا القبض عليك ، وسألوك من أين جئت بهذه المناشير المرطوقية، فماذا أنت قائلة لهم ؟

– سأقول : ذلك ليس من شأنكم .

أخاف ألا يوافقوق في هذا . فهم واثقون كل الثقة أن ذلك العمل من شأنهم وحدهم . وسيظلون يسألونك بقسوة زمناً طويلاً .

– ولكني لن أخبرهم شيئاً .

– إذن ، يزجون بك في السجن .

فقالت وهي تتنهد :

– وما أهمية ذلك ؟ إني لأشكر الله إذن ، إذ أصلح لهذا على الأقل ! ومن ذا الذي يحتاج إلي ؟ لا أحد البتة ! وهم لن يعذبوني يقال إن ... .

فغمغم بيجور ، وهو يرنو إليها بانتباه :

– ويْ ! كلا ، لن يعذبوك . لكن القوم الصالحين الطيبين يجب أن يوفروا أنفسهم .

فأجابت الأم ضاحكة :

ـ ما أحسنك إذ تقول هذا !

فطفق يجور يجوس الغرفة صامتاً أخرس ، ومن ثم اتجه نحوها ، وعالنها :

ـ ذلك شاق جداً ، يا أماه ، وأنا أعرف ثقل وقعه عليك .

فردت وهي تحرك يدها :

ـ إنه شاق على الجميع ، ولعله أسهل على الذين يفهمون . . . ولقد بدأت أفهم ، شيئاً فشيئاً ، ما يسعى اليه أفضل الناس .

فقال بصرامة :

ـ ما دمت قد فهمت ذلك ، فالجميع في حاجة اليك ، أيتها الأم . الجميع !

فشخصت اليه وابتسمت ...

واستعدت ، حوالي منتصف النهار ، للانطلاق الى المعمل ، وهي تحشو نفسها بالمناشير باحتراس ودقة ، بحيث تلفظ يجور بلسانه مغتبطاً راضياً ، يفحصها ويقول :

ـ « زرغوت ! » ، كما يقول سائر الألمان الطيبين عندما يفرغون البرميل الأول من الجعة . إن المطبوعات لم تبدل منك شيئاً ، أيتها الأم ـ فما زلت المرأة ذاتها ، متوسطة العمر ، طويلة ، تميل الى البدانة . فلتبارك الآلهة العديدة لبدايتك المتواضعة !

وما مضت نصف ساعة حتى كانت الأم تقف أمام باب المعمل ، في هدوء وثقة تامة بالنفس ، منحنية تحت عبء ما تحمل من سلال . وكان ثمة حارسان يتحريان بأيديهما الخشنة كل شخص يدلف إلى الساحة ، فيكافئها ضحاياهما بالشتائم والسباب ، ويطلق العمال ألسنتهم بالسخرية منهما ، وكان شرطي ورجل آخر طويل الساقين ، أحمر الوجه ، ذو عينين ضيقتين

سريعي الحركة ، يعتصمان باحدى الزوايا . نقلت الأم حملها من كتف إلى أخرى ، وهي ترقب ذلك الطويل الساقين من تحت حاجبيها ، فقد عرفت فيه جاسوساً ...

قال أحد العمال ، وهو طويل القوام أجعد الشعر ، مخاطباً الحارسين اللذين يتحسسان ثيابه :

– يحسن بكما ، أيها الشيطانان ، أن تفتشوا رؤوسنا لا جيوبنا .

فأجاب أحدهما :

– ليس في رأسك سوى القمل .

إذن ، ابحثا عنه .

فحدجه الحارس بنظرة خاطفة ، وبصق في ازدراء .

قالت الأم :

– أفسحا لي الطريق للمرور ... ألا تريان أن ظهر الانسان يكاد ينقصف تحت مثل هذا الحمل الثقيل ؟

فصاح الحارس حانقاً :

– إمضي ، إمضي . لا تكثري من الثرثرة ، أنت أيضاً .

ولما بلغت الأم مكانها ، أنزلت السلال الى الأرض ، ومسحت العرق عن وجهها ، وتطلعت حولها ...

وأسرع اليها الأخوان الميكانيكيان جوسيف في الحال ...

سأل فاسيلي ، وهو البكر ، وقد قطّب وجهه :

– ألديك فطائر !

– سأحضر شيئاً منها في الغداة .

كانت هذه كلمة السر ... فأشرق وجها الأخوين .

وانفجر إيفان ، أصغرهما قائلا :



يحسن بكما ، أيها الشيطانان ، أن تفتشا رؤوسنا لا جيوبنا

ـ آه ، أيتها الأم ! يا أمي الطيبة !

وانحنى فاسيلي يلقي نظرة على السلة ، وفي تلك اللحظة اتخذت رزمة من المناشير طريقها إلى صدره . قال في صوت عال :

ـ ولم نذهب إلى البيت ، يا إيفان ؟ سنشتري غداءنا منها .

واختفت رزمة أخرى من المناشير في قمة جزمته :

ـ فلنشجع هذه البائعة المتجولة ، ولنشتر منها شيئاً .

فوافق إيفان ضاحكاً :

ـ هذا صحيح !

وألقت الأم نظرها ، محترسة ، على ما حولها ... وصاحت :

حساء ! معكرونة سخنة !

وراحت تخرج المناشير رزمة رزمة ، وتناولها بسرعة إلى الأخوين ، وكلما دست في أيديها رزمة ، ومض أمامها وجه الضابط الأصفر كلهيب عود كبريت مشتعل ، فتخنخن في نفسها باغتباط :

إليك ! خذه هذا ، أيها الشاب الرائع !

ثم تقول ، وهي تناول الأخوين رزمة أخرى :

ـ وهذه أيضاً !

وتدفق العمال يأتون إليها ، وقصعاتهم في أيديهم ؛ وكلما اقترب أحدهم راح إيفان جوسيف يضحك بصوت مرتفع ، فتمتنع الأم عن إعطاء المناشير ، وتلتفت إلى معكرونتها .

وضحك الأخوان قائلين :

ـ إنك لبارعة ، يا بيلاجيانيلوفنا !

فقال وقّاد كان قريباً منها :

ـ إنها الحاجة التي دفعتها إلى ذلك ، فلقد جروا كاسب خبزها بعيداً

عنها أولئك الأوباش ! والآن ، أعطيني معكرونة بثلاثة كوبيكات . لا بأس ، أيتها الأم ، فلسوف تدبرين أمرك بطريقة ما .

فأجابت ، وهي تبتسم :

– شكراً لك على هذه الكلمات اللطيفة .

فغمغم ، وهو يبتعد :

– إن قول بعض الكلمات اللطيفة لا يكلف كثيراً !

وعادت الأم تصيح :

– حساء حار ! معكرونة ! ملفوف !

وشرعت تفكر وتفكر كيف تتمكن من إخبار ولدها عن تجربتها الأولى في حمل المناشير ، ووجه الضابط الغاضب ، الأصفر ، المشدوه ، يتراءى من خلف أفكارها ؛ كان شارباه الأسودان يرقصان باضطراب ، وأسنانه المنتظمة تلتمع بياضاً من تحت شفته المتقلصة . فاضت السعادة في صدرها تشدو كالعصفور ، فحركت حاجبيها وقوستهما ، واستمرت تجمجم في نفسها ، وهي تتابع عملها :

– إليك هذه أيضاً ؟

* * *

١٦

في تلك العشية ، فيما هي تتناول الشاي ، طرق سمعها وقع أقدام تحطم الوحل المتجمد ، وصوت مألوف لديها ... فاستوت على قدميها ، واندفعت عبر المطبخ ، متهافتة على الباب . وتردد صدى خطوات سريعة عند مدخل البيت ، فأظلم كل شيء في عينيها ، وأسرعت تدفع الباب بقدمها وتستند ، واهنة القوى ، على صفحته .

وجاء الصوت المألوف هاتفاً :

- ليلتك سعيدة ، يا أميمة ؛

وأحاطت ذراعان طويلتان نحيلتان بكتفيها ، وعانقتاها بحرارة .

حزّ في قلبها شعور بخيبة الأمل ... والفرح لرؤية أندريه ... وذاب الاحساسان في انفعال واحد ، عظيم ، مرهق ، اكتسحها في موجة عاتية دافئة ، ورفعها عالياً حتى سقطت ووجهها على كتف الأوكراني . فضمها إليه بذراعين مرتجفتين ، بينما طفقت الأم تبكي في هدوء وسكينة ... وراح يمسح على شعرها ويقول :

- لا تبكي ، يا أميمة ، ولا ترهقي قلبك . أقسم لك بشرفي أنهم سيفرجون عنه سريعاً ؛ فهم لا يستطيعون إثبات شيء ضده ، والرفاق جميعاً يعتصمون بالصمت كالسمك المسلوق ...

اقتاد الأم ، وذراعه ملتفة حول كتفيها ، إلى الغرفة الأخرى . فالتصقت به بشدة ، تشرب بتعطش وجشع كل كلمة من كلماته ، وهي تمسح الدموع من عينيها بحركات سريعة تشبه حركات سنجاب صغير .

- بافل يقرئك تحياته . وهو على أحسن ما يتمنى المرء من السعادة والسرور . والازدحام شديد هناك ؛ لقد ألقوا القبض على أكثر من مائة شاب - وهم شباب من المدينة في مثل شبابنا طيبة وصلابة - وعيثوا يطيحون بهم ، كل ثلاثة أو أربعة ، في زنزانة واحدة . إن مديري السجن رجال طيبون ، وهم متخمون من كل ذلك العمل الذي يرهقهم به أولئك الشرطة الملاعين . ليس المديرين أفظاظاً : فهم يقولون دائماً « احتفظوا بهدوئكم ، أيها السادة ، كي لا تسببوا المتاعب لنا » . وهكذا يسير كل شيء على ما يرام . والشبان يتحادثون سوية ، ويتبادلون الكتب ، ويتشاركون في الطعام إنه سجن بديع - قديم وسخ ، ولكنه خفيف الوطأة على المرء . وإن المساجين المجرمين عدد عديد ، وهم يسدون لنا مساعدات كثيرة . ولقد أخلي سبيلي ، وسبيل بوكين ، وأربعة آخرين . وإني لعلى يقين من أن دور بافل سيحين سريعاً ، أما فيزوفشيكوف فسيكون ترتيبه الأخير - إنهم حانقون عليه لفظاظته معهم ، ورجال الدرك لا يستطيعون تحمل رؤيته ! وسيقدمونه إلى المحاكمة أو يجلدونه في يوم من الأيام ؛ أما بافل فيقول له دون انقطاع : كف عن ذلك ، يا نيقولاي ؛ فشتائمك المتواصلة لن تفيد شيئاً في إصلاحهم . ولكن نيقولاي يصيح : « سوف أسحقهم بقدمي كما أسحق الحشرة الدنيئة ! » . أما بافل بافل فيتصرف بصورة رائعة - في ثبات وصلابة - . إني على يقين من أنهم سيطلقونه سريعاً ...

فردت الأم متعزية ، وهي تبتسم في لطف :

سريعاً ؛ إني متأكدة أن ذلك سيكون سريعاً ؛

وهكذا فان ذلك يجعل الأمور تسير سيرها الحسن ! ما قولك في أن تصبي لي من الشاي قدحاً ، وتحدثيني عن أمورك في هذه الأيام ؟

كان يرنو إليها باسماً ، بلطف ورقة ، ووميض حب يشع من عينيه اللتين خيم عليهما ظل من الكآبة .

وصعدت الأم زفرة عميقة ، وهي تدرس تقاطيع وجه النحيل ، المكسو بأدغال سوداء من الشعر بصورة تبعث على الضحك :

إني مغرمة بك ، يا أندريوشا ؛

فأجاب ، متأرجحاً إلى الأمام والخلف على كرسيه :

إن النزر القليل يكفي لأن يجعل مني رجلا سعيداً . أنا أعرف أنك مغرمة بي . إن لك قلباً كبيراً يتسع لمحبة البشر جميعاً .

فقال بألحاح :

— ولكني أحبك حباً خاصاً ، ولو أن لك أماً لحسدها جميع الناس على مثل هذا الابن الرائع .

فهز الأوكراني رأسه ، وحكه بشدة بكلتا يديه .

وجاء صوته ضعيفاً بطيئاً :

— إن لي أماً في مكان ما ...

فهتفت الأم في حمية :

— أتدري ما صنعت اليوم ؟

وراحت تروي له في حماسة وحمية كيف حملت المناشير إلى المعمل ، وهي تنمق وصفها ، وتلمظ بلسانها فرحاً وغيرة وحماساً .

ففتح عينيه ، بادىء الأمر ، دهشة ؛ ومن ثم انفجر ضاحكاً ، وصاح والفرح يغمر قلبه :

— أوْ هوْ ! هذا شيء عظيم ! تلك هي القضية ؛ أفلن يكون بافل

مسروراً ؟ هذا رائع . يا أميمة . رائع بالنسبة لبافل ، وللآخرين جميعاً .

وراح جسده يهتز إلى الأمام والخلف . وطفق يفرقع بأصابعه ، ويصفر متحمساً ، ويتألق فرحاً ، باعثاً في قلب الأم ترجيعاً شديداً غير منقوص .

قالت ، وكأن قلبها قد فتح ليتدفق منه تيار الكلمات الذي اندفع يتناثر ويتلألأ في بهجة هادئة :

— إيه ، أيها الحبيب المبارك أندريوشا . عند ما أفكر في حياتي الخاصة... آه ، أيها السيد يسوع! لماذا عشت حياتي ؟ لأعمل ... وأجلد... ولا أرى أحداً سوى وجه زوجي ... ولا أعرف سوى الخوف والهلع ؛ إني لم ألحظ كيف شب بافل ونما . ولم أعرف ، طيلة حياة زوجي ، إن كنت أحبه أم لا ! لقد كانت أفكاري وسائر رغباتي منصرفة لأمر واحد: أن أغذي وأسمن بالطعام الجيد ذلك الوحش الذي يخصني ، وأفعل ما يسره ويبهج قلبه دون تباطؤ أو تأخير ، كيلا يغضب ويهدد منذراً بضربي . وكنت أتمنى أن يشفق علي مرة واحدة ، ولكني لا أذكر أنه فعل ذلك أبداً . لقد اعتاد أن يضربني وكأنه لا يضرب زوجته ، بل يضرب شخصاً يريد الانتقام منه . لقد عشت على هذا المنوال طوال عشرين سنة ولم أعد أذكر أبداً كيف كانت الحياة قبل أن أتزوج. وعندما أحاول أن أذكر ذلك الماضي ، أصبح كالعمياء ، ولا أستطيع رؤية أي شيء على الاطلاق. لقد كان ييجور إيفانوفيتش هنا ـ وكلانا من المدينة نفسها ـ وحدثني عن أمور عدة ، أما أنا .. فقد رحت أتذكر الناس وأتذكر البيوت ، ولكني لم أستطع أن أتذكر كيف كانوا يعيشون ، وماذا كانوا يقولون ، وماذا حدث لكل واحد منهم . وإني لأتذكر حريقاً ، لا بل حريقين . يخيل إلي أن كل شيء قد طرد من نفسي طرداً وأن روحي قد أغلقت عليها كل المنافذ فأصبحت صماء عمياء ...

وأخذت تتنفس بصعوبة كالسمكة حرمت من الماء . ثم تابعت بصوت

خافت ، وقد مالت بكل جسدها إلى الأمام :

— ومات زوجي فالتفتُّ إلى ابني ، ولكنه انصرف عني إلى هذا العمل ... وكان ذلك قاسياً بالنسبة إليَّ ، ولقد أشفقت عليه هو أيضاً . كيف أستطيع الاستمرار في الحياة إذا أصابه حدث ما ؟ لكم خفت وارتعشت ... كان قلبي ينفجر إنفجاراً كلما فكرت فيما قد يحدث له ...

وصمتت لحظة ، ثم أضافت وهي تومىء برأسها إيماءة ذات مغزى :

— إنه ليس حباً خالصاً ، حبنا النسائي . إننا نحب ما نحتاجه من أجل مصلحتنا الخاصة . ولكني عندما أنظر إليك تتألم هكذا من أجل أمك ـ ما هي بالنسبة إليك ؟ وسائر هؤلاء الناس الذين يتعذبون هكذا من أجل الشعب كله ، ويذهبون إلى السجن وإلى سيبيريا ... ويموتون ... وفتيات يمشين ، وحدهن ، في الليل مسافات شاسعة ، يغصن في الوحل ، ولا يأبهن بالأمطار والثلوج ، يمشين سبعة فراسخ من المدينة حتى بيتنا هذا ! من يضطرهم إلى ذلك ؟ ولماذا يفعلونه ؟ لأن في قلبهم حباً كبيراً طاهراً ... ولأنهم يملكون الايمان ، الايمان العميق الراسخ ، يا أندريوشا . أما أنا ... أنا لا أستطيع أن أحب هكذا ؛ أنا أحب ما يخصني فقط ، ما هو قريب مني ؛

فقال الأوكراني ، وقد أشاح بوجهه ، وراح يفرك رأسه وخديه وعينيه بشدة كما هي عادته :

— أجل ، إنك تقدرين . كل إنسان يحبُّ ما هو قريب منه . والقلب الكبير يجعل الأمور البعيدة جداً قريبة أيضاً . إنك تستطيعين فعل أشياء عظيمة جداً ، لأنك تملكين في نفسك حباً أمومياً كبيراً .

فغمغمت :

— فليساعدني الله على ذلك ؛ إني أشعر أن هذه طريق جيدة وأسلوب حسن في الحياة ، إني أحبك الآن ، يا أندريه ـ ولربما أحبك أكثر من باشا

أيضاً . فهو منطوٍ على نفسه كثيراً ... أنظر مثلا ، لقد كان يريد الزواج من ساشا ، ولكنه لم يقل كلمة واحدة لي ، أنا أمه ...

فاعترض الأوكراني بقوله :

— هذا ليس صحيحاً . أنا متأكد من عدم صحته . إنه يحبها ، وهي تحبه ... هذا صحيح ، لكنهما لم يتزوجا إطلاقاً . قد ترغب هي في ذلك ، أما هو فلا يريده أبداً .

فقالت الأم ، وهي تشخص متفكرة إلى وجه الأوكراني :

— تلك هي حقيقة الأمر إذن ، تلك هي حقيقة الأمر إذن ... الناس يرفضون حتى سعادتهم ...

فجاء صوت الأوكراني عذباً ناعماً :

- إن بافل شخص نادر ، شخص ذو إرادة فولاذية .

فتابعت الأم في ذهول :

— وهو الآن قابع في السجن ، إنه لأمر مخيف ... لكنه ليس مخيفاً مثله فيما مضى . لقد اختلفت الحياة ، ومخاوفي اختلفت أيضاً . أنا الآن أخاف من أجل الجميع . ولقد اختلف قلبي أيضاً لأن نفسي قد فتحت عيني قلبي ، فهو ينظر إلى العالم ويحس الكآبة والفرح في الوقت ذاته . ثمة كثير من اشياء لا أفهمها ، والأكثر إيلاماً منها أنكم لا تؤمنون بالرب الاله . ولكن ، ماذا أقدر أن أفعل في هذا المضمار ؟ إني أرى أنكم جميعاً طيبون حقاً وصدقاً ، ولقد وطنتم النفس على حياة عسيرة شاقة في سبيل الشعب ، حياة صعبة في سبيل الحقيقة . وأنا الآن أفهم حقيقتكم : مـا دام هناك أغنياء ، فان عامة الشعب سيظلون عاجزين عن تحصيل أي شيء كان ... فلا فرح ، ولا عدالة ، ولا أي شيء على الاطلاق . والآن ، إذ أعيش بينكم ، أفكر أحياناً في الماضي ، أفكر في قواي الفتية المسحوقة تحت الأقدام ، وقلبي الفتي المسحوق أيضاً تحت وطأة قبضة قاسية فيأخذني الاشفاق

على نفسي وتثور المرارة في قلبي . ولكني أرى العيش أيسر علي الآن . وإني أستطيع أن أرى نفسي شيئاً فشيئاً وأنا ...

فنهض الأوكراني واقفاً ، ناحلا ، مفكراً ... وطفق يمشي في الغرفة جاهداً ألا يثير أي ضوضاء على الاطلاق . وهتف في صوت خافت :

— إنك تعبرين عن الأشياء بصورة رائعة ، بصورة رائعة جداً . لقد كان يعيش في كيرش يهودي شاب يقرض الشعر ، ولقد كتب ذات يوم هذه الكلمات:

وأولئك الأبرياء الذين يقتلون غدراً

ستبعثهم الى الحياة ، يوماً ما ، قوة الحقيقة ...

ولقد اغتاله ، بدورة ، البوليس في كيرش ، إنما هذا ليس بذي بال . لقد فهم الحقيقة وزرع بذورها بين الناس . إنك ، أنت أيضاً ، واحدة من أولئك الأبرياء الذين يقتلون غدراً .

وعادت الأم تقول :

— أما الآن فاني أتكلم ، وأسمع كلماتي الخاصة وأكاد لا أصدق أذني — إني لم أفكر ، طوال حياتي ، إلا في شيء واحد : كيف أتخلص من كل .. نهار جديد ، كيف أقضيه بعيدة عن الرقباء بحيث لا يمسني أحد من الناس . أما الآن ، فاني أطفح بالتفكير في الآخرين . وربما لا أفهم قضيتكم تماماً ، لكنكم جميعاً أعزاء علي . وإني لأتألم من أجلكم جميعاً ، وأريدكم دون استثناء أن تكونوا سعداء . وخاصة أنت ، يا أندريوشا .

فاقترب منها ، وقال :

— شكراً لك .

ثم أخذ يدها بين يديه وضغط عليها بشدة وابتعد مسرعاً . وأخذت الأم ، مثقلة بانفعالاتها وعواطفها ، تغسل الأقداح في صمت وهدوء وبطء ،

وهي تحتضن الفرح الهادىء الذي يملأ قلبها .

قال لها الأوكراني ، وهو يذرع أرض المطبخ جيئة وروحة :

— يجب أن تظهري بعض العطف لفيزوفشيكوف ، يا أميمة . إن أباه في السجن ، ذلك السكير العديم النفع . وكلما وقعت عينا نيقولاي عليه من النافذة ، راح يلعنه ويشتمه . وإن هذا الأمر سيىء جداً ! إن نيقولاي لطيف في الأصل ... وهو يحب الكلاب والفئران وكل أنواع الحيوانات ، ولكنه يبغض الناس . أترين أين يمكن أن يبلغ الأمر بالانسان ؟

فكرت الأم في نفسها :

— لقد ذهبت أمه ... وأبوه لص عربيد ...

وعندما غادرها أندريه إلى فراشه رسمت ، سراً ، إشارة الصليب عليه ، ثم سألته بصوت خافت ، بعد مضي نصف ساعة تقريباً :

أأنت نائم ، يا أندريوشا ؟

— كلا ، لماذا ؟

طابت ليلتك .

فقال في لهجة امتنان :

— شكراً لك ، يا أميمة .

* * *

١٧

حينما بلغت بيلاجيا في اليوم التالي بوابة المعمل ، أوقفها الحراس وأمروها بوضع سلالها أرضاً حتى يفتشوها ؛ فقالت معترضة في هدوء ، بينما راحت أيديهم تتحسس ثيابها في قسوة :

— ولكن كل شيء سيبرد .

فقال أحد الحراس بصوت أجش :

— إخرسي .

وقال حارس آخر ، وهو يدفعها في كتفها بلطف :

— لقد قلت لكم إنهم ألقوا بها من فوق السور .

وعندما أصبحت داخل الفناء ، كان العجوز سيزوف أول من جاء إليها . قال لها وهو يختلس النظر حوله :

— أبلغك الخبر ، يا أماه ؟

— أي خبر ؟

— أوراقهم . لقد عادت إلى الظهور مجدداً تنتشر في كل مكان كما ينتشر الملح في الخبز الذي تبيعين . إن التحريات والاعتقالات لم تجدهم فتيلا . لقد ألقوا بابن أخي مازين في السجن ... لماذا ؟ ولقد ساقوا ابنك أيضاً ، أما الآن فالجميع يرون أن ذلك لم يكن من صنع أيديهم . ليست القضية

قضية أشخاص ، بل أفكار ، والأفكار لا يمكن اصطيادها كالقمل ...

وأمسك بلحيته في قبضة يده ، وراح يرمقها بنظرات ذات معنى ، ثم قال :

— لمَ لا تأتين لزيارتي ؟ لا ريب أنك تشعرين بالوحشة وحدك ...

فشكرته ، وراحت تنادي على بضائعها ، وهي تراقب الضوضاء غير العادية التي تسيطر على المصنع . كان سائر العمال في هياج مستمر ، يجتمعون ثم يفترقون ، وهم يتراكضون من بناء إلى آخر . وأحست الأم شيئاً جريئاً في الجو المشحون بالهباب والدخان . وكانت الحماسة تتجلى في عبارات التشجيع أو ملاحظات التهكم التي يتبادلها العمال بين الحين والحين ، والكهول منهم يبتسمون ابتسامات مختصرة سريعة ، والمدراء يروحون ويغدون والقلق بادٍ على وجوههم ، ورجال الشرطة يتراكضون ، فاذا وقعت أنظار جماعات العمال عليهم تفرقوا أو توقفوا عن الكلام بكل بساطة ، وهم يثبتون أنظارهم بصمت ، في الوجوه الثائرة الغاضبة .

وكان العمال يبدون على جانب عظيم من النظافة ، وكأنهم قد اغتسلوا جميعاً لتوهم . ومر البكر جوسيف بقامته الطويلة بالقرب من الأم ، يعدو في أعقابه أخوه ضاحكاً في سره . وكذلك مر من أمامها فافيلوف ، معلم إحدى ورشات النجارة ، وأشعيا مراقب الدوام . وكان رأس هذا الأخير يدور فوق كتفيه دون انقطاع ، وهو ينظر في وجه النجار الساهم الضخم ، ولحيته الليفية ترتجف دون انقطاع .

— أنظر ، يا إيفان إيفانوفيتش ، إنهم يبتهجون لذلك ويضحكون ، وإن كان يعني دمار الدولة كما أشار إلى ذلك المدير المحترم . لأن الأرض هنا لا تحتاج إلى اجتثاث الأعشاب الرديئة فحسب . بل إلى حراثة تقتلع منها كل الأشواك من جذورها ...

وكان فافيلوف يسير ويداه خلف ظهره ، وأصابعه منقبضة بشدة .

قال بصوت مرتفع :

ــ إذهبوا واصنعوا ما تشاؤون ، يا أبناء الكلبة ، ولكن إياكم أن تمسوني بسوء .

وجاء فاسيلي جوسيف إلى الأم ، وقال لها :

ــ أعتقد أني سأجرب غذاؤك مرة ثانية ، يا أماه ، فطعامك لذيذ حقاً .

ثم أضاف ، وهو يخفض صوته ويضيق فتحة عينيه :

ــ لقد أصابتهم في النقطة المؤلمة تماماً ، يا أماه . إنه لعمل عظيم !

فأومأت إليه برأسها في عطف . كانت سعيدة بكون هذا الشاب ، وهو الذي يعتبرونه أكثر أهل الضاحية شراسة وأذية ، يخاطبها بمثل هذا الاحترام . وكذلك كانت سعيدة بذلك الهياج في المعمل ، وهي لا تفتأ تفكر :

ــ لو لم أفعل أنا ذلك ...

ووقف ثلاثة من العمال غير بعيد عنها . وسمعت أحدهم يقول بصوت خافت وبلهجة حزينة متألمة :

ــ لم أستطع أن أجده الآن ...

فلاحظ أحد رفيقيه :

ــ بودي أن أسمع ماذا كتب فيه . أنا لا أعرف القراءة ، لكن من الواضح أن المرمى قد أصاب الهدف .

واختلس الثالث النظر فيما حوله ، وهمس :

ــ فلنذهب إلى غرفة المرجل .

وتطلع جوسيف الى الأم وغمزها بعينه ، وقال :

ــ أترين ماذا يجري ؟

وقفلت بيلاجيا إلى البيت راضية سعيدة ، وتوجهت إلى أندريه قائلة :

ــ إن العمال يأسفون لأنهم لا يعرفون القراءة ، عندما كنت شابة

كنت أعرف كيف أقرأ ، أما الآن فقد نسيت ،

فاقترح الأوكراني :

ـ ولماذا لا تتعلمين ؟

ـ في مثل عمري ؟.. لكي أجعل الناس يسخرون مني ؟

فتناول أندريه عن الرف كتاباً ، وأشار إلى أحد حروف الغلاف :

ـ ما هذا ؟

راء .

وهذا :

ألف .

كانت مضطربة خجلة من نفسها ، يصوّر لها أن عيني أندريه تضحكان منها في الخفاء ، فتتجنب نظراته وتروغ منها . لكن صوته كان هادئاً لطيفاً ، ووجهه رزيناً لا أثر فيه للسخرية مطلقاً .

استفهمت ، وهي ترسل ضحكة قصيرة غير مقصودة :

ـ أتنوي حقاً أن تعلمني ، يا أندريوشا !

فأجاب :

ـ ولم لا ؟ ما دمت قد تعلمت القراءة فيما مضى ، فلن يكون ذلك شاقاً . وإذا نجحنا فيها فزنا ، وإلا فاننا لن نخسر شيئاً .

ـ ولكنهم يقولون: إنك لا تصبح قديساً بمجرد الشخوص الى الأيقونات.

فقال الأوكراني ، وهو يؤرجح رأسه :

ـ آه ... إن ثمة أقوالاً كثيرة ! ما رأيك مثلا في هذا : « كلما قلت معرفتك ، طال رقادك » إنما المعدة وحدها تستطيع هكذا . إنهم يسعون لإرهاق الروح بمثل هذه الأقوال ، حتى يسهل قيادها عليهم . ما هو هذا الحرف ؟

- لا م . . .

عظيم . أترين كيف تصطف الأحرف بصورة جميلة ، جميعها في خط واحد ؟ وهذا ؟

فحملقت بعينيها ، وزوّت ما بين حاجبيها جاهدة أن تتذكر الأحرف المنسية ، غافلة عن كل شيء آخر . وسرعان ما أرهقت عيناها ، فذرفتا في البدء دموع الاجهاد ، ثم دموع اليأس . همست :

أتعلّم القراءة ؟ في الأربعين من عمري ، وأبدأ أتعلم أحرف الهجاء !

فقال الأوكراني في عذوبة بالغة :

لا تبكي ! إنك لا تستطيعين اختيار حياتك ، ولكنك تدركين على الأقل مبلغ ما كانت عليه من الفساد . إن آلاف الناس قادرون على العيش أفضل مما يعيشون لو أرادوا ذلك ، ولكنهم يستمرون يعيشون كالحيوانات ، لا بل يرضون بذلك أيضاً . أية حسنة في أن الانسان يعمل ويأكل اليوم، ويعمل ويأكل غداً ، وهكذا كل أيام حياته ... يقضيها في العمل والأكل ، وهو يتدبر أمره أثناء ذلك كي ينجب أولاداً يتسلى بهم حتى يبدأوا يطلبون الكثير من الطعام . وعندئذ يغضب ، ويروح يلعنهم : هيا ، عجلوا واكبروا أيها الخنازير ، فقد آن الوقت كي تجدوا لكم عملاً . وإنه ليود أن يجعل من اولاده حيوانات اليفة ، ولكنهم يبدأون العمل في سبيل بطونهم الخاصة ، وهم يقضون حياتهم معاً وكأنها قطعة من العلكة دون سرور في النفس أو بهجة في القلب . بعضهم يستجدي على الدوام كالشحاذين ، والآخرون يختلسون كاللصوص ما يحتاجون إليه من سواهم . ولقد سُنت لهم قوانين سيئة وأقيم عليهم رجال مسلحون بالهراوات ، وقيل لهم : أقيموا حرمة شرائعنا فهي صالحة تيسر لنا امتصاص دم الانسان . وإذا أرهق الانسان، وبدأ يتمرد على الخضوع ، أدخلوا في رأسه تعاليم تقيد عقله وتشله .

واتكأ بمرفقه على المنضدة ، وتفرس بأنظاره في الأم ، ثم تابع :

ـ إن الناس الذين يستحقون لقب الانسان هم أولئك الذين ينذرون انفسهم وحياتهم من اجل تحطيم القيود التي تغل عقل الانسان . ولقد بدأت أنت ايضاً ، حسب طاقتك وإمكانياتك ، تساهمين في هذا العمل .

فقالت في لهجة استغفار :

ـ أنا ؟ وماذا أستطيع أن أفعل ؟

ـ لماذا تقولين ذلك ؟ إننا أشبه بالمطر ، كل قطرة منا تسقي البذور . وعند ما تبدأين القراءة ...

وأعرق في الضحك ، ثم نهض وعبّد يذرع أرض الغرفة بخطواته :

ـ يجب ان تتعلمي بكل تأكيد ، واسوف يعود بافل إلى البيت في القريب العاجل ، وإذا بك ... يا لله !

فقالت الأم :

ـ آه ، يا اندريوشا ! إن كل شيء سهل بسيط عند ما يكون المرء شاباً . اما فيما بعد ، فالهموم كثيرة ، والقوى قليلة ، وليس من ذهن على الاطلاق ...

* * *

١٨

في تلك العشية ، بعد أن غادر الأوكراني المنزل ، أشعلت الأم مصباحاً وشرعت تخيط بعض الجوارب . وسرعان ما نهضت ، وسعت على غير هدى عبر الغرفة ، ودلفت الى المطبخ ، وأغلقت الباب بالمزلاج ، ثم عادت وجفناها يرفان ، وحاجباها يتراقصان في عصبية ظاهرة . وبعد أن أسدلت الستائر على النافذتين ، تناولت كتاباً عن الرف وعادت فجلست الى المائدة . وبالرغم من كل هذه الاحتياطات ، لم تستطع إلا أن تختلس النظر فيما حولها قبل أن تُكبّ على الكتاب ، وتأخذ شفتاها تتحركان بلفظ الأحرف. وكانت تجفل لدى كل صدى يرتفع من الشارع ، فتستر الكتاب بيدها وترهف سمعها ، ثم تعود الى همسها ، وهي تفتح عينيها وتغلقها دون انقطاع :

— لام ... باء ...

وقرع الباب ، فهبت الأم على قدميها ، وألقت بالكتاب في مكانه على الرف : ثم سألت في لهفة وجزع :

— من الطارق ؟

— أنا !

ودخل ريبين ، وهو يمشط لحيته بأصابعه ، وقال :

ـ إنك لم تعتادي السؤال عن الطارق ! وحدك ؟ ظننت أن الأوكراني لا بد أن يكون هنا ، لقد رأيته اليوم ، ويبدو أن السجن لم يؤذه قط .

جلس ، واستدار نحو الأم ...

ـ فلنتحدث قليلاً .

وملأتها نظرته الغامضة بجزع مبهم لم تدر كنهه ، وقد بدأ يقول بصوته الأجش :

ـ إن كل شيء يكلف مالاً . الولادة تكلف مالاً ، والموت يكلف مالاً ، والكتب والكراريس تكلف مالاً أيضاً ... هل تعلمين من أين يأتي المال الذي ينفق على هذه الكتب ؟

فقالت الأم بصوت خافت ، وهي تحس أن الأمور ليست على ما يرام :

ـ كلا ، لا أعلم !

ـ وأنا لا أعلم أيضاً ! والسؤال الثاني ـ من يكتبها ؟

ـ أولئك الذين تعلموا في الكتب ...

فقال ريبين ، ووميض أسود ينزلق على وجهه الملتحي :

ـ تعنين الأسياد ! وبكلام آخر ، فان الأسياد يكتبون الكتب ويوزعونها . ولكن الكتب موجهة ضد الأسياد . والآن ، جربي أن توضحي لي ما معنى ذلك ! ولماذا ينفقون المال كي يثيروا ضدهم عامة الناس ؟ إيه ؟

فأطلقت الأم صرخة رعب ، وطرفت بعينيها :

ـ وماذا ترى أنت ؟

فقال ريبين ، وقد صار أشبه ما يكون بالدب :

ـ آها ! ها أنت ترتجفين.وأنا أيضاً ـ حالما مرت هذه الفكرة في خاطري

اقشعر لها بدني كله .

— هل اكتشفت شيئاً ؟

— خدعنا ! إنني أشعر أننا خدعنا . لا وقائع لدي ، ولكنني أحس أن ثمة خديعة في الأمر . تلك هي القضية ! إن عشيرتك لخبيثة خداعة وأنا إنسان مع الحق . ولقد عرفت الحقيقة الآن ، ولن أسير مع الأسياد بعد اليوم أبداً ، فسوف يطرحون بي أرضاً ، عندما يجدون ذلك ملائماً لهم ، ويسيرون فوق عظامي كما لو كنت جسراً ...

واعتصرت كلماته قلب الأم ، فكأنها به أخذ بين فكي كماشة صاحت في ألم :

— يا يسوع الحبيب . أيمكن أن پاشا لم يفهم ؟ وكل أولئك الذين ...

ومثلت أمامها وجوه ييجور ، ونيقولاى إيفانوفيتش ، وساشا ، هذه الوجوه الرزينة ، الطافحة شرفاً وإخلاصاً . وثار قلبها احتجاجاً . فقالت ، وهي تهز رأسها نفياً :

لا ، لا لا أستطيع أن أصدق ذلك . إنهم أناس يملكون وجداناً .

فسأل ريبين مذهولاً :

— من تعنين ؟

— جميعهم ! حتى آخر من رأيت منهم .

فأطرق ريبين وقال :

— إنك لعلى ضلال يا أماه !. ولست تنظرين حيث يجب أن تنظري . أرسلي بصرك إلى أبعد كثيراً . إن أولئك الذين انضموا الينا — لعلهم هم انفسهم لا يدرون شيئاً . إنهم ... يملكون الإيمان ... وهذا كل شيء . ولكن ربما كان يقف ... وراءهم ... أناس لا يهتمون بمصلحتهم الخاصة . إن الإنسان

لا يعمل ضد نفسه من أجل لا شيء ...

ثم أضاف ، في اقتناع الفلاح المرهق بارتياب أجيال طويلة :

ـ إن شيئاً صالحاً لن يخرج من الأسياد قط .

وسألت الأم ، وقد تسلط الشك عليها مرة أخرى :

وماذا تفكر أن تعمل ؟

ـ أنا ؟

وشخص ريبين إليها ، وصمت ، ثم ردد :

ـ كلما ابتعدنا عن الأسياد كان ذلك أفضل ، تلك هي القضية ؟

ومرة أخرى ، عبس وانطوى على نفسه ...

ـ كنت أريد أن ألتحق بالرفاق ، وأسير جنباً الى جنب وإياهم . إني صالح لمثل هذه الأمور ، وأعرف ما أقول للناس . أما الآن فاني ذاهب فقد فقدت الايمان ، ولم يبق أمامي سوى الذهاب .

وأطرق برأسه ، وغرق في لجة من الأفكار :

ـ سوف أذهب وحيداً ، خلال القرى والأرياف ، استنهض عامة الناس . فقد آن لهم أن يأخذوا الأشياء بين أيديهم . واذا فهموا مرة ، فلسوف يجدون طريقهم الخاصة . وستكون مهمتي أن أساعدهم على الفهم . إن أملهم الوحيد هو في داخلهم ... فملكيتهم الوحيدة هي عقولهم ، تلك هي القضية !

وبدأت تشفق على هذا الرجل وتخاف من أجله . وأضحى ، هو الذي كان دائماً مثاراً لنفورها ، عزيزاً عليها الآن لسبب لم تدر له تعليلا . فقالت له في رقة :

ـ ولكنهم سيقبضون عليك ...

فحدجها ريبين بنظره :

ـ سوف يوقفوني ، ثم يطلقون سراحي فأبدأ كل شيء من جديد .

ـ إن الفلاحين أنفسهم سيسلمونك ... وسيلقون بك في السجن .

ـ سأبقى فيه ما شاءوا ، ثم أخرج ، وأبدأ من جديد. أما الفلاحون فسوف يسلموني مرة ، ومرتين ، ثم مرة ثالثة ، وعندئذ يدركون أن الاصغاء إلى ما أقول لهم أفضل ما يفعلون . ولسوف أقول : لا تصدقوني ... إستمعوا إلي فقط. واذا استمعوا إلي مرة فسوف يصدقون .

كان يتكلم ببطء شديد ، وكأنه يزن كل كلمة قبل أن يلفظها .

ـ لقد تلقنت أموراً كثيرة في المدة الأخيرة وتعلمت شيئاً أو شيئين .

فقالت وهي تهز رأسها في أسى :

ـ وتلك ستكون نهايتك ، يا ميخائيلو إيفانوفيتش .

فتفرس فيها ، متسائلا متحفزاً ، بعينيه السوداوين العميقتين . ومال جسده المتين الى الأمام، وأطبقت يداه على مسند المقعد ، وبدا وجهه الذي لوحته الشمس شاحباً في إطار لحيته السوداء :

ـ أتذكرين ما قال المسيح عن حبة القمح ؟ لا بد لها أن تموت كي تولد مجدداً ... وكل إنسان حبة من الحقيقة ، تلك هي القضية ! ولكن الموت لن ينزل بساحتي قريباً ، فأنا ثعلب عجوز داهية .

وتململ في مقعده ، ثم نهض متثاقلا :

ـ سأذهب إلى الحانة ، وأجلس بعض الوقت مع روادها . يبدو أن الأوكراني لن يعود سريعاً . هل عاد إلى العمل القديم ؟

فأجابت الأم مبتسمة :

ـ نعم .

حسناً ! حدثيه عني ...

وسارا متماهلين عبر المطهى، وقد تلاصق كتفاهما ، وراحا يتبادلان الملاحظات دون أن ينظرا إلى بعضهما بعض .

— حسناً ، الى اللقاء !

— الى اللقاء ! متى ستستقيل من المعمل ؟

— لقد استقلت .

— ومتى تسافر ؟

— غداً ، في الصباح الباكر ! الى اللقاء !

انحني ، وخرج من الباب متعثراً ، مكرهاً ... وظلت الأم برهة تصغي الى خطواته وإلى الشكوك المستيقظة في صدرها ، ثم استدارت في هدوء ، ودلفت الغرفة الثانية ، ورفعت الستائر عن النافذة . كانت الظلمة تنبسط دون حراك فيما وراء الزجاج ... فكّرت :

— إني أحيا في الظلام أبداً .

وأحست الأسف لذلك الموجيك المنقبض النفس ، القوي البنية ، العريض المنكبين .

وعاد أندريه مشرق الوجه منشرح الصدر ، وهتف عندما حدثته بأمر ريبين :

- فلينطلق ، وليطوّف عبر القرى ، ينادي بالعدالة ويستنهض الشعب . يصعب عليه كثيراً أن يسير وإيانا . إن رأسه ممتلئ بآراء الموجيك . . . وليس فيه موضع لآرائنا .

فقالت الأم في حذر :

- لقد تحدث عن الأسياد ـ وفي حديثه شيء من الحقيقة. انتبهوا ألا يخدعوكم .

فضحك الأوكراني وقال :

إنهم يوجهونك في الطريق الضالة . آه يا أميمة ، المال المال !

لو كنا نملك مالاً فقط ! إننا ما نزال نعيش على نفقة الآخرين . فنيقولاي إيفانوفيتش مثلا يتناول خمسة وسبعين روبلا في الشهر ، وهو يعطينا خمسين منها ، وكذلك الأمر مع الآخرين . وفي بعض الاحيان ، يرسل إلينا طلاب الجامعات ، الذين يكادون يموتون جوعاً ، بعض الهبات التي جمعوها قرشاً قرشاً . ولا ريب أن هناك مختلف الأنواع من الأسياد ، البعض منهم يتركوننا ، والبعض يخدعوننا ، ولكن أفضلهم يربطون مصيرهم بمصيرنا ...

وضم يديه وتابع في لهفة :

ـ إن انتصارنا الأخير ما يزال أبعد مسافة مما يستطيع النسر أن يطير . ومع ذلك فسوف نحتفل بعيد أول أيار . ولسوف يكون احتفالاً رائعاً .

وبعثرت حماسته كل الشكوك التي زرعها ريبين . كان يسير ذهاباً وإياباً في الغرفة ، يداعب شعره بأحدى يديه ، ويشخص إلى الأرض مفكراً :

ـ إن قلبك ليطفح بالاحساسات أحياناً ـ ما أروع ذلك ! ويخيل اليك أنك ، أيان ذهبت و فكل إنسان رفيق لك ـ إنهم جميعاً يلتهبون باللهيب نفسه . كلهم طيبون ، لطيفون ، مرحون ... وليس من حاجة للكلام كي تتفاهمي وإياهم. إنك تعيشين وإياهم مثل جوقة كبيرة ، يغني كل قلب فيها لحنه الخاص . وكل الألحان أشبه بتيارات تنصب في نهر واحد ، والنهر يتدفق ، واسعاً حراً طليقاً ، في بحر الحياة الجديدة الصاخب المبتهج . وإني لأقول في نفسي على الدوام إن هذا واقع لا محالة ، واقع إذا ما أردناه نحن ... فيطفح قلبي المأخوذ سروراً ... وتستدر السعادة دموع عيني .

كانت الأم تحاول ألا تأتي نأمة تقطع عليه أفكاره ، وتعترض حديثه ، كانت تصغي إليه دائماً بانتباه أكثر منها إلى أي شخص آخر ، فهو يتحدث ببساطة أكثر من الباقين ، فتذهب كلماته الى القلب باستقامة نافذة . ولم يكن بافل يتكلم أبداً عن رؤاه في المستقبل ، أما الأوكراني فكانت

يبدو أنه يعيش على الدوام في ذلك المستقبل! كانت أحاديثه تروي كل ألفرح الذي سيهبط على شعوب الأرض قاطبة . وكان هذا ، في نظر الام ، ما يعطي الحياة ابنها وبقية رفاقه وعملهم ، معنى ومغزى .

وتابع الأوكراني ، وهو يهز رأسه :

– ثم تستردين شعورك على حين غرة ، وتنظرين حولك فاذا الأشياء كلها باردة وسخة ، واذا الناس كلهم متعبون صاخطون ...

وأضاف في كآبة عظيمة :

– يجب ألا تضعي إيمانك في الناس : هذا يؤلم ويؤذي ، وأنا أعلم ذلك ، ولكن يجب أن تخافي منهم ، لا بل أن ... تبغضيهم أيضاً . إن لكل إنسان جانبين في ذاته . وأنت تودين فقط أن تحبيه ، ولكن كيف تستطيعين ذلك ؟ كيف يمكن أن تصفحي عن شخص هاجمك كالوحش المفترس ، وضرب صفحاً عن نفسك الحية ، وسحق مظهر الانسان المتجلّي فيك ؟ إنك لا تستطيعين غفران هذا ، لا لأنه يتصل بك – فأنت تستطيعين أن تتحملي كل شيء – ولكن لأنك لا تستطيعين أن تتركيهم يعتقدون بموافقتك واستسلامك . إنك لا تستطيعين أن تسمحي باستعمال ظهرك كي يتعلموا كيف يجلدون الآخرين .

كانت عيناه تلتهبان بشعلة باردة ، ورأسه منحنياً في كآبة ، وحديثه أكثر حزماً منه في أي وقت مضى .

– أنا لا أملك الحق في غفران أي شر كان وإن لم يؤذني. فأنا لست الوحيد على هذه الأرض . فقد أصفح اليوم عن إهانة يوجهها أحدهم لي ، وربما ضحكت منها لأنها من التفاهة بمكان ولكنه غداً قد يسن سكينه على عنق سواي بعد أن جرب قوته فيّ . إنك لا تستطيعين أن تنظري إلى الناس سواء ، بل يجب أن تنتقي وتختاري على مهل : هذا يصلح لي ، وهذا لا يصلح ! كل هذا صحيح ،

ولكنه لا يعزي كثيراً .

ولسبب ما ، فكرت الأم في ساشا ، ثم في الضابط . وقالت ، وهي تتنهد :

ـــ أي ثمر يمكن أن ننتظره من زهر لم ينضج بعد ؟

فهتف الأوكراني :

ـــ تلك هي المشكلة كلها ! إن علينا ان نرى العالم بعيون جديدة ... وثمة قلبان ينبضان في صدر كل واحد منا ، أحدهما يعشق الكون والآخر يقول لنا: قفوا واحترسوا ! وهكذا يشطر الانسان ...

ـــ نعم .

وثارت في ذاكرتها صورة زوجها ثقيلة ، كئيبة ، كصخرة كبيرة علاها الوحل والطحلب . وتخيلت كيف تصبح الأمور لو تزوج الأوكراني ناتاشا ، وابنها ... ساشا .

وقال الأوكراني ، وهو يعود إلى موضوعه :

ـــ ولمَ تكون الأشياء هكذا ؟ ذلك واضح وضوح الأنف في وجهك . سبب ذلك كله أن الناس لا يقفون على مستوى واحد ، فلنضعهم في صف واحد إذن ، ولنقسم بينهم كل ما أنتجه الفكر ، وما صنعته اليد . فلنحرر الناس من عبودية الخوف ، والحسد ، وأثر الجشع ، والبلاهة والجهل ...

ولقد تبادلا ، فيما بعد ، الكثير من مثل هذه الأحاديث .

وقبل ناخودكا في المعمل من جديد ، فراح يعطي الأم كل أجوره التي تقبلتها منه بكل بساطة ، وكأنها تأخذها من بافل نفسه .

وكان أندريه يقول لها أحياناً ، وهو يغمز بعينه :

ـ ما رأيك في أن نقرأ شيئاً ، يا أميمة ؟

فتضحك ، ولكنها ترفض بحزم ... كانت تلك الغمزة من عينيه تؤذيها . فتفكر في نفسها :

ـــ ما دمت تعتبر ذلك هزلاً ، فما معنى الازعاج ؟

ولكنها كانت تطلب منه ، أكثر فأكثر ، أن يشرح لها معنى بعض الكلمات الأدبية ، وهي تتطلع جانباً عندما تسأله ، متظاهرة بعدم المبالاة . ولكنه أدرك أنها تدرس في الخفاء . فأقلع ، تقديراً لما تبذل من جهد ، عن سؤالها القراءة معه .

قالت له ذات يوم :

ـــ إن عينيّ تزدادان ضعفاً يا أندريوشا ، وأنا في حاجة إلى نظارات .

ـــ هذا أمر يسهل تدبيره . ولسوف أصحبك يوم الأحد الى طبيب في المدينة فتحصلين على حاجتك .

* * *

١٩

طلبت السماح لها برؤية بافل ثلاث مرات ، وفي كل مرة كان رئيس الدرك ، وهو رجل عجوز أشيب الشعر ، متورد الخدين ، كبير الأنف ، يردها خائبة في لطف ورفق :

– يجب أن تنتظري أسبوعاً آخر على الأقل ، أيتها الأم . بعد أسبوع سوف نرى ... أما الآن فذلك مستحيل .

كان ممتلىء الجسم ، مستديره ، يذكرها بثمرة ناضجة قطفت منذ زمن بعيد ، حتى اكتست بعفن وبري ناعم ، وكانت تجده ، أبداً ، يحفر في أسنانه الحادة البيض الصغيرة بعود أصفر اللون ، تبتسم عيناه الخضراوان الصغيرتان في لطف ، وهو يخاطبها على الدوام بصوت متودّد بشوش .

وكانت تقول للأوكراني :

– إنه أديب كثيراً ، يبتسم بصورة مستمرة . وهذا غير لائق في نظري ... عندما يكون الانسان رئيساً يجب أن يقتصد في الضحك .

فيجيبي الأوكراني :

– أوه ، نعم ! إنهم ، جميعا ، لطيفون جداً ، متأدبون ، يبتسمون أبداً . ويقال لهم : ها هو ذا شاب ذكي شريف وجدناه خطراً علينا ، فاشنقوه إن كان ذلك لا يقلقكم أو يزعجكم . فيبتسمون ويشنقونه ، وبعد

انتهاء ذلك – يستمرون في الابتسام .

— إن الأمر يختلف تماماً مع ذلك الذي قام بالتفتيش هنا ! اتستطيع أن ترى ، للوهلة الأولى ، أي خنزير كان .

— ليس بينهم كائن بشري – ليسوا سوى مطارق يدقون الشعب بها ، وآلات ينحتون بها أمثالنا كي يتصرفوا بنا ، كما يشاؤون ، بسهولة ويسر . وهم أنفسهم قد جعلوا على صورة تلائم الرؤساء تماماً بحيث يفعلون كل ما يؤمرون به دونما تفكير على الاطلاق ، ودون أن يسألوا عن أسبابه البتة . . .

وأذنوا لها أخيراً برؤيته ، فوجدت نفسها ، ذات يوم أحد ، جالسة بتواضع في إحدى زوايا مكتب السجن . وكان هناك عدد آخر من الأشخاص في الغرفة الصغيرة ، الوسخة ، المنخفضة السقف ، ينتظرون السماح لهم بزيارة المسجونين . وكان من الواضح أنها ليست المرة الأولى التي يزورون فيها السجن ، فقد كانوا متعارفين ، ينسجون حديثاً هادئاً ، خافت الجرس ، يشبه نسيج العنكبوت .

وقالت امرأة بدينة ذات وجه منتفخ ، وقد وضعت حقيبة سفر على ركبتيها :

— هل بلغكم الخبر ؟ لقد كاد أستاذ الترتيل في الكاتدرائية ، هذا الصباح ، يقتلع أذن احد الجوقة في خدمة الصباح الأولى .

فأجاب شيخ يرتدي ثياب ضابط متقاعد :

— إنهم لخبثاء هؤلاء الصبيان المرتلون ...

وكان ثمة رجل صغير الجثة ، أصلع الرأس ، ذو ساقين قصيرتين ، وذراعين طويلتين ، وذقن مدببة ، يغدو في المكتب ويجيء مضطرب الأعصاب ، وهو يلقي بملاحظاته دون انقطاع في صوت متحشرج خشن :

— إن الأسعار في صعود مستمر ، وهذا ما يجعل الناس أدنياء سفهاء .

إن الرطل من الصنف الثاني من لحم الخنزير يكلف أربعة عشر كوبيكاً. والخبز ارتفع حتى أصبح يساوي، من جديد، كوبيكين ونصف الكوبيك...

وكان المساجين، من وقت لآخر، يلجون إلى المكتب، وهم يرتدون ثياباً رمادية متشابهة، وأحذية ضخمة جلدية، فتطرف عيونهم حالما يدلفون إلى الغرفة الباهتة النور. وكان أحدهم مقيد الساقين بسلسلة حديدية ضخمة...

كان الهدوء والسكينة والصمت تخيم بصورة غريبة مزعجة على السجن وما يحيط به... وكان يبدو ان هؤلاء القوم قد اعتادوا هذا المكان منذ أمد بعيد، وقنعوا بنصيبهم المقدر واستكانوا إليه. وكان يبدو على بعضهم أنهم يقومون بواجبات مفروضة؛ والبعض الآخر يقفون للحراسة بكسل وفتور عظيمين؛ والبعض يأتون بانتظام وضجر لزيارة مساجينهم. وخفق قلب الأم وقد نفذ صبرها.. راحت تتلفت بحيرة حواليها، مشدوهة من بساطة كل شيء يحيط بها وكآبته.

وكانت تجلس إلى جوارها امرأة صغيرة عجوز، ذات وجه مجعد الخدين، وعينين صغيرتين فتيتين. وكانت تتطاول برقبتها الناحلة لتستمع إلى ما يدور حولها من حديث، وتشخص إلى كل إنسان ونظرة وقحة تطل من عينيها.

استوضحتها بيلاجيا بلطف:

— من لك هنا؟

فأجابت العجوز بصوت من عال:

— ولدي. طالب في الجامعة. وأنت؟

— ولدي أيضاً. عامل.

— وما اسمه؟

— فلاسوف.

ـ لم أسمع به . أمضى عليه زمن طويل هنا ؟

ـ قرابة سبع أسابيع .

فقالت العجوز ، وفي نبرات صوتها خيلاء وتكبّر لم يخفيا على بيلاجيا :

ـ أما ولدي فقد قضى عشرة أشهر حتى الآن .

فدمدم العجوز الأصلع :

ـ نعم ، نعم ! لم يعد ثمة صبر ـ لقد عيل صبر الجميع ، فهم يصيحون عالياً . والأسعار ما زالت ترتفع ... وقيمة الناس تهبط بصورة مطردة مع ارتفاعها . وليس من يرفع صوته ليضع لذلك حداً .

فقال الضابط :

ـ أنت محق ! لقد طفح الكيل ! وحان الوقت كي يصدر أحدهم أوامره بصوت جهوري قوي : « صمتاً ! » فيصمت الجميع ، هذا ما نحن إليه في حاجة . صوت قوي حازم ...

وانضم الجميع إلى الحديث الذي أصبح بذلك حامي الوطيس ، أكثر حيوية من ذي قبل ، ونشط كل واحد منهم يريد إبداء رأيه في الحياة ، ولكن بصوت خافت . وتبينت الأم أن كل ما يقولون إنما هو غريب عن أفكارها ؛ فأحاديث البيت تختلف كل الاختلاف عن هذه ـ إنها أوضح وأبسط ، وأعلى نبرة أيضاً .

ونادى باسمها أخيراً سجان سمين ذو لحية مربعة حمراء ، ثم تفحصها من ذؤابة رأسها حتى أخمص قدميها ، وقال :

ـ إتبعيني .

ومضى وهو يظلع . وأحست الأم في الطريق رغبة تحدوها إلى دفعه في ظهره حتى يحث الخطو .

كان بافل واقفاً في غرفة صغيرة يبتسم لها ماداً إحدى يديه ، فتناولتها

الأم ، وأطلقت ضحكة قصيرة ، وعيناها تطرفان بشدة بالغة . قالت وقد خانتها الكلمات :

— مرحباً ... مرحباً ...

فقال بافل ، وهو يمسح على يدها :

— هدئي روعك ، يا أماه .

— حسناً ، حسناً .

فقال السجان ، متنهداً :

— اليك أمك !

وأضاف ، وقد أطلق من فمه تثاؤباً طويلا :

— لكن يحسن أن تقفي بعيدة عنه ، حتى يكون بينكما مسافة كافية .

سألها بافل عن صحتها ، وعن أمور البيت ... وكانت هي تتوقع أسئلة أخرى مختلفة ، فراحت تفتش عنها ، عبثاً ، في عيني ولدها . كان هادئاً كعادته على الدوام ، وإن ازداد شحوبه قليلا وبدت عيناه وكأنهما قد اتسعتا وكبرتا .

قالت :

— إن ساشا تذكرك بنفسها .

فاضطرب جفناه وارتعشا ، ورقت ملامحه ، وارتسمت على وجهه ابتسامة حلوة ، فاستشعرت الأم غصة مرة تتدفق في قلبها بحدة .

سألت ، مغتاظة كلي :

— أتعتقد أنهم سيطلقون سراحك عما قريب ؟ ولمَ ألقوا القبض عليك واحتجزوك ؟ تلك المناشير قد عاودت ظهورها مرة ثانية في المعمل .

فالتمعت عينا بافل سروراً ...

استفهم بسرعة :

أصحيحَ هذا ؟

فقال السجان بصوت وسنان :

التحدث عن مثل هذه الأمور ممنوع . تستطيعان التحدث عن الأمور العائلية فقط ...

فاحتجت الأم بقولها :

ـ أوليست هذه أموراً عائلية ؟

فأجاب الحارس في عدم مبالاة :

ـ لا أستطيع الجواب على هذا . وإنما ـ ذلك ممنوع .

فقال بافل :

ـ حسناً ، حدثيني عن أمور البيت . ماذا تعملين فيه ؟

فأجابت ، وعيناها تلمعان ببريق فتى مذنب :

ـ أوه ! لقد كنت أحمل إلى المصنع كل تلك الأشياء ...

وأمسكت عن الكلام ، ثم تابعت وهي تبتسم :

ـ أنت تعلم ماذا ... الحساء ، والملفوف ، وكل الزاد الذي تطهيه ماريا ... وأشياء أخرى أيضاً ...

وأدرك بافل ما تقصد إليه ، فوضع إحدى يديه في شعره بينا تقلصت عضلات وجهه من جراء عاصفة مكبوتة من الضحك .

قال بصوت حنونٍ لم تسمعه منه أبداً فيما مضى :

ـ إنه لأمر رائع أن تجدي شيئاً يشغلك ... وهكذا لا تستوحشين .

فأعلنت في شيء من الخيلاء :

ـ عندما بدأت تلك المناشير تظهر ، راحوا يتحرونني بدوري .

فقال السجان مغتاظاً :

ـ أعدنا إلى ذلك الموضوع ! لقد قلت لكما إنه ممنوع . إنهم يسجنون المرء

كي لا يعرف ماذا يجري في الخارج ، ومع ذلك فأنتما تثرثران هنا . لقد آن الوقت كي تفهما أن الممنوع ممنوع .

قال بافل :

ـــ كفى ، يا أماه . إن ما تفي ايفانوفيتش رجل رائع جداً ولا معنى لاثارة غضبه . نحن صديقان حميمان ، ولقد أرادت المصادفة المحضة أن يكون السجان الذي سيحضر زيارتك اليوم . فالعادة أن يحضرها مساعد المدير .

قال السجان متطلعاً إلى ساعته :

ـ لقد انتهى الوقت .

وقال بافل :

ـــ شكراً ، يا أماه الحبيبة ! لا تقلقي ، فلسوف يطلقون سراحي سريعاً .

وعانقها بحرارة وقبّلها ، فبكت سروراً وتأثراً .

ـــ هيا بنا !

قال السجان هذا ، ثم غمغم وهو يقودها في طريق العودة :

ـــ لا تبكي ، سوف يتركونه عن قريب ، سيتركونهم جميعاً ... فالازدحام شديد هنا .

عندما بلغت الدار حدثت الأوكراني بكل شيء . وهي تبتسم باشراق ويرتعش جفناها فرحاً وغبطة :

ـــ لقد أخبرته ذلك بأسلوب بارع حقاً ، والقد فهم .

ثم أضافت ، وهي تتنهد :

ـ لقد فهم من دون ريب ، وإلا ما تدفق حناناً حتى هذه الدرجة . إنه لم يك كذلك أبداً ...

فقال الأوكراني ضاحكاً :

ـ ما أحيلاك ! الناس يطلبون أبداً أشياء عديدة ، أما الأم فكل ما تبغيه

هو الجبن .

فهتفت ، وقد دبّ النشاط فيها بغتة :

– أوه ! كلا ، يا أندريوشا : كان يجب أن ترى أولئك الناس ، وكيف ألِفوا ذلك الواقع ! لقد انتزعوا منهم أبناءهم وألقوا بهم في فحمة السجن ، ومع ذلك فهم يتصرفون كأن شيئاً لم يحدث أبداً – يأتون الى هنـاك ، ويقعدون ، وينتظرون ، ويتكلمون عن الأخبار . اذا كان المثقفون يألفون الأمر هكذا فماذا يُنتظر إذن من الناس الجاهلين ؟

فأجاب الأوكراني في سخرية غير معهودة :

- ذلك واضح كل الوضوح . فالقانون ، على أية حال ، أخف وطأة عليهم منه علينا نحن ، فاذا أصابهم بلطمة على رأسهم مرة ، كشّروا بعض الوقت ، ثم تناسوا كل شيء . فأخفّ عليك دائماً تحمل أذى أهلك وخاصتك من تحمل أذى البعداء .

٢٠

ذات مساء بينا الأم جالسة إلى الطاولة ترفأ بعض الجوارب ، والأوكراني يقرأ لها عن ثورة العبيد في روما القديمة ، إذا الباب يقرع قرعاً شديداً . وعندما فتح الأوكراني الباب دخل فيزوفشيكوف يتأبط حزمة كبيرة ، وقبعته عالقة بمؤخرة رأسه ، وساقاه ملطختان بالوحل حتى الركبتين .

قال بصوت غريب :

ـ كنت ماراً بكما ، فرأيت النور ، فدخلت لأحييكما . لقد خرجت من السجن تواً .

وتناول يد بيلاجيا ، وهزها بحرارة ، وأردف يقول :

ـ بافل يبعث اليك تحياته .

جلس متململا ، وأجال في الغرفة نظرة فاحصة حزينة .

لم تكن الأم تحبه ... فهي تجد شيئاً مخيفاً مروعاً يطل من رأسه الحليق المربع وعينيه الصغيرتين . غير أنها كانت سعيدة هذه الليلة بلقائه . وراحت تبتسم في ود وحنان ، وهي تقول له :

ـ لكم أصبحت نحيلا ! هلا صببت له قدحاً من الشاي يا أندريوشا ؟

فصاح الأوكراني من المطبخ :

ـ إني أهيئ السماور .

ـ حسناً ، وكيف هو بافل ؟ أأخلوا سبيل غيرك ؟

فأطرق نيقولاي برأسه :

ـ إن بافل ينتظر بصبر . لقد أخلو سبيلي فقط .

ثم رفع عينيه الى وجه الأم ، وقال ببطء من بين أسنانه المنطبقة :

ـ لقد صحت بهم : إني نلت الكفاية ، ونفذ صبري ، فأطلقوا سراحي ! وإلا فسأقتل أحدكم وأنتحر . ولذا أخلو سبيلي .

ـ آه !

قالت الأم ذلك وهي تبتعد عنه . وعندما التقت عيناها بنظرته القاسية غضت طرفها بالرغم منها .

صاح الأوكراني من المطبخ :

ـ كيف حال فيودور مازين ؟ أما يزال يقرض الشعر ؟

فرد نيقولاي ، وهو يهز رأسه :

ـ نعم ، وهذا ما لا أفهمه . ماذا يظن نفسه ؟ عندليب ؟ ضعه في قفص ، وهو يأخذ يغني . ولكن ثمة شيئاً واحداً أفهمه تماماً ... وهو أني لا أريد الذهاب إلى البيت .

وقالت الأم :

ـ وما عساك تفعل في البيت ؟ منزل خاوٍ ، ولا نار في الموقد ، وكل شيء بارد ...

ولم يقل شيئاً ، بل أطبق جفنيه ، ثم تناول من جيبه علبة لفائف وأشعل واحدة منها ، وراح يلاحق بنظراته دخانها وهو يتلاشى ، تعلو وجهه سيماء الكآبة والغم :

ـ نعم ، لا ريب أن كل شيء بارد . خنافس متجلدة على الأرض ، وفئران متجمدة أيضاً .

وصمت لحظة ، ثم سأل بصوت أجش دون أن يتطلع إلى الأم :

ـ هلاّ سمحت لي بقضاء الليل هنا ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟

فأسرعت تجيب :

ـ بالطبع ، وبكل طيبة خاطر .

وأحست شيئاً من الضيق في حضرته .

ـ في هذه الأيام أصبح الشبان يخجلون من آبائهم ...

فسألت الأم وقد انتفضت :

ـ ماذا ؟

فحدجها بنظره ، ثم أغلق عينيه بحيث اتخذ وجهه المجدور مظهراً يوحي بأن صاحبه ضرير فاقد البصر ، ثم ردّد وهو يتنهد :

ـ قلت إن الفتيان أصبحوا يخجلون من آبائهم . لم يخجل بافل منك أبداً ، أما أنا فأخجل من والدي العجوز ولن اضع رجلي في بيته ثانية أبدا . ليس لي أب ، ولا بيت ايضاً . ولو لم أكن تحت مراقبة الشرطة لذهبت إلى سيبيريا ، وسأحرر الناس في المنفى هناك ـ أساعدهم على الفرار .

وأدركت الأم ، بقلبها الحساس ، أن هذا الصبي يتألم ، لكن ألمه لم يثر فيها عطفاً وحناناً .

قالت ، كي لا تسيء اليه بالامتناع عن الكلام :

ـ إن كنت تشعر بذلك حقاً ، فانك تفعل حسناً فالذهاب .

وجاء أندريه من المطبخ ضاحكاً :

ـ بماذا تترافعان ؟

فقالت الأم ، وهي تنهض :

ـ سأمضي لأهيىء بعض الطعام .

وأعلن نيقولاي بغتة ، بعد أن تفرس في الأوكراني برهة من الزمن :

ـ يُخيل إليَّ أنَّ بعض الناس يستحقونَ القتل .

فاستفسر الأوكراني .

ـ يا لله ! ولمَ ؟

ـ للتخلص منهم .

ـ وهل لك الحق في إخماد شعلة الحياة ؟

ـ نعم .

ـ ومن أعطاك إياه ؟

ـ لقد منحني البشر إياه .

وقف الأوكراني ، طويل القامة نحيل القوام ، يتأرجح على عقبيه في وسط الغرفة ، ويتطلع إلى نيقولاي الذي جلس على مقعده في بلادة ، غارقاً في عجاج من دخان التبغ ، وقد بدت على وجهه لطخات حمر قانية :

وعاد فيزوفشيكوف يقول ، وقد جمع قبضة يده :

ـ نعم ، لقد منحني البشر إياه . ما دمت أتلقى الرفسات ، فلي الحق أن أقابل المثل بالمثل ... وأن أدق الأعناق ... وأن أفقأ الأعين ... أما إذا لم يؤذني أحد فلن أمسَّ مخلوقاً على الاطلاق . واذا تركت أحيا وحدي وفق هواي فسأعيش هادئاً ، ولن أزعج أحداً البتة ... إني أقسم على ذلك . لنفرض أني اريد استيطان الغابة ، وبناء كوخ في منخفض على ضفاف أحد الأنهار ، والمكث هناكِ ... وحيداً ...

فقال الأوكراني ، وهو يهز كتفيه :

ـ حسناً ... إفعل ذلك إذن .

الآن !

ورفع رأسه ، وهتف وهو يضرب بقبضته على إحدى ركبتيه :

— هذا مستحيل الآن .

— ومن يمنعك ؟

— البشر . إني لاصق بهم كل اللصوق حتى الموت ... لقد أوثقوا قلبي بالبغضاء ... وربطوني بهم عن طريق الشر ... وإنه لوثاق متين ذلك الذي قيدوني به . . . إني أبغضهم ، وسأنغّص عليهم عيشهم حيثما حللت ... إنهم يزعجونني ، ولذلك سوف أزعجهم ... أنا أتحمل تبعة عملي ... وعملي وحده ... ولا طاقة لي على احتمال تبعات ما يرتكبه سواي ... واذا كان والدي لصاً ...

فهتف الأوكراني بصوت خافت ، وهو يدنو من فيزوفشيكوف :

— أوه !

— سوف أدق عنق أشعيا خوربوف . سوف ترى كيف أفعل ذلك

— ولمَ ؟

فقال فيزوفشيكوف ، وهو ينظر إلى أندريه بجفاء :

— إنه جاسوس وثرثار ، وهو الذي دمّر والدي ... وهو يريد أن يجعل منه مخبراً عند الشرطة .

فصاح الأوكراني :

— إذن فهذه هي المشكلة ! ولكن ليس سوي الأحمق يستطيع أن يلومك على هذا ...

فقال فيزوفشيكوف في عناد ؟

— إن الأذكياء والحمقى سواء . فأنت وبافل مثلاً ، كلاكما ذكي . ولكن هل أنا في نظركما مثل فيودور مازين أو صموئيلوف ، أو مثل أحدكما في نظر الآخر ؟ لا تكذب ، فأنا لن أصدقك على أية حال . إنكم جميعاً تدفعونني جانباً وتضعونني في مكان خاص ...

فقال الأوكراني بلطف وعذوبة ، وهو يجلس إلى جانبه :

— إنك مريض النفس ، يا نيقولاي .

— إني مريض النفس ، حسناً . ولكن نفوسكم مريضة أيضاً . إنما أنتم تحسبون أن ما يمرضكم هو اسمى مما يمرضني . كلنا يعامل بعضنا بعضاً بنذالة ، هذا جلّ ما أستطيع أن أقول . ما عندك أنت ؟ هيا وهاته .

وثبّت عينيه القاسيتين في وجه أندريه ، وراح ينتظر الجواب منطبق الفكين . ولم تتبدل ملامح وجهه المبقع ، ولكن شفتيه أخذتا ترتعشان وكأنه مصاب بالحمى .

قال الأوكراني ، وهو يقابل نظرة العداوة في عيني فيزوفشيكوف بابتسامة عينيه الزرقاوين الدافئة :

— إني لن أقول شيئاً ، فأنا أعلم أن النقاش مع فتى تدمى كل الجروح في قلبه لا ينتج إلا الأذية وحدها . إني أعلم ذلك ، يا أخي .

فغمغم فيزوفشيكوف ، وهو يغض طرفه :

— لا تستطيع أن تناقشني ـ أنا لا أعلم كيف ...

فتابع الأوكراني :

— يخيل إلي أن كلاً منا قد سلك يوماً طريقه الشائكة ، وأن كلا منا قد زمجر مثلك في ساعاته السود المظلمة ...

فقال فيزوفشيكوف في بطء :

— ليس هناك ما تقوله لي . إن روحي تعوي كالذئب الكاسر .

— لست أريد أن أقول لك أي شيء على الاطلاق ... إني أعرف فقط أن ذلك سيمضي .. وربما لن يمضي كله ، ولكنه سيمضي على أية حال .

وأرسل ضحكة قصيرة، ثم استرسل وهو يربت على كتف نيقولاي :

- هذا مرض طفولي كالحصبة ، يصاب به كل منا يوماً ما — والأقوياء تكون إصابتهم خفيفة ، أما الضعفاء فاصابتهم شديدة . إنه يرمي بنا أرضاً ويقعدنا في ذات اللحظة التي نسير فيها في طريق العثور على ذواتنا قبل أن تكتمل نظرتنا عن الحياة ... أو ينضج إدراكنا لموضعنا فيها . ويخيل اليك عندئذ أنك أطيب قطعة حلوى في الوجود ، وأن كل إنسان يريد أن ينال منك كسرة . ولكنك لا تلبث قليلا حتى تجد ان للباقين في صدورهم نفساً لا تقل خساسة ودناءة عن نفسك، الأمر الذي يسهل الأمور كثيراً. وعندئذ تخجل قليلا لأنك تسلقت الى قبة الناقوس بجرسك التافه العاجز عن رفع صوته في هذا الصخب الشامل. ولكنك تكتشف أن جرسك ينسجم تماماً مع جوقة الأجراس ويزيدها روعة ، وإن كانت النواقيس الكبيرة تغرقه في رنينها ، أو كان وحيداً ، كما تغرق الذبابة في إناء من الزيت . هل تفهم ما أحاول أن أقول ؟

فقال نيقولاي ، وهو يهز رأسه :

- ربما أفهم ولكني لا ... أصدق .

فهب الأوكراني واقفاً وهو يضحك ، وأخذ يمشي جيئة وروحة في ضوضاء وحمية :

- وأنا أيضاً لم اصدق في الماضي ، أيها المتحجر الرأس .

فسأل فيزوفشيكوف ضاحكا ، وهو يرمي الأوكراني بنظرة كئيبة :

— ولم تدعوني متحجر الرأس ؟

— لأن تلك هي حقيقتك .

وفجأة أخذ نيقولاي يزمجر ضاحكاً ملء شدقيه ، فسأل الأوكراني مشدوهاً ، وهو يقف تجاهه :

— ماذا دهاك ؟

— لقد كنت أفكر ـ كم يجب أن يكون المرء أحمق كي يجرح إحساساتك.
فهز الأوكراني كتفيه :
— وكيف يمكن لأي شخص كان ان يجرح إحساساتي؟
فقال فيزوفشيكوف مبتسما بجذل :
— لست أدري ، ولكني أعني فقط أن المرء سيشعر بالنقمة على نفسه اذاك مرة .
فضحك الأوكراني :
— تلك هي فكرتك إذن ؟
وصاحت الأم من المطبخ :
- أندريوشا .
فغادر أندريه الغرفة ...
وبعد أن أصبح فيزوفشيكوف وحيداً ، تطلع حوله ،ومد رجلاً حبست في حذاء ضخم ، وتفحصها باعتناء شديد ، وراح يتحسس بطة ساقه . ورفع يده يتمعن في راحتها الثخينة ، وفي ظهر أصابعها الضخمة المكسوة بشعر أصفر اللون وأخيراً نهض وهو يلوح بيده في إشارة اشمئزاز .
وعندما عاد أندريه بالسماور ، كان نيقولاي يقف مقابل المرآة . قال في ابتسامة ملتوية :
— إنها المرة الأولى التي أرى فيها فمي هذا منذ زمن طويل . إنه قبيح حتى ليخيف أي إنسان كان .
فسأل أندريه ، وهو ينظر اليه في فضول :
وما الذي يجعلك تفكر في مظهرك ؟
— تقول ساشا إن الوجه يعكس النفس .
فصاح الأوكراني :

ـ هراء ! إنَّ لها أنفاً أشبه بصنارة الصيد ، وعظام وجنتيها كحد السكين، ولكن نفسها أشبه بالكوكب المضيء .

فحدق نيقولاي فيه ثم انفجر ضاحكاً ...

وجلس ثلاثتهم يحتسون الشاي ...

تناول فيزوفشيكوف قطعة كبيرة من البطاطا وذر الملح ببطء على كسرة من الخبز ، وابتدأ يمضغ في هدوء وتمهل كالثور العجوز .

سأل ممتلئ الشدقين طعاماً :

ـ كيف حال الأمور هنا ؟

وعندما قدم له اندريه تقريراً مرحاً عن مجرى دعايتهم في المعمل ، امتقع لونه مرة أخرى ، وتجهم وقال :

ـ ليتطلب ذلك وقتاً طويلا ، طويلا جداً ... يجب أن نعمل بسرعة اكبر .

فنظرت اليه الأم ، واختلج في صدرها شعور بالعداء نحوه .

وقال أندريه :

ليست الحياة حصاناً يساق بالسوط .

فهز نيقولاي رأسه في أسى ، وقال :

ـ إن هذا يطول بنا جداً ، واست أستطيع أن انتظر هكذا . ماذا يجب أن افعل :

وندت عنه إشارة يأس وهو ينظر الى الأوكراني انتظاراً للجواب . فقال أندريه وهو يطرق برأسه :

إن علينا جميعاً أن ندرس ونعلم الآخرين ، ذلك ما ينبغي أن نفعل .

فسأل فيزوفشيكوف :

ـ ومتى ابتدأنا النضال :

فضحك الأوكراني وأجاب :

ـ لست أدري متى ابتدأنا النضال ، ولكني أعلم أنهم سيغلبوننا مرات عديدة كثيرة قبل أن ننتصر عليهم . ويبدو لي ، حسب نظرتي إلى الأمور ، أنه ينبغي أن نسلح رؤوسنا قبل أن نسلح أيدينا

واستدار نيقولاي الى الطعام من جديد ، أما الأم فراحت تسترق نظرة إلى وجه المريض وهي تحاول أن تكشف هناك شيئاً يصالحها مع ذلك الجسد الثقيل المربع البنيان .

ولاقت أخيراً النظرة الشائكة في عينيه الصغيرتين فراح حاجباها يرتجفان . أما أندريه فقد فقد هدوءه، على حين غرة،وأضحى كثير الاضطراب والتململ، وانطلق يضحك ويتكلم دون حساب ، ثم توقف عن الحديث بغتة ، دون أن يكمل الجملة التي بدأها ، وراح يصفر لحنه المعتاد .

وأحست الأم أنها تفهم ما الذي يقلقه . أما نيقولاي فقد جلس صامتاً ، يرد على كل أقوال الأوكراني بأجوبة مقتضبة بادية الامتعاض .

وأصبحت الغرفة الصغيرة ثقيلة الوطأة على الأم وأندريه معاً ، وراح كل منها ، بدوره ، يرمق الضيف بنظرات خاطفة سريعة .

نهض نيقولاي أخيراً ، وقال :

ـ أظن أني سأذهب الى الفراش . لقد لبثت جالساً طويلا في ذلك السجن، ثم أطلقوا سراحي على حين فجأة وبدون انتظار ، فخرجت حراً طليقاً . وأنا متعب الآن ...

وترهل في المطبخ حيث ظل يتململ فترة من الزمن في فراشه ، ثم تلاشت ضوضاؤه تماماً وكأن الموت قد نزل بساحته . فأصاخت الآم بسمعها إلى السكون برهة ثم همست في أذن أندريه :

ـ لقد اكتسب أفكاراً مخيفة .

فوافق الأوكراني ، وهو يهز رأسه :

— نعم ، وإنه لانسان صعب معقد . ولكن ذلك سيمضي . لقد كنت هكذا أنا أيضاً في فترة من الزمن . إن النار ترسل الكثير من الهباب والدخان قبل أن تلتهب مضطرمة في قلبك . إذهبي إلى الفراش يا أميمة ، فأنا أريد أن أقرأ قليلاً .

فسعت إلى إحدى الزوايا حيث كان سرير يقبع وراء ستائر مصنوعة من القطن . وظل أندرية طويلا يسمع حفيف تنهداتها وصلواتها الدافيء ، وسرعان ما استغرق في كتابه يقلب صفحاته في عجلة وهو يحك جبينه أو يفتل شاربيه بين أصابعه الطويلة ، ويحرك قدميه دون انقطاع . وكانت الساعه تدق في انتظام ، والريح لا تنى عن الأنين وراء النافذة .

وجاء صوت الأم الناعم يقول :

— آه ، يا إلهي ! هولاء البشر في العالم ، كل منهم يتألم على طريقته الخاصة ! أين هم السعداء بينهم ؟

فأجاب الأوكراني :

— إن ثمة أناساً سعداء يا أميمة ، وعما قريب سيكون عددهم عظيما . . . عظيما جداً .

* * *

٢١

وتدفقت الحياة في سرعة تتلاحق أيامها متباينة مفعمة بالحوادث . وكل منها يحمل إلى الوجود شيئاً جديداً غير معهود ، فلا يثير ذلك جزع الأم وقلقها أبداً. وكان يفد على بيتها ، أكثر فأكثر ، أناس مجهولون يأتون في العشية . ويتحدثون الى اندريه طويلا بأصوات قلقة خافتة . ثم يرفعون ياقات معاطفهم ، ويجرون قبعاتهم حتى تستر كل جبينهم ، ويختفون في الظلمة في حذر وبدون أي ضوضاء . وكانت تدرك ذلك الانفعال المكبوت الذي يحسه كل منهم ، فهم جميعاً ، فيما يبدو، يريدون أن يضحكوا أو يغنوا ، فلا يجدون لذلك متسعاً من الوقت لأنهم ابداً يحثون الخطا الى مكان ما . وكان البعض منهم وقورين أبداً ، متجهمين عابسي الوجوه ؛ والبعض الآخر مرحين على الدوام يشعون فتوة وشباباً ، وفئة ثالثة ايضاً أفرادها هادئون غارقون في التفكير دون انقطاع . ولكن الجميع كانوا يتحلون ، في نظر الأم ، بذلك العزم الواثق بذاته . وكانت وجوههم جميعاً ،وإن يكن لكل منها مظهره الفردي الخاص المتحيز ، تذوب في وجه واحد ، نحيل هادئ ، طافح بالحزم ، ذي عينين عميقتين صافيتين سوداوين تطل منها نظرة لطيفة وصارمة في الوقت ذاته ، مثل نظرة المسيح على طريق عماس .

وكانت الأم تحصي عددهم ، وهي تجمع في ذهنها حشداً كبيراً حول بافل يختبئ هذا في وسطه عن عين العدو . وفي ذات يوم قدمت من المدينة فتاة متوقدة

الذكاء مجعدة الشعر ، تحمل طرداً إلى أندريه ، وبينما هي تغادر الدار استدارت نحو الأم وفي عينيها المرحتين بريق شديد اللمعان ، وقالت :

— إلى اللقاء ، يا رفيقة .

فأجابت الأم ، وهي تكبح ابتسامة هجمت على شفتيها :

— الى اللقاء .

وبعد أن شيعت الفتاة ، ذهبت الى النافذة وراحت تراقب رفيقتها هذه تقطع الشارع في خطوات صغيرة سريعة ، خفيفة كالفراشة ، ممتلئة حيوية كوردة ربيعية . وغمغمت :

- يا رفيقة ! يا أيها الشيء الصغير الحبيب ! فليهبك الله رفيقاً حقيقياً يرافقك طوال الحياة .

كانت تميز في كل أولئك الناس الذين يأتون من المدينة شيئاً طفولياً ، فتبتسم في تعطف وتواضع . ولكنها كانت تتأثر ، وفي نفسها مزيج من الدهشة والفرح والحبور ، بأيمانهم المتجلي لها ثباته ورسوخه أكثر فأكثر على مر الأيام وكرها . وكانت أحلامهم عن انتصار العدالة تداعب قلبها وتبث فيه الحرارة والسعادة ، فتتنهد مصغية اليهم في كآبة لا تدرك لها كنهاً . ولكنها كانت تتأثر ، بصورة خاصة ، ببساطتهم التامة . وبتلك اللامبالاة الرائعة تجاه هنائهم الخاص .

ولقد أصبحت تفهم الكثير مما يقولون عن الحياة ، فتحس أنهم اكتشفوا منبع الآلام الانسانية الحقيقي ، وتوافق على أكثر مطاليبهم . ولكنها لم تكن تثق ، في أعماق نفسها ، بأنهم قادرون على تحويل مجرى الحياة أو أنهم سيصيرون الى ما يكفيهم من القدرة على ضم العالم اليهم . وإن كل إنسان يهتم بامتلاء معدته في هذا اليوم ذاته ، وليس ثمة من يرضى بتأجيل ذلك إلى الغد .

وقليل هم أولئك الذين يرضون عبور تلك الطريق الطويلة العسيرة ، وقليلة هي الأعين التي تستطيع إدراك هذه الرؤيا الأسطورية عن مملكة الأخوة الانسانية التي لا مفرّ من بلوغها في نهاية الطريق . ولذلك بدا لها كل هؤلاء الناس الطيبين أطفالاً بالرغم من لحاهم ووجوههم الناضجة التي أذواها التعب المرهق ، وأضناها الاجهاد الشديد .

وكانت تفكر وهي تهز رأسها :

ـ آه ، يا أحبائي المساكين !

ولكنهم الآن يحيون جميعاً حياة رائعة ، رزينة عاقلة . إنهم يتكلمون عن عمل الخير ، ولا يعفون أنفسهم من جهد يبذلونه كي يعلّموا الآخرين ما سبق لهم أن حازوا معرفته ووعوها . واستطاعت أن تدرك كيف يمكن للمرء أن يحب مثل هذه الحياة بالرغم من أخطارها ، فراحت تحد بصرها متنهدة الى شريط ماضيها الأسود الضيق ، فينمو فيها شيئاً فشيئاً إدراك هادىء لأهميتها ، هي أيضاً ، في هذه الحياة الجديدة . فيما مضى لم تحس أبداً أن ثمة إنساناً يحتاج اليها ، اما الآن فهي ترى بوضوح أن الكثيرين هم في أشد حاجة اليها . وكان هذا شيئاً جديداً مفرحاً جعلها ترفع رأسها وتشمخ بأنفها في فخر وخيلاء .

كانت تحمل المناشير الى المعمل بصورة منتظمة ، تجد في ذلك واجباً عليها يجب أداؤه . واعتاد رجال الشرطة والتحري رؤيتها ، فكفوا عن إعارتها أدنى انتباه . وكثيراً ما فتشوها . لكن دائماً في اليوم التالي لظهور المناشير في المصنع . وإذا لم تك تحمل شيئاً على كتفها فهي تجري ، جاهدة أن تثير اشتباه الحرس حتى يمسكوا بها ويفتشوها ، بينما تذهب هي في مناقشتهم شوطاً طويلاً ، نفصح عن امتعاضها ، واعتبار ذلك إهانة موجهة الى كرامتها ، فاذا ثبتت براءتها انطلقت فخوراً معجبة ببراعتها .

تياهة بذكائها . تلك كانت لعبة تتمتع بها وتلقى فيها اللذة كل اللذة .

ولم يُقبل فيزوفشيكوف مرة أخرى في المعمل ، فوجد عملاً لدى تاجر أرسله يبيع جذور الأشجار وحطب الوقود والألواح الخشبية . وكانت الأم تراه وحمله الثقيل ، كل يوم تقريباً ، أثناء مروره في جوار بيتها : فيبدو لها أولاً جوادان هزيلان أسودان ترتجف أطرافها من عناء الجهد الذي يبذلانه ، ويهتز رأساهما في ضجر وكلل ، بينما تطرف عيونها المعذبة المرهقة ، ثم يأتي بعدهما جذع طويل رطب أو كومة من الألواح تتلاطم في ضجيج هائل ، وإلى جانبها يتدحرج نيقولاي ، ممسكاً بالأعنة في تراخ بين يديه ... وسخاً ، رثّ الثياب ، ثقيل الحذائين ، قد دفع قبعته حتى مؤخرة رأسه ، سميك الوجه ، غليظ السحنة مثل أرومة مقتلعة من الأرض . وكان هو الآخر يؤرجح رأسه وهو يسير ، وقد أطرق بعينيه إلى الأرض ، وجواداه يتعثران دون رادع بالعربات والمارة على طول الطريق ، فيوجه هؤلاء إلى نيقولاي صيحات قاسية حادة أو شتائم غاضبة تحاصره مثل سرب من الزنابير الثائرة ، فلا يجيب ، ولا يرفع رأسه ، بل يرسل من بين أسنانه صفيراً حاداً ، ويغمغم متوجهاً الى الجوادين :

— هيا ! هيا !

وكل مرة يدعو أندريه رفاقه فيها لقراءة العدد الأخير من صحيفة اجنبيـة ، او كتيباً حديثاً ، كان نيقولاي يأتي أيضاً وينزوي في إحدى الزوايا منصتاً ، في صمت ، ساعة او ساعتين . وبعد القراءة ، كان الفتيان يدخلون في نقاش حام لا يساهم فيه فيزوفشيكوف ابداً ، بل يبقى بعـد انصراف الجميع ، ويتحدث الى أندريه وحده .

كان يقول مغتماً :

— مَنْ منَ الناس يستحق اللوم أكثر من غيره ؟

فيجيب الأوكراني مازحاً :

إن أكثر الناس ملامة هو أول من قال : هذا ملكي . ولقد مات هذا الشخص قبل ألف من السنوات او يزيد ، ولذا فليس في سخطنا عليه معنى او جدوى .

ولكن إمارات القلق كانت تبدو في عينيه ...

— ما رأيك في الأغنياء ، وأولئك الذين يحمونهم ويذودون عنهم ؟

كان الأوكراني يعبث بشعره ، ويشد شاربيه ، وهو ينتقي كلمات بسيطة يتحدث بها عن الحياة وعن البشر . وكان يتضح من حديثه دائماً ان سائر الناس ملومون على السواء ، الأمر الذي لم يكن يقنع نيقولاي او يرضيه . فيضغط على شفتيه ويهز رأسه ويغمغم بأن الأمر ليس كما أعلن صاحبه مطلقاً . ويستأذن أخيراً ، وينصرف مستاء ممتعضاً .

وجهر ذات يوم :

— كلا ، ينبغي ان يكون هنالك أناس مسؤولون عن كل هذه الأمور ، وإنهم لموجودون هنا أيضاً . لقد اخبرتك ان علينا قلب حياتنا بأجمعها رأساً على عقب ، مثل حقل من الأشواك الضاره ... وذلك دون أدنى أثر للرحمة .

فعلقت الأم على كلامه :

— هذا ما قاله عنكم مرة أشعيا ، مراقب الدوام .

فسأل فيزوفشيكوف بعد برهة وجيزة من الصمت :

— أشعيا ؟

— نعم . إنه إنسان وضيع ، يراقب جميع الناس ولا يكف عن إلقاء الأسئلة . ولقد شرع يأتي شارعنا ويتلصص من النافذة .

فردد نيقولاي :

ـ يتلصص من النافذة ؟

كانت الأم قد لجأت الى الفراش بحيث لا تستطيع رؤية وجهه ، بيد أنها أدركت خطأها فيما صرحت به من تسرّع الأوكراني بالتعليق على ذلك قائلاً :

ـ فليأت وليتلصص إن كان يملك كثيراً من فراغ ...

أما نيقولاي فهتف بصوت أجش ، وهو يشد على المقاطع :

ـ انتظر .. إنه واحد من الذين يتحملون المسؤولية .

فسأل الأوكراني بعجلة :

ـ وما هو ذنبه ؟ ألأنه غبي أبله ؟

فخرج فيزوفشيكوف دون ان يحري جواباً ...

شرع الأوكراني يتمشى في الغرفة على مهلته جاراً ساقيه الطويلتين العنكبوتيتين في هدوء وسكينة . وكان قد خلع حذاءيه كعادته أبداً كيلا يحدث ضوضاء تزعج بيلاجيا أو توقظها . ولكنها لم تكن نائمة ، بل قالت في قلق بعد ذهاب نيقولاي :

ـ إني خائفة منه .

فهمهم الأوكراني ، وهو يتشدق بالكلمات :

ـ هم ... م ، نعم . وإنه لجادّ كل الجد فيما يذهب اليه . لا تذكري أشعيا أمامه بعد الآن ابداً ، يا أميمة . أشعيا ذلك جاسوس حقاً وفعلا ... وإنه يتقاضى راتباً على ذلك .

ـ لا غرابة في هذا . فأحد اقربائه دركي .

وتابع أندريه وفي نبراته رعشات من قلق :

ـ لجدير نيقولاي بأن يعدمه الحياة . أترين هذه المشاعر التي غذاها أولئك السادة القائمون على السلطة في قلوب عامة الناس ؟ ماذا سيحدث عندما يدرك الناس ، أمثال نيقولاي ، أنهم قد خدعوا ، ولم يعد لهم في

قوس الصبر منزع ؟ لسوف يلطخون وجه السماء بالدماء ويغرقون الأرض بها إغراقا .

فهتفت الأم في صوت خفيض :

ـ ذلك مخيف ، يا أندريوشا .

فأطرق أندريه لحظة ، ثم قال :

ـ حسناً ، من يلاعب القط يجب أن يتحمل وخزات مخالبه . لكن كل قطرة من دماء البورجوازيين قد غسلت سلفاً في بحار دموع ذرفها عامة الناس بسببهم .

وأغرق بعد ذلك في الضحك ، وأضاف :

ـ ذلك عدل ... عدل لا يريح الضمير كثيراً .

* * *

٢٢

عادت الأم من السوق ذات أحـد ، ولم تفتح الباب حتى وقفت على العتبة دون حراك ، وقد اجتاح الفرح سائر أعضائها مثل مطر الصيف الدافيء . كان صوت بافل يرتفع من الغرفة الداخلية .

صاح الأوكراني :

ـ ها هي ذي ...

ورأت الأم بافل يستدير في سرعة واندفاع ، ثم يشرق وجهه بنور طافح بالوعود الجمة لهـا .

قالت متلعثمة :

ـ ها هو ذا ... في البيت أخيراً .

وجلست ذاهلة لعودته غير المنتظرة.

انحنى بوجهه الشاحب عليها ، وقد التمع بعض الندى في زاوية عينه ... ولم يقل شيئاً طوال هنيهات ، بينا أمه تتفرس فيه في سكون أيضاً .

تركها الأوكراني وخرج إلى الفناء ، وهو يصفر لحناً ناعماً .

قال بافل همساً ، وهو يشد على يدها بأصابعه المرتجفه :

ـ شكراً ، يا أماه ... شكراً لك ، يا حبيبتي .

وأخذت تمسح على رأس ابنها ، وقد طغى عليهـا الفرح لرؤية ذلك

التعبير في وجهه ، وسماع تلك النغمة في صوته ، وراحت تحاول ان تهدىء من خفقان قلبها الشديد . قالت :

— يا إلهي ، ولِم ؟

فثنّى يقول :

— من أجل مساعدتك في عملنا العظيم ، شكراً لك . إنها لسعادة نادرة عندما يستطيع المرء ان يقول إنه وأمه روحان منسجمان .

اعتصمت بالصمت ، وهي يعبّ في شراهة من كلماته بجوارح متفتحة ، معجبة بهذا الابن الذي يقف أمامها ، طيب القلب ، عزيزاً محبوباً حتى الدرجة القصوى .

كنت أرى مبلغ صعوبة ذلك بالنسبة إليك ، يا أماه ، وأتخيل ما فيه من أمور لم يحبّها قلبك . وكنت أظنك ان تتصالحي معنا أبداً ، وان أفكارنا ان تصبح أفكاراً لك ، بل إنك ستستمرين على تحملنا في سكون كما تحملت الأمور طوال حياتك . وكان ذلك صعباً بالنسبة إلي .

فقالت :

لقد ساعدني أندريوشا على فهم كثير من الأمور .

فضحك بافل وأعلن :

لقد حدثني عنك .

— ويجوز كذلك ، فكلانا من القرية نفسها . لا بل إن أندريوشا أراد تعليمي القراءة .

وكنت أنت خجلة ، فأخذت تدرسين وحدك في الخفاء .

فهتفت :

وهكذا فقد حزر إذن .

وقالت لبافل ، وهي متعبة من تخمة الغبطة في قلبها :

فلندْعه ، لقد خرج عامداً كيلا يضايقنا . ليس له أم خاصة به ...

فصاح بافل ، وهو يفتح الباب :

- أندريه ! أين أنت ؟

- ها أنذا ، كنت أقتطع بعض الحطب .

- تعال هنا !

ولم يأتِ رأساً ... وعندما دخل المطبخ أخيراً ، شرع يتحدث عن قضايا البيت :

لا بد ان نطلب من نيقولاي تأمين بعض الحطب لنا ، فلم يبق الكثير منه . لكن انظري إلى فتاك بافل هذا ، يا أميمة . يبدو أنهم يسمنون المتمردين بدلاً من ان يعاقبوهم .

ضحكت الأم ولم تقلْ شيئاً . كانت ما تزال ذاهلة من الفرح وقلبها يخفق في بهجة وحلاوة ، في حين أثار القلق في نفسها إحساساً بالحذر والحيطة ، جعلها تتمنى رؤية بافل يستعيد هدوءه المعتاد . كان كل شيء رائعاً جداً ، وهي تود ان تحتفظ في قلبها إلى الأبد بهذه السعادة الكبيرة الأولى في حياتها ، قوية حية مثلها الآن . وأسرعت ، خشية أن تتلاشى تضعها في القفص كهاوي عصافير إذ يمسك ، على غير انتظار ، نموذجاً نادراً من الطيور .

قالت :

— فلنتناول الغداء ، فلست أعتقد أنك طعمت شيئاً ، يا پاشا .

- كلا ، فقد أخبرني السجان البارحة أنهم قرروا إطلاق سراحي ، فلم يتح لي ان آكل او أشرب شيئاً .

ثم تابع بعد برهة :

كان سيزوف أول من صادفت بعد خروجي ، ولقد اجتاز الشارع

حين رآني كي يرحب بي ، فأوصيته بأن يكون أكثر روية وحذراً . ذلك أفضل ـ فأنا شخص خطر في هذه الأيام ، تراقبني العيون في كل مكان ـ فقال : « هذا عظيم » ، وكان يجب ان تسمعا كيف راح يسألني عن ابن اخيه . قال : « هل يتصرف فيودور كما يجب ؟ » . فقلت : « وكيف يمكن ان يتصرف المرء جيداً عندما يكون في السجن » . فقال : « حسناً ولكنه لم يشِ بأحد من رفاقه مثلاً » . وعندما قلت له إن فيودور شاب عظيم ـ شريف وذكي ـ مشّط لحيته ونبر مفتخراً : « ليس ثمة أنذال بيننا ، نحن آل سيزوف » .

فقال الأوكراني ، وهو يهز رأسه :

ـ إن للرجل العجوز عقلا يدرك الأمور ، فلقد تحادثت وإياه طويلا . هو رجل طيب . هل سيطلقون سراح فيودور عن قريب ؟

ـ أعتقد أنهم سيطلقون سراح الجميع ، فليس لديهم أي دليل ضدهم على الاطلاق باستثناء ما رواه أشعيا العجوز . ترى ما الذي قاله ؟

كانت الأم تروح وتغدو وعيناها معلقتان بولدها ، وأندريه يقف عند النافذة ويداه خلف ظهره ، يصغي إلى ما يقول بافل الذي يجوس الغرفة ذهاباً وإياباً . كان قد أطلق لحيته ، فنمت على خديه حلقات صغيرة من الشعر الناعم المجعد الكث تلين من قساوة ملامحه قليلا .

قالت الأم ، وهي تحمل الغداء :

ـ هيا اجلسا .

وحدثه أندريه . أثناء الطعام ، عن ريبين . فهتف بافل في أسف عندما أنهى الأوكراني حديثه :

ـ لو كنت حراً لما تركته يذهب . ماذا أخذ معه ؟ لا شيء سوى رأس مشوش وسخط عظيم .

فقال الأوكراني ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

ـــ حسناً ، عندما يبلغ المرء سن الأربعين ، وقضى جل هذا الزمن يصارع الريبة في نفسه ، فلن يكون من السهل إقناعه أبداً .

وابتدأت إحدى تلك المناقشات التي كانت أكثر كلماتها عسيرة على فهم الأم. وانتهى الغداء ، ولكنهما استمرا يتراشقان بسيل من الكلمات الرنانة . ومن وقت لآخر كانا يتكلمان ببساطة ، فيقول بافل في حزم :

ـــ يجب علينا ان نتقدم باستمرار دون ان نتراجع خطوة واحدة .

ـــ ونصطدم بعشرات الملايين من الناس الذين سيعتبروننا أعداء لهم ...

وفهمت الأم ، وهي تستمع إلى نقاشهما ، ان بافل لا يدري ماذا يفعل بالفلاحين ، بينما يقف لأوكراني في صفهم ، جاهداً ان يبرهن ان من حق الموجيك أيضاً الاطلاع على الحقيقة . ولقد فهمت الأم أندريه بصورة أوضح ، وخيل إليها انه أقرب إلى الحقيقة ، لكن أعصابها كانت تتوتر ، فتقف على أهبة الاستعداد ، كلما قال أندريه لبافل شيئاً ، تنتظر متقطعة الانفاس جواب ابنها لتتأكد من أن الأوكراني لم يجرح شعوره . ولكنهما استمرا يتناوبان الصياح دون ان تثور ثائرتها .

وكانت الأم تتوجه أحياناً الى ابنها ، وتقول :

ـــ هل الأمر كذلك حقاً ، يا بافل ؟

فيجيب مبتسماً :

- إنه لكذلك .

وقال الأوكراني في سخرية حلوة :

ـــ آه ، أيها الرجل الطيب . لقد تناولت طعاماً ولكنك لم تمضغ جيداً ... وإن هناك شيئاً منه عالقاً في حلقك ، ومن الأفضل ان تزدرد شيئاً يدفعه .

فقال بافل :

ـ دع الهزل عنك الآن

ـ إني لجادٌ كما لو كنت في مأتم .

فضحكت الأم في رقة ، وهزّت رأسها ...

٢٣

جاء الربيع وذاب الثلج ، فكشف عن الأوحال والأوساخ تحته . وازداد الطين ظهوراً يوماً بعد يوم ، حتى بدت الضاحية جميعها رثة ، قذرة ، مرتدية الأسمال البالية . وكانت المياه تتساقط طوال النهار من السطوح ، وأبخرة كثيفة تتصاعد كالدخان من جدران المنازل . وأصبحت الشمس أكثر ظهوراً من ذي قبل ، أما في الليل فكانت قطع الجليد المبعثرة المتناثرة في كل مكان ترسل لمعاناً ضئيلا تكاد العين لا تميزه . وكان في استطاعة المرء الاستماع إلى خرير الجداول وهي تترقرق ، مثل أغنية ربيعية جميلة الألحان ، في المستنقع القريب .

وكانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق للاحتفال بأول أيار ، فوزعت في المعمل والضاحية بأسرها مناشير يوضح معنى هذا العيد ، فاذا الفتيان الذين لم يتأثروا قبلا بدعاية الاشتراكيين يقولون وهم يقرأونها :

ـ ينبغي لنا ان نهيء شيئاً .

وكان فيزوفشيكوف يقول ، وهو يبتسم :

ـ لقد حان الوقت ! كفانا نلعب بالطميمة .

وكان فيودور مازين بادي الحماس ، يشبه القبَّرة السجينة ، وقد أصبح شديد النحول ، عصبي الحديث والحركات معاً . وكان ياكوف سوموف الصامت يرافقه أبداً ، وهو صبي يعمل في المدينة ، يتجاوز وقاره حداثة

سنه . وكان صموئيلوف ـ الذي بدأ شعره وقد ازداد حمرة خلال مدة حبسه ـ وفاسيلي جوسيف وبوكين ودراجونوف وآخرون أيضاً ، يصرون على أن تكون المظاهرة مسلحة ؛ أما بافل والأوكراني وسوموف وآخرون مثلهم فلم يوافقوا على ذلك الرأي .

وقد أحال ييجور نقاشهم مزاحاً ، وكان كعادته متعباً ، منقطع الأنفاس ، يرشح عرقاً . قال ، وهو يشير إلى حذائيه الباليين الرطبين :

ـ أيها الرفاق ، إن الجهود التي نبذلها في سبيل تبديل النظام الاجتماعي القائم لنبيلة في الحقيقة . لكن لا بدّ ، كي نيسّر لها سبيل النجاح ، من أن أشتري لنفسي زوجاً جديداً من الأحذية . وكذلك فان جزمتي قد بلغت حالة من الاهتراء تتحدى كل إصلاح بحيث تنفذ الرطوبة إلى قدميّ كل يوم . وأنا لا أرغب استقراراً في أحشاء الأرض حتى يحين الوقت الذي نفضح فيه ، بصورة علنية صارمة ، النظام العتيق . وعلى هذا الأساس فأنا أرفض اقتراح الرفيق صموئيلوف الرامي إلى القيام بمظاهرة مسلحة ، مستبدلاً إياه باقتراحي الخاص بأن أتسلح بزوج جديد من الأحذية ، لأني على يقين تام راسخ بكون مثل هذا التدبير أكثر فائدة في تقريب انتصار الاشتراكية من أي اصطدام مسلح واسع النطاق .

وراح يروي لهم ، بتلك الكلمات الزاهية ، كيف يناضل الشعب في البلدان الأخرى من أجل تحسين شروط حياته .

وكانت الأم تهوى الاصغاء إلى أحاديثه التي تترك فيها شعوراً غريباً ، فيخيل إليها أن أكثر أعداء الشعب ضراوة ، أولئك الذين يخدعونه كثيراً ويقسون عليه بصورة وحشية ، هم رجال قصار القامة ، ضخام الأبدان ، حمر الوجوه ، لصوص وقساة وأشرار جشعون ، إذا ثقلت وطأة الحاكم عليهم حرضوا عامة الشعب عليه ، فاذا قلب هؤلاء الحاكم استولى أولئك الرجال

الصغار على السلطة بأساليب بارعة ، وطردوا الشعب بعيداً عنها ، وقتلوا المئات والألوف إذا حدثته نفسه بمقاومتهم .

وفي ذات يوم ، جمعت الأم شجاعتها ووصفت لبيجور الصورة التي رسمتها أحاديثه في مخيلتها ، وسألته وهي تبتسم في اضطراب واستحياء :

- أليست الأمور هكذا ، يا بيجور إيفانوفيتش ؟

فأغرق في الضحك طويلا وقد جحظت عيناه ، وراح يفرك صدره كي يلتقط أنفاسه المنقطعة :

إن الأمر كذلك حقاً ! لقد أمسكت ثور التاريخ بقرنيه ! إن فيما تقولين شيئاً من الزينة ، وقليلا من الخيال المنسوج على قعر الصورة ، ولكن الحقائق جميعها هي في مواضعها الخاصة . إن هؤلاء الرجال الصغار البدينين هم بالضبط أكبر الخطاة وأسم الحشرات التي تمتص دماء الشعب . وإن الفرنسيين لعلى حق عندما يسمونهم بورجوازيين . . تذكري هذا جيداً ، يا أماه .. بور - جوازيين . بور قاحل "هم" لا يرتوي غليله أبداً ، يتناولون نصيبهم ونصيب غيرهم من الذين يستطيعون الاستفادة من جهلهم ، ويروحون يمتصون دماءهم ...

أتعني الأغنياء ؟

بالضبط . وتلك هي مصيبتهم ، فأنت إذا رحت تضيفين النحاس إلى طعام الطفل الصغير ، تدخل ذلك في نمو عظامه وجعله قميئاً ، أما إذا سممت إنساناً بالذهب فان نفسه هي التي تصبح صغيرة ، وضيعة ، مجردة عن الحياة مثل إحدى تلك الدمى المصنوعة من المطاط التي يشتريها الأولاد بخمسة كوبيكات .

وفي ذات يوم ، بينما كانوا يتحدثون عن بيجور ، قال بافل :

الواقع ، يا أندريه ، أن الناس الذين يكثرون من المزاح ، هم الذين

يتألمون أكثر من سواهم .

فسكت الأوكراني قليلا قبل أن يجيب ، وهو يضيق فرجة عينيه :

– لو كنت محقاً لوجب أن نتوقع إذن أن تموت روسيا كلها من الضحك .

وعادت ناتاشا إلى الظهور من جديد – كانت في السجن هي أيضاً في مدينة أخرى ، ولكن التجربة فيما يبدو لم تبدل فيها شيئاً على الاطلاق . وقد لاحظت الأم أن الأوكراني يصبح أكثر حيوية في حضورها ، فيمزح ويسخر من الجميع حتى يجعلها تضحك في سرور وغبطة . ولكنها لا تكاد تمضي حتى يشرع يصفّر أغنيته الحزينة المعهودة ، وهو يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً ، ويجر قدميه في ضجر وإجهاد .

وكثيراً ما كانت ساشا تأتي برهة قصيرة جداً ، عابسة أبداً ، وفي عجلة من أمرها على الدوام . وقد أضحت ، لسببٍ ما ، أكثر تعظماً وجفاء منها قبلا .

وذات مرة ، عندما رافقها بافل إلى الباب يشيعها ، ونسي أن يغلق الباب خلفها ، استطاعت الأم أن تسمع حديثها المتدفق في سرعة ولهفة .

قالت الفتاة :

– هل ستحمل الراية ؟

– نعم .

– أهذا أمر مقرر ؟

– نعم ، فذاك من حقي :

– إلى السجن مرة ثانية إذن ؟

فلم يحر بافل جواباً ...

– ألا تستطيع ...

ولكنها لم تكمل حديثها .

ـ ماذا ؟

ـ أن تترك سواك يفعل ذلك ؟

فقال في عزم :

ـ كلا !

ـ فكّر في ذلك جيداً ، فأنت ذو نفوذ كبير هنا ، والجميع يحبونك ... أنت وناخودكا أكثر الجميع شعبية ، وكم من خير عميم تستطيع أن تفعل ههنـا ! أما حمل الراية .. فسوف يرسلونك من أجله بعيداً .. بعيداً جداً .. ولزمن طويل جداً .

واستطاعت الأم أن تميز في صوت الفتاة انفعالات الخوف واللهفة المعهودة إليها ، فسقطت كلمات ساشا على قلبها مثل قطرات من الماء المثلج .

قال بافل :

ـ كلا .. لقد قررت ذلك ، ولن يثنيني شيء عن عزمي .

ـ ولو سألتك ، أنا ، ذلك ؟

وأصبح صوت بافل ، بغتة ، سريعاً قاسياً :

ـ ليس من شأنك أن تتكلمي هكذا ، ليس لك الحق فيه .

فقالت بصوت خافت :

ـ إنما أنا كائن بشري .

فأجاب بمثل صوتها الخافت ، لكن كمن يغص بدموعه :

ـ كائن بشري رائع ، كائن عزيز عليّ جداً ، وهذا هو السبب ... هذا هو السبب ... ينبغي ألا تقولي مثل هذه الأشياء .

فقالت الفتاة :

ـ إلى اللقاء .

وأدركت الأم ، من صدى وقع أقدامها ، أنها تركض . وانطلق بافل

وراءها في الفنـاء .

انقبض قلب الأم خوفاً وجزعاً . إنها لم تفهم موضوع حديثهما ، ولكنها أحست أن كارثة كبيرة تنتظرها .

ـ ترى ، ماذا ينوي أن يفعل ؟

وعاد بافل يرافقه أندريه . كان الأوكراني يقول ، وهو يهز رأسه :

ـ أواه ! يا لأشعيا هذا ! ما عسانا فاعلون معه ؟

فقال بافل عابساً :

الأفضل أن تنذره بالاقلاع عن هذا العمل .

فسألت الأم ، مطرقة برأسها :

ـ بافل ، ماذا تنوي أن تفعل ؟

ـ متى ؟ الآن ؟

ـ في الأول .. في الأول من أيار .

فهتف بافل ، مخفضاً صوته :

ـ آه ! سوف أحمل رايتنا .. في طليعة المظاهرة . وأعتقد أنهم سيلقون بي من جديد في السجن بسبب ذلك .

وأحست الأم وخزاً في عينيها ، وأصبح فمها جافاً كل الجفاف ، فأخذ بافل بيدها ومسح عليها برفق ، قائلا :

ـ ينبغي علي ذلك . جربي أن تفهمي ، يا أماه .

فأجابته ، وهي ترفع رأسها ببطء :

ـ أنا لم أقل شيئاً .

ولكن عزمتها وهنت عند ما التقت عيناها بما في عينيه من بريق عنيد .

تنهد بافل وأفلت يدهـا ...

قال في لهجة عتاب :



بسافل

— يجب أن يبعث ذلك الغبطة في قلبك بدلاً من أن يحزنك . متى يصبح لدينا أمهات يرسلن أبناءهن إلى الموت وهن يبتسمن ؟

فتمغم الأوكراني :

— ويْ ! وي ! لقد استبد صبينا برأيه ، وراح يشمخ بأنفه في الهواء ...

وعادت الأم تقول :

— أنا لم أقل شيئاً ، ولست أبغي الوقوف في طريقك ، وإن يكن ذلك قاسياً عليّ ... إذ لست أستطيع الامتناع عن أن أكون أماً ...

فابتعد عنها وأحست طعن كلماته الجارحة :

— إن ثمة حباً يمنع المرء أن يحيا كما يود ويتمنى ...

فقالت الأم ، مرتعشة خوفاً من أن يقول شيئاً آخر يجرح قلبها :

— لا يا باشا ، لا تقل هذا . إني أفهم — لست تستطيع أن تفعل شيئاً آخر. من أجل رفاقك ...

— كلا ، بل من أجلي أنا .

وظهر أندريه في مدخل الباب الذي كان واطئاً جدا بالنسبة اليه حتى اضطر الى ثني ركبتيه بصورة غريبة ، واتكأ بأحدي كتفيه على مصراع الباب، وألقى برأسه والكتف الأخرى الى الأمام .

قال بنغمة خاصة ، وعيناه الجاحظتان مثبتتان في وجه يافل :

— إنك لتحسن صنيعاً إذا أقللت من ذا الكلام ، أيها السيد الشهم .

كان أشبه بحرباء في شق صخري ...

وكانت الأم على وشك الانفجار باكية ...

غمغمت ، مسرعة إلى خارج الدار حتى لا يراها ابنها تبكي :

— يا إلهي ! لقد نسيت أن أغسل الصحون ...

وعندما أصبحت خارج الأبواب ، تكومت في إحدي زوايا الفناء ، وأطلقت

العنان للدموع صامتة ، مؤلمة فكأن دم قلبها يسيل مع دموعها .

وسمعت من خلال الباب نصف المغلق صوتيهما الخافتين يتجادلان .

قال الأوكراني :

— ماذا دهاك ؟ أتتلذذ بتعذيبها ؟

فصاح بافل :

ليس من حقك أن تخاطبني هكذا !

— أكون صديقاً رائعاً إذن لو التزمت جانب الصمت والهدوء وأنا أراك على جنون وسخف . ما الذي يدعوك إلى التفوه بذلك ؟ ألا تفهم شيئاً ؟

يجب أن تكون راسخ القدم ، لا تخاف أن تقول « نعم » و « لا » .

— لأمك :

— للجميع! لست أريد حباً أو صداقة يعترضان سبيلي أو يثقلان على ظهري ...

— يالك من بطل مغوار ! كفاك تبجحاً ... قل ذلك لساشا . فهي التي ...

— لقد فعلت ..

— فعلت ؟ أنت تكذب . لقد خاطبتها بلطف ، خاطبتها بود وتحبب . وأنا أعرف ذلك ، بالرغم من أنني لم أسمعك أبداً . ولكنك تلعب دور البطل العظيم مع أمك . إن كل خيلائك ، لو تدري ، لا تساوي قلامة ظفرك .

مسحت بيلاجيا الدموع عن خديها بسرعة ، وأهذبت تفتح الباب وتدلف الى المطبخ خوفاً من أن يقول الأوكراني شيئاً قاسياً لابنها .

قالت بصوت مرتفع يرتعش جزعاً وحزناً :

— بـ ـر ـ ر ... ما أبرد الطقس ! يكاد المرء لا يصدق أنه الربيع .

وراحت تنقل الأشياء ، دون غاية ، من مكان إلى آخر ، ساعية إلى إغراق الصوتين في الغرفة المجاورة .

وعادت تقول بصوت أكثر ارتفاعاً :

لقد تبدل كل شيء ، فأصبح الناس أكثر حرارة والطقس أكثر برودا . لقد كانت الحرارة ترتفع في مثل هذه الأيام ، فتشرق الشمس ، وتصحو السماء ...

وانقطع الصوتان ، فوقفت تضيخ السمع في وسط المطبخ ...

قال الاوكراني بصوت خافت :

— أسمعت هذا ؟ لقد آن لك أن تفهم ! يا للشيطان ! إنها لأكبر قلباً منك.

وسألت بصوت مرتجف :

ما رأيكما في قليل من الشاي ؟

وانثالت تضيف ، كي تفسر سبب ارتعاشها :

يا إلهي ! لقد تجمدت !

ذهب بافل اليها ببطء ، مطرق الرأس ، تحوم على شفتيه ابتسامة مذنبة .

قال :

— اصفحي عني ، يا أماه . فأنا لا أزال غراً ... أحمق .

فصاحت شقية الفؤاد ، وهي تدفن رأسه في صدرها :

- دعني وحدي ، ولا تزد شيئاً ، الله يعلم أن حياتك ملك لك تتصرف بها كما تشاء . ولكن ... دع قلبي وحيداً . كيف يمكن الأم ألا تحب ؟ إن حقها أن تفعل . أنا أحبكم جميعاً ، وجميعكم أعزاء على قلبي ، وجميعكم تستحقون المحبة والحنان . من يشفق عليكم إن لم أفعل أنا ؟ تذهبون جميعاً ... وأنت في المقدمة ... والآخرون خلفك ... وتهجرون كل شيء ... آه ، يا باشا !

كانت أفكار كبيرة ملتهبة تخفق في صدرها وتتدفق ، وسرور مفجع يمزق قلبها فلا تجد الكلمات كي تعبر عنه ، فتروح في عذاب صمتها الجبري تنظر الى فتاها بعينين تطفحان ألماً حاداً عنيفاً .

حسناً ، يا أم ، اصفحي عني . إني أفهم ذلك الآن ، ولن أنساه أبداً .

أقسم أني لن أنساه .

واستدار عنها مبتسما ، سعيداً ، وفي الوقت نفسه مرتبكاً خجلان .

تركته وطفقت من باب الغرفة الثانية ، وقالت في نغمة نداء لطيف :

ـ أندريوشا ، لا تقس عليه ... إنك تكبره سناً ...

فصاح اندريه ، وظهره اليها ، دون ان يلتفت :

ـ أف ! بل سأقسو عليه ، ولسوف أضربه أيضاً .

فذهبت اليه ومدت له يدها :

ـ يا لك من إنسان طيب ...

فاستدار الأوكراني ، ومضى عنها الى المطبخ ، ويداه خلف ظهره ، مطأطأ الرأس كالثور . ودف اليها صوته يقول في نغمة تبعث على الضحك :

ـ اغرب عن وجهي يا بافل ، قبل أن أدق عنقك . إني أدق عنقك . إني امزح فقط يا أميمة ، فلا تخافي . سأهيئ السماور ، أتوافقين ؟ يا للفحم الرائع الذي تملكين ... يعصر ماء .

وسكت ... وإذ دخلت الأم الى المطبخ وجدته جالساً على الأرض ينفخ في السماور .

قال ، دون أن يرفع رأسه :

ـ لا تخافي ، فلن أمسه بسوء . فأنا رقيق مثل اللفت المطبوخ . وأنا ـ هي ، أنت هناك ، ايها البطل ، لا تسمع ـ وأنا في الحقيقة مغرم به جداً ، ولكني لا أحب ذلك الثوب الذي يرتديه . إنه يملك سترة جديدة ويظن أنها جميلة جداً . فيروح يتخطر منتفخ البطن ، يقتحم كل إنسان في طريقه وهو يقول : انظروا فقط ما أجمل السترة التي أملك ! إن السترة لجيدة ، ولكن ما معنى اقتحام الناس ؟ أيصعب عليه جداً أن يتجنب الناس وهو يرتديها ؟

قال بافل ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

- إلى مَ ستستمر على هذا ؟ لقد غلبتني مرة ... ولقد تعادلنا الآن .

فتطلع اليه الأوكراني ، وساقاه يحيطان بالسماور ، من حيث يجلس على الأرض ، كانت الأم تقف في مدخل الباب،تشخص في حنان إلى مؤخرة رأسه، فالتوى إلى الوراء مستنداً على ذراعيه ، ونظر إلى الأم والابن معاً .

قال ، وعيناه المحمرتان قليلاً تطرفان :

- ما أطيبكما ، أنتما الاثنان !

فانحنى بافل وأمسك بيده ...

قال الأوكراني :

- لا تشدني ، وإلا رميتني .

فسألت الأم :

- ممَّ تخافان ؟ هيا وقبّلا بعضكما بعضاً ، وتعانقا بأقصى ما تستطيعان من قوة .

فاستوضح بافل :

- ما رأيك ؟

فقال الأوكراني ، وهو ينهض :

- تعال !

وتعانقا بشدة ، فهما جسدان بروح واحدة تضطرم بالصداقة والاخلاص . وانهمرت الدموع على وجنتي الأم،بيد أنها كانت - هذه المرة - دموع السعادة...

قالت في خجل ، وهي تكفكف دموعها :

- نحن ، معشر النساء ، نحب أن نبكي عندما نكون سعيدات ، وإن نبكي عندما نكون تعيسات ...

ودفع الأوكراني بافل عنه بلطف ، وصاح وهو يمسح عينيه :

- كفى ! عندما تُذبح العجول فلا بد من شوائها . ألا لعن الله

فحمكما هذا . فلقد نفخت فيه كثيراً حتى امتلأت عيناي منه ، ودمعتا ...

فقال بافل في رقة ، وهو يجلس قرب النافذة :

— ليس في مثل هذه الدموع ما يدعو إلى الخجل .

دنت أمه منه وجلست الى جانبه . كان قلبها مفعماً بشجاعة جديدة هدأت من روعها ، وبعثت في نفسها الرضى بالرغم من كآبتها . كانت تقول في وليجة ذاتها ، وهي تداعب يد بافل وتمسح عليها :

— لا بأس ! فالأمور لا يمكن أن تكون على غير هذا المنوال ... لا بد أن تكون هكذا .

واضطربت في مخيلتها ذكريات عديدة عن الماضي ، لم تجد بينها ما يليق أن يقارن بالاحساس الذي يساورها في تلك الساعة .

قال الأوكراني ، وهو يخرج من الغرفة :

سأقوم أنا بغسل الآنية . لا تنهضي يا أميمة ، فمن الأفضل أن تستريحي قليلا ، بعد أن غص قلبك بكل هذا العنف ...

وجاءهما صدى صوته الغني يدفدف من الخارج :

— لقد تذوقنا قليلا من حياة رائعة قبل هنيهة ... قليلا من حياة إنسانية دافئة .

فنبر بافل ، وهو يحدج أمه بنظراته :

— بلى :

فقالت الأم :

— ولقد بدل ذلك كل شيء . تبدلت آلامنا ، وتبدلت أفراحنا ...

فعقب الأوكراني :

— وذلك ما ينبغي أن يكون ، لأن قلباً جديداً قد ولد يا أميمتي . إن قلباً جديداً بعث إلى الحياة . والانسان يسير قدماً الى الأمام ، وهو يضيء كل

ثي بنور العقل ، ويصيح وهو يدب في طريقه : يا شعوب جميع البلدان اتحدوا في عائلة واحدة ! فترد القلوب على ندائه فتضم أصواتها اليه ، وتصبح قلباً واحداً كبيراً يشبه في قوته ودويه ناقوساً من الفضة ...

فضمت الأم شفتيها بشدة لتحول دون ارتعاشها ، وأحكمت إطباق عينيها لتمنعها من سح الدموع .

رفع بافل ذراعه كمن يود الكلام ، فجرته الأم صوبها وهمست :

لا تقاطعه .

وجاء الأوكراني ووقف عند العتبة :

وسوف تجتاح الناس آلام عظيمة ، وسيراق بعد كثير من الدماء ؛ ولكن كل آلامي ودمائي رخيصة بالنسبة لما أحمل في صدري وعقلي . إنني غني كالنجمة بكل ما تشع من أضواء . وأنا أستطيع تحمل كل شيء ، ومواجهة كل شيء ، لأني أحمل في داخلي فرحاً عظيما لا يستطيع أي شيء أو أي إنسان أن يدمره قط ، وفي هذا الفرح تقوم قوتي .

وظلوا يحتسون الشاي حتى منتصف الليل ، ويتحدثون بوداعة عن الحياة ، والبشر ، والمستقبل ...

وكلما اتضحت فكرة للأم ، ذهبت تبحث متنهدة في ماضيها عن بعض ذكرى قاسية محزنة تجعل منها أساسا تبني الفكرة عليه .

وذابت مخاوفها في تيار حديثهم الدافيء وأحست مرة أخرى ذلك الاحساس الذي جربته قبل زمن طويل ، يوم قال لها والدها بجفاء : « عبثاً تكشرين وتتكبرين ! فلن تجدي أحمق يقترن بك إذا ما استدار عنك الخاطب الأول ! فيها ، تقدمي واستفيدي من الفرصة ، فكل الدجاجات يتزوجن ويلدن أولاداً لا يحملون لها سوى المتاعب والقلق . من تحسبين نفسك ؟ »

وخيل اليها بعد هذه الكلمات أنها ترى درباً لا مفر منها تمتد أمام عينيها ،

وتدور عبثاً حول قفر معتم مجدب ، وقد ملأت حتمية المسير على ذلك الدرب صدرها سلاماً أعمى . وهكذا كانت الحال الآن . بيد أنها استمرت تهمس في أذن شخص مجهول . متوقعة على الدوام حدوث حزن جديد :

ـ تعال خذ هذا !

وخفّف هذا عن قلبها الموجع الذي يدوّي في صدرها مثل وتر مشدود .

لكن أملا ضعيفاً مستمراً راح يعتلج في نفسها ، الأمل بأنهم لن ينتزعوا كل شيء منها ، لن ينتزعوا آخر ما تملك ، ولسوف يبقى لها شيء ما بكل تأكيد .

* * *

٢٤

في بكرة أحد الأيام ، إثر خروج بافل وأندريه في طريقهما إلى العمل ، قرعت كورزونوفا النافذة ، وصاحت :

— لقد قتلوا أشعيا ! فهيا بنا نرى ..

أجفلت الأم وسرعان ما ومض في ذهنها اسم القاتل ...

استفهمت ، وهي تلقي وشاحاً على كتفيها :

— من فعل ذلك ؟

— إنه لم ينتظر هناك بجانب أشعيا ! لقد صرعه وولى هارباً !

وقالت ، وهما يهبطان الشارع :

— سيعاودون التحري والبحث من جديد ، وسيحاولون اكتشاف هوية القاتل . لمن حسن الحظ أن رجليك كانا في الدار البارحة ، وأنا شاهدة على ذلك . كنت في طريقي إلى داري بعد منتصف الليل ، فتطلعت من نافذتك — كنتم جميعاً جالسين حول المنضدة ...

سألت الأم ، والرعب بادٍ عليها :

— ماذا تعنين ، يا ماريا ؟ أيمكن لأي إنسان أن يرتاب بهما ؟

فقالت كورزونوفا في قناعة :

— حسناً ، ومن قتله إذن ؟ لا بدّ أن يكون متصلاً بفتياتكم ! والجميع

يعرفون أنه كان يتجسس عليهم ...

فوقفت الأم لاهثة ، وهي تضغط يدها على صدرها ...

ــ ماذا دهاك ؟ لا تخافي ـ لقد نال نصيبه المحتوم . أسرعي ، وإلا أخذوه قبل أن نراه .

كانت شكوك الأم في فيزوفشيكوف أشبه بيد ثقيلة تمسك بها وتمنعها عن الحركة . فكرت :

ــ يا لله ! لقد تجاوز الحدود !

كان حشد من الناس قد تجمهر قرب أنقاض منزل محترق غير بعيد عن المعمل وهم يدوون مثل الزنابير ، ويعتهنون بأقدامهم الأنقاض المتفحمة فيثيرون عجاجاً من الرماد والتراب . وكان ثمة نساء كثيرات ، وعدد أكبر أيضاً من الأولاد الصغار ، والبائسين ، وخدم المقهى ، والشرطة ، يرافقهم الدركي بتلين ، وهو رجل عجوز طويل القامة ، ذو لحية شديدة البياض كالفضة ، وصدر مكسو بأوسمة عديدة .

وكان أشعيا مطروحاً على الأرض في نصف استلقاء ، يستند ظهره إلى أرومة متفحمة ، ورأسه العاري يميل على كتفه اليمنى . وكانت يده اليمنى مختفية في جيب سرواله ، بينما أطبقت أصابع اليد اليسرى على التربة اللينة .

تطلعت الأم إلى وجهه . كانت عينه الواحدة تشخص في بلاهة إلى قبعته المرتمية بين ساقيه المنفرجتين ، وفكه يتدلى قليلا فينفرج فمه نصف انفراجة وكأنه مدهوش من أمر ما ، ولحيته الحمراء منحرفة إلى أحد الجانبين دون سبب معقول . وكان جسده الناحل ، برأسه المدبب ووجهه المتعظم المغطى بالنمش ، قد أصبح في انقباضة الموت أصغر منه في أي وقت آخر . رسمت الأم إشارة الصليب وصعدت زفرة عميقة . لقد كان يثير نفورها حياً ، أما

الآن فهي لا تحسّ تجاهه سوى شفقة هادئة ليس غير .

ولاحظ بعض الواقفين بصوت مخفوض :

— ليس هناك قطرة من دم أبداً ، لا ريب أنهم ضربوه بقبضة اليد .

— ليلوح أن فيه نضاضة من حياة .

فقال أحد الحاضرين :

— لقد جاء الطبيب ... وقال إن كل شيء قد انتهى .

فقال آخر في لهجة تشفٍ وانتقام :

— لقد خرس لسانه الثرثار إلى الأبد .

فانتفض الدركي ، وشقّ له طريقاً بين جموع النساء ، ثم قال مهدداً :

— من قال هذا ؟

وانفرط عقد الناس أمامه ، لا بل هرب بعضهم أيضاً ، بينما أطلق أحد الواقفين ضحكة شريرة طويلة .

وعادت الأم إلى الدار ...

قالت في نفسها :

— إن أحداً لم يرثِ له .

صوّر لها أنها ترى أمامها شبح نيقولاي الكثيف يتطلع إليها بعينيه القاسيتين ، الباردتين المتضيقتين ، وذراعه اليمنى تتأرجح فكأن شيئاً أصابها في تلك البرهة وآذاها .

ولم يكد ابنها وأندريه يؤمان الدار ، حتى سألتهما عن الحادث :

— هل أوقف أحد ... بتهمة قتله ؟

فأجاب الأوكراني :

— لم يبلغني شيء من هذا القبيل .

وأدركت أن كليهما حزين منقبض النفس .

استفهمت بصوت لطيف :

ـ هل أتى أحد على ذكر نيقولاي ؟

فأجاب الابن :

ـ كلا !.

كانت عيناه قاسيتين ، وصوته ذا مغزى .

ـ مما لا شك فيه أنهم لا يرتابون فيه ، إنه متغيب عن الضاحية ، فقد غادرها البارحة ظهراً في اتجاه النهر ولم يعد بعد . لقد سألت عنه ...

فتنفست الأم الصعداء ، وقالت :

ـ الحمد لله ! الحمد لله !

واختلس الأوكراني النظر إليها ، ثم أطرق برأسه .

قالت الأم :

ـ لقد كان يضطجع وهيئته توحي بأنه لا يفهم شيئاً من كل ما حدث له . ولم يرث له أحد على الاطلاق ، أو يوجه إليه كلمة لطيفة يغلق له عينيه بها . كان يلوح صغيراً جداً تافهاً كل التفاهة ، وكأنه شيء ضئيل بتر عن أصله وسقط أرضاً حيث ترك مطروحاً في مكانه .

وأثناء الغداء ألقى بافل ملعقته على المائدة بغتة ، وصاح :

ـ هذا يتجاوز إدراكي .

فسأل الأوكراني :

ماذا ؟

إننا نقتل الماشية كي نحصل على الطعام ، وهذا وحده أمر سيء ؟ ومن الواضح أنه يتوجب على المرء قتل الحيوانات المفترسة إذا أصبحت خطرة . وأنا شخصياً على استعداد لأن أقتل كائناً إنسانياً إذا انقلب وحشاً مفترساً بالنسبة لأشباهه البشر . أما أن يقتل المرء مثل هذا النموذج الحقير

المثير للاشمئزاز ... من يقوى على رفع يده في سبيل ذلك ؟

فهز الأوكراني كتفيه ، وقال :

ـ لقد كان أكثر ضرراً وأذية من أي حيوان مفترس . إننا نقتل البعوض لأنه يمتص قطرة واحدة من دمنا فقط ،

ـ هذا صحيح كثيراً ، ولكني لست أعنيه ، بل أعني أن الأمر يبعث على النفور والاشمئزاز..

فأجاب أندريه ، وهو يهز كتفيه مرة أخرى :

ـ لا حيلة في ذلك .

فسأل بافل بعد برهة طويلة من الصمت ، وهو يشد على المقاطع :

ـ أتستطيع أن تقتل مثل هذا المخلوق ؟

فثبت الأوكراني فيه عينيه الواسعتين ، ثم اختلس من الأم نظرة خاطفة ، وقال أخيراً بكآبة وحزم في الوقت ذاته :

ـ في سبيل رفاقي وفي سبيل قضيتنا أستطيع أن أفعل كل شيء . أستطيع أن أقتل ... حتى ابني نفسه .

فهتفت الأم بصوت خافت :

ـ أوه ! أندريوشا !

فابتسم :

ـ لا حيلة في ذلك ، يا أماه . هي الحياة هكذا ...

وقال بافل:

ـ إنك على حق ، هي الحياة هكذا .

وعلى حين غرة ، هب أندريه واقفاً في حالة من الهياج الشديد وكأن شيئاً قد تصدع في داخله ، وصاح وهو يحرك ذراعيه :

ما عسانا نفعل ؟ إننا مجبورون على بغض الناس كي نعجل بالزمن الذي

نستطيع فيه ألا نضمر لهم سوى الحب الخالص . إننا مرغمون على القضاء على كل من يقف في طريق التطور ، كل من يبيع الشعب لقاء المال كي يشتري لنفسه العز أو الراحة والرفاهية . وإذا كان ثمة يهوذا يعترض سبيل الناس الشرفاء ، وينتظر أية فرصة كي يخونهم ، فاني أكون أنا أيضاً يهوذا آخر إذا لم أقض عليه . تقولان إني لا أملك الحق في ذلك ؟ ولكن تبلاؤنا أولئك ... ألديهم الحق في الاحتفاظ بجنودهم وجلاديهم ، بدور بغائهم وسجونهم ، بمنافيهم وكل الوسائل الأخرى اللعينة التي يصونون بها راحتهم وأمنهم ؟ أهي خطيئتي إذا أجبرت أحياناً على أخذ سوطهم بيدي ؟ حسناً ، لسوف آخذه ، دون أن تطرف عيني أبداً . وإذا كانوا يقتلوننا بالعشرات والمئات ، فاني أملك الحق في أن أرفع ذراعي ، وأتركها تهوي على رأس واحد منهم ، على الرأس البغيض الذي اقترب مني أكثر من غيره ، وراح يضر بمقومات حياتي أكثر من الباقين . هي الحياة هكذا ، ولكني ضد مثل هذه الحياة . أنا أعلم أنه لن ينتج عن دمائهم شيء أبداً ... إنه دم مجدب لا يثمر مطلقاً . إن دمنا يعطي مولداً للحقيقة عندما ينسكب كوابل المطر على الأرض ، أما دماؤهم فتمتص دون أن تترك أثراً ، أنا أعلم هذا ... ولكني أتحمل تبعة خطيئتي هذه ... وإني سأقتل إذا رأيت أن لا مندوحة عن ذلك . ولا تنسيا أني أتكلم عن نفسي فقط . وإن خطيئتي ستموت معي ، ولن تلوث المستقبل بأقل لطخة .. إنها لن تلوث أي إنسان سواي .. أي نفس أبداً .

كان يمشي في الغرفة جيئة وغدوة ، يلوح بيديه كأنه ينتزع شيئاً ويلقي به بعيداً .. ينتزعه من ذات نفسه . وراحت الأم تراقبه في ألم وجزع ، وهي تحس شيئاً قد تحطم في داخله ، وتحس أنه يتألم كثيراً بسبب ذلك . ولقد غادرتها الآن أفكار الجريمة المظلمة الخطرة ـ فاذا كان فيزوفشيكوف لم يرتكبها . فليس أحد من أصدقاء بافل الآخرين بقادر على ذلك . وجلس بافل مطرق الرأس يصغي

إلى وابل الكلمات العنيف الدائب الذي ينهمر من الأوكراني كالسيل المدرار :

إنك مضطر في بعض الأحيان إلى أن تحارب نفسك كي تستمر على السير قدماً . ينبغي أن تكون قادراً على إعطاء كل شيء .. قلبك بأسره . وإنه لأمر سهل أن تهب حياتك فتموت من أجل القضية ... ولكن عليك إن تعطي أكثر من ذلك أيضاً .. ما هو أعز من حياتك نفسها. وعندما تعطي ذلك تعرف كيف تنمو الحقيقة التي تناضل من أجلها قوة وبأساً . . تلك الحقيقة التي هي أعز شيء في العالم على قلبك .

وتوقف في وسط الغرفة ، شاحب الوجه مغمض العينين نصف إغماضة ، مرفوع الذراع في وعد مهيب :

— أنا أعلم أن يوماً سيأتي يعجب الناس فيه بذات جمالهم ، فيضحي كل واحد منهم كوكباً بالنسبة للآخرين ، ويصغي كل منهم إلى كلام غيره وكأنه يسمع ألحاناً موسيقية رائعة . ويومذاك ستكون الأرض آهلة بالبشر الأحرار ، العظماء في حريتهم ، وستصبح قلوب الجميع مفتوحة ، وسيكون كل قلب طاهراً من أدران الحسد والغيرة ، بريئاً من الخبث . وعندئذ تتحول الحياة إلى تمجيد عظيم « للانسان » الذي سترتفع صورته حتى السماء ، لأن سائر القمم سهلة المرتقى على الانسان الحر ، وعندئذ سيعيش الناس في الحقيقة والحرية ، يسعون وراء الجمال وحده ، وسيكون أخيارهم أولئك الذين تملك قلوبهم قوة أعظم تضم إليها العالم كله وتحبه ، أولئك الذين هم أكثر حرية لأن فيهم يقوم الجمال الأعظم ، عندئذ تكون الحياة الجديدة عظيمة ، وعظماء البشر الذين سيحيونها .

سكت برهة ، ثم استقام وأضاف بصوت آت من أعماق روحه :

وفي سبيل تلك الحياة . . أنا مستعد لكل شيء .. مستعد لأن أنتزع قلبي بيدي ، إذا اقتضى الأمر ، وأطأه بقدمي ...

ومرت رعشة على وجهه ، وانهمرت دموع كبيرة فوق خديه ....

ورفع بافل رأسه ، شاحب الوجه ، ينظر اليه متسع العينين ؛ وهبّت الأم عن مقعدها وقد ثار في قلبها قلق غريب مظلم ، راح يعظم وينمو باستمرار.

سأل بافل بصوت خافت :

ـ ما بالك ، يا أندريه !

فهز الأوكراني رأسه ، وتمالى بجسده حتى أقصى ما يستطيع ، وتفرس في الأم بنظرات مستقيمة :

ـ لقد رأيت كيف حدث ذلك ... أنا أعرف ...

فاندفعت الى الأمام وأمسكت بيديه ، فجرب أن يحرر اليمنى من قبضتها ، بيد أنها تعلقت بها بكل قواها وهي تقول همساً :

ـ صه ! أواه ، يا عزيزي ، يا صغيري العزيز .

فغمغم الأوكراني بصوت أجش :

ـ انتظري لحظة ، وسأروي لك كيف كان ذلك ...

فهمست ، وهي ترمقه من خلال دموعها :

ـ كلا ، لا تفعل ، لا تفعل ، يا أندريوشا .

ودنا منه بافل شاحب الوجه ، رطب العينين أيضاً . قال وهو يرسل ضحكة قصيرة :

ـ أمي تخاف أن تكون أنت القاتل .

ـ لست بخائفة . أنا لا أصدق ذلك ، ولن أصدقه وإن رأيته بأم عيني .

فقال الأوكراني ، وهو يلوي رأسه ويحاول من جديد أن يحرر يديه :

انتظري لحظة ... لم أكن أنا ، إنما كان في مقدوري أن أحول دونه ...

فقال بافل :

ـ إخرس ، يا أندريه .

وأمسك يد صديقه بإحدى يديه ، ووضع اليد الثانية على كتفه ، وكأنه

يريد أن يهدىء ارتعاش ذلك الجسد المديد . لكن أندريه التفت اليه ، وقال بصوت متكسر :

— أنت تعلم ، يا بافل ، أني لم أطلب ذلك ولا كنت أريده ، ولكن اليك كيف جرى : عندما مضيت أنت في طريقك ولبثت أنا مع دراجونوف في زاوية الشارع ، وجاء أشعيا ووقف قريباً منا يراقبنا ويهزأ بنا ، فقال دراجونوف : أنظر اليه ، لقد ظل يتبعني طوال الليل ، وسوف أقتله .. ثم اتخذ سمت بيته كما توهمت ؛ عندئذ تقدم أشعيا مني .

وأرسل الأوكراني نفساً عميقاً :

— لست أعرف إنساناً أهانني كما فعل ذلك الكلب عندئذ .

جرّته الأم في سكون نحو المنضدة وجبرته على الجلوس ، ثم جلست الى جانبه وكتفاهما متلامستان ، فيما ظل بافل واقفاً ، شقياً بائساً مبذباً ، يعبث بلحيته ،

— قال لي إنهم يعرفون كل أسمائنا ، وإننا جميعاً مسجلون في قوائم الدرك ، وإننا سنعتقل بالضبط قبل احتفالنا بأول أيار . ولم أحر جواباً ، بل ضحكت منه وأنا أغلي وأفور وانهمر يقول إني شاب ذكي ، وإني أخطىء في اختيار تلك الطريق ، وإنه من الأفضل أن ..

وسكت ، وراح يمسح وجهه بيده اليسرى ، وفي عينيه بريق جاف غريب ...

قال بافل :

— إني أفهم .

— إنه من الأفضل ان أخدم القانون .

وهز الأوكراني قبضته ، وغمغم من خلال أسنانه المنطبقة :

— القانون ـ لعن الله روحه . كان الأفضل أن يصفعني على وجهي ـ إذن

كان ذلك أيسر لي ، وله أيضاً . لقد طفح الكيل بالنسبة إليّ وقبما بصق في قلبي بصقته المنتنة تلك .

وانتزع أندريه يده من يد بافل بحركة عنيفة مضطربة ، واسترسل يقول بصوت خفيض يطفح نفوراً :

— صفعته ومضيت . ومن ثم سمعت دراجونوف يقول ورائي بصوت خافت : « لقد أمسكت بك أخيراً » . لا ريب أنه كان ينتظر عند زاوية الطريق .

وصمت الأوكراني برهة ، ثم عاد يقول :

— ولم ألتفت – بالرغم من إحساسي أنه . . . وسمعت اللطمة . . . ولكني تابعت طريقي وكأني دست على ضفدعة حقيرة . وجاءوا يصيحون أثناء العمل : لقد قتلوا أشعيا . ولم أصدق ذلك ، بيد أن ذراعي جعلت تؤلمني حتى عجزت عن الاستمرار في العمل . لم تؤلمني بالضبط ، بل أحسست بها كأنها جفت وذبلت ...

وألقى على يده نظرة خاطفة :

— أعتقد أني لن أستطيع ، طوال حياتي ، غسل هذه اللطخة ...

فقالت الأم بصوت خفيض :

— الشيء المهم هو أن قلبك طاهر .

فقال الأوكراني في عزم :

— لست ألوم نفسي من أجل ذلك – أوه كلا ! ولكن هذا يثير الاشمئزاز ، ولم تكن بي حاجة لأن أندس فيه .

وقال بافل ، وهو يهز كتفيه :

— إني لا أفهمك . فأنت لم ترتكب الجريمة ، ولكنك لو فعلت ...

— إسمع ، يا أخي . إنه إنسان بالرغم من كل شيء ، وقتل النفس

أمر يبعث على النفور ... هب أنك عرفت أن جريمة قتل سترتكب ولم تفعل شيئاً للحيلولة دونها ...

فأصر بافل يقول :

— إني لا أفهم . أو لعلي أفهم ، ولكني لا أحس ذلك ...

ودوّت الصفارة ، فأصاخ الأوكراني السمع الى النداء العاتي ثم تململ على كرسيه ، وزمجر :

— لن أعود إلى العمل .

فتأثر بافل :

— ولا أنا أيضاً .

وقال الأوكراني ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

— إني ذاهب الى الحمام .

وبدأ يجمع ثيابه ، ثم غادر الدار محطم النفس ...

شيعته الأم بنظرة إشفاق ، وقالت بعد خروجه :

— قل ما بدا لك أن تقول يا بافل ، فأنا أعلم أن قتل الانسان خطيئة ، ولكني لا أعتبر أحداً مذنباً على الاطلاق . وإني أرثي لأشعيا ، فقد كان رجلا متداعياً منحلا . وعندما نظرت اليه اليوم تذكرت كيف هدّد وتوعد بشنقك ، لكن ذلك لم يدفعني الى الحقد عليه أو الفرح لموته . لقد رثيت له بكل بساطة . وأنا الآن .. إني لا أحس حتى الاشفاق ..

وأمسكت عن الكلام برهة واستغرقت في التفكير قبل أن تضيف ، وعلى شفتيها ابتسامة دهشة وعجب :

— يا إلهي ! هل سمعت ما أقول ، يا باشا ؟

لم يسمع ذلك فيما يبدو لأنه أجاب مكتئباً ، وهو يذرع الغرفة رائحاً غادياً :

— تلك هي الحيـاة لك ! أرأيت إليهم كيف أثاروا الناس ضد بعضهم البعض ؟ ها إنك تضربين شخصاً دون أن تريدي ذلك . ومن هـو الذي تضربين ؟ إنه مخلوق مسكين لا يملك من الحقوق أكثر ممـا تملكين . لا بل إنه أكثر بؤساً منك في هذا المضمار ، لأنه أحمق غبي ، إن الشرطة والدرك والجواسيس جميعاً أعداء لنـا ، ولكنهم جميعاً أناس مثلنا ، امتُصت دماؤهم كما امتصت دماؤنا ، وجُردوا من كل صفة إنسانية مثلما جردنا نحن أيضاً . حالتنا وحالتهم ، في كل شيء سواء . لكن الرؤساء أثاروا فئة ضد أخرى ، وأعموا بصائرهم بالخوف والجهل والهراء ، وأوثقوا أيديهم وأرجلهم ، وراحوا يضطهدونهم ويمتصون دماءهم ويدفعونهم لأن يضربوا ويسحقوا بعضهم بعضاً . لقد أحالوا الناس بنادق وهراوات وحجارة وقالوا : هذه هي الحكومة .

واقترب من أمه ، وتابع :

— ذلك إجرام ، يا أماه ! إنه أبشع قتل لملايين النـاس ! إنه مجزرة النفوس الانسـانية . . . هل تفهمين ؟ إنهم قتلة النفوس ! هل تدركين الفارق بينهم وبيننـا ؟ إننا نضرب شخصاً ما ، وهذا مخجل مؤلم مقرف قبل كل شيء . أما هم فيقتلون ألوف الناس بهدوء دو رحمة أو تأنيب من ضميرهم ، لا بل في فرح ورضىً أيضاً ! وإن حجتهم الوحيدة في اضطهاد النـاس حتى الموت هي الاحتفاظ بفضتهم وذهبهم وترفهم وكل ذلك المتـاع البائس الذي يمكنهم به الاحتفاظ بالسلطة علينا . فكري في ذلك جيداً ... إنهم لا يدافعون عن حيواتهم عندما يقتلون الناس ويشوهون أرواحهم ... ليس في سبيـل ذواتهم ، بل في سبيل ممتلكاتهم يفعلون ذلك . إنهم لا يدافعون عما في داخلهم ، بل عما في الخارج منهم ...

وأخذ يديها بين يديه وانحنى عليها يضغطها بين أصابعه ، وهو يقول :

ـ إنْ كُنت تدركين ما في ذلك من قرافة ، ما فيه من نتانة مخجلة ، فستفهمين الحقيقة التي من أجلها نناضل ، وسوف ترين ما أروعها وأعظمها !

ونهضت الأم شديدة الانفعال ، تملؤها الرغبة في أن تذيب قلبها مع قلب ابنها في شعلة براقة واحدة .

غمغمت بصعوبة :

ـ تمهل قليلاً ، يا بافل ، تمهل قليلاً ، إني أستطيع أن أحس ذلك ـ تمهل قليلاً !

* * *

٢٥

دنا شخص من الباب الخارجي مثيراً ضوضاء صاخبة ، فأجفل كلاهما وأحدق أحدهما في الآخر .

فتح الباب في بطء ، ومنه دلف ريبين . قال ، وهو يرفع رأسه مبتسما :

— ها أنا ذا ، إن توما المرتاب . وفياً لعهده ، يسافر هنا ويسافر هنالك ، ويدسُّ أنفه في مكان .

كان يرتدي معطفاً من جلد الخراف ملطخاً بالقطران ، وينتعل صندلين جلديين ويغطي رأسه بقبعة ممزقة ، وقد علق في حزامه زوجاً من القفازات .

— كيف حالكما ؟ وهكـذا إذن فقد أطلقوا سراحك ، يا بافل ؟ كيف أنت ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟

وعرّى أسنانه البيض في ابتسامة عريضة ، وقد أصبح صوته أكثر لطفاً ، ووجهه أكثر اكتساء بلحيته الثقيلة .

كانت الأم سعيدة برؤيته ، فذهبت اليه وتناولت يده الكبيرة المسودة . قالت ، وهي تأخذ نفساً عميقاً من رائحة القطران الصحية الحادة :

— يا إلهي ! كم أنا سعيدة برؤيتك !

وقال بافل مبتسماً ، وهو ينظر الى ريبين :

— إليك هذا الموجيك ؟

فخلع الضيف ثيابه عنه ببطء ، وهو يقول :

- حسناً ، فاني أصير موجيكاً من جديد . أنتم تصبحون مثل السادة أكثر فأكثر ، بينما أسير أنا في الاتجاه المعاكس .

وطفق يتمشى في الغرفة يراقبها وهو يصلح من شأن قميصه المتعدد الألوان .

- لا جديد هنا سوى الكتب . حسناً ، حدثاني عن كل شيء ..

جلس وقد بد ساقيه ، وأمسك ركبتيه بكلتا يديه يتفحص وجه بافل بعينيه السوداوين ، ويبتسم في انتظار الجواب .

قال بافل :

- كل شيء رائع هنا .

فضحك ريبين ، وقال :

- إننا نحرث ونبذر ونراقب الزرع كيف ينمو ، ثم نحصد قمحنا ونطحنه وننام بقية السنة مرتاحي البال ... هكذا تجري الأمور ، أليس كذلك يا صديقي ؟

فسأل بافل ، وهو يجلس قبالته :

- حدثنا كيف تسير بك الأمور ، يا ميخائيل إيفانوفيتش .

- إنها تسير على ما يرام . أنا أعيش في ييجلديفو - هل سمعت عنها قط ؟ ييجلديفو - وهي مدينة صغيرة جميلة ، تقيم سوقين في العام ولا يزيد عدد سكانها عن الألفين ، وهم الى ذلك معشر حقير سافل . ولا يملكون أرضاً بل يضطرون الى استئجارها ... ويا لها من أرض فقيرة ! ولقد استأجرني أحد المستثمرين هناك - والمكان مليء بهم مثل امتلاء الجثة بالديدان ، وأنا أحرق الفحم وأصنع منه القطران ولا أكسب إلا ربع ما كنت أكسب هنا وألاقي من العناء ضعفين . حسناً ! نحن سبعة نعمل من أجله ، ذلك المستثمر ، والجميع شبان طيبون ، في ميعة العمر ، وكلهم أبناء القرية ما عداي ،

وسائرنا نعرف كيف نقرأ ونكتب . وإن أحدهم ، ويدعى ييفيم ، فتى كثير الطيش حتى لا أدري ما أفعل به :

وسأل بافل في لهفة :

ـ وكيف تعمل معهم ، أتخوض نقاشاً وإياهم ؟

ـ إني لا أحتفظ بلساني مقيداً ، يمكنك أن تتأكد من هذا . وقد أخذت معي كل مناشيركم ، أربعة وثلاثين واحداً منها . ولكني أستعين بالتوراة في أغلب الأحايين . ثمة أشياء كثيرة يستطيع المرء أن يستخرجها من التوراة ، وهي كتاب ثخين الحجم ، ورسمي أيضاً . حائز على تأييد المجمع المقدس . تلك هي القضية ! إنك تستطيع أن تمنحه ثقتك . ذلك الكتاب :

وأغرق في الضحك ، وهو يغمز بافل بعينيه ...

ـ سوى أن هذا لا يكفي على أية حال ، ولقد جئت أطلب كتاباً منك . ونحن اثنان .. إذ أن ييفيم ذلك يقف في صفي . لقد أرسلونا بحمل من القطران ، فاكتسبنا الفرصة وقمنا بدورة صغيرة ، وها نحن هنا . أعطني الكتاب قبل أن يأتي ييفيم هذا ... فليس من المستحسن أن يعرف أشياء كثيرة .

نظرت الأم الى ريبين وخيل اليها أن شيئاً آخر فيه ، الى جانب ثيابه ، قد تبدل . فحركاته قد أصبحت أقل ثقلاً وهيبة ، ونظرته تبدو أكثر حياء وخفراً ، وعيناه أقل صراحة مما كانتا عليه .

قال بافل :

ـ أماه ، هلا ذهبت لاحضار الكتب . إن القوم هناك يعرفون أياً منها ، قولي لهم إنها ستوجه إلى الريف .

فقالت الأم :

حسناً ، سأذهب حالما يغلي السماور .

وضحك ريبين وقال :

– وأنت أيضاً تشتركين في هذا العمل ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟ حسناً ، ثمة عدد كبير يريدون كتباً ، وهذا من عمل الاستاذ الجلي . يقال إنه شاب طيب ، رغم انحداره من الاكليروس . وهناك أيضاً معلمة تبعد عنا حوالي سبعة فراسخ . ولكنها لا يقرآن الكتب الممنوعة ، إذ يخافان أن يفقدا عملها . أما أنا فلي حاجة الى الكتب الممنوعة ، كتب فيها بعض الفلفل اللاذع ، وسأوزعها سراً فاذا وقع عليها مفتش البوليس أو الكاهن لم يتهما بها أحداً سوى المعلمين . وفي أثناء ذلك سأتخذ طريقي الى جهة اخرى ..

وكشر مبتسما راضياً عن دهائه ومكره .

وفكرت الأم :

– آهاً ! إنك تشبه الدب في مظهرك ، ولكنك ثعلب في حقيقتك

وسأل بافل :

– اذا اشتبهوا في ان المعلمين ينشران مطبوعات غير مشروعة ، أفلن يلقوا بها في السجن ؟

– بكل تأكيد ، وماذا في ذلك ؟

– ولكن المذنب هو أنت ... لا هما ... فأنت إذن من يجب أن تذهب الى السجن .

فأغرق ريبين في الضحك ، وقال وهو يضرب ركبتيه بيديه :

– أنت غريب الأطوار حقاً . إن أحداً لن يشتبه بي ، فالفلاحون لا يصلحون لمثل هذه الأمور . الكتب من شأن الأسياد وحدهم ، والأسياد هم المسؤولون عنها .

وأحست الأم أن بافل لم يفهم ريبين ، إذ لمحته يضيق عينيه مما يدل على

غضبه . قالت في حذر :

— إن ميخائيلو ايفانوفيتش يريد انجاز العمل بنفسه ، ولكنه يريد الآخرين على تحمّل المسؤولية ...

فقال ريبين وهو يمشط لحيته :

— ذلك صحيح ، في الوقت الحاضر على الأقل .

وقال بافل في جفوة :

— أماه ! لو أن أحداً من فتياننا ، أندريه مثلاً ، اختبأ وراء ظهري وهو يفعل شيئاً يلقون بي من أجله في السجن ، فماذا يكون شعورك ؟

فأجفلت الأم ، وسألت وهي تهز رأسها :

- وكيف يستطيع المرء خداع رفيقه على هذا الشكل ؟

فجمجم ريبين متشدقاً :

— آه ! لقد فهمتك يا بافل .

ثم استدار نحو الأم ، وهو يطرف بباصرتيه في خيلاء وعجرفة :

— هذه قضية دقيقة جداً ، يا أماه .

وعاد يلتفت الى بافل من جديد ، وهو يقول في لهجة واعظة :

— إن أفكارك لما تنضج ، يا أخي ... ليس للشرف مكان عندما تتعلق الأمور بالعمل السري غير المشروع ... أحكم على ذلك بنفسك ، إن أول شخص يلقى به في السجن هو ذلك الذي وجد الكتاب معه ، لا المعلم ... هذا أولاً ، ثم إن المعلمين ، وإن كانا يستعملان كتباً مسموحاً بها ليس غير ... فان الأفكار التي يذيعانها هي نفسها - والكلمات وحدها تختلف ... إنها أقل صدقاً وحقيقة . وبكلمة مختصرة ، هما يتوخيان نفس الغاية التي أتوخاها أنا ، إلا أنهما يسلكان سبيلا ملتوياً بينما أذهب أنا في الطريق القويمة . ونحن جميعاً ، في نظر المدراء ،



رينان

نستحق اللوم الشديد . أليس ؟ كذلك والأمر الثالث هو أني لا أعبأ بها أبداً . يا أخي ! إن فرق المشاة لن تصادق الخيالة . ولعلي لا أفعل نفس الشيء مع موجيك أبداً . أما هما ــ فان أحدهما ابن كاهن ، والثانية ابنة ملاك أرض ــ فماذا يدعوهما الى تحريض الشعب ؟ لا يهمني . أنا الموجيك ، أن أقرأ أفكارهما . فأنا أعرف ما أفعل ، وليس عندي أية فكرة عما يسعيان لها وراءه . لقد ظل الأسياد آلاف السنين في أماكنهم الخاصة يسلخون الجلد عن ظهور الفلاحين ، أما الآن فهم يستيقظون بغتة ويشرعون يرفعون العصابات عن عيون الفلاحين بذات أيديهم . وأنا لست من الذين يؤمنون بأقاصيص الجنيات . ولكن هذا كله يشبه إحدى هذه الأقاصيص الى درجة بعيدة . تلك هي القضية ، فبيني وبين أسيادك هؤلاء مسافة شاسعة . ذلك أشبه ما يكون بحالك عندما تجتاز الحقول في الشتاء . إنك ترى ، على حين غرة ، شيئاً يندفع عبر الطريق الى الأمام منك . ما هو ؟ ذئب أم ثعلب أم مجرد كلب ليس غير ؟ لست تقدر أن تعين هويته ، فهو بعيد عنك كل البعد ...

واختلست الأم النظر الى ابنها . كان يبدو شقياً . بائساً ...

وبرقت عينا ريبين بنور قاتم وهو يراقب بافل راضياً عن نفسه ، ويمشط لحيته بأصابعه في عصبية ظاهرة . تابع حديثه قائلاً :

ــ هذا الوقت لا يتسع للتفكير في السلوك الحسن ، فالحياة شاقة ، وعصبة من الكلاب ليست بقطيع من الغنم ... فكل كلب يعوي على طريقته الخاصة .

وقالت الأم ، ممعنة التفكير في وجوه مألوفة لديها :

لكن ثمة أسياد يلقون الموت في سبيل عامة الناس ، ويقضون سني حياتهم في السجون ...

ــ هؤلاء من طبقة خاصة إذن . الموجيك يثري فيرتفع الى طبقة الأسياد ، والسيد يفتقر فينزل إلى مصاف الموجيك . واذا كانت اليد قصيرة ، فالقلب طيب

بكل تأكيد . أتذكر ، يا بافل ، يوم أوضحت لي ذات مرة كيف يقرر أسلوب المرء في الحياة طريقته في التفكير ؟ تلك هي القضية ! اذا العامل قال : نعم ، قال سيده : لا ! وهناك ذات الفرق بين الموجيك والملاك ، فان معدة السيد تصاب بسوء الهضم اذا وجد الموجيك يحصل على كفايته من الطعام . وطبيعي أن يكون لكل طبقة أنذالها ، وأنا لا أدافع عن سائر الفلاحين دون استثناء ...

ونهض على قدميه ، قوياً ، قاتماً ، ممتقع الوجه ، وراحت لحيته ترتعش وكأن أسنانه تصطك دون ضوضاء ، وتابع في صوت أقل خفوتاً منه قبلاً :

لقد همت على وجهي من مصنع الى مصنع طوال خمسة أعوام ، فنسيت كيف تكون حياة القرية . وعندما عدت إليها وألقيت عليها نظرة ، أدركت أنني لا أستطيع أن اعيش هكذا ابداً . هل تفهم ؟ إني لا أستطيع ذلك . عندما يعيش المرء هناك ، فهو يعجز عن رؤية الشر هناك . وهناك يخيم الجوع على الناس وكأنه ظل لهم ، وليس من أمل في الحصول على الخبز ، ليس من أمل مطلقاً . ان الجوع يبتلع أرواحهم ويشوه الوجوه البشرية منهم . إنهم لا يعيشون ، أولئك الناس ، إنهم يتفسخون فقط ، بينما تقف السلطات لهم بالمرصاد كالغربان لتمنعهم من وضع أيديهم على قطعة زائدة من هذا الشيء أو ذاك ، فاذا فعلوا اختطفوها منهم وأعطوهم بدلها لطمة على الوجه أو لكمة على الحنك . .

وجال ريبين بنظراته فيما حوله ، ثم مال نحو بافل من فوق المائدة التي تفصل بينهما ، وتابع :

لقد تقززت نفسي عندما عدت الى تلك الحياة من جديد ، وفكرت أنني لن أستطيع لها احتمالاً ، ثم قلت في نفسي : كلا ، ينبغي لك ألا تنهزم ، بل ان تقاوم حتى النهاية . لعلك لا تستطيع أن تعطيهم خبزاً ، ولكنك تستطيع أن تجهز على مهل طبخة جيدة . وهكذا بقيت هناك وقلبي يحترق بالحقد الذي أحمل . وهذا الحقد يطل من هناك ، يحفر في قلبي وكأنه مدية مدببة .

... واقترب من بافل ببطء ، والعرق يتصبب على جبينه ، ورأسه يرتجف بشدة ، وألقى بيده على كتفه قائلا :

— إني بحاجة إلى معونتك . أعطني كتباً من ذلك النوع الذي يذهب بنوم الانسان طوال ليال عديدة إذا قرأه مرة . إننا بحاجة لأن نضع قنفذاً في قحفهم قنفذاً ذا أشواك حادة . قل لأولئك الذين يكتبون لكم أن يكتبوا شيئاً للقرية أيضاً . فليكتبوا حتى يصبح للأحرف ضجيج ، وحتى يذهب الناس الى حتفهم في سبيل القضية .

ورفع ذراعه وراح يقول ، وهو يلفظ كل كلمة على حدة ، وبصورة شديدة الوضوح :

— إن الموت سينتصر على الموت ، وبكلام آخر : مت كي يبعث الشعب . وليمت الألوف منا كي يبعثوا ملايين الناس في العالم كله ، تلك هي القضية ! إن الموت لأمر سهل ... في سبيل قضية البعث ، في سبيل قضية الشعب القائم من الموت .

حملت الأم السماور وبدأت تختلس النظر إلى ريبين ، شاعرة بالانسحاق تحت ثقل كلماته وعنفها . ثمة شيء فيه يذكرها بزوجها . لقد كشر زوجها عن أسنانه بذات الطريقة ، وهز ذراعيه بذات الأسلوب وهو يطوي أكمام قميصه ولقد كان يملؤه ذات الغضب الهلع — لقد كان غضبه هلعاً لا يجد له تعبيراً ، فما هذا الرجل يعطي لمشاعره تعبيراً واضحاً ، وهذا مما يجعله أقل إرهاباً .

قال بافل ، وهو يهز رأسه :

— يجب أن نحقق ذلك . أعطنا المعلومات ، ونحن نصدر صحيفة خاصة بكم .

ابتسمت الأم وهي تنظر الى ولدها ، ثم ارتدت ثيابها ، بغضبة لا تبشر بتنس شفقة ، وخرجت من الدار ....

صاح ريبين لها :

ـ حسناً ، سنزودكم بكل شيء . أكتبوا ببساطة بحيث يستطيع ، حتى المجول . أن يفهموا ايضاً .

وفتح باب المطهى ، ومرق منه شخص ما ...

قال ريبين ، وهو ينظر الى المطهى :

ـ هذا يفيم . تعال هنا يا يفيم ، ها هو ذا ـ يفيم ـ أما هذا فيدعى بافل .. ولقد حدثتك عنه .

ووقف تجاه بافل فتى طويل القامة ، أشقر الشعر ، عريض الوجه ، يتوشح معطفاً قصيراً من فرو الغنم ويمسك قبعته بيديه ، وراح يتطلع الى بافل من تحت حاجبيه المنخفضين . كان مظهره يوحي بأنه شديد البأس صندید القوة .

قال بصوت فظ أجش :

ـ إني سعيد بمعرفتك .

وصافح بافل ، ثم أرسل كلتا يديه في شعره الأملس ، وجال بعد ئذ في الغرفة حتى اذا وقع بصره على الكتب مال يتجه نحوها في تمهل وروية .

قال ريبين ، وهو يغمز بافل بطرف عينيه :

ـ لقد وجدها .

فاستدار يفيم وحملق فيه ، ثم بدأ يتفحص الكتب . هتف :

ـ ماذا كثر ما عندك للقراءة ! كما لا ريب فيه أنك لا تلقى متسعاً من الوقت لذلك . ولو كنت تعيش في القرية لوجدت فراغاً أكبر للقراءة .

واستفهم بافل :

ـ ولكن رغبة أقل ؟

فأجاب الفتى ، وهو يداعب ذقنه :

ـ ولم ؟ بل رغبة عظيمة أيضاً . لقد عيث الناس بحقولهم ادمغتهم علىطبقات الأرض ، ما معنى هذا ؟

فأوضح بافل ذلك له ...

قال الفتى ، وهو يرد الكتاب إلى مكانه على الرف :

— نحن لسنا في حاجة إلى هذا ...

وقال ريبين ، متنهداً بصوت مسموع :

— الموجيك لا يعبأ بأصل الأرض ومنشئها ، وإنما تقسيمها يثير اهتمامه قبل كل شيء ، وكيف سرقها الملاكون تحت بصره وسمعه . وسواء لديه إن كانت تدور حول نفسها أو كانت ثابتة ، بل فلتثبت تحت أقدامه ما دامت تغذيه قمحاً وخبزاً ، ولتسمر في السماء إذا أعطته الجاودار .

وقرأ يفيم :

— تاريخ العبودية . أهو يبحث عنا ؟

فأجاب بافل ، وهو يناوله كتاباً آخر :

— ههنا تجد فصلاً عن نظام العبودية في روسيا .

أخذ يفيم الكتاب ، وقلبه بين يديه ، ثم قال وهو يلقي به جانباً :

— هذه أمور تتعلق بالماضي .

سأله بافل :

— هل تملك أرضاً خاصة بك ؟

— بكل تأكيد . إن أخوي وأنا نملك أربعة هكتارات من الأرض ، رمل كلها ، تصلح لتنظيف النحاس ولا تفيد شيئاً للزراعة .

وتابع بعد برهة من الصمت :

— ولقد تركت الأرض ، فما الفائدة منها ؟ إنها ... لا تطعمك ، بل تربطك بها . ومنذ أربع سنوات وأنا أعمل حارثاً في مزرعة ، وسأقوم بخدمتي العسكرية في الخريف المقبل . والعم ميخائيلو يقول لي ألا أتقدم إليها ، ويقول إنهم يرسلون الجنود ليجلدوا الشعب في هذه الأيام . ولكني أعتقد

أنني سأذهب ، فالجنود كانوا يضربون الشعب أيام ستيفان رازين وبوجاتشيف أيضاً ، ولقد آن الأوان لنا كي نبدل الأمور . ما رأيك ؟

وجّه إلى بافل هذا السؤال وهو يحدجه بنظرات مستفسرة ، فأجاب بافل مبتسماً :

— بلى . لقد حلّ الأوان ، لكن ذلك ليس بالأمر السهل . يجب أن نعلم ماذا نقول للجنود وكيف نقوله

فقال ييفيم :

— سنتعلم .

فلاحظ بافل ، وهو يرمق ييفيم بنظرة مستقصية :

— واذا اكتشف الضباط ذلك ، فسوف يرمونك بالرصاص .

فوافق الفتى في هدوء ، وهو يعود إلى استكشاف الكتب :

— لست أنتظر منهم كل هذه الرحمة ..

وقال ريبين :

— إشرب الشاي يا ييفيم ، فلا مناص لنا من الذهاب عما قريب .

— حسناً ! هل الثورة ... عصيان ؟

ودخل أندريه ، مورّد الوجه ، ينضح البخار منه بعد الحمام ، وتعلو وجهه نظرة كئيبة أسوانة . صافح ييفيم في صمت ، ثم جلس إلى جانب ريبين وأرسل ضحكة قصيرة وهو يتفحصه .

سأل ريبين ، وقد ضربه على ركبته :

— ما بالك ، لم هذا الاكتئاب ؟

فأجاب الأوكراني :

— لا شيء على التعيين .

واستفهم ييفيم ، مشيراً برأسه إلى أندريه :

- أهو عامل أيضاً ؟

فرد أندريه :

- نعم ، ولم السؤال ؟.

فقال ريبين موضحاً :

- إنه لم ير من قبل عاملا في مصنع قط. إنه يجد هؤلاء العمال طبقة خاصة .

واستعلم بافل :

- بأي معنىً ؟

فأعلن يفيم مجيباً ، بعد أن درس أندريه ملياً :

- إن عظامكم مستدقة . أما عظام الموجيك فأكثر استدارة .

وأضاف ريبين :

- إن الموجيك يقف بثبات أكبر ، إنه يحس الأرض تحت قدميه ، وإن لم تكن ملكه . إنه يحسها ... الأرض . أما عامل المصنع فأشبه بالعصفور - لا يملك موطناً ولا بيتاً - هو اليوم ههنا ، أما في الغد فيذهب إلى مكان آخر . والمرأة نفسها لا تتمكن من ضبطه في بقعة واحدة ، ولا تكاد الأمور تسوء حتى يودعها .. وينطلق ساعياً وراء ما هو أفضل أما الموجيك فيريد أن يجعل الأمور أفضل دون أن يبرح مكانه . هذه هي أمك قد عادت .

وسأل يفيم مقترباً من بافل :

- أتريد إعارتي كتاباً من كتبك هذه ؟

فجهر الآخر :

- بشكل تأكيد .

فالتمعت عينا الفتى في لهفة وإشراق ، وأسرع يؤكد لبافل :

- سوف أرده لك . إن رفاقنا ينقلون القطران دائماً إلى هذه الجهات ،

وسوف يحملونه إليك .

قال ريبين ، بعد أن لبس فروته وحزمها جيداً :

— آن لنا أن نذهب .

وهتف يفيم ، وهو يشير إلى الكتاب ويبتسم ابتسامة عريضة :

— أنظر ، لقد أصبح لديَّ ما أقرأ .

وبعد ذهابها ، استدار بافل نحو أندريه في انفعال وهياج ، وهتف :

— ما رأيك فيها ؟

فقال الأوكراني متشدقاً :

— هِمْ — مْ — مْ . مثل سحابتين تحملان العاصفة .

وقالت الأم :

— ميخائيلو ؟ لكأنه لم يعمل في مصنعٍ قط — موجيك حقيقي ، ومخيف أيضاً .

وقال بافل لأندريه ، الذي راح يحملق في قدح الشاي بين يديه عابساً :

— يؤسفني جداً أنك لم تكن هنا منذ البدء ، إذن لألقيت نظرة على ما يجري في قلبه — فأنت تتكلم أبداً عن القلب البشري . لقد أطلق ريبين هنا كثيراً من البخار حتى طرحني أرضاً ، ولم أجد كلمة واحدة أرد بها عليه ... ما أقل إيمانه بالكائنات البشرية ، وما أرخصها في نظره . إن أمي لعلى حق ... إن قوة مخوفاً تملك هذا الرجل .

فأجاب الأوكراني في كآبة :

— أستطيع أن أرى ذلك . لقد سمم الحكام أفكار الناس ، ويوم تثور الجماهير ، فستقلب كل شيء وتحطمه . إنهم يريدون الأرض العارية ، وعارية سوف يجعلونها . إنهم سيدمرون كل شيء على الاطلاق .

كان يتكلم في روية ، يتضح من حديثه بجلاء ووضوح سافرين ،

أن فكره مشغول بشيء آخر . واقتربت الأم منه ولمسته في حنان قائلة :

— هدىء من روعك ، يا أندريوشا ، واستعد صوابك .

فأجاب في هدوء وعطف كبيرين :

— رويدك لحظة ، يا أميمتي !

وثارت حمياه على حين غرة ، فضرب المائدة بقبضة يده صائحاً :

— ذلك صحيح ، يا بافل . الموجيك سيجرّد وجه الأرض آونة ينهض على قدميه . ولسوف يحرق كل شيء ويذروه في الهواء ، كما يحدث عقيب الطاعون ، حتى يحيل رماداً كل آثار الأذى الذي تحمل وقاسى .

فلاحظ بافل بصوت خافت :

— وعندئذ سيقف في طريقنا .

— يعود الأمر إلينا كيلا نسمح بحدوث ذلك ، يعود الأمر إلينا كي نلجم انطلاقه . نحن أقرب إليه من أي كائن آخر ... ولسوف يثق بنا ويقفو خطانا .

قال بافل :

— لقد طلب ريبين أن نصدر صحيفة خاصة بالريف .

— هذا هو المطلوب حقاً .

فقال بافل ، وهو يطلق ضحكة قصيرة :

— لما يؤسف له أني لم أتناقش وإياه في هذه القضية .

فأعلن الأوكرانى في هدوء ، وهو يرسل أصابعه بين خصل شعره :

— لم يزل لدينا الوقت الكافي لذلك . ما عليك إلا متابعة العزف على الكمان ، حتى يرقص على ألحانك أولئك الذين لم تغرس أقدامهم في الأرض . لقد كان ريبين على حق عندما قال إننا لا نحس الأرض تحت

أقدامنا ، ويجب ألا نفعل لأن مهمتنا أن نهزها هزاً قوياً شديداً . واسوف نهزها مرة فيفقد الناس مواقع أقدامهم . . . وعند الهزة الثانية ، يتحررون . . .

فقالت الأم ضاحكة :

— إن كل الأمور بسيطة جداً بالنسبة إليك ، يا أندريوشا .

فقال الأوكراني :

— بكل تأكيد ، بسيطة مثل الحياة ذاتها .

وأضاف بعد عدة دقائق :

— إني خارج إلى نزهة في الحقول .

فنبرت الأم تحذره :

— بعد الحمام ؟ إن الريح تعصف هدارية ، وسيصيبك برد :

فأجاب :

— إنني في مسيس حاجة إلى بعض الهواء النقي .

وهمس بافل في عطف :

— إحترس من البرد . ليفضل أن تغفو قليلاً .

— كلا ، بل سأذهب .

وارتدى ثيابه ، وخرج دون أن يقول شيئاً ...

قالت الأم ، وهي تتنهد :

— إنه يتألم كثيراً مما حدث .

— إني لسعيد إذ أصبحت أكثر حدباً عليه منذ حدوث ذلك .

— أحقاً ؟ إني لم ألحظ هذا . لقد أصبح عزيزاً جداً علي . حتى لا أدري كيف أعبر عن حبي له .

فجهر بافل في لطف ورقة :

— إن لك لقلباً لطيفاً ، يا أماه .

— ليتني أستطيع أن أساعدك — وأساعد أصدقاءك أيضاً — ولو قليلاً . . . بل ليتني أعلم كيف أفعل ذلك .

— لا تقلقي ، سوف تتعلمين .

فقالت ، وهي ترسل ضحكة قصيرة خافتة :

— آه ، لو كنت أتعلم فقط ... كيف لا أقلق .

— حسناً ، يا أماه ، الأفضل أن ندع هذا الحديث . ولكن تذكري شيئاً واحداً .. وهو أني ممتن لك كثيراً .. كثيراً جداً .

فهرولت إلى المطبخ حتى لا يرى دموعها ...

كان الوقت متأخراً جداً عندما رجع الأوكراني والليل قد اعتكر ، فهز إلى الفراش رأساً وهو يقول :

من المؤكد أني مشيت عشرة أميال .

فسأله بافل :

— أخفف عنك ذلك ؟

— حيناً ، فإني أريد أن أنام .

ولم يفه بعد ذلك ببنت شفة ...

جاء فيزوفشيكوف بعد برهة قصيرة ، رث الثياب ، وسخاً ، متبرماً كعادته أبداً ، واستوضح بافل وهو يتسكع في الغرفة بخطا وئيدة :

— هل تعلم من قتل أيشميا ؟

فأجاب بافل باقتضاب :

— كلا [illegible] .

— لقد وُجد شخص لم يقرف من ارتكاب ذلك . لقد كنت أنا نفسي شخصياً ، على استعداد للاجهاز عليه ، وكان يجب أن أفعل هذا ..

كنت أليق الجميع به .

فقال بافل بلهجة ودية :

ـ دع عنك هذا الحديث ، يا نيقولاي .

وأضافت الأم في حنان :

ـ لقد أصبت ! أنت تزمجر مثل الأسد وقلبك لا يفوقه شيء رقة وعذوبة ، فلمَ ذلك ؟

كانت سعيدة برؤية نيقولاي في تلك اللحظة ، بل قد بدا لها وجهه المجدور جذاباً لطيفاً .

قال نيقولاي ، وهو يهز كتفيه :

ـ لست أصلح كثيراً إلا لمثل هذه الأمور . إني أفكر دون انقطاع أين هو مكاني ؟ ليس لي مكان . أنتم تتحدثون مع الناس ، وأنا لا أدري كيف أفعل ذلك . إني أفهم كل شيء .. وأرى سائر الشرور . ولكني لا أستطيع وضعها في كلمات . لأشبه حيواناً أخرس ...

وعبر الغرفة حتى محاذاة بافل ، وأطرق بعينيه إلى الأرض ، وراح يقول بنغمة صبيانية تختلف كل الاختلاف عن لهجته المعتادة ، وهو لا يبرح ينقر على المائدة بأصابعه :

ـ أعطني عملاً ثقيلاً أقوم به ، أيها الأخ ، فأنا لا أقوى على الاستمرار في العيش هكذا دون هدف . أنتم جميعاً منهمكون في أعمالكم ، وأنا لا أرى كيف تنمو الأمور وتتطور ، ولكن أقف في معزل عنها لا أفعل إلا نقل الجذوع والأخشاب . هذا لا يمنح المرء شيئاً يعيش من أجله . أعطني عملاً شاقاً أنهض به .

فتناول بافل يده ، وشده إليه قائلاً :

ـ حسناً .

وجاء صوت الأوكراني من وراء الحاجز الخشبي :

ـــ سأعلمك أن تصف الأحرف في مطبعتنا ، يا نيقولاي . . . ما رأيك في هذا ؟

فذهب نيقولاي إليه ، وقال :

ـــ إذا علمتني ، قدمت لك سكيني .. هدية .

فصاح الأوكراني مقهقهاً :

ـــ إلى الجحيم أنت وسكينك .

فألحّ نيقولاي قائلا :

ـــ إنها سكين جيدة .

وانثال بافل يضحك بدوره ، فوقف نيقولاي في وسط الغرفة وخنخن :

ـــ أتضحكان مني ؟

فغمغم الأوكراني ، وهو يقفز من سريره :

ـــ بالطبع . استمعا إليّ ، هيا بنا ننطلق إلى نزهة في الحقول . القمر رائع هذه الليلة ... أفلا تريدان ذلك ؟

فثنّى بافل :

ـــ إني أوافق .

وأعلن نيقولاي :

ـــ وأنا أيضاً ، فإني أحب سماع ضحكة الأوكراني .

فجمجم الأوكراني ، وهو يبتسم :

ـــ وأنا أحب رؤيتك تعدني بالهدايا .

وذهب إلى المطبخ يرتدي ثيابه ، فحثته الأم قائلة :

- إلبس ثياباً دافئة .

وعندما خرج ثلاثتهم ، راحت تراقبهم من وراء النافذة ، ثم نظرت إلى الأيقونات وغمغمت :

- أيها الرب العزيز ، إرفق بهم .. وأعنهم .

* * *

٢٦

كرت الأيام مسرعة حتى لم تترك للأم فرصة للتفكير في عيد أيار ، ولكنها كانت تحس ، حين تستلقي ليلا في سريرها مجهدة من أعمال النهار الصاخبة المزعجة ، ألماً يئيد على قلبها ، فتعمل جهدها مفكرة :

ـ لو يأتي ذلك قريباً . .

وعند بلجة الفجر كانت صفارة المصنع تدوي ، فيتناول ابنها وأندريه طعام الفطور سريعاً ثم يغادرانها بعد أن يعهدا اليها بتنفيذ العديد من المهات .

وينقضي النهار بطوله وهي تروح وتغدو في أرجاء الدار كعصفور حبيس في قفص ، تهيء الغداء ، وتغلي الغراء وتحضر الحبر الأحمر اللازمين لمطبوعاتها ، وتستقبل أناساً مجهولين يظهرون بصورة عجيبة محوطة بالأسرار ، ويسلمونها رسائل موجهة إلى بافل ، ثم يختفون مثلما ظهروا بعد أن يتركوها مصابة بعدوى انفعالهم وحماستهم .

وفي كل ليلة تقريباً ، كانت نداءات موجهة للعمال تدعوهم للاشتراك في احتفال أول أيار تلصق على الجدران ، بل وأبواب مخفر الشرطة ، وتثبت وجودها يومياً في المعمل ، فاذا ما حل الصباح كان بعض رجال الشرطة يتجولون عبر الضاحية ينتزعون تلك النداءات ويمزقونها ؛ ولكن منشورات جديدة كانت تتطاير رغم أنوفهم مع الهواء عند الظهيرة ، فوق رؤوس المارة . وقدم من المدينة بعض رجال

التحري ، فاستقروا في زوايا الشوارع يراقبون وجوه العمال الذاهبين إلى بيوتهم والغادين منها بعرح خلال فرصة الغداء . وكانت جموع الناس تتمتع بما ترى من عجز الشرطة في تدارك الحالة ، بل كان الشيوخ من العمال يبتسمون بدورهم وهم يقولون لبعضهم البعض :

ـ ألا فانظروا إلى ما يصنعون !

وكانت جماعات من العمال تشاهد في كل مكان وهي تناقش النداء . إن الحياة لتصخب وتجيش ، وتصبح أبعث على الاهتمام من الربيع نفسه ، لأن الجميع يستشعرون دافعاً جديداً يتدفق بين جنباتهم . ولقد وجد بعض هؤلاء في ذلك ذريعة جديدة للغضب والنقمة ، فاذا هم يكيلون الشتائم المتمردين بصوت عال رنان ؛ وأحس آخرون أملاً غامضاً وجزعاً في الوقت ذاته ؛ فيما البعض الآخر ، وهم الأقلية ، يتمتعون بلذة فائقة إذ يدركون أنهم مسؤولون عن هذا التحفز عند الناس .

وكان بافل وأندريه لا يكادان يذوقان للنوم طعماً ، فهما يأتيان البيت عند الفجر ، شاحبين متعبين قد بح صوتاهما . وكانت الأم تعلم أيضاً أن كتائب من فرسان الشرطة تراقب ليلا المنطقة المحيطة بالضاحية ، وأن رجال التحري ينبثون في كل مكان ويضبطون العمال المنفردين ويفتشونهم ، ويفرقون أية جماعة من الناس يقعون عليها ويعتقلون البعض من حين لآخر . وأدركت أن ابنها وأندريه معرضان باستمرار لخطر الاعتقال ، فتمنت لهما ذلك واثقة أنه سيكون النصيب الأفضل .

ولسبب ما أسدل الستار على مقتل مراقب الدوام ، فبعد أن تابعت الشرطة المحلية تحقيقها خلال يومين ، واستجوبت عشرة من الناس ، لم تلبث أن فقدت اهتمامها بالجريمة وأهملتها .

وقد عبرت ماريا كورسونوفا ، في حديث لها مع الأم ، عن رأي الشرطة

في الموضوع ، إذ كانت طيبة العلاقات معهم ، مثلها مع سائر الناس . قالت :

— الأمل ضعيف جداً في معرفة القاتل ، إذ صادف أشعيا ما يزيد عن مائة شخص ذلك الصباح ، ومن بينهم تسعون على الأقل يتمنون قتله من صميم قلوبهم . منذ سبع سنوات وهو يسيء إلى الجميع على السواء .

تغير الأوكراني بشكل جلي ظاهر ، فنحل وجهه ، وترهل جفناه حتى غطيا نصفياً عينيه الجاحظتين ، وبدت خطوط رفيعة تمتد من خيشوميه حتى صواريه . أصبح أقل كلاماً عن الأمور المعتادة ، وإن تضاعفت لحظات هيجانه وحماسته حيث يبعث في المستمعين إليه رؤاه عن مستقبل يظفر العقل فيه وتنتصر الحرية .

وحين بات الحديث عن مقتل أشعيا ، قال وابتسامة جافة تمرح على شفتيه :

— إنهم لا يهتمون بالشعب ، ولا بأولئك الذين كانوا يطلقونهم كالكلاب في أعقابنا . وهم لا يأسفون لخسارتهم أجراءهم ... بل يأسفون على أموالهم ليس غير .

قال بافل في جزم :

— كفى حديثاً عن هذا الموضوع .

فرد الأوكراني :

— كلما ازددت تفكيراً في هذا الرجل ، ازددت رثاءً له .

فعقّبت الأم بقولها :

— لقد تفتّت الجذع المتعفن لدى اللمسة الأولى ... هذا كل شيء .

فأجاب الأوكراني مكتئباً :

— حقٌ ما تقولين ، ولكنه لا يعزي .

وأمسى يردد هذه الكلمات كثيراً ، فاذا تفوه بها اتسعت الكلمات حتى أصبحت تعميماً موجعاً شديد المرارة .

وأخيراً جاء اليوم المرتقب بفارغ الصبر ... أول أيار .

دوّت صفارة المعمل بعنف أشد ذلك الصباح ، فهبت الأم من فراشها ، ولم يغمض لها جفن طوال الليل، وأضرمت النار في السماور الذي هيأته منذ العشية، وهمت أن تقرع باب غرفة الشابين كعادتها ، لكنها فضلت ألا تفعل ، فجلست إلى إلى النافذة وقد اعتمدت وجهها على يدها وكأن أضراسها تؤلمها ألماً شديداً .

وسبح عبر السماء الزرقاء الشاحبة عنقود من السحب الوردية والبيض مثل سرب من طيوز كبيرة أرعبتها زمجرة بخار المعمل ، فراحت الأم ترقبها وتصغي إلى أفكارها الخاصة في الوقت ذاته . كان رأسها ثقيلاً جداً وعيناها جافتين ملتهبتين من عناء هذه الليلة ، ومع ذلك فان هدوءاً غريباً يملأ نفسها ، وقلبها يخفق في انتظام وسكينة ، وذهنها يعمل جاهداً في أفكار بسيطة عادية :

— لقد بكرت في إشعال السماور — وسوف يتبخر الماء بأسره ... إنهما مجهدان منهوكا القوى ، فلينالا قسطاً أوفر من الراحة هذا الصباح ...

وأطل شعاع وليدٌ من الشمس يمرح من خلال النافذة ، فمدت له يدها ، حتى إذا جاء يستريح بدفء على جلدها مسحت عليه بيدها الأخرى وشفتاها تفتران عن ابتسامة لطيفة متأملة ... ثم نهضت ونزعت عن السماور غطاءه ، ومن بعدُ اغتسلت وشرعت تصلي وهي ترسم إشارة الصليب دون انقطاع ، وتحرك شفتيها في سكون غير مثيرة ضوضاء مطلقاً . وبرق وجهها بضوء لامع ، بينما جفنها الأيمن يرتفع تارة ببطء ، ويتداعى تارة أخرى في وهن .

وجاء الصفير الثاني أقل ارتفاعاً وتسلطاً ، يتماوج في لحنه الكثيف الرطب ارتعاش ضئيل جداً ، فيخيل للأم أو دويه دام مدة أطول من المعتاد . .

وارتفع من الغرفة الثانية صوت الأوكراني العميق الواضح :

— أسمعت هذا ، يا بافل ؟

وانزلقت قدمان حافيتان عبر الغرفة ، يرافق حفيفها تثاؤب متطاول .

صاحت الأم :

- السماور جاهز .

فأجاب بافل مسروراً :

إننا ناهضان في الحال .

وقال الأوكراني :

- الشمس تشبرق ، وفي السماء سحب متلبدة . إننا نستطيع العمل اليوم دون الغيوم .

ودلف إلى المطبخ مشعث الشعر ، منتفخ الوجه نعاساً ، لكنه مبتهج النفس مرح الفؤاد . وقال :

- أسعدت صباحاً ، يا أميمة ! كيف كان رقادك ؟

فزرفت الأم اليه ، وقالت بصوت خافت :

- إمش الى جانبه ، يا أندريوشا .

فقال الأوكراني همساً :

- بكل تأكيد ! تستطيعين التأكد ، يا أميمة ، من أننا سنمشي جنباً الى جنب ما دمنا معاً .

وسأل بافل :

- بماذ تتهامسان ، أنتما الاثنان ؟

- لا شيء على التعيين ، يا پاشا .

وأجاب الأوكراني ، وهو يهم بالاغتسال :

- إنها تنصحني بتنظيف ما وراء أذنيّ جيداً لأن الفتيات سيتطلعن إليّ هذا النهار .

وأنشد بافل بصوت خافت :

انهضوا الى النضال ، يا أيها العمال ، انهضوا

ازداد الجو نوراً مع تقدم النهار ، بينما هبت الريح تطرد السحب بعيداً .

وهزت الأم رأسها وهي تهيىء مائدة الافطار ، وتفكر في مبلغ الغرابة التي تحوط كل هذا : ها هما يضحكان هنا ويتراشقان بالملائح في حين لا يدري أحد ماذا يقبع لهما في الانتظار بعد قليل . وإنها لتشعر ، هي الأخرى ، بالهدوء نوعاً ما ، لا بل بالغبطة أيضاً ...

قضينا على الطعام زمناً طويلاً بحاولان تخفيف حدة الانتظار . وكان بافل ، كعادته ، يحرك السكر في كأسه ببطء واعتناء بالغين ، ويذر الملح بصورة منتظمة على الخبز المفضل لديه ، ألا وهو القشرة . أما الأوكراني فكان يحرك قدميه تحت المائدة دون انقطاع ، وهو لا يجد أبداً لقدميه وضعاً مريحاً - يراقب شعاعاً شمسياً يعكسه الشاي المتراقص في قدحه على الجدار والسقف . قال :

— عندما كنت صبياً في العاشرة من عمري خامرتني رغبة ملحة في التقاط ، الشمس بكأسي ، فأخذت قدحاً وأطبقت على بقعة من الشمس - فاذا بالقدح يتحطم . وقد جرحت يدي وجلدت بالاضافة أيضاً . وبعد أن جلدت خرجت إلى الفناء فوقع بصري على الشمس في بركة موحلة ، فأقبلت عليها أدوسها بقدمي بكل ما فيّ من قوى . وواضح أن ثيابي كلها قد تلطخت ، الأمر الذي استأهلت من أجله الجلد مرة ثانية . وكان انتقامي الوحيد من الشمس هو أن أمد لها لساني وأصيح فيها : ذلك لم يؤذني ، أيتها الشيطانة الحمراء الرأس ، ذلك لم يؤذني . وقد كان في ذلك بعض المواساة لي .

وضحك بافل ، وسأل :

— ولماذا أسميتها حمراء الرأس ؟

— كان يقطن في الشارع ، مقابل دارنا ، حداد ضخم الجثة ، أحمر الوجه واللحية ، وكان فتى رقيق القلب عذب النفس ، فلاح لي أن الشمس تشبهه .

ولم تعد الأم تطيق مزيداً ، فقالت :

— لم لا تتحدثان عما ستقومان به اليوم ؟

فقال الأوكراني بلطف :

- إن الحديث عما سيتقرر اتخاذه بشأنه يزيد الأمور اختلاطاً ليس غير.

وإذا حدث واعتقلونا جميعاً ، يا أميمة ، فسيأتي نيقولاي ايفانوفيتش ويحدثك عما ينبغي لك أن تفعلي .

فقالت الأم وهي تتنهد :

— حسناً ..

وقال بافل حالماً :

— ما علينا لو خرجنا الى النزهة ؟ .

فأجاب أندريه :

- الأفضل أن نبقى في الدار الآن . لم تلفت أنظار الشرطة قبل الأوان ؟ إنهم يعرفونك جيداً من دون ذلك .

وجاء فيودور مازين يعدو ، مشرق الوجه ، ملتهب الخدين ، فحطمت حماسته المرحة عناء انتظارهما . قال :

— لقد بدأت الأمور تسير، والناس جميعاً في هياج، يخرجون الى الشوارع بوجوه كالحة أشبه بالفؤوس . وإن فيزوفشيكوف وفاسيا جوزيف وصموئيلوف يخطبون عند بوابات المعمل ، وقد عاد كثير من العمال الى دورهم . هيا بنا ، لقد حان الوقت للذهاب ، وقاربت الساعة العاشرة .

فقال بافل في حزم :

— إني ذاهب .

وقال فيودور :

— سترون كيف أن سائر العمال سيضربون بعد الغداء .

وذهب يعدو ...

قالت الأم :

ـ إنه يلهث مثل شمعة في مهب الريح .

ثم نهضت وجبت الى المطهى لتبدل ثيابها .

ـ الى أين الذهاب ، يا أميمة ؟

فأجابت :

ـ معكما ...

فشد أندريه على شاربه وتطلع الى بافل ، فأرسل الأخير اصابعه بسرعة في شعره وذهب اليها :

ـ لن أقول لك شيئاً يا أماه ، وأنت ... لا تقولي شيئاً ... هل اتفقنا ؟

فغمغمت :

ـ اتفقنا ، اتفقنا ، وليباركك الله ...

* * *

٢٧

عندما أضبحت خارج الدار ، وسمعت الى لغط الاصوات المتحفز المنتظر يرتفع في الهواء ، ورأت تجمهرات الناس عند البوابات وفي نوافذ الدور يتطلعون جميعاً الي ابنها وأندريه بأعين مستقرئة ، انهمرت لطخ خضر تارة ورمادية تارة اخرى تتراقص أمام عينيها بسرعة غريبة .

كان الناس يبادلونها التحية ، فيكمن في الكلمات هذه المرة معنى خاص . وطرق سمعها نتف من الملاحظات التي يتبادلونها بأصوات خافتة هادئة :

ـ ها هما القائدان !

ـ إننا لا نعلم من هم القواد .

ـ إنني لم أعن ضرراً أو إساءة على الاطلاق .

وصحا صوت متهدج من مكان آخر :

ـ إن الشرطة ستعتقلهم ، فينتهي أمرهم .

ـ لقد اعتقلوهم مرة .

وقفز من إحدى النوافذ الى الشارع عويل امرأة جزعة مذعورة :

ـ انتبه لما تقول . فأنت لست عزبا مثلهم .. بل رب عائلة .

مروا أمام دار زوسيموف ، وهو رجل فقد إحدى رجليه ويتقاضى من المصنع مرتباً شهرياً تعويضاً عن آفته التي أصيب بها أثناء العمل . فاذا هو يمد

رأسه من إحدى النوافذ ويصيح :

— بافل ، سوف يدقون لك عنقك يا وغد ، وبذلك تنال ما تستحق .

فارتعدت فرائص الأم وجمدت في مكانها وقد اندلع في نفسها غضب حاد ، وتطلعت الى وجه الأعوج السمين المتورم ، فأخفى هذا رأسه سريعاً وهو يرسل أيماناً مغلظة ... لكن الأم حثت الخطو حتى لحقت بابنها ، ومشت في أعقابه جاهدة لا تتأخر عنه .

كان يبدو على بافل وأندريه أنهما لا يلاحظان شيئاً مما يجري حولهما ، ولا يستحسنان ضروب الملاحظات التي يرميها الناس عند مرورهما . كانا يسيران في هدوء ودون تسرع ، ولم يتوقفا إلا مرة واحدة ، عندما التقيا بسيزونوف ، وهو رجل متوسط العمر ، متواضع ، يحترمه الجميع لأسلوبه المستقيم في الحياة وسيرته الطيبة . سأله بافل :

— وأنت أيضاً لم تذهب الى العمل ، يا دانيلو إيفانوفيتش ؟

— إن زوجتي تنتظر مولوداً . ثم ، بالاضافة الى ذلك ، في مثل هذا اليوم الذي يسيطر القلق فيه على الجميع ...

وتطلع بثبات الى رفيقيه ، وهو يسأل بصوت خافت :

— يقولون إنكم تنوون إزعاج المدير هذا اليوم . . . فتحطمون بعض النوافذ ، أصحيح هذا ؟

فهتف بافل :

— نحن لسنا سكارى .

وقال الأوكراني :

— نحن ننوي السير عبر الشارع بأعلامنا بكل بساطة ، وإنشاد بعض الأغاني. استمع الى أغانينا ، فهي تعبير عن إيماننا .

فقال سيزونوف مفكراً :

ـ إني أعرف إيمانكم من قبل ، ولقد قرأت مناشيركم وصحفكم .

ثم صاح ، وهو يبتسم للأم بعينيه الذكيتين :

ـ آه ، يا بيلاجيا نيلوفنا ، أتنضمين الى العصيان ؟

ـ لا بد لي أن أسير مع العدالة ، ولو مرة واحدة ، قبل أن أموت .

فقال ميرونوف :

ـ عظيم ! يبدو أنهم مصيبون عندما قالوا إنك أنت التي حملت المناشير الى المعمل .

فاستجلى بافل :

ـ من يقول هذا ؟

ـ هم ـ م ! هذا ما يقولون . حسناً ، الى اللقاء ، احترسوا جيداً .

ابتسمت الأم بهدوء ودعة ، كان يسعدها أن يقولوا عنها مثل هذه الأقوال ...

وقال بافل ضاحكاً :

ـ ستنتهين في السجن يوماً ما ، يا أماه ...

استمرت الشمس تتسلق السماء وتكسب دفأها في طراوة اليوم الربيعي المنعشة . وكانت الغيوم تحبو متباطئة وقد ازدادت ظلالها شفافية وشفوفاً ، وراحت تدب في هدوء على طول الشارع وفوق سطوح المنازل ، تظلل الجموع ، وكأنها تريد أن تطهر الضاحية وتنظفها ، فتنفض الغبار والأوساخ عن الجدران والسطوح ، وتمحو الملل والكرب عن وجوه الناس المتعبة . وأضحى كل شيء أكثر بهجة ومرحاً ، فالأصوات تتردد أكثر ارتفاعاً وترنيناً ، تغرق في لجتها جلبة الآلات ، وزفرات المعمل البعيد .

ومرة أخرى ، راحت الكلمات تتطاير وتدب حول أذني الأم منبعثة من النوافذ والباحات : بذيئة مضطربة تارة ، حزينة أو فرحة تارة أخرى .

فتلهف الأم كي تنقضها بالحجة الدامغة، أو توضح الأمور لأولئك الذين يتفوهون بها ، وتعبر عن امتنانها لمن يستحقون منهم الشكر والامتنان تتلهف بصوره عامة كي تشترك في حياة ذلك اليوم الغريب المتباينة الصاخبة .

وكان حشد من الناس يبلغون المائة عداً قد تجمهروا عند زاوية زقاق جانبي يرتفع من بينهم صوت فيزوفشيكوف قائلا :

— إنهم يستنزفون الدماء منا كما يمتصون العصير من الفاكهة .

كانت كلماته تتساقط بعنف وقوة على رؤوس الناس المحتشدين حوله .

وارتفعت ، في الوقت ذاته ، عدة أصوات قاسية تقول :

— هذا صحيح !

وقال الأوكراني :

— إن الفتي يبذل كل جهده ، وأعتقد أني سأذهب لمساعدته .

وقبل أن يتمكن بافل من اعتراض سبيله ، كان جسده المديد المرن قد اندس في الحشد كالمبزل في غطاء الزجاجة الفليني ، وهتف بصوته الثري الرنان :

— أيها الرفاق ، يقولون إن شعوباً مختلفة تقطن الأرض - يهوداً وجرماناً ، انكليزاً وتتاراً . ولكني لا أصدق ذلك . ليس هناك إلا شعبان فقط ، شعبان لا يتوافقان - الغني والفقير . إن الناس يختلفون في لباسهم وفي لغتهم ، لكن انظروا كيف يعامل الغني الفرنسي أو الانكليزي أو الألماني الشعب العامل ، لتتحققوا أنهم جميعاً ، بالنسبة الينا نحن العمال ، أوغاد سفلة ، ألا حلت عليهم لعنة الله .

وضحك شخص بين الحشد ...

— واذا نظرتم من جهة أخرى وجدتم العمال الفرنسيين والتتريين والأتراك يعيشون نفس حياة الكلاب التي نعيشها نحن العمال الروسيين .

وازداد عدد الناس الذين يحومون في الشارع الجانبي ، يمطون أعناقهم ويتطاولون على رؤوس أصابعهم دون أن يتفوهوا بكلمة على الاطلاق .

ورفع أندريه صوته قائلا :

إن العمال في الخارج قد فهموا هذه الحقيقة البسيطة . واليوم ، في الأول من أيار ..

وصاح بعضهم :

— الشرطة !

واندفع أربعة من فرسان الشرطة في الزقاق الجاني بسرعة وعنف وهم يلوّحون بسياطهم ويصرخون :

— تفرّقوا .

وعبس الناس وهم يفسحون باضطرار ، الطريق أمام الجياد المنطلقة ، وتسلق بعضهم فوق الأسوار .

وصاح آخرون في جرأة ووقاحة :

— هذه خنازير على ظهور الجياد تأتينا مزمجرة : افسحوا الطريق فنحن قادة عظام !

وظل الأوكراني واقفاً في وسط الشارع وقد اقبل عليه جوادان يهزان رأسها بقوة ، فوثب جانباً ليفسح لهما سبيلا . عندئذ أمسكت الأم به من يده وجرته وراءها وهي تتمتم :

— وعدت أن تظل الى جانب بافل ، وهذا أنت تفتش من تلقاء نفسك عن المتاعب .

فقال الأوكراني مبتسما :

— ألف ألف معذرة .

سيطر على بيلاجيا تعب مؤلم ينذر بالسوء هب من أعماقها وبلغ رأسها فجعله يسبح في دوار شديد ، وراح يتناوبها إحساس بالفرح والكآبة ، فتشتاق أن تسمع صفير الغداء يدوي معلناً انتصاف النهار .

وبلغوا أخيراً الساحة الكبرى ، حيث تقوم الكنيسة ويحتشد ما يزيد عن خمسمائة شخص من الشبان الرحين والنسوة المذعورات والأطفال الصغار ، بعضهم وقوف وبعضهم جلوس يتزاحمون في هرج ومرج ، ويتطاولون برؤوسهم في قلق ، ويتطلعون بعيداً وهم ينتظرون بفارغ الصبر شيئاً ما . وكان الجو مشحوناً بالانفعال والهياج ، وبعض الناس يبدون كأنهم لا يدرون ماذا يفعلون ، والآخرون يتخذون مظهر الشجاعة والاستخفاف . وكانت أصوات النساء المكتومة ترتفع في اضطراب ، فيستدير الرجال عنهن في ضجر ... ومن حين لآخر تعلو بعض الشتائم الخافتة ، فتحوم فوق الجمهور المتباين المغمور بمزيج ثقيل من العداوة والنفور .

صاحت امرأة بصوت رقيق مرتعش :

– ميتيا ، إشفق على نفسك .

فجاء الجواب مقاطعة :

– دعيني لشأني .

ودوى صوت سيزوف القاسي هادئاً مقتضباً :

– كلا ، إننا لا نريد أن ننفض من حول الفتيان ، فهم أكثر منا إدراكاً وشجاعة أيضاً . من هب يدافع عن مصالحنا في قضية كوبيك المستنقع غيرهم ، وهذا ما يجب ألا ننساه . ولقد ألقي بهم في السجن من أجل ذلك ، بينما أفاد جميعنا من جراء موقفهم .

ودوت الصفارة ، فابتلعت أصوات الناس في هديرها الأسود ، وأرسلت في الحشد موجة من الارتعاش الشديد . وانتفض الذين كانوا يجلسون وقوفاً ، وخيم الصمت لحظة على الجميع ، وقد وقفوا على أهبة الاستعداد ، شاحبة وجوه عدد غفير منهم ..

وارتفع صوت بافل القوي الرنان :

- أيها الرفاق.

ولفح رذاذ حار عيني الأم، فأسرعت بحركة وحيدة سريعة تتخذ مكانها خلف ابنها. واستدار الجميع نحو بافل وأحاطوا به مثل برادة الحديد إذ تنجذب نحو المغناطيس.

تطلعت الأم إلى وجه فتاها تلاحظ عينيه الفخورين، الجريئتين، الملتهبتين بنار متأرثة عظيمة:

- يا إخواني، لقد أزفت الساعة التي ننكر فيها هذه الحياة المفعمة جشعاً وظلمة وبغضاء، حياة الارهاق هذه. حيث لا محل لنا وحيث لا نعتبر كائنات إنسانية، لقد أزفت الساعة لننكر هذه الحياة ونتمرد عليها..

وجنح إلى الصمت، فاشتد ازدحام العمال حوله وهم ينصتون إليه في سكون تام.

- أيها الرفاق، لقد قررنا أن نعلن اليوم للملأ، في صراحة تامة، عن هويتنا؛ وأن نرفع اليوم رايتنا، راية العقل، والعدالة، والحرية...

واندفعت في الفضاء عصاً بيضاء طويلة انتصبت هنيهة ثم هوت وغابت بين الجماهير، فشطرتها وتوارت بينها برهة وجيزة قبل أن ترفرف راية الطبقة العاملة الحمراء، كأجنحة طائر قرمزي كبير، فوق الرؤوس المرتفعة والوجوه الناظرة إلى العلاء.

رفع بافل ذراعه، فخفقت الراية، فاندفعت عشرات الأيدي تمسك الخشب الأبيض الناعم، وكانت يد الأم في عدادها.

هتف بافل بأعلى صوته:

- عاشت الطبقة العاملة..

فزمجرت مئات الأصوات ترجيع هتافه:

- عاش حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي، حزبنا أيها الرفاق، وينبوع أفكارنا.

وثارت حميا الجماهير ، فاندفع الذين أدركوا معنى الراية يشقون طريقهم نحوها . وسرعان ما كان مازين وصموئيلوف والأخوان جوسيف يقفون إلى جانب بافل . وشق نيقولاي طريقه ، منخفض الرأس ، خلال الحشد ، فيما أحست الأم فتى ملتمع العينين لا تعرفه يدفعها جانباً في انطلاقه نحو الراية .

صاح بافل :

ـ عاش عمال العالم ! عاشت الحرية !

فتلقى الجواب صيحة عميقة خرجت من آلاف الحناجر ترن في فرح وقوة ، وتلهب في النفس الحماسة والعزم .

وأمسكت الأم بيد نيقولاي وشخص آخر ، وهي تغص بالعبرات . ولكنها لم تبك ... وراحت ركبتاها ترتجفان ، وهي تغمغم من خلال شفتين مرتعشتين :

ـ يا أعزائي ...

وانتشرت على وجه نيقولاي المجدور ابتسامة عريضة ، وطفق يتمتم بشيء ما ناظراً إلى الراية ، ماداً يده في اتجاهها . وعلى حين غرة ، ألقى بيده هذه على عنق الأم ، واندفع يقبلها ، وهو يضحك أثناء ذلك .

قال الأوكراني ، مقاطعاً زمجرة الحشد ، بلكنة حديثه الأوكراني الرخيمة العذبة :

ـ أيها الرفاق ! لقد نهضنا إلى حرب صليبية جديدة باسم إله جديد ، إله النور والعقل ، إله المحبة والحقيقة ، إن هدفنا الأخير لبعيد جداً ، أما إكليل الشوك ففي متناول اليد . فان فقد أحد الايمان بانتصار الحقيقة ، إن فقد أحد الشجاعة على إعطاء حياته من أجل الحقيقة ، إن ارتاب أحد بقواه الخاصة وانتابه الخوف من العذاب ، فليخرج من صفوفنا إذن ،

وايقف جانباً ... نحن نتوجه إلى أولئك الذين يؤمنون بانتصارنا من دون سواهم، وأولئك الذين لم يدركوا رؤيانا عن المستقبل لا يملكون الحق في المسير معنا ، لأنهم لن يدركوا سوى الحزن والكآبة وحدها . انضموا إلى الصفوف ، أيها الرفاق ! عاش عيد الانسانية الحرة ! عاش أول أيار !

وتكاثف الازدحام شدة ، فرفع بافل الراية عالياً ، فانبسطت وراحت تخفق مغمورة بأشعة الشمس ، إذ سار بها يبتسم ابتسامته العريضة البراقة ...

وشرع فيودور مازين يُنشد :

« فلنتخلص من العالم القديم الى الابد ! »

فانضمت إليه عشرات الأصوات في الشطر الثاني !

« وانفض الغبار عن اقدامنا ! »

كانت الأم تسير وراء مازين ، وابتسامة سعيدة تمرح على شفتيها ، وعيناها تسعيان ـ من وراء فيودور ـ نحو الراية ونحو فتاها . كان كل ما يحيط بها وجوهاً فرحة وعيوناً براقة . بينما ولدها وأندريه يسيران في المقدمة فتستطيع أن تسمع إلى كليهما ينشدان ، وصوت أندريه الجهوري الرنان يذوب مع صوت بافل الخفيض العميق :

« انهضوا الى النضال ، يا أيها العمال ! انهضوا

انهضوا ، يا أيها الجياع ' وثوروا ! .. »

وهرع عدد كبير من الناس لملاقاة الراية عدواً ، وهم يصيحون أثناء ركضهم ، فتنسجم هتافاتهم مع أصداء النشيد ـ ذات ذلك النشيد الذي كانوا يغنون بأصوات مكتومة في المنزل ، والذي يتعالى الآن في الشارع بقوة عنيفة لا تعبأ بالعقبات . كان يتردد بجرأة لا يُكبح لها جماح ، يدعو

الناس إلى الطريق الطويلة المؤدية نحو المستقبل، معلناً لهم في الوقت نفسه - بكل صراحة - مبلغ ما ستكون عليه هذه الطريق من صعوبة وعناء:

«وسنمضي الى لقاء اخوانتا الذين يتألمون.»

كان لهيب النشيد الهادىء يحرق سائر فحوم الماضي السود، ويذيب كل ما ألف الناس من إحساسات تقليدية، ويحيل الخوف من كل جديد في الحياة هباءً منثوراً.

وتأرجح إلى جانب الأم وجه شخص مذعور، لكنه سعيد مغتبط، فيما هتف صوت مرتجف يجهش في البكاء.

— ميتيا، إلى أين أنت ذاهب؟

فقالت الأم، دون أن تتوقف عن المسير:

— دعيه يذهب، ولا تقلقي من أجله. لقد كنت أخاف مثلك في البدء - إن ولدي هناك في المقدمة - وهو الذي يحمل الراية.

وارتفع صوت يقول:

— إلى أين أنتم ذاهبون، أيها المجانين؟ إن الجنود ينتظرون غير بعيد هناك!

وفجأة، أمسكت المرأة الناحلة الطويلة يد الأم بيدها الجافة، وصاحت:

— أواه! إسمعي إليهم كيف ينشدون! يا إلهي، وميتيا ينشد بينهم أيضاً...

فحثتها الأم بقولها

— لا تجزعي! فهذا عمل مقدس. فكري، أكان ثمة مسيح لو لم يلق الناس حتفهم من أجله؟

ولمعت تلك الفكرة، بغتة، خلال ذهنها، وغمرتها بحقيقتها الواضحة البسيطة! فرفعت نظرها نحو وجه المرأة التي لم تفلت بعد يدها، وعادت

تقول وشفتاها تفتران عن ابتسامة دهشة وعجب :

— لو لم يمت الناس من أجل المسيح ، من أجل الرب ، لما كان ثمة مسيح أبداً !

وظهر سيزوف إلى جانبها . قال ، وقد رفع قبعته وراح يلوح بها في الهواء في توافق مع إيقاع النشيد :

إنهم يعملون على المكشوف هذا النهار ، أليس كذلك ؟ وينشدون أغنية ، ويا لها أغنية ، يا أماه ! ما رأيك ؟

« القيصر في حاجة إلى الجنود لحروبه ،

فأرسلوا إليه أبناءكم إذن .. »

قال سيزوف :

إنهم لا يخافون شيئاً ! وابني المسكين ينام في لحده ... لقد قتله المصنع ...

راح قلب الأم يخفق بشدة حتى اضطرت إلى التباطؤ عن الآخرين . وسرعان ما دفعت جانباً ، وألقيت على أحد الأسوار . بينا الناس يتدفقون أمامها مثل موجة شاسعة الأبعاد . كان ثمة عدد لا يحصى منهم ، فامتلأت جوانحها غبطة وسعادة .

« انهضوا إلى النضال ، يا أيها العمال ، انهضوا ! »

كان يتراءى أن بوقاً ضخماً من النحاس يصب ذلك النشيد في الهواء صباً فيوقظ الناس ، ويبعث في بعضهم استعداداً للقتال ، وفي الآخرين فضولاً وتشوقاً لاهبين ، وتوقعاً سعيداً غامضاً لحدث جديد . كان يوقظ هنا آمالاً مترددة ، ويفتح هناك سبيلا واسعاً لما تراكم من الغضب خلال السنين . وكانت كل الأنظار تتطلع إلى حيث ترفرف الراية الحمراء يخفق بها النسيم العليل ويلهو .

زمجر صوت يلتهب حماسة :

- ها هم يسيرون ! ما أروعكم ، أيها الفتيان !

وإذ كان صاحب الهتاف يجيش بأحساس عظيم جداً يصعب التعبير عنه بالكلمات العادية ، فقد طفق يعبر عنه بالأيمان المغلّظة ، ولكن حقداً أعمى أيضاً ، حقد العبودية المظلم ، راح يفحّ كالأفعى التي أزعجها ضياء الشمس ، ويتلوّى في كلمات دنيئة شريرة ...

صاح بعضهم ، من نافذة أحد المنازل ، وهو يهز قبضته في الفضاء :

- يا للهراطقة !

وقرع سمع الأم صوت صارخ ظل يتردد في أذنيها مدة طويلة دون انقطاع :

- يثورون ضد جلالة الامبراطور ، ضد جلالة القيصر ؟ ينظمون عصياناً ؟

كانت تلمح ، في نظرات خاطفة ، وجوهاً مضطربة تتلاحق أمامها ، رجالاً ونساء ينصبون في حشد متزايد الكثافة باستمرار كحمم بركان ثائر ، يجرهم النشيد إلى الأمام دائماً ، فكأن هذا النشيد يجرف كل شيء من أمامه ويجلو الطريق بقوة انطلاقه العاتية . وتصورت وجه ابنها دون أن تراه ، وهي تتطلع إلى الراية الحمراء المرفرفة في المقدمة ، وتخيلت جبينه البرونزي ، وعينيه اللامعتين ، وقد برقت جميعاً بنار الأيمان اللاهبة . واعتلجت في صدرها رغبة عنيفة في أن تصيح بكل هؤلاء الناس حولها ، وبكل ما أوتيت من قوى :

- يا أحبائي ، ما أعزكم جميعاً على قلبي !

وجدت نفسها أخيراً في مؤخرة الموكب ، بين أناس يسيرون على مهل ، ويتطلعون في لا مبالاة المتفرجين الذين يدركون نهاية القصة فلا تثير فضولهم . كانوا يتكلمون بلهجة جدية ، وبقناعة تامة مطلقة :

- ثمة ثلة من الجند معسكرة في المدرسة ، وثلة أخرى في المعمل .

- لقد جاء الحاكم .

— حقاً؟

— لقد رأيته بأم عينيّ، وصل قبل برهة وجيزة.

— لا ريب أنهم طفقوا يرهبوننا، ألا تصوروا – الجنود والحاكم...

وأرسل المتكلم بعض الشتائم المرحة...

وقالت الأم في نفسها:

– يا لكم من نفوس طيبة!

لكن الكلمات التي سمعتها ترددت في نفسها ميتة باردة، فاستحثت خطاها بغية الابتعاد عن هؤلاء القوم، فلم يصعب عليها تجاوزهم، لشدة تماهلهم وتكاسلهم في المسير.

وفجأة، تراجع الموكب إلى الخلف وهو يرسل زمجرة خافتة متوعدة، وكأن مقدمته قد اصطدمت بشيء ما. وارتعش النشيد قليلا، كي يعود فيتصاعد أكثر ارتفاعاً وأسرع نغماً منه قبلاً. ثم عاد الرنين فخبا من جديد، وسكتت الأصوات الواحد تلو الآخر عن الانشاد، وارتفعت هتافات متفرقة هنا وهناك تحاول أن تردّ إلى النشيد عظمته السابقة، وأن تستمر به قدماً:

«انهضوا الى النضال، يا أيها العمال، انهضوا

انهضوا، يا أيها الجياع، وثوروا...»

ولكن هذا الجهد كان ينقصه الارادة المشتركة، والايمان المتراص. وكانت الأصوات فيه مشوبة بالقلق وبشيء من الجزع أيضاً.

ولم تعد الأم ترى شيئاً، ولا استطاعت أن تعرف ما أصاب الموكب في صفوفه الأمامية، فراحت تدفع المشاة جانباً ذات اليمين وذات اليسار، وتشقّ طريقها قدماً إلى الأمام؛ فلا تفتأ تصطدم، في تقدمها، بقوم يتراجعون، وقد عبس بعضهم وطأطأوا الرؤوس، وراح بعضهم الآخر

يبتسمون ابتسامة الفشل والهزيمة ، وفريق ثالث يصفرون ساخرين هازئين . شرعت تتفرس في وجوههم ، وعيناها مليئتان بالاستفهام ، والرجاء والدعاء ...

وارتفع صوت بافل يقول :

— أيها الرفاق ، إن الجنود أناس مثلنا ، ولن يمسونا بسوء . ولمَ يفعلون ذلك ؟ لأننا ننادي بحقيقة تنطبق على الجميع دون تفريق ؟ إنهم يحتاجون إليها مثل حاجتنا ، ولعلهم لم يدركوها بعد . ولكن الزمن الذي ينضمون فيه إلى صفوفنا تحت راية الحرية ، بدلاً من أن يقاومونا تحت راية القتل والسرقة ، هذا الزمن ليس ببعيد ... وينبغي لنا ، كي نعجل في إدراكهم لهذه الحقيقة ، أن نتابع مسيرنا إلى الأمام . إلى الأمام ، أيها الرفاق ، إلى الأمام .

كان صوت بافل يتردد في ثبات وعزم ، وكلماته ترن حادة واضحة ، ومع ذلك انفرط عقد الحشد . وأخذ الناس ، الواحد تلو الآخر ، يتركون الصفوف ويتجهون إلى البيوت أو يستندون إلى الأسوار . واتخذ الموكب الآن شكل الاسفين وبافل في رأسه ، ترفرف الراية الحمراء بتألق فوق رأسه . أو لعل الموكب كان يشبه بالأحرى طيراً أسود منشور الجناحين يتهيأ للطيران . وكان بافل يمثل منقار ذلك الطير ...

* * *

٢٨

رأت الأم ، في نهاية الشارع، جداراً رمادياً رتيباً مؤلفاً من اناس لا وجوه لهم يسدون المنفذ الى الساحة العامة ، يند عن كتف كل واحد منهم لمعان حربة رقيقة باردة . وكان ذلك السور الصامت العديم الحركة ينفث ريحاً باردة تغمر العمال وترسل في قلب الأم قشعريرة عنيفة .

شقت طريقها بين الحشد ساعية الى بلوغ الزاوية ، والالتحاق بالقوم الذين تعرفهم ، والذين اختلطوا بقوم آخرين لا تعرفهم وكأنهم ينتظرون العون منهم ، فاذا هي تلتصق برجل أعور ، طويل القامة ، حليق الذقن ، التفت نحوها نصف التفاتة ينظر اليها من طرف عينه ، ثم قال :

— ماذا تريدين ؟ من أنت ؟

فقالت ، وهي تحس رجفاناً في ركبتيها ، وعجزاً عن ضبط شفتها السفلى :

إني أم بافل فلاسوف .

فأبان الرجل الأعور :

- آه !

هتف بافل :

— أيها الرفاق ، يجب أن نستمر على التقدم الى الأمام طوال حياتنا ، وليس هناك أي اتجاه آخر أمامنا .

وأضحى الجو هادئاً متحفزاً ، وارتفعت الراية عالياً في الهواء ، وترنحت لحظة قصيرة ، ثم خفقت فوق رؤوس القوم وهي تنطلق بثبات واستقامة نحو جدار الجنود الرمادي ، فارتجفت الأم وأغمضت عينيها وهي ترسل أنيناً عالياً ... إن أربعة أشخاص ليس غيره،هم بافل وأندريه وصموئيلوف ومازين ، قد انفصلوا عن الحشد المتجمهر .

واخترق الهواء صوت مازين الواضح رناناً هادئاً :

« لقد سقطتم ضحايا نبيلة . »

فارتفع الجواب ، مثل زفرة عميقة من عدة أصوات خافتة ، وكأنه أنين ثقيل :

« في هذا القتال الرهيب .. »

وتقدم الأربعة في خطوات موزونة مع لحن النشيد ...

وتدحرج صوت فيودور مثل شريط لامع ، طافحاً عزماً وهو يعلن في ثبات وقوة :

« لقد أعطيتم كل ما تملكون . »

فانضمت اليه أصوات رفاقه في البيت التالي :

« في سبيل الحرية ... »

فصاح بعضهم في وقاحة وخبث :

ـ آه ، إنهم ينشدون مرثاة ، أبناء الكلاب هؤلاء .

فهتف صوت غاضب :

ـ حطموا له حنكه ، هذا اللعين .

ضغطت الأم يديها على صدرها وتطلعت حولها . فوجدت الجماهير التي كانت

تغمر الشارع بأسره قبل قليل ، قد ثبتت في مراكزها الآن مترددة تراقب الأربعة وهم يتقدمون برايتهم ، فلا يلحق بهم إلا بضع عشرات من الناس فقط ، يتخلف واحد منهم في كل خطوة ، فكأن بلاط الشارع يلتهب ويجرف نعال أحذيتهم .

« ولسوف يوضع الدنف حد ... »

تنبأ النشيد بذلك على لسان فيودور . فردَّ عليه جوق من الأصوات القوية العنيفة يقول في لهجة وعيد :

« وسينهض الشعب من غفوته .. »

لكن همساً حذراً كان يمتزج بالنشيد :

إن القائد يتأهب لاصدار أوامره .

وفي اللحظة نفسها ، علا صراخ حاد في المقدمة يأمر :

— خفضوا البنادق .

فخفضت الحراب في موجة واحدة واستقبلت الراية بابتسامة فولاذية ماكرة :

— الى الأمام سر !

فقال الرجل الأعور وهو يدسّ يديه في جيبيه ويمضي بخطاً واسعة الى جانب الطريق :

— ها هم قد انطلقوا .

وراحت الأم ترقب ما يجري أمام عينيها دون أن يرتعش لها جفن .

لقد انتشرت موجة الجنود الرمادية على عرض الشارع كله ، وطفقت تتقدم في حزم بارد ، يلتمع المشط الفضي في مقدمتها . وأهذبت الأم ، بخطوات سريعة قليلة ، تقترب من ابنها ، فرأت أندريه يتقدم الى الأمام منه يحميه بجسده

الحديد . بيد أن بافل صاح به في حدة وقسوة بالغتين :

ــ عد إلى مكانك أيها الرفيق .

كان أندريه يتشد وقد ألقى برأسه الى الخلف ، ووضع يديه خلف ظهره ، فدفعه بافل بكتفه ، وصاح مرة أخرى :

ــ عد الى مكانك ، فليس لك الحق في أن تفعل هذا . يجب أن تكون الراية في الطليعة ؟

وصاح ضابط قصير بلهجة الآمر ، وهو يسحب سيفه من غمده :

ــ تفرَّقوا .

كان يسير وهو يرفع قدميه عالياً ، دون أن يثني ركبتيه ، ضارباً الأرض بعنف وقسوة بنعليْ حذائه . ولفت أنظار الأم لمعان هذا الحذاء .

وكان رجل طويل ، أملس الشعر ، رمادي الشارب الكثّ ، يسير الى جانبه ، متأخراً عنه قليلا ، يرتدي معطفاً رمادياً طويلا أحمر الطوق ، وسروالاً عريضاً يمتد على جانبيه شريط أصفر ، كان يتقدم ويداه خلف ظهره ، مثل الأوكراني تماماً ، وعيناه مثبتتان في بافل ، وحاجباه الكثيفان مرتفعان في تقطيبة استياء .

ولم تستطع نظرة الأم أن تشمل كل ما تراه عيناها . أما صدرها فقد امتلأ بصيحة عالية تهدد في كل زفير ، أن تفلت منفجرة بقوة وعنف . . . وكانت تلك الصيحة تضيق الخناق عليها فتضغط على صدرها بشدة لتردها وتمنعها من الانطلاق . . . وزاح الناس يتدافعونها . . . فتمايل يمنة ويسرة ، وهي تتقدم دون تفكير ، بل دون وعي تقريباً . . . وأحست الحشد يهزل من ورائها دون انقطاع ، فكأنما تلك الموجة الباردة الزاحفة للاقائه تبعثره وتكنسه . .

ــ تقدمت الجماعة ذات الراية الحمراء الى الأمام قدماً ، فيما الموجة الصلبة



« وسينهض الشعب من غفوته ... »

المصنوعة من القوم الرماديين تقترب كذلك باستمرار حتى استطاعت الأم رؤية وجهها ، هذا الوجه المشوه الذي تهشم الى شريط وسخ أصفر اللون ينتشر على عرض الشارع كله ، تنقطه هنـا وهناك أعين متباينة الألوان . والى الأمام منهم كانت سنان الفولاذ الرهيبة تلتمع ، وهي مصوبة نحو صدور المشـاة تقطعهم الواحد في إثر الآخر حتى قبل أن تمسهم ، فتفرق الجماهير بذلك وتشتتها .

وسمعت الأم أناساً يتراكضون خلفها ، وأصواتاً مضطربه تصيح :

– تفرقوا ، أيها الفتيان .

– أهرب يا فلاسوف .

– عدْ يا بافل .

وقال فيزوفشيكوف في كآبة :

– أنزل الراية يا بافل ، أعطني إياها وسأخفيها .

وأمسك بالعصا . فاضطربت الراية ومالت الى الخلف قليلاً ...

وزعق بافل :

– اتركها .

فرد نيقولاي يده الى الخلف وكأن لهيباً محرقاً قد أصابها . ومات النشيد ، وتوقف القوم عن المسير وقد أحاطوا بافل والرايه ، بيد أنه شق طريقه من جديد قدماً . وعلى حين غرة ، ساد صمت مطبق فكأنه وقع من علٍ ولف الجميع في سحابة شفافة غير منظورة .

كان ثمة عشرون رجلاً تقريباً ـ لا أكثر ـ يحتفون بالراية ، قد ثبتوا في مراكزهم في عزم وتصميم . وجذبت الأم اليهم يدفعها ما يعمر قلبها من قلق عارم وتستحثها رغبة غامضة في أن تقول لهم شيئاً ما .

قال الرجل العجوز الطويل ، مشيراً الى الراية :

ـــ أيها الملازم ، خذْ هذا الشيء منه .

فركض الملازم القصير الى بافل وأمسك بالراية ، ازعقاً :

ـــ أعطني هذه .

ـــ فقال بافل بصوت مرتفع :

ـ إرفع يديك عنها .

واضطربت الراية ، برّاقة ، في الفضاء ؛ وتمايلت ذات اليمين وذات اليسار، ثم عادت فارتفعت مستقيمة من جديد ، بينا قفز الملازم القصير الى الوراء بعنف ثم وقع أرضاً . وركض نيقولاي أمام الأم وهو يهز قبضته .

صاح الرجل العجوز ، وهو يضرب الأرض بقدمه :

ـــ ألقوا القبض عليهم .

فركض عدة جنود الى الأمام ، ولوّح أحدهم بعقب بندقيته . . . فترنحت الراية ، ثم سقطت الى الأمام ، واختفت في كتله الجنود الرمادية .

وهتف بعضهم في مرارة :

ـــ آه !

وأطلقت الأم عويل حيوان جريح ، فجاء صوت بافل الواضح من بين الجنود يردّ عليها :

ـــ الى اللقاء ، يا أماه ؛ الى اللقاء ، يا حبيبتي .

وانبثقت في خاطر الأم فكرتان : إنه لما يزل حياً ، وهو يذكرني .

ـــ الى اللقاء ، يا أميمتي .

فتطاولت الأم على رؤوس أصابعها كي تلمحها مرة أخيرة ، فرأت من فوق رؤوس الجنود وجه أندريه . كان يبتسم وينحني لها .

صاحت :

- آه ، يا عزيزي .. أندريوشا .. پاشا ..

فهتفت كلاهما من بين الجنود :

— الى اللقاء ، أيها الرفاق .

فأجابها صدى متعدد الموجات ، انطلق من النوافذ ، ومن مكان الى الأعلى منها ، ومن السطوح ذاتها ...

* * *

٢٩

دنعها بعضهم في صدرها ، فتبينت من خلال السحابة التي تغشى عينيها وجه الضابط القصير الأحمر المنتفخ . كان يقف أمامها ويصيح :

— هيا تواري ، يا امرأة .

فغمرته بنظراتها ، وبصرت بعصا الراية محطمة عند قدميه وقد علقت بإحدى نهايتيها قطعة من القماش الأحمر . فانحنت مسرعة وتناولتها . لكن الضابط انتزعها من يدها ورماها جانباً وهو يزمجر ويضرب الأرض بقدميه :

إذهبي ، أقول لك .

فارتفع من بين الجنود إنشاد مجلجل :

« انهضوا إلى النضال ، يا أيها العمال ، انهضوا »

فترنح كل شيء ، وسبح وارتجف ، وامتلأ الجو بزمجرة متوعدة أشبه بطنين الأشرطة البرقية . واندفع الضابط هادراً في غضب :

— كفوا عن الانشاد ... أيها الرقيب كريتوف ...

واندفعت الأم ، مترنحة ، إلى حيث ألقي بقطعة الراية والتقطتها من جديد :

— تبدد لهم حلوقهم الفاجرة .

... وتخلخلت الأغنية ، وارتعشت ، ثم تقطعت وتلاشت ... وأمسك بعضهم بالأم من كتفيها وأدارها ثم راح يدفعها في ظهرها قائلا :

ـ إمضي ، إمضي .

وزعق الضابط :

ـ هيا ، تفرقوا واتركوا الشارع .

والتقت الأم ، على بعد عشر خطوات ، بحشد آخر من الناس . كانوا يرسلون الصياح ، والشتائم ، والصفير ، وهم يعودون أدراجهم عبر الشارع ويختفون في باحات المنازل .

صاح جندي شاب مرسل الشاربين في أذن الأم تقريباً ، وهو يدفعها جانباً نحو الرصيف :

ـ هيا تحركي ، أيتها الشيطانة ..

سارت الأم وهي تعتمد عصا الرايـة مسترخية الركبتين ، وتتمسك بيدها الأخرى بالأسوار وجدران الدور حتى لا تسقط أرضاً . واستمر الناس يتراجعون إلى الأمام منها ، والجنود يسيرون إلى جانبها وإلى الوراء منها ، وهم يصيحون دون انقطاع :

ـ إمضي ، إمضي .

تركت الجنود يتجاوزونها ، ثم توقفت وألقت حواليها نظرة فاحصة . كان أفراد آخرون من الجنود يقفون في صف واحد في نهاية الشارع يسدون مدخل الساحة الكبيرة المقفرة ، وإلى الأمام كانت الأجساد الرمادية تتقدم ببطء مقتربة من الناس المتقهقرين .

واشتاقت أن تعود على أعقابها ، لكنها شرعت مرة أخرى ، دون وعي منها أو إرادة ، تسير قدماً حتى بلغت زقاقاً جانبياً ، ضيقاً خالياً ، فانعطفت فيه .

وقفت فيه مرة أخرى ، وصعّدت زفرة عميقة ، وأصاخت بسمعها . كانت همهمة حشد من الناس تبلغ أذنيها ، آتية من مكان ما ، هناك ، غير بعيد عنها ...

وانطلقت من جديد ، تتوكأ على العصا دائماً ، منقطعة الأنفاس هذه

المرة ، يرتجف حاجباها ، وتتحرك شفتاها ، وتضطرب يداها في حركات متناسقة ، بينا كلمات ملتهبة تومض كلمعان البرق خلال ذهنها ، وهي تنمو حجماً باستمرار ، حتى اندلعت في لهيب رغبة جموح عاتية تطلب البوح بتلك الكلمات ، والهتاف بها عالياً ، على رؤوس الأشهاد .

وانعطف الزقاق الجانبي ، بغتة ، إلى اليسار . . وعند الزاوية بصرت الأم بجمع غفير من النـاس .

قال بعضهم بصوت مرتفع قوي النبرات :

— المرء لا يتقدم لملاقات صف من الحراب من أجل التسلية وحدها ، أيها الاخوان .

— يا إلهي ! أنظرتم إليهم بالرغم من ذلك ؟ كانت الحراب تتجه نحوهم مباشرة . وهم يقفون هنـاك ، ثابتين كالجبل ، أيها الاخوان ، ولا أثر للخوف في قلوبهم .

— إن بافل فلاسوف بطل مقدام ؟

— والأوكراني ؟

— يداه وراء ظهره ، وهو يبتسم طوال الوقت ، ذلك الشيطان !

صاحت الأم ، وهي تشق طريقها إلى وسطهم :

— أيها الأصدقاء !

فتنحى الناس ، في احترام ، يوسعون لها الطريق . وضحك أحدهم وقال :

— أنظروا ، لقد أخذت الراية ، إن الراية بين يديها .

فنبر صوت في جفوة :

— صمتاً !

فتحت الأم ذراعيها واسعتين ، وراحت تقول :

— إسمعوا ، محبة بالمسيح ! أنتم جميعاً أيها الناس الطيبون ، أنتم جميعاً

أيها الناس الأعزاء ، افتحوا عيونكم جيداً وانظروا دون ذعر إلى ما حدث اليوم . إن أولادنا ، فلذات أكبادنا ، قد خرجوا إلى العالم باسم العدالة — العدالة لسائر الناس . خرجوا في سبيلهم جميعاً ... وفي سبيل أولادكم الذين لم يولدوا بعد — ولقد حملوا هذا الصليب ، سعياً وراء أيام أكثر إشراقاً . إنهم يريدون حياة أخرى — الحياة في الحقيقة والعدالة ، وإنه الخير العميم للشعب بأسره ما يطلبون .

كان قلبها يتأرث في صدرها ، وحنجرتها ملتهبة جافة . وفي أعماق أعماقها كانت كلمات جديدة عظيمة تولد ، كلمات حب يضمّ كل شيء في أحضانه ويغمر سائر الكائنات ، فتلذع لسانها لذعاً تضطره قسراً إلى النطق في حرية وقوة تعبير تتضاعفان باستمرار .

واستطاعت أن تراهم ينصتون جميعاً في صمت وهدوء ، وأدركت أن هؤلاء المتجمهرين حولها يفكرون ، فولدت في داخلها رغبة أضحت الآن تعيها بكل وضوح ، رغبة تناديها أن تحثهم وتدفعهم نحو ابنها وأندريه وسائر أولئك الفتيان الذين تركوهم وحدهم وقفلوا راجعين .

استرسلت تقول في قوة وعذوبة ، وهي تتفرس في الوجوه العابسة المنتبهة المحتفة بها :

— إن أبناءنا قد خرجوا قدماً إلى العالم يبحثون عن الفرح ويفتشون . وفي سبيل الجميع خرجوا ، وفي سبيل حقيقة المسيح أيضاً . إنهم يسيرون ضد كل شيء يخنقنا به أشرار هذ العالم الكاذبون الجشعون ، ويقيدون أيدينا ويجلدون ظهورنا بواسطته .. أيها القوم الأعزاء ، إن أبناءنا قد نهضوا في سبيل كل هذا ، في سبيل العالم أجمع ، في سبيل العمال حيثما وجدوا . لا تتركوهم . لا تنكروهم ، لا تجبروا أبناءكم على الذهاب في الطريق وحيدين منفردين . إرحموا أنفسكم ، وثقوا وآمنوا بقلوب أبنائكم

الذين أعطوا الحقيقة مولداً ، هذه الحقيقة التي يضحون بحياتهم في سبيلها بكل طيبة خاطر ... آمنوا بهم ...

وتكسّر صوتها ، وترنحت خائرة القوى تكاد أن يُغمى عليها ، إلا أن بعضهم أسرع يمسك بها ويسندها .

صاح أحدهم بصوت مضطرب منفعل :

- هذا صوت الله يتكلم ، أيها القوم الطيبون ، إنه صوت الله فاسمعوا !

وقال آخر في لطف وحنان :

- أنظروا كيف تعذّب نفسها !

فأجاب آخر :

- إنها لا تعذب نفسها ، بل نحن الذين نتعذب . يا لنا من مجانين . لقد حان الوقت كي نفهم هذا .

وصاحت امرأة بصوت مرتفع يرتعش :

- أيها المسيحيون المؤمنون ، إن ولدي ميتيا ... روح طاهرة نقية . ماذا ارتكب من شر ؟ لقد لحق برفاقه ، هم الذين يحبهم . إنها تقول الحقيقة ... لماذا يجب أن نتخلى عن أبنائنا ؟ ما هو هو الخطأ الذي ارتكبوه !

طفقت الأم ترتجف حين سمعت هذه الكلمات ، وراحت تبكي في هدوء وسكينة ...

قال سيزوف :

- إمضي إلى البيت ، يا بيلاجيا نيلوفنا . إمضي أيتها الأم ، لقد كفاك ما لاقيته اليوم .

كان محياه شاحباً ولحيته مشعثة . انتصب فجأة ، وألقى حواليه نظرة صارمة ، ثم قال بلهجة مؤثرة :

- إنكم تعرفون جميعاً كيف قتل ابني ماتفي في المعمل . ولكنه لو

كان حياً ، لأرسلته بنفسي وراء هؤلاء الآخرين ، وقلت له بنفسي إذن : إذهب أنت الآخر يا ماتي ، فهذه هي الطريق الحقـة الوحيدة ، الطريق الشريفة الوحيدة .

جنح إلى الصمت ، فأضبّ الباقون جميعاً وفي سيماهم كآبة ، يعتصرهم شيء جديد جبار لم يعودوا يخافون منه أبداً ... وهزّ سيزوف قبضته في الهواء ، وتابع :

— إنه اشيخ عجوز هذا الذي يخاطبكم ، وأنتم جميعاً تعرفونني . إني أعيش على هذه الأرض منذ ثلاثة وخمسين عاماً ، وأعمل هنا منذ تسعة وثلاثين . وفي هذا اليوم اعتقلوا ابن أخي مرة أخرى ، وهو فتى طيب ذكي . لقد كان ، هو الآخر ، يسير في المقدمة إلى جانب فلاسوف ، ووراء الراية تماماً ...

وتراخى بحركة من يده ، ثم أمسك بيد الأم وأضاف :

— إن ما قالت هذه المرأة هو الحقيقة بعينها . يريد أبناؤنا أن يعيشوا شرفاء ، بحسب العقل والمنطق ، ومع ذلك فقد تخلينا عنهم . لقد هربنا ، هذا أمر لا يمكن إنـكاره . تعالي ، يا بيلاجيا نيلوفنا .

فأذاعت ، وهي تنظر حولها بعينين محمرتين من البكاء :

— أيها القوم الطيبون ، إن الحياة هي لأبنائنا ، والأرض لهم أيضاً .

فقال سيزوف ، وهو يناولها ما تبقى من الراية :

— تعالي ، يا بيلاجيا نيلوفنا . خذي ، هذه عصاك .

وأخذ الناس يراقبون الأم في ألم واحترام وهم يشيعونها بدوي من الملاحظات المشفقة . وشق سيزوف الطريق أمامها في سكون ، والناس يتنحون لهـا جانباً دون أن ينطقوا بكلمة واحـدة ... ثم لحقوا بها ، تجذبهم قوة غامضة على طول الشارع ، وهم يتبادلون أثناء ذلك بعض الملاحظات بأصوات خافتة هامسة .

وعندما بلغوا بوابة بيتها استدارت إليهم ، وانحنت وهي تعتمد على العصا ، ثم قالت بنغمة رقيقة تطفح امتناناً :

ــ شكراً لكم .

وإذ تذكرت مرة اخرى تلك الفكرة الجديدة ، الفكرة الجديدة التي خيل إليها أنها ولدت في أعماق قلبها ، أضافت :

ــ ما وُجد الرب يسوع لو لم يقدم البشر حياتهم في سبيل مجده .

فنظر الحشد إليها في صمت وهدوء ...

انحنت مرة أخرى لهم ، ثم دلفت إلى دارها ، فخفض سيزوف رأسه ولحق بها ...

وبقي الناس حيناً عند البوابة يتحدثون .

ثم انصرفوا في خطاً بطيئة متثاقلة ...

* * *

القسم الثاني

١

انقضت بقية النهار في ضباب كثيف من الذكريات وفي عناء مثقل أطبق على روحها وجسدها جميعاً . كانت بقعة رمادية تمثل الضابط القصير تتراقص أمام عينيها ، والى جانبها يضيء محيا بافل البرونزي ، وتبتسم عينا أندريه الضاحكتان .

هامت على وجهها في أرجاء الغرفة ، تجلس الى النافذة تارة تتطلع الى الشارع ، ثم تنهض من جديد تتيه في الغرفة معقودة الحاجبين ، تجفل لدى أقل ضجة وهي تتطلع هنا وهناك على غير هدى ، أو تبحث شاردة الذهن عن شيء ما . وأقبلت على الماء تعب منه ، فلا يروي ظمأها ، ولا يطفىء ذلك الأتون من الأذية واللهفة المستعر في صدرها . لقد فلق اليوم الى شطرين ، كان الشطر الأول منها يملك معنى ومحتوى ، ولكن كل المعنى قد تبخر من الشطر الثاني وتلاشى ، فاذا هي بفراغ يائس مؤلم يفغر الآن فاه أمامها ، ويبعث فيها هذا السؤال صارخاً دون أن يتلقى جواباً :

— ما العمل الآن ؟ ...

وجاءت كورزونوفا تزورها ، فلوحت بيديها وأكثرت من الصراخ ، وبكت واستغرقت في حماسة عظيمة ، وضربت الأرض بقدميها ، وتوعدت شخصاً ما ، وتعهدت بأمور عديدة ، وقدمت الاقتراحات تترى ، غير أن شيئاً من

كل هذا لم يحرك في الأم ساكناً .

صاحت البائعة بصوتها الحاد :

- نعم ، لقد وخزهم ذلك ، الناس ، أخيراً ، فهبوا جميعاً . ألم تري ذلك ؟ لقد نهض المعمل غاضباً ، المعمل كله ...

فقالت الأم في هدوء ، وهي تهز رأسها :

- بلى .

كانت عيناها معلقتين بكل ما أصبح جزءاً من الماضي ، بسائر الأمور التي ذهبت مع بافل وأندريه وخلفتها وراءها . ولم تستطع الى البكاء سبيلاً ، فقلبها قد انقبض واعتصر وجف تماماً . وكذلك يبست شفتاها جافتين ، ونأت الرطوبة عن فمها . وراحت يداها ترتجفان ، وقشعريرات صغيرة تتلاحق على طول ظهرها .

وجاء الدرك ذلك المساء ، فاستقبلتهم دون دهشة أو جزع . دخلوا المنزل في جلبة عظيمة ، تبدو عليهم علائم الغبطة والرضى ، ثم كشر الضابط الأصفر الوجه عن أسنانه مبتسماً وقال :

- كيف حالك ؟ هذه هي المرة الثالثة التي نلتقي فيها ، إن لم أك مخطئاً . أليس كذلك ؟

فلزمت الصمت ، واكتفت بامرار لسانها الجاف على شفتيها .

أكثر الضابط من الحديث في غطرسة وعجرفة لا حدود لها . وأدركت الأم أن الحديث يروقه فيبتهج بسماع ما تنطق به شفتاه ، فلم تزعجها كلماته على الاطلاق ، لا بل لم تكن تبلغ منها سمعاً ، اللهم إلا عندما قال :

- إنك ، أنت أيضاً ، مسؤولة يا أم ؛ لأنك لم تحسني تلقين ابنك الاحترام الواجب عليه تجاه الله والقيصر .

فأجابته في جفوة ، من حيث كانت تقف قرب الباب :

- إن أبناءنا هم قضاتنا ، ولسوف يدينوننا كما نستحق لأننا انفضضنا من حولهم وهم يسلكون مثل هذه الدرب العسيرة .

فصاح الضابط :

- ماذا ؟ تكلمي بصوت أعلى .

فأجابت الأم وهي تتنهد :

- قلت إن أبناءنا هم قضاتنا .

فغمغم شيئاً في سرعة وغضب ، لكن إعصار كلماته أخطأ الأم ولم ينل منها مأرباً ..

واستدعيت ماريا كورزونوفا لتكون شاهدة على التفتيش ، فوقفت إلى جانب الأم دون أن تنظر إليها ، كانت تنحني كثيراً ، كلما توجه الضابط إليها بسؤال ما، وتردد على الدوام ذات الجواب بذات اللهجة الرتيبة :

- لا أدري ، يا صاحب السعادة،فأنا امرأة جاهلة أكسب خبزي بتجارتي، وحمقاء حتى لا أعرف شيئاً على الاطلاق .

فيصيح الضابط بها وهو يفتل شاربه :

- حسناً ، أمسكي لسانك عن الكلام .

فتنحني مرة أخرى ، حتى إذا أدار ظهره،لوت له أنفها، وهمست في أذن الأم :

- هذه من أجله .

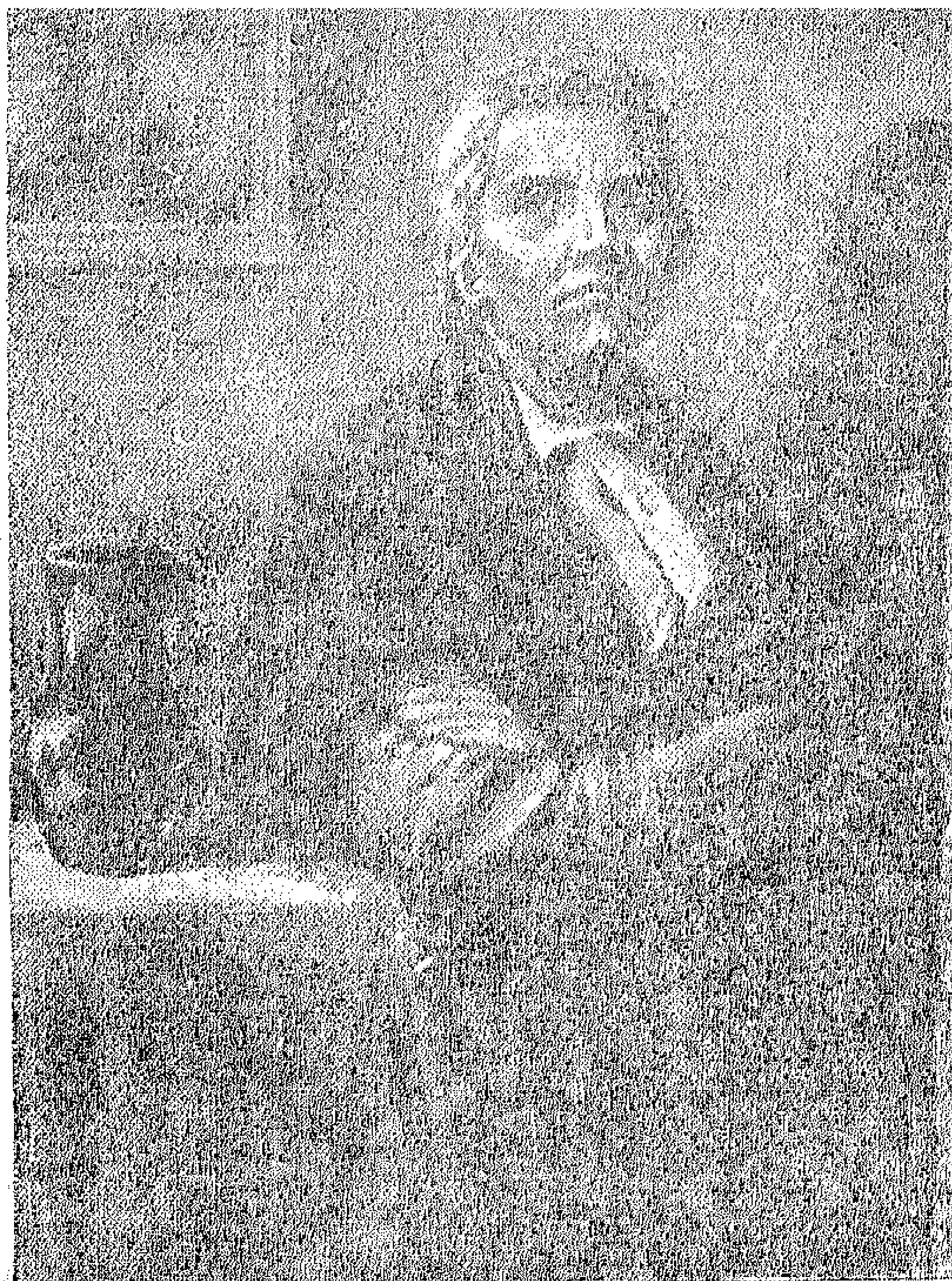
وعندما أمرت أن تجرى بيلاجيا ، راحت تطرف بعينيها ، وتشخص في ذهول الى الضابط وهي تقول بصوت مذعور :

- أواه ! ولكني لا أعلم كيف أقوم بمثل هذا العمل، يا صاحب السعادة .

فضرب الأرض بقدمه وصرخ في وجهها ، فأسبلت ماريا جفنيها وقالت للأم بصوت خافت :

- حسناً إذن ، الأفضل أن تفكي أزرارك ، يا بيلاجيا نيلوفنا .

واصطبغ وجهها باللون القرمزي،وهي تتحسس بيديها ملابس الأم وتهمس:
ـ تفو ... يا لهم من كلاب أوغاد.
فصاح الضابط، وهو يختلس النظر الى الزاوية حيث كانت تنجز المهمة الموكلة اليها:
ـ ماذا تقولين؟
فتمتمت ماريا بصوت مذعور:
ـ تلك أمور نسائية يا صاحب السعادة.
وأخيراً أمر الأم أن توقع الأوراق، فخطت يدها غير المجربة هذه الكلمات بأحرف مطبعية عريضة: بيلاجيا نيلوفنا فلاسوف، أرملة رجل عامل.
فزمجر الضابط مكشراً:
ـ ما هذا الذي كتبت هنا؟ لماذا كتبت هذا؟
ثم أضاف، وهو يرسل ضحكة ازدراء قصيرة:
ـ يا لكم من برابرة!
وذهبوا، فبقيت الأم قرب النافذة، وذراعاها متصالبتان فوق صدرها، تشخص في المدى البعيد أمامها دون أن تطرف عيناها، ودون ان ترى شيئاً على الاطلاق، وقد ارتفع حاجباها، وانضمت شفتاها، وانطبق فكاها بعزم وقوة حتى أحست سريعاً الألم ينتابها وجف المصباح الزيتي، فأخذت الفتيلة تنوص، والشعلة ترتجف وتتضاءل، فأطفأته الأم وبقيت في الظلمة الحالكة. كان صدرها يطفح بشوق لا هدف له، يشدد الخناق عليها حتى يمنع قلبها عن الخفقان. ولبثت واقفة على قدميها في سكون، لا تبدي حراكاً، حتى آلمتها عيناها وقدماها معاً. عندئذ سمعت ماريا ترد النافذة وتناديها بصوت ثمل:
ـ أنت نائمة، يا بيلاجيا؟ يالك شهيدة منكودة الحظ... هيا اذهبي



• وذهبوا ، فبقيت الأم قرب النافذة

الى فراشك .

فرقدت الأم دون أن تخلع ثيابها ، وما أسرع أن غرقت في نوم عميق غمرها مثل مياه بركة واسعة .

ورأت ، فيما يرى النائم ، أنها تجتاز هضبة رملية صفراء تقع وراء المستنقعات ، على الطريق المؤدية الى المدينة . وكان بافل يقف على شفا جرف يستخرج بعض العمال الرمال منه ، وهو ينشد بصوت أندريه الهادىء الموسيقي :

« انهضوا الى النضال ، يا أيها العمال ، انهضوا ... »

أخذت تمر من أمام الهضبة ، تتطلع الى ابنها وهي تضغط جبينها بإحدى يديها . وكانت صورته تتجلى بوضوح وجلاء تامين على صفحة السماء الزرقاء ، وهي لا تجسر على الدنوّ منه خجلاً ، لأنها كانت حاملاً ، كما أنها تحمل في ذات الوقت طفلا بين ذراعيها . وتابعت المسير حتى بلغت حقلا يلعب فيه بعض الأولاد بطابة كبيرة . كانوا كثرة ، وكانت الطابة حمراء اللون ، فراح الطفل بين ذراعيها يتطاول طلباً للكرة وقد أجهش باكياً . فأعطته ثديها وعادت أدراجها .

لكن ثمة جنوداً كانوا يحتلون الهضبة هذه المرة ، وقد صوبوا حرابهم نحوها ، فأسرعت تعدو نحو كنيسة تنهض في وسط أحد الحقول ، كنيسة بيضاء ، أثرية ، ترتفع عالياً جداً في الجو وتبدو كأنها شيدت من السحب وحدها . وكان الناس يقيمون فيها مأتماً ، والنعش كبيراً جداً ، أسود اللون ، مغلقاً بأحكام تام . وكان الكاهن والشماس يتجولان في أرجاء الكنيسة مرتديين ثياباً بيضاء ، وهما يرتلان :

هللويا ، المسيح قام ...

وانحنى الشماس مبتسما لها وهو يهز المبخرة في يده . كان أحمر الشعر برّاقه ،

ذا محيا جميل أشبه ما يكون بوجه صموئيلوف . وكانت أشعة عريضة من نور الشمس تسقط كأوشحة بيض من عل حيث الأبراج تضيع في السماء .

وفي كلا المنصتين بعض الأطفال يرتلون :

هللويا ، المسيح قام ...

وصاح الكاهن فجأة ، وهو يقف في وسط الكنيسة :

— ألقوا القبض عليهم .

واختفت ثيابه البيضاء ، وبدا شارب أشيب كثيف فوق شفتيه العليا . فأطلق الجميع سيقانهم للريح ، بما فيهم الشماس الذي طرح المبخرة جانباً وولى الأدبار هارباً وقد أمسك رأسه بكلتا يديه على طريقة الأوكراني . وألقت الأم طفلها عند أقدام القوم الهاربين ، لكنهم تجنبوه وهم يختلسون النظر بأعين مذعورة الى جسده العاري ؛ فيما جثت هي على ركبتيها وراحت تصيح بهم :

— لا تتركوا الطفل ، خذوه معكم .

ورتل الأوكراني وهو يبتسم ، مخفياً يديه وراء ظهره :

هللويا ، المسيح قام .

فانحنت والتقطت الطفل ووضعته في عربة محملة بألواح من الخشب ، يسير فيزوفشيكوف بتماهل الى جانبها وهو يضحك ويقول :

— وهكذا فقد أعطوني عملا ثقيلا ...

كانت الطرقات وسخة موحلة ، ومن نوافذ البيوت يطل بعض الناس وهم يصيحون ، ويصفرون ، ويلوحون بأيديهم . وكان الطقس صافياً ، والشمس تشع بهاء ، وليس من أثر للظل في أي مكان .

صاح الأوكراني :

– رتلي ، يا أميمتي ! هكذا هي الحياة .

وانطلق يرتل ، فيعلو صوته الرنان على سائر الأصداء . وسارت الأم تتعقب خطواته . فتعثرت على حين غرة ، وسقطت في هاوية سحيقة لا قرار لها هب فراغها يتجه لملاقاتها وهو يزمجر مرسلا صفيراً حاداً مرعباً . .

واستيقظت والعرق البارد يغمرها ، فكأن يداً ثقيلة قاسية تقبض على قلبها ، وتتسلى باعتصاره في بطء وتماهل . وكانت صفارة المعمل تدعو العمال في عنف وعناد ، فعرفت الأم في جؤارها النداء الثاني المعتاد . وكانت الكتب مبعثرة على أرض الغرفة ، والفوضى منتشرة في أرجائها ، والبلاط يحمل انطباعات أحذية الدرك الموحلة .

نهضت ، وشرعت ترتب الغرفة دون أن تعبأ بغسل وجهها أو تلاوة صلواتها ، ووقعت عيناها في المطبخ على العصا ، وقطعة القماش الأحمر ما برحت عالقة بها ، فالتقطتها وهمت بالقائها تحت الموقد ، ولكنها رجعت عن ذلك بعد قليل من التفكير ، وانتزعت منها وهي تتنهد بقايا القماش وطوتها وخبأتها في جيبها ، وأخيراً كسرت العصا على ركبتها وطوحت بها تحت المدفأة ، ثم غسلت النوافذ والأرض بالماء البارد ، وحشت النار في السماور ، وراحت ترتدي ثيابها . وعند ما فرغت من ذلك جلست في زاوية المطبخ تواجه السؤال من جديد :

– وما العمل الآن ؟

وإذ تذكرت أنها لم تتل بعد صلوات الصباح ، نهضت واقتربت من الأيقونات ، وإذا هي تجلس من جديد بعد أن وقفت تجاهها بضع ثوان ... لقد كان قلبها فارغاً .

كان سكون غريب حقاً يجثم في كل مكان ، فكأن الناس الذين كانوا البارحة يزعقون بكل ذينك العنف والقوة في الشوارع ، قد اختبأوا اليوم

في بيوتهم يفكرون بهدوء في حوادث الأمس غير المعهودة .

وفجأة ، تذكرت مشهداً رأته مرة في أيام صباها ... كان في الحديقة القديمة الملحقة بالدار التي يملكها آل زوسايلوف حوض ماء كبير يغمره النيلوفر من سائر جهاته . وقد لاحظت ذات يوم خريفي قاتم ، وهي تدلف إلى جانب ذلك الحوض ، قارباً يتهادى في وسطه تماماً ، ويكاد ألا يتحرك من مكانه خطوة . وكان الحوض أسود هادئاً ، والقارب يبدو كأنه قد التصق بالمياه السود بحليتها الكئيبة المؤلفة من الأوراق الصفر . كانت رؤية هذا القارب الوحيد ، المجرد عن المجاذيف ، الخالي من كل كائن حي ، المرتمي هناك دون حراك فوق منبسط المياه الأسوانة بين الأوراق الميتة ، يبعث في النفس حزناً عميقاً غامضاً مجهول المنشأ والسبب . ولقد وقفت بيلاجيا طويلا عند حافة الحوض ، تتساءل من عساه دفع بالقارب الى وسط المياه ، وما هي بغيته من وراء ذلك . وفي تلك العشية بلغها أن زوجة وكيل القصر ، وهي امرأة صغيرة ذات شعر أسود متمرد مشعث أبداً ، تمشي الأزفى دائماً في اضطراب ، قد أغرقت نفسها في الحوض ذلك الصباح .

ومرت الأم بيدها على جبينها وأفكارها تسبح مرتعشة بين انطباعات الأمس المنصرم . غمرتها هذه الانطباعات واجتاحتها ، فقبعت مدة طويلة تحت تأثيرها وعيناها شاخصتان أمامها إلى كأس الشاي البارد ، بينما راحت تنمو في صدرها الرغبة في رؤية شخص حكيم بسيط تتوجه إليه بالعديد من الأسئلة فيجيب عليها جميعاً .

وزارها نيقولاي إيفانوفيتش بعد الغداء ، وكأنه يرد على لهفتها وحنينها ، ويحقق أمنيتها ومطلبها ، ومع ذلك فقد امتلكها الجزع والقلق لدن رؤيته ، فأسرعت تقول بصوت خافت دون أن ترد تحيته :

— فيم مجيئك ؟ ذلك عمل أحمق . سيقبضون عليك أنت الآخر بكل

تأكيد إذا ما شاهدوك هنا .

فشد على يدها بقوة وحرارة ، وأصلح من وضع نظارتيه ، ثم انحنى عليها حتى صاقب وجهه وجهها وقال موضحاً ، والكلمات تنثال من فمه مسرعة كعادته في الحديث :

— لقد اتفقنا ، بافل وأندريه وأنا ، أن آخذك إلى المدينة مباشرة إذا ما ألقي القبض عليها .

كان صوته لطيفاً ، يطفح اهتماماً براحتها ومصلحتها :

— هل تحرّوا البيت ؟

فهتفت :

— نعم ، لقد نبشوا كل شيء وتحروني أنا أيضاً دون خجل أو وجدان .

فسأل نيقولاي ، وهو يهز كتفيه :

— ولمَ يخجلون ؟

ثم انهمر يشرح لها السبب في ضرورة انتقالها إلى المدينة ، فأنصتت إلى صوته الرفيق الودود ، وابتسامة ضئيلة تتيه على شفتيها . ولم تدرك من حججه شيئاً ، غير أنها دهشت لتلك الثقة وذلك الايمان الحنونين اللذين بعثها في نفسها . قالت :

— إن كانت تلك مشيئة بافل ، وإن كنت لا أسبب لك أي إزعاج ...

فقاطعها قائلاً :

— لا تقلقي أبداً ولا تهتمي بهذا ، فأنا أعيش وحيداً ، وليس من يزورني سوى أختي من من وقت لآخر .

فقالت :

— لست أريد التهام خبزك مقابل لا شيء .

فأجاب :

ـ في وسعنا إيجاد عمل لك ، إذا رغبت في ذلك .

كانت فكرة العمل عندها مرتبطة بصورة لا تنفصم عن ابنها وأندريه وبقية رفاقها ، فتعلقت من نيقولاي أكثر من ذي قبل واستعلمت :

ـ أتستطيع ذلك حقاً ؟

ـ ليس في منزلي كثير من العمل ما دمت أعزب ...

فهمست بصوت خافت :

ـ لم أكن أعني هذا النوع من العمل ...

وأرسلت زفرة حرّى ، متألمة لأنه لم يفهمها ، فابتسم بعينيه القصيرتي الرؤية وقال متأملاً :

ـ إذا ما استطعت ، يوم ترين بافل ، أن تعرفي منه عنوان أولئك الفلاحين الذين طلبوا منا إصدار جريدة لهم ...

فصاحت في بهجة :

ـ إني أعرفهم ، ولسوف أجدهم وأفعل كل ما تريدون مني . ولن يرتاب أحد قط في أني أزودهم بالمطبوعات غير المشروعة . بارك الله فيك ، ألم أحمل المناشير إلى قلب المعمل ؟

وامتلكتها بغتة رغبة عنيفة في التطواف في أرجاء البلاد ، تعبر الغابات وتجوب القرى ، وعلى ظهرها خرج ، وفي يدها عصا . قالت :

ـ أرجوك أن توكل إليّ هذه المهمة ، يا صديقي العزيز . سأمضي إلى سائر الأماكن . لا تخف من أجلي ، فسأجد طريقي في سائر الولايات ، وسأكون صيفاً وشتاءً ـ حتى الممات ـ حاجّة تضرب في طول الآفاق وعرضها حباً بالحقيقة . أهو نصيب سيىء بالنسبة إليّ ؟

واعتراها الغم إذ تصورت نفسها هائمة على وجهها شريدة دون مأوى ، تستجدي الناس باسم المسيح تحت نوافذ الأكواخ في القرى النائية .

أخذ نيقولاي يدها في لطف ، وربت عليها براحته الدافئة ، ثم نظر إلى ساعته وقال :

ستتحدث عن هذا فيما بعد . أنت تكلفين نفسك القيام بعمل خطر ... فكري في ذلك جيداً ...

فصاحت :

— يا صديقي الطبيب ، ما جدوى التفكير ؟ إذا كان أبناؤنا ، فلذات أكبادنا ، يضحون بحريتهم وحياتهم ، ويموتون دونما تفكير بأنفسهم مطلقاً ، فماذا يُنتظر مني إذن ، أنا الأم ؟ وأي شيء لا أستطيع القيام به ؟

فعلا الشحوب وجه نيقولاي ، وقال بصوت خفيض متفرساً في وجهها بانتباه حنون :

— إنها المرة الأولى ، لو تعلمين ، أسمع فيها مثل هذه الكلمات .

فاستفسرت ، وهي تهز رأسها في أسى ، وتلوّح بيديها في حركة عاجزة :

— ماذا أستطيع أن أقول ؟ لو كانت لدي الكلمات فقط كي أتحدث عما يخفق في قلبي الذي أضعه بين أحشائي ....

وهبت على قدميها ، ترفعها قوة عاتية تضجّ في صدرها ، وتجعل رأسها يدوّم في تيار من الكلمات الثائرة :

— إذن ابكى الكثيرون منهم عندئذ... حتى أكثرهم ضعة وصفاقة وشراء

ونهض نيقولاي أيضاً ونظر إلى الساعة مرة أخرى ...

— إذن فقد اتفقنا ، وستنتقلين إلى بيتي في المدينة .

فأومأت بالايجاب .

وأضاف نيقولاي في لطف :

— متى ؟ في أسرع وقت ممكن . سأظل قلقاً من أجلك حتى تمثلي في داري .

فنظرت إليه في دهشة وذهول : من هي بالنسبة إليه ؟ ههنا يقف رجل في معطف أسود ، مطأطأ الرأس ، منحنياً ، قصير النظر ، يبتسم في حياء ... إن مظهره ليناقض طبيعته .

سأل ، وهو يغضّ طرفه :

ـ ألديك مال ؟

ـ كلا !...

فأسرع يدسّ يده في جيبه ، ويتناول منها حافظة نقوده ، ثم يعطو إليها يده ببعض النقود . قال :

ـ إليك هذا . أرجوك أن تقبليه .

فابتسمت الأم رغماً عنها ، وقالت وهي تهز رأسها :

ـ إن كل شيء فيكم يختلف عنه في الآخرين . وحتى المال يبدو عديم القيمة بالنسبة إليكم . بعض الناس يبيعون حتى أرواحهم كي يحصلوا عليه ؛ أما أنتم ، فكأنه لا شيء عندكم . ولكأنكم لا تحتفظون به إلا لمساعدة الآخرين فقط .

فقهقه نيقولاي في عذوبة :

ـ إن المال لحاجة رديئة مقلقة ، أخذه مزعج كثيراً ، وكذلك إعطاؤه .

وأمسك بيدها ، وضغط عليها بشدة ، ثم عاد يقول :

ـ إنتقلي في أسرع وقت ممكن .

ثم خرج في هدوء كعادته على الدوام .

وبينا هي تشيّعه ، راحت تفكر :

ـ يا له من رجل طيب ، ولكنه لم يرث لي .

ولم تستطع أن تجزم إن كان ذلك قد أساء إليها ، أم أنه أدهشها فقط .

* * *

٢

انتقلت إلى بيته في اليوم الرابع لزيارته . وعندما اجتازت العربة التي تقلها مع حقيبتها الضاحية وبلغت الحقول الواقعة ما وراءها ، استدارت الأم تلقي نظرة أخيرة إلى الوراء منهـا ، فأدركت بغتة أنها تغادر إلى الأبد ذلك المكان حيث قضت أكثر مراحل حياتها صعوبة وظلاماً ، وبدأت فيه مرحلة أخرى طـافحة بأفراح وأتراح جديدة شرعت تلتهم الأيام سريعاً حتى لا يشعر بمرورها .

كان المصنع ، بمداخنه المتعالية في الفضاء ، يستلقي على التربة المسودة بالهباب والدخان ، أشبه بعنكبوت ضخم الجثـة ، أحمر اللون قانية . ومن حوله تتأصص بيوت العمال الوحيدة الطبقة ، متراكمة بعضها فوق بعض ، غبراء اللون ، قزمـة الجثة ، تحتشد على شفا المستنقع تماماً وهي تتراشق النظر ، من خلال نوافذهـا الصغيرة الكئيبة ، بصورة تبعث على الشفقة والرثاء . وإلى الأعلى منها كانت ترتفع الكنيسة ، حمراء مسودة كالمصنع ، لكن قبة ناقوسها تنخفض عن مداخنه فلا تستطيع أن تطاولها .

وجعلت الأم باقة قميصها إذ أحسته يضايقها ويعيق تنفسها ، وراحت تطلق الزفرات تترى في غم وألم كثيرين .

صاح الحوذي ، وهو يهز أعنة الحصان :

ـ هيـا .

كان رجلاً صغيراً ، مقوس الساقين ، غامض السن ، ذا شعر قليل باهت اللون نما على رأسه ووجهه دون ترتيب ، وعينين غاض اللون منهما تماماً ، يسير إلى جانب العربة مترنحاً ، غير آبه بوجهتها فيما يبدو أو مبال بهدف الرحلة كلها .

ـ هيا !

كان يزعق بهذه الكلمة ، بين الفينة والفينة ، بصوت عديم اللون ، وهو ينقل رفساً ، بصورة تبعث على الضحك والسخرية ، ساقيه المعوجتين بحذائيها الثقيلين المغمورين بالأوحال . وحملقت الأم في ما حولها .. كانت الحقول فارغة ، مثل فراغ روحها تماماً .

وكان الحصان يهز رأسه بصورة رتيبة ، وهو يحرث بحوافره الرمل العميق المستدفىء بحرارة الشمس ؛ والرمال ترسل حفيفاً خشناً ؛ والعربة الكسيحة ترسل صريراً حاداً ، فتتعلق هذه الأصداء بالفضاء وراءها ممتزجة بالغبار المثار بعجلاتها ...

كان نيقولاي إيفانوفيتش يعيش في منزل هادىء في ضاحية المدينة ، وقد استقر في شقة صغيرة خضراء اللون في دارة ذات طابقين تكاد أن تتداعى لقدمها ... وكانت حديقة صغيرة تقوم أمام هذه الدار ، بحيث كانت أغصان الليلك والأكاسيا ، والأوراق الفضية لأشجار فتية من الحور ، تطلّ من خلال نوافذ غرف الشقة الثلاث . وكان كل شيء في الداخل نظيفاً ساكناً ، وظلال عذبة تلقي على الأرض رسوماً مرتجفة ، ورفوف الكتب تصطف على طول الجدران تحت صور أشخاص تطفح نظراتهم برزانة وجد عظيمين .

قاد نيقولاي الأم إلى غرفة صغيرة تشرف إحدى نافذتيها على الحديقة ، وتكشف الأخرى عن فناء تطاول فيه عشب غزير ، وقد امتلأت جدران هذه الغرفة برفوف الكتب أيضاً ، ثم قال :

— هل تكونين مرتاحة هنا ؟

فهمهمت :

— إني أفضل الاقامة في المطبخ ، فهو جميل ، رائع ، ونظيف ...

وتراءى لها أن كلماتها ألقت الذعر في قلبه ، حتى اذا رضخت أخيراً لجهوده العنيدة في إقناعها بالعدول عن رأيها في العيش في المطبخ ، عاد التألق في الحال يُبرق في وجهه ...

كانت الغرف الثلاث مليئة بجو خاص . إن المرء ليتنفس بسهولة وسرور هنا ، ولكنه يتردد في الكلام بصوت مرتفع ، خوفاً من أن يعكر صفو التأمل الخاشع الذي يستغرق فيه أولئك القوم الشاخصون إليه من أعلى الجدران بكل ذلك الانتباه المركز .

قالت الأم ، وهي تتحسس التراب في أحواض الورد على النوافذ :

— يجب إرواء هذه النباتات .

فقال صاحب الورد بلهجة المذنب :

— أواه ! نعم . إني مغرم بها كثيراً . إنما لا أجد الوقت ، كما ترين ، للاعتناء بها ...

ولاحظت الأم ، وهي تراقبه ، إنه يسير في حذر وارتباك ، حتى في شقته الأنيقة المستوفية لسائر أسباب الراحة ، فكأن كل ما يكتنفه غريب عنه . وكان يدنو بوجهه من سائر الأشياء المختلفة في الغرفة حتى يلاصقها ، وهو يصلح من وضع نظارتيه بأصابع يده اليمنى النحيلة، وينظر شزراً . وفي تساؤل أخرس ، الى كل ما يسترعي انتباهه ، وأحياناً كان يأخذ الشيء بين يديه ، ويرفعه حتى يلامس وجهه ، ويروح يتحسسه بعينيه بكل عناية . وشخص للأم أنه ، مثلها ، قد دخل الشقة للمرة الأولى ، وأن كل شيء بالنسبة إليه ، كما هو بالنسبة إليها ، جديد غير مألوف ، الأمر الذي طمأنها سريعاً ، وأراق في فؤادها الراحة

والحرية في بيتهـا الجديد . وراحت تخبّ في أعقاب نيقولاي ، وهي تلاحظ أمكنة الأشياء ومواضعهـا ، وتسأله عن نظام حياته فيجيبها بلهجة المذنب الذي يعلم أنه لا يتصرف كما يجدر به أن يفعل ، ولكنه يدرك مع ذلك أنه لا يستطيع الى غير ذلك سبيلا .

وسقت الورد ، ورتبت أوراق الموسيقى المبعثرة على البيان ، ثم قالت : ملقية نظرة سريعة على السماور :

— إنه في حاجة الى تنظيف .

فمرّ بأصابعه على المعدن الوسخ ، ثم رفعه الى أنفه يتفحصه . فلم تستطع الأم إلا أن تبتسم في عطف وإشفاق .

ووقتما سعت الى فراشها تلك الليلة ، وطفقت تستعرض في ذاكرتهـا أحداث ذلك النهار ، رفعت رأسها عن الوسادة ، وراحت تجيل النظر فيما حولها في إنكار وارتياب. كانت تقضي الليل تحت سقف غريب للمرة الأولى في حياتها، ومع ذلك فهي لا تحس أدنى ضيق أو قلق. وفكرت بنيقولاي في عطف وامتنان ، وقد امتلأت رغبة في أن تيسر عليه الحياة ، وتبدي له من ضروب الحنان ما يُضفي على وجوده الدفء والراحة . ولقد تأثرت حتى أعماق قلبها من ارتباك مضيفها ، وعجزه المضحك ، وبعده عن مجرى حياة الناس المألوف ، وأخيراً من ذلك التعبير الصبياني في عينيه الصافيتين. ثم رجع فكرها الى فتاها، فراحت حوادث أول أيار تتلاحق مرة أخرى أمام عينيها ، ولكنها ملحقة بأصداء جديدة ، ومجنحة بمعنى جديد . إن ألم ذلك اليوم من نوع خاص ، مثله في ذلك مثل اليوم نفسه : إنه لا يحني الهـامة حتى الأرض كما تفعل لكمة عنيفة يدور الرأس لها ، بل يحز في القلب ويخزه بآلاف الابر فيثير فيه غضباً هادئاً تنتصب به الهامة المنحنية وتستقيم .

إن أبناءنا قد خرجوا قدماً الى العـالم .

راحت تفكر في ذلك ، منصتة إلى الأصداء غير المألوفة التي تبعثها المدينة ليلاً فتتسرب مع حفيف الأوراق في الحديقة من خلال النافذة المفتوحة . كانت تلك الأصداء تأتي من بعيد جداً ، متعبة باهتة ، ثم تموت برفق وهدوء داخل الغرفة .

وفي بكور الغداة ، نظفت السماور ... وأرّجت النار فيه ... وهيأت المائدة دونما إثارة أدنى ضوضاء ... ثم قعدت في المطبخ تنتظر يقظة نيقولاي . وأخيراً ظهر هذا الأخير وهو يسعل . ممسكا بنظارتيه في يده الواحدة ، وبقميصه في يده الثانية . وبعد أن تبادلا تحية الصباح ، حملت السماور الى الغرفة المجاورة ، بينما راح نيقولاي يتمسّح بالماء ، وهو يصبه رذاذاً على الأرض ويفلت من يده الصابون أو فرشاة الأسنان ، فيدمدم متأففاً من نفسه ساخطاً من خرافته .

قال لها أثناء الافطار :

— إن عملي في إدارة الولاية مزعج للغاية . إني أراقب فلاحينا وهم يفلسون ...

ثم أضاف ، وعلى شفتيه ابتسامة مذنبة :

— إن نقص التغذية والجوع المزمن يقودان فلاحينا الى القبر في سن مبكرة ، وأولادهم يولدون ضعفاء ثم يموتون كالذباب في الخريف . إننا نعرف هذا ، ونعرف أسبابه أيضاً ، لا بل نتناول أجوراً كي نراقب تلك العملية ، وهذا كل ما نفعل في الحقيقة ...

فسألته :

أأنت طالب ؟

كلا ، بل معلم مدرسة . إن أبي مدير معمل في فياتكا ، أما أنا فقد احترفت مهنة التدريس . ولقد رحت أعير الفلاحين في القرية كتباً ، الأمر الذي ألقوا بي



نيقولاي

في السجن من أجله . وبعد ذلك عملت مستخدماً في إحدى المكتبات . ولكنهم أرسلوني الى السجن مرة أخرى بسبب طيشي وعدم انتباهي ، ثم نفيت الى آركانجل . وهناك أيضاً تخاصمت مع الحاكم، فأقصاني الى قرية صغيرة على شاطىء البحر الأبيض حيث عشت طوال خمس سنوات ...

كان صوته يسبح بعذوبة وتناسق في الغرفة النيرة ، المغمورة بأشعة الشمس. ولقد سمعت الأم حتى ذلك الحين كثيراً من أمثال هذه القصة ، ولكنها لم تستطع أبداً أن تفهم سبباً لهدوء أولئك الذين يروونها ، فكأنهم يتحدثون عن أشياء محتومة لا سبيل الى الفرار منها .

قال :

— ستأتي أختي هذا اليوم .

— أهي متزوجة ؟

— إنها أرملة . لقد نفي زوجها الى سيبيريا ، ولكنه هرب منها ، ثم مات قبل سنتين في أوروبا بداء السل .

— أهي أصغر منك سناً !

فأجاب :

— بل تكبرني بست سنوات، وأنا مدين لها بالشيء الكثير . انتظري حتى تسمعي عزفها على البيان . هذا البيان ملكها ، بل إن الكثير من هذه الأشياء تخصها على العموم ، أما الكتب فملكي .

— وأين تقطن ؟

فأجاب مبتسماً :

— أيان يحتاجون الى شخص مقدام ، تكون هي هناك .

— أهي تشترك أيضاً في ... هذا العمل ؟

— بكل تأكيد .

وسرعان ما غادر الدار ، فراحت الأم تفكر في « هذا العمل » ، وفي الأشخاص الذين ينذرون أنفسهم له يوماً بعد يوم ، في هدوء وعناد لا يتزعزع . إنهم يثيرون فيها الاحساس بتفاهتها ، فكأنها تجابه ، في ظلمة الليل الدامسة ، عظمة جبل هائل مهيب .

وقدمت ، حوالي منتصف النهار ، امرأة جميله المحيا ، طويلة القامة ، ترتدي ثوباً أسود . وعندما دلقت الأم الباب لها ، رمت حقيبتها الصغيرة الصفراء على الأرض ، وأسرعت تقبض على يد الأم وتقول :

ـ أعتقد أنك أم بافل ميخائيلوفيتش ؟

فأجابت الأم ، مرتبكة تجاه أناقة المرأة وثيابها الثمينة :

ـ نعم .

فقالت المرأه ، وهي تخلع قبعتها أمام المرآة :

ـ أنت مثلما تخيلتك تماماً . كتب إلي أخي يقول إنك ستأتين للسكن هنا . اني صديقة بافل ميخائيلوفيتش منذ زمن طويل ، ولقد حدثني عنك .

كان صوتها أجش و حديثها بطيئاً ، ولكن حركاتها كانت سريعة قوية . وكانت الخطوط الصغيرة الناعمة المرتسمة على صدغيها ، والشعر الأبيض الملتمع فوق إطاري أذنيها الدقيقين ، تتباين بصورة جلية تلفت الأنظار مع تلك الفتوة البادية في عينيها الرماديتين الضاحكتين .

أعلنت :

ـ إني جائعة ، ونفسي تشتهي قدحاً من القهوة .

فردَّدت الأم مجيبة :

ـ سأهيئه لك في الحال .

ثم سألت ، وهي تتناول غلاية القهوة من خزانة الآنية الزجاجية :

ـ أحقاً أن بافل حدّثك عني ؟

ـ كثيراً .

وتناولت المرأة علبة سجاير جلدية من جيبها ، ثم أشعلت لفافة منها .

سألت ، وهي تجوس الغرفة في غدوة ورواح :

ـ أأنت خائفة من أجله ؟

فراحت الأم تراقب شعلة المصباح الكحولي الزرقاء الصغيرة تحت غلاية القهوة وتبتسم ، وقد ابتلع الفرح كل الارتباك الذي شعرت به في حضور هذه المرأة . فكرت في وليجة نفسها :

ـ وهكذا فقد حدثها عني ، ذلك الابن الحبيب ...

ثم قالت في تماهل :

ـ بالطبع ، فذلك ليس أمراً سهلا ... ولكنه كان من قبل أشد إيلاماً ، أما الآن فاني أعلم على الأقل أنه ليس وحيداً .

وسألت المرأة عن اسمها ، وهي تحدق في وجهها ، فأتاها الجواب :

ـ صوفيا .

فتمعنت بيلاجيا فيها ملياً . ثمة شيء فيها يستحيل وصفه . وإن امكن أن يقال إنه كثير الجرأة ، والاندفاع ، والهوس أيضاً .

وقالت صوفيا بلهجة التأكيد :

ـ الأمر الرئيسي هو ألا يطول بقاؤهم في السجن ، بل أن يعجلوا بمحاكمتهم ما أمكن . ولسوف نمهد لبافل ميخائيلوفيتش سبيل الفرار فور وصوله الى المنفى . إننا لفي حاجة ماسة إليه هنا .

ونظرت الأم الى صوفيا في تردد . كانت تفتش عن شيء تضع فيه عقب لفافتها . وعندما سحقته أخيراً في تراب أحد أحواض الورد قالت الأم بالرغم منها :

ـ هذا يضر الزهور ويتلفها .

فقالت صوفيا :

— أرجو المعذرة . إن نيقولاي يقول لي ذلك دائماً .

واستردت العقب من الحوض ، ثم ألقت به من النافذة .

وفي ذات اللحظة أخذ الارتباك بمجامع الأم ، فقالت :

— أرجو عفوك ، فأنا لم أفكر فيما قلت. كيف أجرؤ على تلقينك ما تفعلين؟!

فأجابت صوفيا ، وهي تهز كتفيها :

ولم لا ما دمت مهملة ؟ هل صارت القهوة ؟ شكراً لك . ولكن لمَ لم تصبي إلا قدحاً واحداً ؟ أفلا تتناولين شيئاً بدورك ؟

وعلى حين غرة أمسكت الأم من كتفيها ، وجرتها إليها ، وقالت وهي تنظر عميقاً في عينيها :

— هل أنت خجلة ؟

فابتسمت الأم ، وقالت :

— أتسألينني هذا بعد ما صدر مني عن اللفافة بكل ذلك التصرع الممقوت ؟

ثم أضافت ، دون أن تحاول إخفاء دهشتها ، بلهجة فيها شيء من التساؤل :

— لقد جئت هذا المكان البارحة فقط ، وها أنا ذا أتصرف وكأنني في بيتي ، لا أخاف شيئاً ، وأقول كل ما يعن على بالي ...

فهتفت صوفيا :

— وذلك هو بالضبط ما يجب أن تفعليه .

فتابعت الأم تقول :

— إن رأسي يدور ويدور ، وأنا كالغريبة عن ذاتي . كان ينقضي زمن طويل فيما مضى قبل أن أقول لأي امرىء شيئاً من صميم قلبي أما الآن فان قلبي مفتوح على الدوام ، وأنا أقول أشياء لم أحلم بالتفوه بها من قبل قط .

وتناولت صوفيا لفافة أخرى ، ثم صوبت بريق عينيها الرماديتين

الناعمتين إلى وجه الأم .

استوضحت الأم ، وهي تلقي من قلبها عبء ذلك السؤال المقلق :

ـ قلت إنكم ستمهدون له سبيل الفرار ، ولكن كيف يعيش من بعدها ... هارباً .

فأجابت صوفيا ، وهي تصب انفسها قدحاً ثانياً من القهوة :

ـ ليس هذا الأمر بالعسير . فلسوف يعيش مثلما يعيش عشرات سواه من الهاربين . لقد التقيت قبل قليل بواحد منهم ، وصحبته إلى المكان الذي سيعيش فيه . وهو أيضاً رجل ثمين جداً حكم عليه بالنفي خمس سنوات ، ولكنه لم يقض هناك أكثر من ثلاثة أشهر ونصف الشهر .

فحدجتها الأم بنظراتها بعض الوقت ، ثم ابتسمت ، وهزت رأسها وهي تقول بصوت خافت :

ـ يبدو كأن أول أيار هذا قد فعل بي شيئاً ، فلا أستطيع أن أجد نفسي الضائعة ، وكأنني أسير على طريقين مختلفتين في الوقت ذاته . يخيل إلي أحياناً أني أفهم كل شيء ؛ ثم يضيع كل شيء في أحايين أخرى في ضباب كثيف . أنت مثلاً ... امرأة من الطبقة الراقية وتشتركين في هذا العمل ... وأنت تعرفين بافل وتتحدثين خيراً عنه ، وإني لأشكرك من أجل هذا .

فضحكت صوفيا :

ـ إنك أنت التي تستأهلين الشكر .

فقالت الأم ، وهي تتنهد :

ـ وماذا فعلت أنا ؟ لست أنا التي علمته كل هذا .

ثم تابعت أفكارها تقول :

ـ يبدو لي كل شيء بسيطاً حيناً ، وحيناً لا أستطيع تعليل هذه البساطة . وتارة أحس الاطمئنان كله ، وتارة يداخلني الخوف من ذلك

الاطمئنان ذاته . لقد كانت كل حياتي خوفاً مستمراً ، أما الآن ، وقد تعددت أسباب ذلك الخوف ، فأكاد لا أشعر به على الاطلاق ... لم الأمر هكذا ؟ لا أدرى .

فأجابت صوفيا ، وهي غارقة في لجة من التفكير :

ـ سوف يأتي يوم تفهمين فيه كل شيء .

وسحقت لفافتها في قدح القهوة ، وهزت رأسها بحيث سقط شعرها الذهبي على صدرها في كتل كثيفة ، وقالت وهي تنهض وتتجه نحو باب الغرفة :

ـ لقد آن لي أن أتخلص من كل هذه الأناقة ...

* * *

٣

عاد نيقولاي في العشية ، وفيما هم يتناولون طعام العشاء طفقت صوفيا تروي في مرح وحبور كيف التقت بذلك الفار من المنفى وخبأته ، وكيف انتابتها المخاوف من الجواسيس فراحت تجدهم في كل من تصادفه ، وكيف كان سلوك الهارب رائعاً كل الروعة ومثاراً للاعجاب والتقدير . وا كتشفت الأم في لهجتها بعض التباهي والغرور ، فكأنها عامل يروي قصة عمل شاق أنجزه على أكمل وجه وهو سعيد بذلك .

كانت صوفيا ترتدي الآن ثوباً صيفياً رمادي اللون ، وقميصاً ضيقاً يظهرها أطول قامة ، ويضاعف من ظلمة عينيها ، ويزيد حركاتها تناسقاً وهدوءاً .

أعلن نيقولاي بعد العشاء :

— إن مهمة جديدة تنتظرك ، يا صوفيا . لقد حدثتك أننا أخذنا على عاتقنا إصدار صحيفة خاصة بالفلاحين ، فاذا نحن نفقد ، بسبب الاعتقالات الأخيرة ، كل احتكاك بالرجل الذي سيقوم بتوزيعها . وبيلاجيا نيلوفنا هي الشخص الوحيد القادر على مساعدتنا في العثور عليه من جديد ، فعليك إذن القيام برحلة قصيرة إلى الريف برفقتها ، وإنجاز ذلك في أقرب وقت ممكن .

فقالت صوفيا ، وهي تسحب نفساً طويلا من لفافتها :

— حسناً ، سنذهب . . أليس كذلك ، يا بيلاجيا نيلوفنا ؟
طبعاً .
هل المسافة طويلة ؟
— حوالي الثمانين فرسخاً .
— عظيم ! والآن أود أن أعزف قليلا . أتؤمنين ، يا بيلاجيا نيلوفنا ، بقدرتك على احتمال عزفي بعض الوقت ؟
فأجابت الأم ، وهي تنسحب إلى زاوية الأريكة :
— لا تهتمي بي على الاطلاق ، افعلي ما يحلو لك ولا تأبهي لوجودي .
كانت ترى أن الأخ والأخت يتظاهران بأنها لا يعيران انتباهاً ، ولكنها في واقع الأمر يجرانها دائماً ، في مهارة ، إلى الاشتراك في الحديث .
— أصغ يا نيقولاي ، هذه قطعة من موسيقى « جريج » ، لقد جلبتها اليوم معي ... أغلق النوافذ .
فتحت كناشة الموسيقى وضربت المفاتيح في رقة بيدها اليسرى ، فتتالت الاوتار تغني في عمق وانسجام رائعين . ثم تلت الاصداء الاولى جملةٌ أخرى من الانغام ، وهبّ من تحت أصابع اليد اليمنى سرب شافّ من رعشات مذهبة حلقت في اضطراب وراحت ، وهي ترسل زفرة خافتة ، تدوم وتخفق بجناحيها ، مثل جماعة من عصافير مذعورة ، فوق قعر الأصوات الخفيضة القاتم .
ولم تحرك الموسيقى أية خالجة في نفس الأم لأول وهلة ، بل لم تكن تميز في تيارها إلا تيهاً من الضجيج والأصوات . كانت أذنها عاجزة عن تمييز اللحن في بنية الأصوات المنسجمة المعقدة فاذا هي تحدق ، حالمةً ، في نيقولاي القابع على الطرف الآخر من الأريكة طاوياً ساقيه تحته ، يشخص إلى صورة صوفيا الجانبية القاسية المتوجة بكتلة من الشعر المذهب . وكانت الشمس تضيء بشعاعها الدافيء رأس صوفيا وكتفيها ، ثم تنزلق

فوق صف المفاتيح لتداعب أصابعها اللطيفة ، وتلاحق الأنغام يملأ جو الغرفة فيستيقظ قلب الأم للحن العذب دون شعور واعٍ منها .

ولسببٍ مـا ، أفاق فجأة من هاوية ماضيها السحيق ألم عظيم طواه النسيان منذ زمن بعيد . ولكنه بعث الآن إلى الحياة في وضوح مرير عظيم القسوة . .

في ذات ليلة ، رجع زوجها إلى البيت متأخراً شديد السكر ، فأمسك بها من ذراعها وجرها من فراشها حتى أوقعها على الأرض ، ثم صاح بها وهو يرفسها في خاصرتها :

— هيا أخرجي من هنا ، أيتها الكلبة ! لقد مللت منك ...

فأخذت بين ذراعيها ابنها البالغ من العمر سنتين ، ورفعته أمامها كالدرع ، وهي جاثية على الأرض لتدرأ عن نفسها لطمات زوجها ولكماته وبافل يصيح ويناضل بين ذراعيها ، دافئاً ، عارياً ، مذعوراً ...

وزمجر ميخائيل :

— أخرجي من هنا !

فقفزت على قدميها واندفعت إلى المطبخ حيث ألقت سترة على كتفيها ، ولفّت الطفل بوشاحها ، وخرجت إلى الشارع في صمت دون عبرة أو شكوى ، حافية القدمين ، لا يسترها إلا قميص النوم وتلك السترة . وكان ذلك في شهر أيار ، والليل قارص البرد عفيف الريح ، وغبار الطريق يعلق بارداً بأخمص قدميها ويتغلغل بين أصابعها . وطفق الطفل بين ذراعيها يبكي ويتخبط ، فضمته إلى جسدها تحت السترة ، وهرعت عبر الشارع يلاحقها الخوف ، وهي تهدهد الطفل أثناء ذلك :

— أو ـ أو ، يا عزيزي ، أو ـ أو ..

وقرب الصباح داخلها الحياء والخوف من أن يراها بعض الناس هكذا

نصف عارية ، حافية القدمين . فاتجهت نحو المستنقع وجلست على الأرض تحت أشجار الحور الصغيرة . جلست هناك زمناً طويلا ، تحدق في الظلام بعينين متسعتين وهي لا تفتأ تهدهد الطفل لتخفف من عويله ومن الألم الذي يحز في قلبها أيضاً .

أو ـ أو ، يا عزيزي ، أو ، آو ...

وبينما هي جالسة هناك إذ بطائر أسود يحلق صامتاً في الفضاء فوق رأسها ثم يبتعد في طيران سريع . وقد أيقظها الطائر من همودها ودفعها الى النهوض على قدميها ، فقفلت راجعة ، مرتجفة الأوصال من البرد . نحو البيت حيث ينتظرها الخوف المألوف من الضرب والاهانة ...

وتردد رنين الوتر الأخير ، ثم تلاشت الموسيقى وهي ترسل زفيراً بارداً لا مبالياً ...

واستدارت صوفيا نحو أخيها ، وسألته في هدوء :

ـ هل أحببت ذلك ؟

فأجاب ، وهو ينتفض كمن يهب من النوم :

ـ كثيراً ، كثيراً جداً .

وارتجف في صدر الأم صدى ذكراها وتمنّى ، بينما انبثقت الى جانبه من مكان ما الفكرة التالية :

ـ هل ترين ؟ هؤلاء قوم يعيشون معاً عيشة مسالمة ودية ، لا يتخاصمون ولا يسكرون ، ولا يتقاتلون لدى تناول كل كسرة من الخبز كما يفعل أولئك في تلك الحياة المظلمة الأخرى ...

وتناولت صوفيا لفافة ، ودخنت فترة من الوقت ، وبصورة متواصلة تقريباً. قالت :

ـ كانت هذه الموسيقى أحب قطعة إلى قلب كوستيا .

وسحبت نفساً عميقاً ، ثم استدارت نحو المفاتيح مرة أخرى ، وضربت وتراً أرسل نغمة ناعمة مفعمة بالكآبة .

— كم كنت أحب أن أعزف له ، ولكم كان بدوره رقيق الاحساس ، تتجاوب نفسه مع كل الأشياء ، ويطفح قلبه أبداً حتى ليكاد ينفجر ...

وفكرت الأم :

— لا ريب أنها تتحدث عن زوجها ؟ وهي تبتسم مع ذلك ...

وتابعت صوفيا بصوت خافت ، وهي تصاحب أفكارها بنغم رقيق :

- ما أكثر ما أسعدني ! ولكم كان يعرف كيف يعيش !

فوافق نيقولاي ، وهو يمشّط لحيته :

— بلى ، لقد كان روحاً تغني .

ألقت صوفيا باللفافة التي أشعلتها لآونتها . ثم استدارت نحو الأم قائلة :

— آمل ألا تكون ضوضائي قد أزعجتك .

فلم تستطع الأم إخفاء امتعاضها :

— لا تعيريني التفاتاً. إني لا أفهم شيئاً في هذا الموضوع ، بل أجلس ههنا ، وأجترّ أفكاري الخاصة .

وقالت صوفيا :

— ولكني أريدك أن تفهمي ، فمن الضروري المرأة أن تفهم الموسيقى ولا سيا حين تكون حزينة .

وضربت المفاتيح بقوة ، فأرسل البيانُ صياحاً حاداً ، صياح إنسان تلقى أنباء رهيبة أصابته في صيم القلب فانتزعت منه هذه الصيحة المروعة التي ردت عليها أصوات فتية مذعورة وثبت على غير انتظار ثم تلاشت . ومرة أخرى ، ارتفعت صيحة عالية غاضبة أغرقت في ضجيجها كل شيء آخر . لا ريب أن كارثة كبرى قد وقعت . ولكنها تثير شعوراً إلى الغضب والنقمة أكثر منه الى الشفقة

والرثاء . وتلا ذلك صوت عنيف ينشد لحناً جميلا رائعاً يقنع ويغري في وقت واحد .

وامتلأ قلب الأم رغبة ملحة في التفوه بكلمات لطيفة توجهها الى هذين الانسانين . كانت سكرى بالموسيقى ، فانشقت شفتاها عن ابتسامة عذبة ، مقتنعة بقدرتها على أن تكون عوناً للأخ والأخت جميعاً .

وصعدت النظر فيما حولها ،.. ماذا عساها تصنع ؟ وتسللت في هدوء الى المطهى تجمر النار في السماور .

لكن ذلك لم يشبع لهفتها تجاهها . فقالت ، وهي تصب الشاي وترسل ضحكة مرتبكة ، وكأنها تعزي قلبها بكلمات موجهة الى نفسها مثلما هي موجهة اليها :

ـ نحن أبناء تلك الحياة المظلمة نحس كل شيء ، إنما يصعب علينا وضعه في كلمات فنخجل لكوننا ، كما تريان، نفهم ولكن نعجز عن التعبير عما نفهم . وكثيراً ما ننقم ، بسبب من ذلك ، على ذات أفكارنا . إن الحياة لا تفتأ تنهال عليها ضرباً من كل جانب ، فنريد أن ننعم بشيء من الراحة ، فتأبى أفكارنا علينا هذا النعيم .

كان نيقولاي ينظف نظارته وقد أذن لها أحسن الأذن ، بينما فتحت صوفيا عينيها الكبيرتين تحملق في الأم ناسية أن تدخن لفافتها التي كادت أن تنطفئ . كانت ما تزال تجلس الى البيان ، وقد استدارت نحوه نصف استدارة ، تداعب المفاتيح برقة من وقت لآخر بأصابع يدها اليمنى، فتختلط الأنغام في عذوبة جمة مع الكلمات البسيطة المنطلقة من أعماق القلب المتألم المعبر بها عن مشاعره وإحساساته .

ـ أستطيع الآن أن أقول شيئاً عن نفسي وعن الناس الآخرين، فقد بدأت أفهم وأصبح في مقدوري أن أقارن بين الأشياء أيضاً . إن حياة الانسان سواء في وجودنا نحن الآخرين ، فليس لدينا شيء يستأهل المقارنة . أما الآن ، حين أعرف كيف يعيش بقية البشر ، وأتذكر كيف عشت أنا ـ فان الموازنة

تتضاعف إذن .

وخفضت صوتها . وتابعت :

— ربما لا أعبّر عن ذلك كما ينبغي ، وربما لا معنى في التصريح بذلك على الاطلاق ، فالكائنات التي مثلكم تعلم ...

وغصّت كلماتها بالدموع ، وابتسمت عيناها وقد حلقت فيها قائلة :

— أريد أن أفتح لكما قلبي حتى تعلما أتمنى الخير لكما .

فقال نيقولاي بصوت رقيق :

— إننا نعرف ذلك جيداً .

كان يبدو أنها عاجزة كل العجز عن إرضاء رغبتها ، فراحت ترمي لهما مرة أخرى كل ما في حياتها من جديد ، وما تجده عظيم الأهمية فوق كل حدود. وشرعت تتحدث عن حياتها المريرة وعن عذابها الذي صبرت عليه ، تسرد ذلك كله دون غضب ، ولكن في ظل من الأسف الساخر . وراحت تنشر شريط تلك الأيام الرمادية القاتمة التي تؤلف حياتها السابقة ، وتحصي ما أذاقها زوجها من لكمات ، متعجبة هي نفسها من تفاهة الدوافع التي كانت تقود اليها . وفي الوقت ذاته من عجزها عن تفاديها وإيقافها عند حد ...

كانا يصغيان اليها في صمت متأثرين بالمعنى العميق الكامن وراء هذه القصة البسيطة عن حياة كائن لم ترفعه نظرة الناس إليه عن مصاف المجاهاوات إلا قليلاً جداً جداً ، فطفق هو يعتبر نفسه طويلا ، في خضوع ودون أدنى تذمر على الاطلاق ، مثلما ينظرون إليه تماماً . وكان يبدو لهما أن آلاف الحيوانات تنطق بلسانها . إن كل ما عاشته بسيط مألوف مثل حياة الأغلبية الساحقة من الناس على وجه هذه الأرض ، ولذلك فان قصتها تكسب معنى رمز عام شامل. وارتفق نيقولاي المائدة ، واعتمد رأسه بين يديه ، وقد أطمح بصره إليها يراقبها من وراء نظارتيه بعينين خزراوين. أما صوفيا فقد استلقت على مقعدها وهي ترتعش وتهز

رأسها من حين لآخر ، يلوح وجهها وكأنه يزداد نحولاً وشحوباً . ولم تكن تدخن .

قالت في هدوء ، وهي تطرق برأسها :

لقد اعتقدت مرة أني بائسة ، وخيل إليّ أن حياتي عبارة عن هذيان ليس غير . وكان ذلك عندما كنت في المنفى في ضاحية صغيرة في إحدى الولايات البعيدة ، حيث لم يكن لديّ ما أفعل أو أفكر فيه إلا شخصي وحده ، فرحت لذلك أحصي كل مصائبي ما دمت لا أجد شيئاً أفضل أصنعه: لقد تشاجرت مع والدي الذي أحبه ؛ وطردت من المدرسة حيث جعلوا مني مثالاً مخجلا ؛ وسجنت ؛ كما أن رفيقاً مقرباً إليّ قد خانني ، ولتد اعتقل زوجي ، ثم كان السجن والمنفى مرة أخرى ، ومن بعد وفاة زوجي . ولقد هدهد لي أني أكثر الكائنات في العالم بؤساً وشقاء . ولكن سائر مصائبي ، مضروبة في عشرة أمثالها ، لا تساوي شهراً واحداً من حياتك ، يا بيلاجيا نيلوفنا ... لقد كانت حياتك عذاباً سرمدياً يتتابع سنة بعد سنة ... من أين يستقي الناس تلك القوى كي يتحملوا هذا العذاب الأليم ؟

فاشرأبت بيلاجيا تجيب ، وهي تتنهد :

— إنهم يعتادون عليه .

وقال نيقولاي مفكراً :

ـ يخيل إلي أني أعرف الحياة كثيراً . وبخاصة عندما أطلع عليها عن كثب، لا في كتاب ولا في انطباعاتي الخاصة عنها ، بل حين تنتصب هي نفسها أمامي ... إن ذلك لرهيب إذن . وإن التفاصيل رهيبة كذلك ، وحتى التوافه أيضاً . كل تلك اللحظات التي تنسج السنوات ...

واستمر الحديث واتسع ، يتناول كل مظاهر هذه الحياة المظلمة . وراحت الأم تحفر عميقاً في ذكرياتها،وهي تنبش سلسلة الامتهانات والاهانات اليومية التي

جعلت من صباها خوفاً دائماً لا ينقطع . قالت أخيراً :

— ولكن ما بالي أثرثر وأثرثر ، في حين آن لكما أن تذهبا الى الفراش . لن يستطيع المرء ابداً البَوح بكل ما عنده ...

واستأذن الأخ والأخت منها في سكون. فصوّر لها أن نيقولاي قد انحنى اكثر من المعتاد ، كما ضغط على يدها بقوة أكبر. أما صوفيا فرافقتها حتى غرفتها، ثم همست وهي تتركها عند الباب :

— نوماً هنيئاً . طابت ليلتك .

كان صوتها مفعماً بالحرارة ، وعيناها الرماديتان تداعبان وجه الأم في حلاوة .

تناولت الأم يد صوفيا وضغطت عليها بين كلتا يديها ، وقالت :

— شكراً لك !...

* * *

٤

بعد أربعة أيام وقفت الأم وصوفيا أمام نيقولاي وهما ترتديان أسمال امرأتين فقيرتين من سكان المدن : رداء قطنياً ممزقاً وسترة حقيرة مهترئة ، وعلى ظهر كلتيهما خرج ، وفي يدها عصاً ثخينة. ولقد بدت صوفيا في هذه الثياب أقصر من قامتها، ووجهها الشاحب أكثر رزانة وجداً أيضاً ...

ضغط نيقولاي يد أخته بشدة وهو يودعها ، فلفت انتباه الأم مرة أخرى تلك البساطة الهادئة السائدة علاقاتهما . إنهما لا يتبادلان القبل ولا يتناديان بأسماء تحبّب ، ولا يغدق أحدهما على الآخر مظاهر الحنان ، وإن كانا أبداً يعنيان كلٌّ بأمر الآخر في كثير من العطف والود . أما حيث عاشت الأم ، فقد كان الناس يتبادلون القبل وعبارات الاكرام أبداً ، لكن يستمرون في الوقت نفسه يعضون بعضهم بعضاً مثل الكلاب الجائعة ،

وخرجت المرأتان في صمت الى شوارع المدينة ، ومنها الى الحقول ، وهما تسيران كتفاً الى كتف على طول طريق متسعة عريضة ، غير معبدة ، تمتد بين صفين من أشجار البتولا العجوز .

سألت الأم رفيقتها :

— أفلن تتعبي ؟

أتظنين أني لم أمش كثيراً طوال حياتي ؟ إن ذلك مألوف لدي .

وراحت صوفيا تتحدث في مرح عن نشاطها الثوري ، وكأنها تروي نزوات طفولتها ... لقد عاشت بأسماء مختلفة وأوراق مزورة ؛ وكثيراً ما تنكرت كي تفلت من الجواسيس ؛ كما نقلت قناطير من الكتب غير المشروعة من مدينة لأخرى ؛ ونظمت هرب كثير من الرفاق من المنفى ؛ واجتازت بهم الحدود ورافقتهم إلى مدن أجنبية ... وذات مرة أخفت مطبعة سرية في بيتها ، وعندمابلغ خبرها الدرك وجاؤوا يفتشون الدار ، استطاعت في الوقت المناسب أن تتنكر في زي خادمة وتولي الأدبار ، ملتقية بزوارها عند بوابة المنزل،كان ذلك في الشتاء ، والطقس شديد البرد لاذع الصقيع ، ومع ذلك فقد عبرت المدينة بأسرها في ثوب رقيق ، لا يسترها إلا وشاح من القطن ألقت به على رأسها وكتفيها ، وفي يدها إناء البترول فكأنها تريد أن تبتاع شيئاً منه .

وفي مرة أخرى قدمت الى مدينة غريبة تزور بعض الأصدقاء ، وبينما هي ترتقي السلم ، اكتشفت أن رجال الدرك يفتشون الجناح الذي تقصد . وكانت فرصة النكوص على أعقابها قد فاتت ، فلم تتوان عن قرع جرس الطابق السفلي في جرأة وزرع نفسها هناك ، بما لها وما عليها ، عند أولئك القوم المجهولين . ولقد قالت لهم ، بعد أن أوضحت حالتها بكل صراحة :

— إنكم تستطيعون تسليمي الى الشرطة إن شئتم ، ولكني لا أستطيع أبداً أن أفكر أنكم فاعلون ذلك .

ولقد ذعروا كثيراً حتى لم يغمض لهم جفن طوال الليل ، وهم ينتظرون بين لحظة وأخرى أن يقرع بابهم . ولكنهم لم يسلموها ، وفي صباح الغداة ضحكوا للمغامرة من كل قلوبهم .

وفي مرة ثالثة أيضاً ، تنكرت في زي راهبة ، وسافرت في ذات العربة وفي المقعد المجاور لمقعد الجاسوس الموكل إليه مراقبتها . لا بل إنه راح يروي لها متباهياً مزهواً كيف يتتبع آثار تلك المرأة بكل مهارة وحنكة ، وكيف أنه

واثق من ركوبها في قاطرة من الدرجة الثانية في القطار ذاته . وكان يغادر مقعده في كل محطة ليبحث عنها ، ثم يقول للراهبة عندما يعود :

إني لا أراها . فلا ريب أنها استسلمت للنوم . إنهم يتعبون كثيراً هم أيضاً ، فحياتهم ليست أسهل من حياتنا على الاطلاق .

وضحكت الأم كثيراً ، وهي تختلس النظر بحنان الى صوفيا التي تروي هذه الأقاصيص . كانت الفتاة تنتقل ، ممشوقة القد نحيلة القوام ، بخفة وثبات على رجليها الرشيقتين ؛ وفي خطوها وأسلوبها في الحديث ، وفي رنين صوتها المرح الأجش قليلا ، وفي كل هيكلها المنتصب ، شيء جريء مقدام يطفح صحة وقوة . كانت تقترب من كل الأشياء في فتوة ، وتجد ما يحمل لها السرور في كل ما تقع عليه عيناها . هتفت مرة ، وهي تشير الى إحدى الأشجار :

— يا لها صنوبرة رائعة !

فتوقفت الأم ونظرت الى حيث تشير . ولم يكن في الصنوبرة شيء يميزها على مثيلاتها مطلقاً .

ضحكت ، وهي ترى الريح تداعب خصلاً من الشعر الشائب فوق أذن المرأة المرافقة لها ، وقالت :

نعم ، إنها لشجرة رائعة حقاً .

— قبرة !

والتمعت عينا صوفيا الرماديتان حناناً ، ومال كل جسدها نحو موسيقى القبرة غير المنظورة ، المترددة في السماء الصافية . ومن حين لآخر ، كانت تنحني برشاقة لتلتقط زهرة برية تمسح أوراقها المرتعشة بأصابعها الرقيقة ، السريعة الحركة ، وهي تدندن لحناً فائق العذوبة .

كان كل هذا يجتذب الأم الى الفتاة ذات العينين الرماديتين ، وهي تسير إلى جانبها ، ساعية ألا تتأخر عنها ، ولكن صوفيا كانت تتحدث في قسوة وحدة في

بعض الأحيان ، فتأسف الأم لذلك ، وتفكر في قلق :

— إن ميخائيلو لن يحبها .

ولكن صوفيا لا تلبث ، في اللحظة التالية ، أن تعود الى الحديث في بساطة وحرارة ، فتنحو الأم بصرها اليها وتبتسم .

تنهدت :

— يا لك فتاة في ريعان الصبا بعد .

فهتفت صوفيا :

— إني قد بلغت الثانية والثلاثين .

فابتسمت بيلاجيا وقالت :

— ليس هذا ما أعنى ! إن مظهرك يوحي بأنك أكبر سناً أيضاً . ولكني عندما أصغي اليك ، وأنظر في عينيك ، تأخذني الدهشة دائماً . . . لتشبهين كل الشبه صبية صغيرة . لقد كانت حياتك صعبة قاسية مضطربة ، وخطرة أيضاً ، ومع ذلك فان قلبك يبتسم أبداً .

— إني لا أعير صعوبة الحياة أدنى انتباه ، لكنه يخيل إليّ أحياناً أنه ليس إنسان حياته أفضل وأكثر مثاراً للاهتمام من حياتي . لسوف أناديك باسم أبيك .. نيلوفنا . إن اسم بيلاجيا لا يروقني كثيراً .

فقالت الأم مفكرة :

— ناديني كما تشائين ، كما تشائين ما دام ذلك يروقك . إني لا أفتأ أنظر إليك وأصغي بسمعي وأفكر . وإنه ليسعدني أنك وجدت السبيل الذي يقود إلى القلب البشري ، فليس من يمتنع عن الاعتراف لك بكل ما يجري في باطنه دون خلجة خوف مطلقاً . إنه يفتح لك قلبه من تلقاء نفسه . وإني أتأمل فيكم جميعاً ، فلا تفارقني هذه الفكرة لحظة : إنهم سينتصرون أخيراً على الشر في الحياة ، لا بد أنهم منتصرون .

فقالت صوفيا بصوت مرتفع ، وبلهجة من يأتمن الآخر سراً :

— إننا واثقون من الفوز لأننا متحدون مع العمال . إن قوة كبرى تكمن فيهم ، وكل شيء يمكن تحقيقه معهم . ينبغي فقط أن نجعلهم يدركون قيمتهم الخاصة ، حتى يكونوا أحراراً في تنمية ...

وأثارت كلماتها إحساسات مختلطة في قلب الأم ، ولسبب ما لم تدر له كنهاً ، أشفقت على صوفيا ، وإن كان إشفاقها ودياً عطوفاً ، لا أثر للاساءة فيه . وودت أن تسمعها تقول كلمات أخرى ، كلمات تكون أبسط مما قالته .

سألت في هدوء وكآبة :

— ومن سيكافئكم على جهودكم ؟

فأجابت صوفيا :

— لقد نلنا مكافأتنا :

وبدا للأم أن الكلمات ترن في اعتزاز وفخر .

— لقد وجدنا طريقة في الحياة ترضينا . إننا نعيش بكل القوى الروحية التي فينا ... ما عسانا نسأل الحياة غير هذا ؟

نظرت الأم إليها ثم أطرقت بناظريها . وفكرت مرة أخرى :

— إن ميخائيلو لن يحبها .

كانتا تسيران بخفة ، ولكن دون عجلة ، تعبان الهواء الرقيق ، فيؤتى للأم أنها تذهب في حج إلى بعض الأمكنة المقدسة . وتذكرت الفرح الذي كان يملأ قلبها في طفولتها ، عندما كانت تغادر قريتها لتحضر بعض الخدمات الكنسية في بعض الأعياد في دير بعيد فيه أيقونة عجائبية .

وكانت صوفيا تنشد في بعض الأحيان مقطوعات من الأغاني عن السماء أو عن الحب بصوت ناعم حنون ، أو تلقي بعض القصائد عن

الحقول والغابات والمروج ، فتستمع الأم إليها وتبتسم ، وهي تهز رأسها ، دون إرادة منها ، بصورة موزونه مع الشعر الذي تغمرها موسيقاه وتسحرها .

كان كل شيء في داخلها دافئاً ، هادئاً ، مستغرقاً في التفكير ، فكأنها تجلس في زاوية هادئة في إحدى الحدائق ، ذات أمسية من الصيف الجميل .

***

٥

بلغتا غايتها في اليوم الثالث ، فتوجهت الأم بالسؤال إلى موجيك كان يعمل في الحقول تستفهم منه عن موقع معمل القطران ، وسرعان ما كانتا تنحدران على طول ممر مائل وعر أرومات الأشجار فيه أشبه بدرجات سلم حقيقي ، أفضى بها إلى ساحة مستديرة تغص بالفحم والحطب ، وقد تلطخت في كل أرجائها بالقطران الكثيف .

قالت الأم ، وهي ترشق النظر فيما حولها بقلق وخشية :

ها نحن أخيراً هنا ...

وتبيَّنتا ، تجاه كوخ مبني من الخشب وأغصان الأشجار ، منضدة مصنوعة من ثلاثة ألواح من الخشب سُمّرت إلى أوتاد طويلة غرست عميقاً في الأرض ، وقد جلس إليها ريبين ، ملطخاً بالقطران من رأسه حتى قدميه ، محلول أزرار القميص ، بادي الصدر العاري ، برفقته يفيم وشخصان آخران يتناولون طعام الغداء . كان ريبين أول من لاحظ المرأتين ، فاستكف بيده وقبع ينتظر في سكون .

صاحت الأم به من بعد :

– اسعدت نهاراً ، أيها الأخ ميخائيلو .

فنهض ، وقحم إليها على مهلته ... وعندما عرف الأم توقف مبتسماً ،

وهو يمشط لحيته بيده السوداء . قالت الأم مقتربة منه :

- كنا في طريقنا إلى الحج ، فقلت في نفسي : فلنمر من هنا كي ألقي السلام على أخي . هذه صديقتي واسمها أنا .

وحدّقت عينيها ، فخوراً ببراعتها ، ترنو إلى وجه صوفيا الرزين الوقور .

قال ريبين وهو يصافحها وينحني لصوفيا ، مفترّ ثغره عن ابتسامة ملتوية :

— نعمت نهاراً . لا تكذبي ، فلسنا في المدينة الآن ، وليس من حاجة إلى اختلاق الأكاذيب ههنا . الجميع منا وفينا .

وتفحص يفيم الزائرتين ملياً من حيث يجلس إلى الطاولة ، ثم همس شيئاً ما في أذن صاحبيه . وعندما أطفئت المرأتان منه نهض وانحنى لهما في صمت ، أما رفيقاه فظلا دون حراك ، وكأنهما لم يلحظا الضيفتين .

أعلن ريبين ، وهو يربت على كتف الأم في لطف :

— إننا نعيش ههنا كالرهبان ، وليس من يأتي لرؤيتنا أبداً . لقد ذهب المدير في سفر ، ودخلت زوجته إلى المستشفى ، وأنا وحدي أتحمل أكثر أو أقل مسؤولية العمل . اجلسا . لا ريب أنكما بحاجة إلى الطعام . هلا أدركتها بشيء من الحليب ، يا يفيم ؟

فولج يفيم الكوخ متمهلا ، بينما تخلصت المسافرتان من حملهما . ونهض أحد الشابين ، وهو فتى نحيل العود طويل القامة ، ليساعدهما ؛ في حين ظل رفيقه الضخم ، الممزق الثياب ، مستنداً إلى المنضدة بمرفقيه ، يراقبهما متأملاً ، وهو يحك رأسه ويصفر لحناً في الوقت ذاته .

كانت رائحة القطران الخانقة ، الممتزجة برائحة أوراق الشجر المحترقة ، تحاصر المرأتين وتكاد تفقدهما الوعي ...

قال ريبين ، مشيراً إلى الفتى الطويل :

— إن اسمه ياكوف ، أما الآخر فأغناطيوس ، حسناً ، كيف حال ابنك ؟

فأجابت الأم ، وهي تتنهد :

- إنه في السجن .

فهتف ريبين :

— مرة أخرى ؟ لا ريب أن السجن قد راقه !

كف أغناطيوس عن الغناء ، أما ياكوف فتناول الخرج من يد الأم قائلا :

— إجلسي .

وجمجم ريبين ، موجهاً الكلام إلى صوفيا :

— ما بالك واقفة هكذا ؟ إجلسي .

فجلست صوفيا على جزع شجرة تتفحص ريبين بامعان .

واتخذ ريبين مجلسه قبالة الأم ، وهز رأسه وقال :

— متى أوقفوه ؟ إنك معدومة الحظ ، يا نيلوفنا .

فردت :

- لا بأس في ذلك !

— لقد اعتدته ؟

— كلا ، لم أعتده ... بل أرى جيداً أنه لا حيلة لي فيه .

— وَيْ ! حسناً ، هاتي حدثينا عن ذلك .

جاء يفيم بأبريق من الحليب ، وتناول قدحاً على المائدة ، وغسله ، وملأه بالحليب ثم قدمه إلى صوفيا ، مرهفاً السمع أثناء ذلك إلى رواية الأم . كان حريصاً على ألا يثير ضوضاء ، فيتحرك في هدوء وحذر فائقين . وعندما انتهت الأم من روايتها المقتضبة ، ساد الجميع صمت عميق لم يتبادلوا النظر أثناءه أبداً . وكان أغناطيوس جالساً إلى المنضدة يحك ألواحها الخشبية بأظافره ، أما يفيم فقد وقف خلف ريبين مرتفقاً كتفه ، بينا استند ياكوف بظهره إلى جذع إحدى الأشجار متصالب الذراعين ، مطأطأ الرأس . وجثمت

صوفيا في صمت تسترق النظر الى وجوه الفلاحين ...

همهم ريبين بصوت متثاقل شرس :

— هم - م - م ... هكذا إذن - على المكشوف

وجمجم يفيم ، وعلى شفتيه ابتسامة مرّة :

— لو أننا نظمنا يوماً مظاهرة كهذه هنا ، لضربنا الفلاحون حتى الموت .

فوافق أغناطيوس بحركة من رأسه :

— بكل تأكيد سوف يقتلوننا . كلا ، سأذهب وألتحق بأحد المصانع . فالأمور هناك أفضل بكثير .

وسأل ريبين :

— تقولين أنهم سيقدمون بافل إلى المحكمة ؟ ما نوع الحكم الذي سيصدرونه عليه ؟ هل بلغك شيء عن هذا ؟

فأجابت في هدوء :

— الأشغال الشاقة ، أو النفي المؤبد في سيبيريا .

فاستدار اليها الفتيان الثلاثة في وقت واحد ، في حين خفّض ريبين رأسه واستوضح :

— أكان يعرف ما ينتظره عندما ارتكب فعلته ؟

فردت صوفيا بصوت مرتفع :

— أجل ، كان يعرف .

فسكن الجميع حتى لا حراك بهم ، وكأن فكرة واحدة قد جمدتهم .

وتابع ريبين في قسوة وخطورة :

— هم - م . . وأنا أعتقد أيضاً أنه كان يعرف ذلك . فهو لن يقفز في الظلمة أبداً ، لأنه أكثر رزانة وجداً من أن يفعل ، هل سمعتم هذا ، أيها الفتيان ؟ لقد كان يعلم أنهم سيغمدون حرابهم في جسده ، أو يرسلون به إلى

سيبيريا، ولكن هذا لم يوقفه . . . ولو أن أمه نفسها اعترضت سبيله، لحطامن فوقها دون تردد . أما كان يفعل ذلك ، يا نيلوفنا ؟

فقالت الأم ، وهي ترتعش :

— بلى ، كان يفعل .

وتنهدت ، وتطلعت حولها ، فربتت صوفيا بلطف على يدها ، بينما راحت تحدج ريبين بقسوة والعبوس قد علا وجهها .

قال ريبين في هدوء ، وهو ينظر إليها بعينيه السوداوين :

— إنه لباسل مقدام حقاً !

ومرة أخرى لاذ الأشخاص الستة بالصمت. كانت شعاعات رائعة من الشمس تتعلق في الفضاء مثل أشرطة زاهية مذهبة ، وفي مكان ما ينعق غراب بشع الصوت. وراحت الأم تحمج عينيها في الأشياء المحتفة بها ، وقد أزعجتها ذكريات أول أيار ، واشتياقها إلى بافل وأندريه معاً . وكانت براميل فارغة من القطران مبعثرة في الساحة الصغيرة، مختلطة هنا وهناك بجذوع أشجار مشذبة مقطوعة عن أرومتها . وعلى حافة الساحة تقف أشجار السندان والأبنوس دون حراك يوحد الصمت بينها ، وهي تلقي على الأرض بظلال داكنة سود .

وعلى حين بغتة ، صدر ياكوف عن الشجرة ، وخطا جانباً واستفسر بصوت مرتفع ، وهو يرمي رأسه إلى الخلف :

— أضدّ فتيان مثله سيرسلون بنا ، أنا ويفيم ؟

فأجاب ريبين :

— وضدّ من تظنهم سيرسلون بكما إذن ؟ إنهم يستعملون ذات أيدينا ليخنقونا بها .. ذلك هو سر اللعبة كلها .

فزفر يفيم في جفاء :

— ولكنني سألتحق بالجيش على أية حال .

وصاح أغناطيوس :

- ومن يمنعك من ذلك ؟ هيا اذهب .

ثم أضاف ، باعثاً ضحكة قصيرة :

- لكن اعمل على تسديد المرمى الى رأسي تماماً عند ما تطلق النار علي ... لا تجعل مني مُقعداً ، بل اقتلني رأساً ، بطلقة واحدة .

فرد عليه بيفيم في حدة وجفوة :

- سمعت منك هذا قبلاً .

وقال ريبين ، وهو يرفع يده :

- انظروا لحظة ، أيها الفتيان . هذه امرأة (وأشار إلى الأم) ، لا ريب أن الأمر قد انتهى بالنسبة إلى ابنها ...

فسألته الأم في ألم :

- فيمَ تقول هذا ؟

فأجاب في وقار :

- لا مناص من ذلك . وهكذا فإن شعرك لن يشيب عبثاً . هل تعتقدون أنهم قد قتلوها بما فعلوا بابنها ؟ نيلوفنا ، هل جئت بالمناشير ؟

فحدجته الأم بنظرها ، ثم وافقت بعد صمت قصير :

- نعم ...

فزمجر ريبين ، وهو يضرب المائدة بقبضة يده :

- هل رأيتم ؟ لقد عرفت ذلك منذ اللحظة التي رأيتها فيها . وإلا فما الذي جاء بك حتى هذا المكان؟ هل أدركتم هذا؟ لقد انتزعوا ابنها من بين الصفوف.. فأخذت أمه مكانه :

وأرسل يميناً مغلظة ، وهو يهز قبضته في الفضاء .

نظرت الأم في وجهه ، وقد ذعرت لصياحه هذا ، فألفته قد تبدل كثيراً : أصبح أكثر نحولاً ، وأضحت لحيته شعثاء ، تبدو من تحتها عظام وجنتيه البارزة ، وقد ظهرت في بياض عينيه المزرق أوردة حمر دقيقة ، فكأنه لم ينم منذ زمن

طويل ، وانقرص أنفه وتقوس فأضحى كمنقار عصفور مفترس . وكان قميصه المفتوح الأحمر اللون فيما سبق من الزمان والمشرب الآن بالقطران الفاحم ، يكشف عن عظام ترقوتيه الناتئتين ، وشعر صدره الكثيف الأسود . وكان مظهره العام أكثر عبوساً واكتئاباً منه في أي وقت مضى ، وفي عينيه الملتهبتين تتأجج نار غضبي ، فتضيء وجهه القاتم وتغمره بالنور .

كانت صوفيا تجلس في صمت ، يفوق اصفرارها شحوبه ، معلقة أنظارها أبداً بهؤلاء الفلاحين . أما أغناطيوس فيهز رأسه وقد زوى ما بين عينيه ؛ بينما راح ياكوف ، وقد اتخذ مكانه من جديد بجانب الكوخ ، ينزع بمرح بعض قشور الشجر القريبة منه ، وييفيم يتمشى جيئة وغدوة على طول المنضدة ، خلف ظهر الأم ... واسترسل ريبين يقول :

— قبل فترة قصيرة دعاني مدير ناحيتنا اليه ، وقال لي : ما هذا الذي ترويه للكاهن ، يا أيها الوغد ؟ » . فقلت له : « لماذا تدعوني وغداً ؟ إني أكسب خبزي بعرق جبيني ، ولا أنال أحداً من الناس بأذى » . فأخذ يزعق في وجهي ، ولطمني على أسناني ، ثم ألقى بي في السجن طوال ثلاثة أيام . ولقد فكرت : إذن فهكذا أنتم تخاطبون عامة الناس ، أليس كذلك ؟ إذن فلا تنتظر منا أن ننسى ذلك ، يا أيها الشيطان العجوز ! فاذا لم أثأر منك أنا ، فان سواي سيفعل ، ويثأر لاهانتي منك أو من أولادك ... لا تنس هذا ! لقد حرثتم صدور الناس بمخالبكم الفولاذية هنا ، وزرعتم الحقد هناك ، فلا تنتظروا إذن أية رحمة ، يا أيها الأبالسة ! » تلك هي القضية !

كان وجهه مختقناً بما يفور في صدره من غيظ عنيف ، وفي صوته نبرات أثارت الذعر في قلب الأم .

وتابع في هدوء أعظم من ذي قبل :

— وما الذي قلته للكاهن ؟ كان يجلس الى بعض الفلاحين يتحدث إليهم بعد أن قام بجولته المعتادة في القرية ، يتحدث إليهم قائلاً ما معناه أن عامة الناس

قطيع من الغنم يحتاج أبداً إلى من يرعاه . حسناً ، لقد قلت له في شبه مزاح : « إذا ما أقاموا الثعلب مرة رئيساً على الحيوانات ، فان الأرياش هي التي ستطير بدل العصافير » . فهز رأسه يتوعدني ، وراح يعظ كيف ينبغي للناس أن يتعذبوا طويلا ، وأن يصلوا الى الله كي يهبهم القوة لتحمل تجاربهم ومصائبهم . فقلت له عندئذ : « إن الناس لا ينقطعون عن الصلاة في حالهم الحاضرة ، ولكن الله فيما يبدو مشغول جداً عن الاصغاء إليهم مادام لا يستجيب لأية صلاة من صلواتهم ». حسناً ، لقد سألني عندئذ عن الصلوات التي أتلوها ، فأجبته : « صلاة واحدة لم تتبدل طوال حياتي،مثلي في ذلك مثل عامة الناس . أيها الرب العزيز ، أرجو أن تعلمني كيف آكل الحجارة ، وكيف أبصق ألواح الخشب ، وكيف أجر قطع القرميد الى قصور الأسياد » . ولكنه لم يعطني الفرصة كي أنهي كلامي .

واستدار ريبين بغتة الى صوفيا ، وسأل :

— أأنت سيدة من طبقة النبلاء !

فسألت صوفيا بسرعة ، وهي تنتفض دهشة :

— لمَ من طبقة النبلاء ؟

فقال ريبين ضاحكاً :

— لمَ ؟ لأنك ولدت هكذا فيما أعتقد . إنه نصيب كل إنسان أن يكون ما ولد . حسناً ، أتظنين في استطاعتك إخفاء خطايا الأسياد تحت هذا الوشاح القطني الذي تغطين رأسك به ؟ إننا نعرف الكاهن ولو رأيناه محزوماً في كيس من الخيش . إنك ترتعشين وتكشرين اذا ما وقع مرفقك على سائل أهرق على المائدة . وإن ظهرك لكثير الاستقامة بالنسبة لامرأة عاملة ....

فتدخلت الأم في الموضوع ، وهي تخاف أن تؤذي كلماته الساخرة القاسية شعور صوفيا . قالت :

— إنها صديقتي ، يا ميخائيلو إيفانوفيتش ، وامرأة طيبة رائعة . لقد شاب

شعرها وهي تعمل في سبيل قضيتنا . إنك تذهب إلى أبعد مما ينبغي ...

فأطلق ريبين زفرة عميقة وقال :

ـ ولكني لم أقل شيئاً يسيء إلى أي إنسان كان ؟

فعقبت صوفيا في جفاء :

ـ أظنك كنت تريد أن تقول لي شيئاً ؟

ـ أنا ؟ آه ، نعم ؟ لقد جاء الى هنا ، قبل زمن غير بعيد ، فتى في ريعان الصبا هو ابن عم ياكوف . إنه مريض بالسل ، هل أرسل في طلبه ؟

فجزمت صوفيا :

ـ بكل تأكيد .

فحدجها ريبين من خلال عينيه المتضيقتين ، ثم التفت الى يفيم قائلا بصوت خافت :

ـ إذهب واطلب اليه أن يأتينا هذا المساء .

فتناول يفيم قبعته ، ثم اختفى في الغابة دون أن يقول شيئاً أو ينظر إلى أحد من الحاضرين . وأشار ريبين نحوه برأسه ، ثم أعلن :

ـ إنه يتألم كثيراً هذه الأيام . وسيطلب قريباً مع ياكوف الى خدمة العلم. وياكوف لا يهتم بذلك ، بل يقول : « لست أستطيع الذهاب » . وذلك لا يستطيع الذهاب أيضاً ، ولكنه سيذهب مع ذلك . وهو يعتقد أن في مكنته تحريض الجنود . أما أنا فأراهن أنه يشبه الوعل الذي ينطح الصخرة ليوهنها. يكفي أن ينظر المرء إليهم ... اذا ما وضعت حربة في أيديهم مرة انطلقوا لا يلوون على أي شيء آخر . وقد تألم كثيراً بسبب ذلك حتى الآن ، وأغناطيوس هذا يضرب دائماً على ذات الوتر . هذا عبث كله !

فقال أغناطيوس مكتئباً ، من غير أن يتطلع إلى ريبين :

ـ بل على العكس فيه المعنى كله . إنهم سيطبخونه هناك ، ولسوف يطلق

النار من أجلهم مثل الآخرين تماماً .

فأجاب ريبين متألماً :

ـ لا أصدق هذا وإن كان يفضل ألا يذهب مطلقاً . إن روسيا بلد واسع ـ فأين يمكنهم العثور عليه ؟ عليه أن يحصل جوازاً مزيفاً ثم يتنقل من قرية الى أخرى .

فأفاض أغناطيوس ، وهو يلطم قدمه بقضيب رفيع :

ـ هذا ما سأفعل أنا . فاذا أنت قررت أن تكافحهم مرة فلا بد لك من الذهاب قدماً باستمرار .

وانقطع الحديث .. كانت جموع النحل والزنابير تحوم في الفضاء في انهماك واضطراب ، مالئة الهواء بدويها المزعج ! وكانت العصافير تزقزق ، وأغنية بعيدة تتيه عبر الحقول على غير هدى ...

قال ريبين بعد صمت قصير :

ـ حسناً ، حان حين العودة الى العمل . لعلكما تودان أن تنالا بعض الراحة ؟ ثمة فرش في الكوخ. إذهب واجمع بعض الأوراق الجافة، يا ياكوف. أما أنت يا أماه ، فأعطيني المناشير .

فشرعت الأم وصوفيا تحلان جرجيهما ...

صاح ريبين سعيداً مبتهجاً ، وهو ينحني فوق الكتب :

ـ ما أكثر ما جلبتما ! أأنت تشتركين في هذا العمل منذ زمن طويل ، يا ... ما اسمك ؟

فأجابت صوفيا التي وجه اليها السؤال الأخير :

ـ آنا إيفانوفنا . اثنا عشرة سنة . لم السؤال ؟

لا شيء على التعيين . لا ريب أنك دخلت السجن ؟

نعم !

فقالت الأم بلهجة عتاب :

- هل ترى ؟ ولقد كنت قاسياً تجاهها ...

فغمغم بعد فترة صمت تناول خلالها رزمة من الكتب :

لا تغضبي. إن السادة والفلاحين يشبهون القطران والماء ، لا يتمازجون.

فاعترضت صوفيا ، وهي ترسل ضحكة قصيرة :

- ولكني لست من الأسياد . إنما أنا كائن بشري .

فجمجم ريبين :

- ربما ! يقال إن الكلاب كانت ذئاباً فيما غبر من الزمن . أنا ذاهب أخبىء هذه البضاعة .

فاقترب منه أغناطيوس ويا كوف وقد مدا أيديهما . قال يا كوف :

- دعنا نطلع عليها .

فسأل ريبين صوفيا :

— أمحتوياتها واحدة ؟

— كلا ، بينها بعض المناشير ، وكذلك بعض الصحف .

— حقاً ؟

وأسرع ثلاثتهم يدلفون الى الكوخ... بينا راحت الأم تشيع ريبين بنظرها، وهي تقول مفكره متأملة :

- إن الموجيك يلتهب .

فردت صوفيا ؟

— أجل ، اني لم أر مثل وجهه من قبل - وجه شهيد . فلندخل نحن أيضاً . لفي نيتي مراقبته !

فقالت الأم في وداعة ولطف :

— لا تغضبك قسوته .

فضحكت صوفيا ، وقالت :

- ما أطيبك ، يا نيلوفنا !

ولما بلغتا العتبة رفع أغناطيوس رأسه ، وجسّهما بنظرة سريعة ، ثم أرسل أصابعه في شعره المجعّد ، وانحنى فوق الصحيفة المنشورة على ركبتيه ، كان ريبين يقف تحت شعاع من الشمس يتسلسل من فرجة في السقف ، وهو يقرأ صحيفته على نوره ، ويحرك شفتيه أثناء ذلك . أما ياكوف فقد جثا أمام كومة من المناشير المنشورة على الدكة .

عبرت الأم الكوخ الى إحدى زواياه وجلست ، بينما وقفت صوفيا خلفها وقد وضعت إحدى يديها على كتفها تراقب الرجال في سكون .

قال ياكوف في هدوء ، دون أن يرفع رأسه عن صحيفته :

— إنهم يشبعوننا شتماً ، نحن الفلاحين ، أيها العم ميخائيلو .

فأرغف إليه ريبين ، وضحك قائلا :

- ذلك لأنهم يحبوننا .

فأرسل أغناطوس نفَساً عميقاً ، ورفع رأسه .

إن الصحيفة تقول هنا : « قد ضيّع الفلاح كل صلة بالكائن الانساني » . بالطبع ضيع ذلك .

ومر على وجهه البسيط الصريح السيماء ظل إهانة وإذلال .

- تعال وتسلق مكاني نفسه ، أيها العالم العظيم ، رابق ههنا مدة ، واسوف نرى ماذا تشبه عندئذ .

وقالت الأم لصوفيا :

- سأضطجع قليلا . إني متعبة نوعاً ما ، وهذه الرائحة تكاد تفقدني الوعي . وأنتِ ؟

- لست أريد شيئاً .

تمددت الأم على دكة في الزاوية وشرعت ثقلة الكرى تدب في أجفانها . وجلست صوفيا الى جانبها تراقب القراء . وهي تطرد في رفق وحنان كل نحلة أو زنبور يقترب من المرأة العجوز فيعكر صفو راحتها. ولاحظت الأم ، من خلال أهدابها المسبلة ، هذا الحنان وذلك الرفق ، وكانت بهما سعيدة .

زرف ريبين إليها ، وقال في همس أجش :

ـ نائمة ؟

نعم .

فوقف فترة يتطلع في وجه الأم في سكون ، ثم تنهد وقال بصوت خفيض :

ـ إنها الأولى ، من دون أدنى ريب ، التي تبعت ابنها في هذه الطريق .

ـ يجب ألا نزعجها ، هيا بنا ..

ـ نعم يجب أن نعود الى العمل . وبودي أن أحادثك قليلا ، ولكن لا بد من تأجيل ذلك حتى المساء . هيا بنا ، أيها الفتيان .

وخرج ثلاثتهم مخلفين صوفيا وراءهم في الكوخ ..

وجعلت الأم تفكر :

ـ شكراً لله على أنهم تصادقوا .

واستغرقت في النوم ، ورائحة الغابات والقطران تملأ خيشومها ...

* * *

٦

رجع الفحامون الأربعة والشمس تكاد تكون دنفاً ، مبتهجين بانصرام يوم العمل ، فأيقظت ضوضاء أصواتهم الأم التي خرجت من الكوخ تتثاءب وتبتسم ، وتلقي عليهم نظرة حنوناً وهي تقول .

أنتم هناك تعملون وتتعبون ، وأنا أنام ههنا مثل سيده عظيمة .

فأجاب ريبين :

— أنت معذورة في هذا .

كانوا أكثر هدوءاً بعد أن بعثر الاجهاد انفعالهم وطاقتهم الفائضة ...

وعاد ريبين يقول :

— أغناطيوس ، ما رأيك في قليل من الشاي ؟ نحن نتناوب الدور هنا ، واليوم دور أغناطيوس في الاشراف على الطعام والشراب .

وقال أغناطيوس ، وقد شرع يجمع العيدان وبعض الأغصان اليابسة ليجمر بها ناراً :

- أكون سعيداً إن وجدت من يبادلني نوبتي هذا اليوم .

فأجاب يفيم ، وهو يجلس إلى جانب صوفيا :

- لست الوحيد الذي يود البقاء إلى جانب الضيفين .

وقال ياكوف :

سأمد لك يد المعونة ، ياأغناطيوس .

وهدف إلى الكوخ ثم رجع برغيف من الخبز قطّعه أقساماً صغيرة. ووضعها على الطاولة .

قال يفيم :

— أصغوا ! أسمع صوت سعال ...

فأصاخ ريبين بسمعه ، وهزّ رأسه ، ثم التفت إلى صوفيا موضحاً :

— إنه هو دون ريب . هذا شاهد حي قادم . لو كنت أملك حرية التصرف لذهبت به من مدينة لأخرى أعرضه في الساحات العامة حتى يتمكن الناس من سماعه ! إنه إبداً يعزف على الوتر نفسه ، ولكن واجب كل انسان أن يأذن له أحسن الاذن .

وازداد كلا الظلام والسكون عمقاً ، ورقت أصوات الرجال الأربعة وازدادت عذوبة ، وراحت صوفيا والأم تراقبان هؤلاء الفلاحين : إنهم يتحركون في بطء وتثاقل بفعل التعب والاجهاد ، وفي شيء من الحذر أيضاً . ويراقبونها بدورهم أيضاً في أناة وانتباه .

وبرز من الغابة شخص طويل القامة ، محدودب الظهر ، يعتمد في مسيره على عصا غليظة ، ويتنفس بصعوبة جمة لم تخف على أحد من الحاضرين .

قال :

— ها أنذا .

ثم راح في نوبة عنيفه من السعال ...

كان يرتدي معطفاً مهترئاً يبلغ عقبيه ، ومن تحت قبعته المستديرة المزقة تبدو خصل ناحلة من شعر أصفر مسبل تتدلى على صدغيه في إهمال وضعف . وكانت لحية شقراء تسبغ على وجهه الشاحب بعض الرونق ، فما لاتبرح شفتاه منفرجتين أبداً ، وعيناه تبرقان في حمى شديدة وهما تغوصان في محجريها الغائرين اللذين

أشبها بكهفين قاتمين مغرقين في الظلمة . توجه إلى صوفيا قائلاً ، بعد أن قدمها ريبين إليه :

— بلغني أنك جلبت كتباً معك ؟

فأبانت :

— أجل .

- شكراً لك ، بالنيابة عن الشعب بأسره ... إنه لايستطيع إدراك الحقيقة بعد . أما أنا الذي أعرفها فأشكرك ... بالنيابة عنه .

وتسارع تنفسه ، وهو يختطف الهواء بجرعات صغيرة نهمة . كان صوته متكسراً متقطعاً ، وأصابعه الرقيقة تنزلق باستمرار على صدره بعصبية ظاهرة وهو يحاول أن يشكل أزرار معطفه .

قالت صوفيا :

— إن قدومك عبر الغاب في مثل هذه الساعة المتأخرة من المساء أمر لايصلح لك ، فالأشجار تجعل الهواء رطباً ثقيلاً كما تعلم .

فأجاب لاهثاً منقطع الأنفاس :

— لم يعد شيء يصلح لي بعد اليوم . الموت وحده يصلح لي الآن .

كان الانصات إلى صوته يؤلم كثيراً ، ومحمل شخصه يثير في النفس تلك الشفقة الفائضة العديمة النفع ، المدركة عجزها بحيث تبعث في الانسان مزيجاً من الأسف والمرارة الشديدين . واقتعد القادم الجديد أحد البراميل ، وهو يطوي ركبتيه في حذر وحيطة كثيرين ، فكأنه يخاف أن تنكسرا ؛ ثم شرع يمسح العرق عن جبهته حيث يرتمي شعره جافاً عديم الحياة . وخبخبت النار والتظت فاضطرب كل ما يحيط بها وترنح ، واندفعت الظلال التي لحسها اللهيب نحو الغابة في ذعر ، بينا لاح وجه اغناطيوس المستدير بوجنتيه الملتهبتين فوق النار برهة من الزمن . ثم خبا اللهب فانتشرت في الفضاء رائحة دخان حادة ، ومن جديد ساد ...

الظلام والسكون الساحة ، فكأنهما يتربصان لسماع كلمات الرجل المريض المبحوحة .

— أستطيع بعدُ أن أكون ذا نفع لعامة الناس ... كشاهد حي على جريمة عظمى — أنظروا إلي ههنا ... أموت في سن الثامنة والعشرين .. قبل عشر سنوات كنت أرفع على كتفي دون أدنى عناء ما ينيف عن المائتين من الكيلوغرامات . وكنت أفكر أني أستطيع بكل سهولة ، بتلك البنية المتينة أتمتع بها ، أن أعيش حتى السبعين .. ولكني لم أعش أكثر من عشر سنوات .. والآن ... إنها النهاية . لقد سرقني رؤسائي ... سرقوا مني أربعين سنة من حياتي .. أربعين سنة .

وقال ريبين بصوت أجش :

— تلك هي الأغنية التي يغنيها أبداً .

وتأججت النار مرة أخرى ، أكثر لمعاناً وقوة ؛ ومرة أخرى هربت الظلال الى الغابة ، ثم اندفعت راجعة حتى اللهيب وشرعت ترتجف حوله في رقص عدائي أخرس، وراحت العيدان الرطبة تئن وتصرصر، وأوراق الأشجار تخشخش سائرة في تيار الهواء الدافئ . وتعانقت ألسنة مرحة من لهب أحمر وأصفر وهي تلعب في نشاط وحيوية ، وتبعثر باقات من الشرر إذ تندلع متطاولة في الفضاء الواسع . وحلقت ورقة متفحمة في الهواء ، وفي سماء الليل ابتسمت النجوم باشة للأرض ، هاشة للشرر تناديه في إغراء أن يأتي إليها .

— ليست هي أغنيتي ، بل النشيد الذي يغنيه ألوف البشر من غير أن يجول في إدراكهم أية أمثولة عظيمة للشعب هي حيواتهم البائسة الشقية ... كم من الناس الذين أقعدهم العمل وشوههم يقضون جوعاً ... دون من يدري بموتهم ...

وانطوى على نفسه ، مرتجفاً ، وقد انتابته نوبة عنيفة من السعال .

وضع يفيم جـردلاً من الكفـاس وجرزة من البصل الأخضر على المـائدة وقال :

ــ تعال هنا ، يا سافيلي ، لقدجئتك بقليل من الحليب .

فهز سافيلي رأسه نفياً ، ولكن ياكوف أخذه من ذراعه ، وقاده حتى الطـاولة .

قالت صوفيا لريبين بصوت خافت ولهجة عتاب :

لمـاذا تأتون به الى هنا ؟ قد يموت بين لحظة وأخرى .

فأجاب ريبين موافقاً :

ــ أعلم هذا ، لكن فليتكلم في انتظار ذلك ما استطاع إلى الكلام سبيلاً . لقد ذهبت حياته دون جدوى ، فليتحمل بعض العذاب أيضاً من أجل غـاية نبيلة . وليس هذا بالشيء الكثير عليه ، فلا تقلقي ...

فهتفت صوفيا :

ــ لكأنك تتلذذ بذلك !

فحدجها ريبين بنظره ، ثم قال في اكتئاب :

ــ إنهم سادتكم الذين يتلذذون بالاعجاب بيسوع المسيح عندما ينظرون إليه يتأوه على الصليب ويتعذب . لكننا نريد أن نتلقى درساً من هذا الرجل ، ونريدكم على آن تأخذوا درساً أنتم أيضاً ...

فرفعت الأم أحد حاجبيها في قلق ، وقالت :

ــ يكفي هذا الآن .

ومرة أخرى ، عاد الرجل المريض يقول من حيث جلس إلى المائدة :

ــ لماذا يقتلون الناس بالعمل ؟ لماذا يسرقون الانسان حياته ؟ إن مدرنا ــ لقد ضيعت حياتي في مصنع نيفيدوف ــ إن مدرنا قد أهدى لاحدى المغنيات طستاً وإبريقاً من الذهب كي تغتسل بها . لا بل أهدى لهـا أصيصاً من الذهب

لتضعه تحت سريرها . إن قواي وحياتي قد ذهبت جميعاً في هذا الأصيص!
ذلك ماوهبت حياتي من أجله إذن ! إن رجلاً قد أفناني في العمل حتى
يستطيع تسلية عشيقته بدم حياتي ! ابتاع لها أصيصاً من الذهب بدم حياتي .

وقال يفيم في احتقار :

ـ لقد خلق الانسان على صورة الله ومثاله ، وإليكم ماتفعلون به .

فزعق ريبين ، وهو يضرب المائدة براحة يده :

ـ ولكن يجب أن تعلن ذلك على رؤوس الأشهاد !

وأضاف ياكوف بصوت خافت :

ـ يجب ألا تتحمله خاضعاً !

وأرسل أغناطيوس ضحكة قصيرة . ولاحظت الأم أن هؤلاء الفتيان الثلاثة يصيخون السمع إلى ريبين بانتباه عظيم كلما فتح فاه بالحديث ، يتلقفون الكلام منه في فضول النفوس الجائعة ولهفتها غير المرتوية . ولكن كلمات سافيلي حملت إلى وجوههم ابتسامة غريبة تحوي معاني كثيرة واضحة من السخرية والتهكم ، خالية من أية ذرة من الأشفاق والرثاء للرجل المريض .

همست الأم بصوت خافت ، وهي تنحني نحو صوفيا :

ـ أهي الحقيقة مايقول ؟

فأجابت صوفيا بصوت مرتفع :

ـ ذلك صحيح طبعاً . لا بل إنهم كتبوا شيئاً عن هذه الهدايا في صحف موسكو .

وقال ريبين بصوت أجش :

ولكن المجرم لم يعاقب أبداً . وكان يجب أن يعاقب . كان يجب أن يقاد إلى الساحات العامة ، أمام سائر الناس ، وأن يقطع إرباً إرباً ، ثم يطرح لحمه المتفسخ إلى الكلاب . أواه ! إنه لقصاص عظيم ذلك الذي سينزله

الشعب بهم عندما ينهض . سوف يهرق الكثير من الدماء حتى يغسل الآلام التي عاناها . وتلك الدماء هي دماؤه نفسها ، قد امتصت من أوردته عينها ، فله الحق إذن أن يفعل بها مايحلو له .

وقال الرجل المريض :

- الطقس بارد .

فساعده يا كوف على النهوض والدنو من النار ...

كانت النار تتأجج في تألق عظيم ، وظلال عديمة الهيئة ترتجف حولها ، تراقب في دهشة وذهول ألاعيب اللهيب المرح . واقتعد سافلي أرومة قرب النار ، ومد يديه الجافتين الشفافتين نحو مصدر الحرارة . أشار ريبين إليه بحركة من رأسه ، وتوجه إلى صوفيا قائلاً :

— إنه يجعل الأمور أوضح منها في الكتب !... عندما تقتل الآلة عاملاً أو تنتزع إحدى ذراعيه يقولون إنها خطيئته هو . أما عندما يمتصون كل الدم من فتى في مقتبل العمر ، ثم يلقون به كالجيفة النتنة ، فذلك أمر لاتفسير له . أستطيع أن أفهم القتل المباشر ، ولكن تعذيب امرئ حتى الموت لمجرد مافي ذلك من تسلية ليس غير ، هذا مالا أستطيع له فهماً . لماذا هم يعذبون الشعب ؟ لماذا هم يعذبوننا جميعاً ؟ لمجرد مافي ذلك من تسلية لهم ، من أجل لذتهم الخاصة ، بحيث يمتعون أنفسهم على هذه الأرض ، وبحيث يستطيعون شراء مايشاؤون بالدم البشري ثمناً له .. يشترون مغنيات الأوبرا ، وجياد السباق ، وسكاكين الفضة ، وصحون الذهب ، ودمى ثمينة من أجل أولادهم : « اذهب أنت واشتغل ، اشتغل أكثر حتى أجمع مالاً من عنائك أبتاع به لعشيقتي إناء من الذهب » .

كانت الأم تستمع إليه بأذنها وتراقبه بعينيها ، وتلك الطريق اللامعة التي اختارها بافل ورفاقه تمتد من جديد أمام عينيها في ظلمة الليل الأدجن .

وعندما انتهى العشاء اقتربوا جميعاً من النار يحتفون بها ... كانت ألسنة اللهيب تلعق الخشب في شره عظيم ، والى الخلف منهم يرتفع ستار من الظلمة يكتنف الغابة والسماء معاً ... وقعد الرجل المريض يشخص إلى النار بعينين واسعتين ... وهو يسعل دون انقطاع . ويرتجف فكأن بقية الحياة فيه تناضل بفارغ الصبر كي تحرر نفسها من هذا الجسد الذي أرهقه المرض فناء به . وكانت انعكاسات النار تتراقص على وجهه عاجزة عن إحياء جلده الميت ... عيناه وحدهما كانتا تلتمعان بنار تخبو وتموت .

وانحنى ياكوف عليه ، وقال .

- ربما من الأفضل أن تدخل الكوخ ، ياسافيلي .

فاستفهم الرجل المريض ، وهو يبذل جهداً كبيراً :

ــ لمَ ؟ لم يبق لي وقت طويل أتمتع فيه بصحبة الناس .

ونظر حواليه ، ثم قال بعد صمت قصير :

ــ ما أحسن أن أكون معكم . عندما أنظر إليكم أفكر : لربما ستنتقمون لأولئك الذين سرقوا ، أولئك الذين قتلوا في سبيل الجشع .

لم يجبه أحد ، وسرعان ما استغرق في النوم ، وقد مال رأسه في ضعف على صدره ، فنظر ريبين إليه طويلاً ثم قال في هدوء :

ــ يأتي ، ويجلس هنا ، ويتكلم دائماً عن الشيء نفسه : الكائن البشري المخدوع . إن نفسه بأسرها طافحة بهذه القصة ، فكأنها ملصقة على عينيه فهو لا يرى شيئاً سواها على الاطلاق .

فقالت الأم متأملة :

ــ وما عساه يرى سوى ذلك ؟ إذا كان آلاف الناس يقتلهم العمل يوماً بعد يوم حتى يستطيع مدراؤهم أن يبعثروا المال ذات اليمين وذات اليسار على سائر



صوفيا

أنواع السخافات والمراء ، فما عساه يرى سوى ذلك ؟

وقال أغناطيوس :

إن الاستماع إليه مضجر ، فأنت إذا وعيت قصته مرة استحال عليك نسيانها بعد ذلك ، وهو لا ينفك يعزف اللحن نفسه دون انقطاع .

فأجاب ريبين في اكتئاب :

- وفي هذا اللحن حشر كل شيء بالنسبة إليه ، الحياة بأسرها ... يجب أن نفهم ذلك . لقد سمعت قصته عشرات المرات ، ومع ذلك ما برحت أرعى بعض الشكوك . ثمة لحظات في الحياة يرفض المرء فيها أن يصدق أن الانسان خسيس أبله هكذا ، بل يحب سائر الناس ويشفق عليهم ، الأغنياء والفقراء على حد سواء ... فالغني أيضاً قد ضل الدرب القويمة . تعمى عيون البعض من البرد والجوع ، وعيون البعض الآخر تعمى من الذهب . تلك هي القضية ! وعندئذ يفكر : « أواه ! أيها القوم الطيبون . يا إخوتي ، هلا تتحركون وتفكرون باخلاص ! تفكرون دون خوف ودون أن توفروا أنفسكم » !

وعرت الرجل المريض انتفاضة ، ففتح عينيه ، ثم استلقى على الأرض ، فنهض ياكوف دون ضوضاء ، ودلف الى الكوخ ، ثم رجع بغطاء من جلد الغنم ألقى به فوق ابن عمه ، ثم جلس من جديد إلى جانب صوفيا .

وكان اللهيب ذو الوجه القرمزي والابتسامة المتحدية ينير الأجساد السود التي تحيط به ، وأصوات الأصدقاء تمتزج بلطف بطقطقة الأخشاب العذبة وهمس النيران الرقيق .

وشرعت صوفيا تتحدث عن نضال شعوب العالم في سبيل حقهم في الحياة ، وثورات فلاحي ألمانيا القديمة ، وكوارث الارلنديين ومصائبهم ، وبطولات العمال الفرنسيين العظيمة وانتصاراتهم في معاركهم العديدة من

أجل الحرية . . .

وراحت تلك الحوادث التي زعزعت عالم المتخمين والجشعين تبعث الى الحياة في الغابة المكسوة برداء من المخمل الأسود يلقيه الليل على أكتافها ، وفي الساحة الصغيرة المحدودة بالأشجار ، المسقوفة بالليل القاتم، المضاءة بلهب النار الضاحكة، المحاطة بالظلال المدهوشة المادية . وفي الوقت ذاته راحت شعوب العالم تمر متزادفة ، دامية أنهكتها المعارك ، وأسماء المناضلين من أجل الحرية والحقيقة تتردد ، الواحد تلو الآخر ، وفي تألق رائع جميل .

كان صوت صوفيا الأجش قليلا يرن في رقة ، مثل صوت يأتي من الماضي السحيق ، ويوقظ الآمال ويوحى بالثقة . وكان الرجال يصغون في سكون الى قصة إخوانهم في الروح في البلدان الأخرى ؛ وبينما هم ينظرون في وجه المرأة النحيل الشاحب ، راحت القضية المقدسة لسائر شعوب الأرض ، قضية النضال الذي لا ينتهي من أجل الحرية ، تزداد أمام أعينهم وضوحاً وتصبح أقرب منالاً من مداركهم وأفهامهم . وكان كل الموجودين يلقى مطامحه وأفكاره في ماض بعيد يغطيه ستار مظلم دام ، أو يلقاها عند شعوب بعيدة أخرى مجهولة لديه لم يسمع عنها شيئاً حتى ذلك الحين ، فيروح يسهم ، قلباً وفكراً ، في حياة العالم حيث يجد أصدقاء قد وحدهم منذ زمن طويل العزم على تحقيق العدالة على الأرض ، موطدين ذلك العزم بما عانوا من آلام لا تقاس ولا تحصى ، وبما هدروا من دمائهم أنهاراً في سبيل تفتح حياة جديدة ، نيرة ، سعيدة . وكان الشعور بالقرابة الروحية مع سائر الناس يفيض وينمو ، وقلب جديد يولد على الأرض ، قلب يخفق بطموح ملتهب الى معرفة كل شيء ، والاحاطة بكل شيء .

كانت صوفيا تقول بصوت مفعم بالثقة والإيمان :

ـــ سوف يأتي ذلك اليوم الذي يرفع سائر شغيلة العالم فيه رأسهم

بشموخ ويقولون في عزم وتصميم : لقد اكتفينا ! وإننا لنأبى المزيد من هذه الحياة الشائنة . وعندئذ تنهار تلك السلطة الوهمية التي يتمتع بهـا أولئك الذين ليسوا أقوياء إلا بنهمهم وجشعهم . وتهرب الأرض من تحت أقدامهم فلا يجدون بعد ذلك ما تتشبثون به ...

وقال ريبين وهو يطرق برأسه :

— تلك هي القضية ! ليس هناك ما لا نستطيع له تحقيقاً إذا نذرنا أنفسنا له وبذلنا جهدنا في سبيله .

كانت الأم تنصت وقد ارتفع حاجبها الواحد عالياً وجمدت على شفتيها ابتسامة ذهول فرحه .. كانت ترى أن كل ما بدا لها في صوفيا من حدة ونزق - كل ما فيها من مغاير لطبيعتها غير ملائم لها - قد تلاشى الآن وذاب في سبيل حديثها الملتهب السوي . وأبهجها سكون الليل ، وتلاعب النار ، ومحيا صوفيا ، وأكثر من كل شيء آخر ذلك الانتباه الفائق الذي يعيرها إياه الفلاحون . كانوا جموداً يبذلون قصارى جهدهم كيلا يعكروا مجرى روايتها الهادئ ، خائفين أن يقطعوا ذلك الخيط النير الذي يربطهم بالعالم كله ويوحدهم معه . وبين الحين والحين ، كان أحدهم يضع في حذر شديد حطبة في النار حتى اذا ارتفعت باقات الشرر والدخان أبعدها عن المرأتين بحركات سريعة من يده .

ومرة نهض ياكوف على قدميه ، ونبر بصوت خفيض :

— انتظروا لحظة ...

وهرول الى الكوخ وعاد منه ببعض الثياب لف بها ، هو وأغناطيوس ، أكتاف المرأتين وأقدامها في سكون . وعادت صوفيا تتحدث من جديد فترسم لوحة عن يوم النصر ، وتنفخ في الحضور قوتها الخاصة ، وتوقظ فيهم شعوراً بوحدتهم مع سائر أولئك الذين يضحون بحياتهم في جهد ضائع يبذلونه في سبيل تسلية المتخمين الحمقى. ولم يضطرب قلب الأم لكلام صوفيا ، ولكن ذلك

الشعور العميق الذي أثارته روايتها في نفوس الجميع ملأ قلبها في الوقت ذاته رضى وإخلاصاً لسائر أولئك الذين يخوضون غمار الأخطار، واقفين حياتهم على إيصال منح المحبة والحقيقة والتفكير الشريف الى الذين غللتهم أصفاد العمل الثقيلة وأرهقهم قيوده .

كانت تفكر ، وهي تسبل جفنها على عينيها :

— كن لهم عوناً ، يا رب .

وعند الفجر ، لجأت صوفيا ، متعبة ، الى الصمت وهي ترمق بابتسامة لطيفة ما يحيط بها من وجوه عابسة ، غارقة في التفكير .

قالت الأم :

— قد آن لنا أن نرحل .

فرددت صوفيا في إعياء :

— نعم ، لقد آن لنا .

وصعّد واحد من الفتيان زفرة عالية ، بينا طفق ريبين يقول في عذوبة غير مألوفة عنده :

— من سوء الحظ أنكما ذاهبتان . أنت تتكلمين بصورة رائعة . وإنه لأمر عظيم حقاً أن نجعل الناس يعون وحدتهم وقرابتهم . وعندما يعرف المرء أن ملايين الكائنات تريد نفس الشيء الذي يسعى من أجله ، فان قلبه يزداد لطفاً ، وطيبة القلب قوة عظمى .

فغمغم يفيم بصوت مخفوض ، وقد نهض في عجلة وخفة :

— لو عاملت الناس في طيبه لانهالوا عليك بالجرفة من وراء ظهرك . ينبغي عليك الرحيل أيها العم ميخائيلو ، قبل أن تقع عين أحد عليهما . إذا لم نوزع الكراسات حتى تقوم السلطات بالتحقيق : من أين جاء هذا ؟ ولسوف يوجد شخص ما يتذكر : يشه ، إن امرأتين قد مرّتا من هنا ...

فقاطعه ريبين :

— حسناً ! شكراً أيتها الأم لهذا العناء . إنني أفكر طوال الوقت في بافل عندما أراك ، فلقد قطعت شوطاً بعيداً .

لقد لانت طباعه الآن ورقت ، فهو يبتسم ابتسامة عريضة دافئة .. وكان الطقس أرزاً، ومع ذلك فهو يقف هناك في قميصه، مفتوح الياقة مكشوف الصدر.

ورمقت الأم بنيته الضخمة طويلاً ، ثم أسدت أليه النضح في وهو وصداقة :

— يفضل أن ترتدي شيئاً ، فالطقس بارد .

فأجاب :

— الحرارة شديدة في داخلي .

وكان الفتيان الثلاثة يتهامسون وهم وقوف قرب النار ، بينما المريض عند أقدامهم يرقد مغموراً بجلد الخروف . وكانت السماء تشحب ، والظلال تذوب ، وأوراق الشجر ترتجف في انتظار الشمس .

قال ريبين وهو يشد على يد صوفيا :

— حسناً ! وداعاً إذن ! كيف يمكن أن نلقاك في المدينة ؟

فأجابت الأم :

— ليس لك إلا البحث عني .

ودنا الفتيان الثلاثة في تماهل من صوفيا يصافحونها ، الواحد تلو الآخر ، في لطف أخرق وسكون مطبق . كان من الواضح أن كلا منهم مفعم ، سراً ، بالامتنان والصداقة نحوها ، وأن ذلك الشعور يضايقهم بجدته دون أدنى ارتياب . كانوا ينظرون اليها صامتين ، بأعين أتعبها الأرق ، وهم يتأرجحون يمنة ويسرة ، يستندون الى هذه القدم تارة ، والى القدم الثانية تارة أخرى .

سأل ياكوف ؟

— ألا تشربان قليلاً من الحليب قبل أن ترحلا ؟

فقال يفيم :

ـ ولكن ، هل يوجد شيء منه ؟

فأعلن أغناطيوس في اضطراب ، وهو يمسح بيده على شعره :

ـ كلا ... لقد قلبت الوعاء فاندلق ...

وانفجر ثلاثتهم ضاحكين ...

كانوا يتكلمون عن الحليب ، ولكن الأم تشعر أنهم يفكرون في شيء آخر ، يتمنون لصوفيا ولها الخير العميم والحظ السعيد دون أن يعرفوا كيف يضعون أمانيهم في كلمات . ولقد أثر هذا في صوفيا بشكل جلي ، فأثار فيها شيئاً من الضيق ، وتواضعاً حيياً لم يسمحا لها أن تقول شيئاً ، اللهم إلا هذه الكلمات الثلاث التي ندت عنها بصوت ضعيف :

ـ شكراً ، أيها الرفاق .

وتراشق الفتيان النظر ، فكأن هذه الكلمة التي خاطبتهم بها قد رفعتهم وراحت تسبح بهم في عذوبة وهدوء .

وتردد سعال المريض الأجش ، في حين خبا ضياء الوقود في المصطلى حتى تلاشى .

قال الفلاحون بصوت خافت :

ـ وداعاً !

وظلت هذه الكلمة الحزينة تتردد بعد ذلك في آذان المرأتين زمناً طويلاً .

سلكتا ، في قيلولة الصباح ، دون تسرع ، الطريق التي قدمتا منها تحف الأشجار بها ، والأم تقول وهي تسير في أعقاب صوفيا :

ـ لشد ما كان ذلك رائعاً ممتعاً ، وكأنه في حلم جميل ! إن الناس يريدون معرفة الحقيقة ، يريدون ذلك ، ياعزيزتي ... وكل شيء يجري أشبه بما في الكنيسة ، قبل خدمة الصباح ، في يوم عيد عظيم ... إن الكاهن لم يأت بعد ، والجو لما يزل

مظلماً ، والهدوء يخيم على كل شيء حتى لياقي الذعر في قلب الانسان ، وهؤلاء الناس قد بدأوا يتوافدون ... ههنا امرؤ يشعل شمعة أمام الأيقونة ، وهناك شمعة أخرى تضاء و ... يطردون الظلمة شيئاً فشيئاً فتفسح المجال للنور في بيت الله .

فأجابت صوفيا في مرح :

- ما أصدق هذا ! اللهم إلا أن بيت الله ، ههنا ، هو الأرض بأسرها .

فرددت الأم ، وهي تهز رأسها متأملة :

- الأرض بأسرها ، ذلك رائع جداً حتى ليصعب تصديقه... ولقد تكلمت جيداً ، ياصوفياي الطيبة ، جيد جداً ؛ وأنا التي ظننت أنك لاتقعين منهم موقعاً مقبولاً .

ولم تجب صوفيا إلا بعد فترة ، وبصوت خافت لا أثر للمرح فيه :

- ليصبح المرء ، معهم ، أكثر بساطة ...

راحتا تتحدثان ، وهما تسيران ، عن ريبين ، والرجل المريض ، والفتيان الثلاثة الذين كانوا يصغون بكل ذلك الانتباه ، والذين عبروا عن صداقتهم وامتنانهم في ضيق ، ولكن في طلاقة عظيمة أيضاً ، بكل تلك العناية الحريصة التي بذلوها نحو المرأتين .

وبلغتا أخيراً الحقول العارية... والشمس تشرق للاقاتها ، ناشرة في السماء ، وهي لما تزل غير مرئية ، مروحة شافة من الأشعة الزهرية ، وقطرات الندى تشع في العشب بآلاف الشرر العديد الألوان في فرحة ربيعية فتية .

واستيقظت العصافير تحيي الصباح بزقزقتها المرحة ، وحلقت غربان ضخمة في الفضاء باعثة نعيقاً منحوراً ، خافقة بأجنحتها في ثقل ، وفي مكان ما كناري يصفر في قلق . وراح المدى يتكشف شيئاً فشيئاً يستقبل الشمس بالتخلص من ظلال الليل .

قالت الأم حالمة :

— في بعض الأحيان يحدثك إنسان ويحدثك ، ولكنك لا تفقهين لكلامه معنى حتى يقول لك أخيراً كلمة بسيطة ، كلمة بسيطة واحدة ، فاذا كل شيء يتضح على حين غرة ... ذلك مثل هذا الرجل المريض . لقد سمعت كثيراً ، وعرفت شخصياً كيف يرهقون العمال في المصانع وفي كل مكان ، ولكنك اعتدت هذا منذ كنت صغيرة فلم يعد يؤثر فيك كثيراً . ولكنه قال ، بغتة ، أشياء كثيرة الاذلال ، مثيرة للدرجة القصوى ... يا يسوع الحبيب ! أيمكن أن يقضي الناس جل عمرهم في الشغل كي يستطيع أصحاب العمل أن يتمتعوا بمثل تلك المهازل ؟ هذا أمر لن يجد له تبريراً أبداً .

واستقرت أفكار الأم عند القصة التي رواها سافيلي ، والتي ألقت لمعان بلاهتها ووقاحتها الكئيب على العديد من القصص التي عرفتها فيما خلا من الأيام ونسيتها ...

— ليخال المرء أنهم قد أتخموا الى درجة أمسوا بعدها مرضى . لقد كان هناك مدير ناحية يجبر الفلاحين على تحية جواده حينما يخرج الى النزهة في القرية ، ومن لا يفعل ذلك ألقي به في السجن . يا ربك ما حاجته الى ذلك ؟ أنا لا أفهم هذا ، كلا لا أستطيع فهمه ؟

وراحت صوفيا تدندن أغنية خفيفة ، مرحة في مثل مرح الصباح المشرق ...

***

٧

كانت حياة الأم تنساب في هدوء غريب حتى ليدهشها هذا الهدوء في بعض الأحيان. إن فتاها في السجن، وهي تعرف أن عقاباً صارماً ينتظره... ولكن ذهنها يمتلىء، كلما فكرت فيه، بصور أندريه، وفيدور، والعديد من الوجوه الأخرى. وكانت صور بافل تنمو أمام عينيهـا حتى تضم سائر أولئك الذين يقاسمونه مصيره، وتثير فيها حالة من التأمل تمنعها، دون شعور منها، عن تركيز أفكارها حول بافل، بل تروح تبعثرها في كل الاتجاهات على غير هدى. كانت هذه الأفكار تتباعد في شعاعات رقيقة غير متساوية تمس كل الأشياء، ساعية لانارة سائر الحوادث وجمعها كلها في لوحة وحيدة. وكان هذا يمنعها عن تركيز ذهنها على بعض التفاصيل المعينة، ويلهيها عن شوقها الى فتاها ومخاوفها من أجله.

وما أسرع أن رحلت صوفيا ثم ظهرت بعد خمسة أيام، مرحة طروبة كعادتها أبداً، لتختفي مجدداً بعد ساعات قليلة، فلا تعود إلا بعد أسبوعين ونيف. كان يمكن القول إنها تذهب في الحياة بدوائر كبيرة كي تعبر في طريقها بيت أخيها فتملؤه حياة وموسيقى.

وأصبحت هذه الموسيقى محببة لدى الأم، فيؤتى لها عند سماعها أن موجات حارة تتدفق في صدرها، بله قلبها، فيروح هذا القلب يخفق في نظم أكثر اتساقاً. وكانت أفكار حية مقدامة تولد فيها، وتوقظها قوة

الأصوات فكأنها بذور تتفتح في أرض جيدة الحراثة سخية الماء، وتزدهر في كلمات خفيفة الظل، جميلة الوقع .

وكان يصعب على الأم كثيراً اعتياد فوضى صوفيا التي ترمي حوائجها في كل الزوايا، وتلقي بأعقاب السجاير ورمادها في كل مكان . ولم تسد إلا بصعوبة أعظم أيضاً طريقتها الفائقة الجرأة في الحديث، المتناقضة على طول الخط مع رزانة نيقولاي وما في أحاديثه العذبة من وقار لا يتبدل. كانت صوفيا تبدو لها مراهقة تتلهف إلى الصيرورة سريعاً امرأة بالغة، فهي لا ترى الناس إلا كدمىً تثير الفضول. وكانت تتحدث كثيراً عن قداسة العمل، فتزيد باهمالها مشاغل الأم في حماقة كثيرة. وكانت تتكلم بطلاقة عن الحرية، فترى الأم أنها، في واقع الأمر، تزعج كل من يحيط بها بتزمتها وحدتها ونزقها ومناقشاتها التي لا تنتهي .... كانت طافحة بالمتناقضات، فتضطر الأم إلى معاملتها في حذر حنون ممزوج بانتباه يقظ، ولكنه مجرد عن تلك الحرارة في القلب التي يستدعيها نيقولاي على الدوام.

كان هذا الأخير دائب العناية بالآخرين، يعيش يوماً بعد يوم نفس العيش الرتيب المنتظم، فيتناول إفطاره في الساعة الثامنة، ويقرأ الصحف التي ينقل أخبارها إلى الأم . وكانت الأم تدرك بكل وضوح، لدى سماعها تلك الأخبار، كيف تستحق آلة الحياة الثقيلة البشر دون رحمة أو شفقة لتجعل منهم فضة ومالاً . وكانت تحس أن بين نيقولاي وأندريه مزايا مشتركة، فهو كالأوكراني يتحدث عن الناس دون حقد ويعتبرهم جميعاً مسؤولين عن سوء تنظيم المجتمع، ولكن إيمانه بحياة جديدة مقبلة لم يكن ملتهباً نيراً كأيمان الأوكراني . وكان يتكلم في هدوء، بصوت قاضٍ مستقيم شريف صارم، وابتسامة رثاء تعلو شفتيه أبداً، حتى عندما يتحدث عن أمور عظيمة الرهبة، ولكن عينيه سرعان ما تلتمعان ببريق بارد قاسي

اللمعان، فتدرك الأم حين تراه أن هذا الرجل لن يصفح عن أي إنسان، وأنه لا يقوى على الصفح، وتحس أن تلك القسوة تصعب عليه فترثي له، هو الذي يزداد إلى قلبها قرباً يوماً بعد يوم.

وفي التاسعة يمضي إلى مكتبه، فتعنى الأم بترتيب الشقة، وتهيء الغداء، وتغتسل وترتدي ثياباً نظيفة، ثم تجلس في غرفتها تتفرج على الرسوم المنشورة في الكتب المختلفة. كانت قد تعلمت القراءة أثناء ذلك، ولكن هذه القراءة تتطلب منها كثيراً من الانتباه. فما أسرع أن تتعب وتصير إلى عجز عن إدراك الصلة التي تربط بين الكلمات المتباينة. أما الرسوم فكانت تبهجها بالمقابل، فكأنها طفلة صغيرة ليس غير، وتكشف لها عن عالم جديد رائع تستطيع فهمه واستيعابه، لا بل تكاد تحسه أيضاً، فتنهض أمام ناظريها مدن عظيمة، وبنايات فائقة الجمال، وآلات، ومراكب، وآثار، وكل تلك الثروة العظيمة التي خلقتها أيدي البشر، ثم سائر منتجات الطبيعة التي يذهل فكرها ويحتار تباينها واختلافها. إن الحياة تتسع أبداً أمام عينيها وتفتحها على أشياء عظيمة رائعة كانت مجهولة منها حتى ذلك الحين، وهي دائماً تثير بكنوزها الغزيرة وجمالها اللامتناهي روح هذه المرأة المستيقظة العطشى... كانت تحب، بصورة خاصة، النظر في أطلس علم الحيوان الذي يوحي إليها، بالرغم من كونه مطبوعاً بلغة أجنبية، بمفهوم حي عن ثراء الأرض وجمالها واتساعها اللامتناهي.

قالت لنيقولاي ذات يوم:

- ما أوسع هذا العالم!

وكانت تبتهج أكثر ما تبتهج بالحشرات، والفراشات منها بصورة خاصة، فتنظر مدهوشة في الرسوم التي تمثلها، وهي تقول:

- أفليست جميلة، يا نيقولاي إيفانوفيتش؟ كم يوجد من هذا الجمال

الغالي في كل مكان خافياً عن عيوننا ، مار بنان أدون تراه ! إن الناس يضطربون أبداً دون أن يعرفوا شيئاً على الاطلاق ، عماة عن رؤية الأشياء التي تستحق إعجابهم ، يعوزهم لذلك الزمن والرغبة أيضاً . كم نستطيع أن نحصل من الفرح لو عرفنا غنى الأرض ، وكم من الأشياء الرائعة تعيش على سطحها . وهذه الأشياء جميعاً هي لسائر الناس ، وكلٌ هو للجميع على حد سواء ... أليس كذلك ؟

فابتسم نيقولاي ، وهو يحمل إليها كتاباً آخر مصوراً :

ـــ بالطبع هو كذلك .

كان يستقبل كثيراً من الضيوف في المساء ، ومن بينهم ألكسي فاسيليفيتش ، وهو رجل جميل الطلعة ، شاحب الوجه ، أسود اللحية ، وقور ؛ كثير الانطواء على النفس ؛ ورومان بتروفيتش ، وهو شخص منقط الوجـه ، مستدير الرأس ، يصفق بلسانه أبداً أسفاً على هذا الشيء أو ذاك ؛ وإيفان دانيلوفيتش ، وهو رجل قصير القامة ، ضامر القد ، مدبب اللحية ، ذو صوت مرتفع سريع النبرات كثير الضوضاء ، حاد مثل المخرز ؛ وييجور الذي لا ينقطع عن السخرية من نفسه ومن رفاقه ومن تلك العلة التي تتفاقم في صدره أبداً . وكان ثمة قوم آخرون أيضاً ، يأتون من مدن بعيدة ويتبـادلون مع نيقولاي أحاديث طويلة هادئة موضوعها لا يتبدل قط: الطبقة العاملة في العالم أجمع . وكانوا يتناقشون، وينفعلون ، ويلوحون بأيديهم، ويشربون كميات كبيرة من الشاي. وفي بعض الأحايين، بينما هم يتجادلون، كان نيقولاي يكتب نداءات يقرؤها بعد ذلك لرفاقه ، فينسخونها مباشرة ، بينما تجمع الأم ـ في حيطة عظيمة ـ بقايا المسودات الممزقة وتحرقها .

كانت تتعجب دائماً ، وهي تصب لهم الشاي ، من تلك الحماسة المسيطرة على أحاديثهم عن الطبقة العامـــلة وعن أفضل السبل وأسرعها في زرع الحقيقة بين الشغيلة ورفع معنوياتهم . وكثيراً ما كانوا يغضبون ويروحون يدافعون عن آراء

مختلفة ، وهم يتبادلون تهماً حادة قاسية ، فيجرحون شعور بعضهم البعض كي يعودوا بعد قليل إلى نقاشهم الحار يبدأونه من جديد .

وكانت الأم تشعر بأنها تعرف حياة العمال أفضل من معرفتهم لها ، فيخيل إليها أنها ترى بوضوح أكبر فداحة الواجب الذي أخذوه على عاتقهم ، فتروح تشخص إليهم في شيء من الاشفاق وغير قليل من الأسف اللذين ينظر بها امرؤ بالغ إلى أطفال يلعبون لعبة الزوج والزوجة دون أن يفهموا ما في تلك العلاقة من مأساة خفية . وكانت تقارن بالرغم منها ، بين أحاديثهم وأحاديث ابنها وأندريه فتدرك فارقاً لم تفهمه بادىء الأمر ... كان يخيل إليها أحياناً أنهم يصيحون هنا بصوت أشد ارتفاعاً منه في الضاحية العمالية ، فتفسّر ذلك على النحو التالي :

- إنهم يعرفون أكثر ، ولذلك يتكلمون بصوت أعلى ...

وكثيراً ما كانت تخال أن هؤلاء الناس يستفزون بعضهم بعضاً عن قصد ، متعمدين أن يظهروا حماستهم ، فكأن كلاً منهم يريد أن يبرهن لرفاقه كون الحقيقة أقرب إليه وأعزّ على قلبه منها على قلوبهم ، بينما يغضب الآخرون ويسعون بدورهم كي يثبتوا أنهم أكثر قرباً من الحقيقة ، فيبدأون النقاش الحاد القاسي من جديد ... كانت تخال أن كلاً منهم يتلهف إلى القفز مسافة أعلى من الباقين ، فيوقظ ذلك فيها كآبة قلقة تبلبل فكرها وتشغل بالها ، فتروح تنظر إليهم بجفنين مرتعشين وعينين متوسلتين ، وهي تفكر في وليجة نفسها :

- لقد نسو كل شيء عن باشا ورفاقه .

كانت تستمع إلى سائر حججهم بانتباه عظيم ، وإن كانت طبعاً لا تفهم منها شيئاً . ولكنها كانت تسعى لادراك المشاعر خلف الكلمات فتجد أن مفهوم الخير ، عندما يدور النقاش حوله في الضاحية العمالية ، كان يقبل في مجموعه على اعتباره كلاً واحداً لا يتجزأ ، بينما هو هنا يقسم إلى أجزاء صغيرة فيعود عديم النفع

والقيمة . إن المشاعر هناك لأعمق وأقوى ، أما هنـا فان أفكاراً ملتوية تسيطر عليها وتبدد كل شيء هباءً منثوراً ... ههنا يكثرون من الحديث عن تهديم العـالم القديم ، أما هناك فيكثرون من الاحلام عن العالم الجـديد ، ولذلك كانت كلمات فتاها وأندريه أعزّ عليها وأدنى من فهمها وإدراكها ...

ولاحظت أن نيقولاي ، كلمـا جاء أحد العمال لمقابلته ، يصبح أكثر حرية وانطلاقاً معه . فيبدو على وجهه تعبير رقيق حلو ، ويروح يتحدث في لهجة غير مألوفة ، إن لم تكن أكثر فظاظة فان فيها من الاهمال شيئاً كثيراً . وعندئذ تفكر الأم :

— إنه يجرب التحدّث بصورة يفهمونه معها .

ولكن ذلك لم يرقها ، فقد رأت أن العامل كان يبدوه ضيق الصدر فكأن شيئاً في داخله يحزّ فيه، فيعجز عن مخاطبة نيقولاي بتينك الحرية والطلاقة اللتين يتوجه بها إليها ، هي المرأة العاملة. وذات مرة ، قالت لشاب جاء لمواجهة نيقولاي بعد أن خرج هذا من الغرفة :

— ممّ تخاف ؟ أنت لست طفلا صغيراً يتلو دروسه أمام أستاذه .

فافترّت شفتا الشاب عن ابتسامة عريضة ، وقال :

— إن السرطان يحمرّ عندما يخرج من عنصره ... ليس هو على غرارنا في أية حال .

وكانت ساشا تأتي في بعض الأحيان ، فـلا تلبث طويلا أبداً ، بل تتحدث على الدوام بلهجة قلقة دون أن تضحك قط . وعندما تذهب تطرح على الأم ذات السؤال الذي لا يتبدل :

— كيف حال بافل ميخائيلوفيتش ؟

— إنه على أحسن حال ، ومرح أبداً . شكراً لله .

فتقول الفتاة قبل أن تختفي :

– بلـغيه تحياتي .

وذات مرة ، شكت لها الأم ذلك التأخير في محاكمة بافل ، فعبست ساشا ولم تقل شيئاً وإن راحت أصابعها ترتعش في عصبية . . . وأرادت الأم أن تقول لها :

– أعلم أنك تحبينه ، يا عزيزتي ...

لكن الشجاعة خانتها ... كان وجه الفتاة القاسي ، وشفتاها المنضمتان أبداً، ولهجتها القلقة الجافة ، ترد كل انطلاق نحو العاطفة والحنان . وشدت الأم ، في سكون ، على اليد الممدودة إليها وفكرت :

– أيتها الفتاة المسكينة ، ما أشقاك !

وجاءت ناتاشا في ذات يوم ، فابتهجت كثيراً برؤية الأم هناك وقبلتها ، ثم قالت بصوت هادىء وبصورة غير منتظرة :

– لقد ماتت أمي . ماتت تلك الحبيبة المسكينة ...

وألقت برأسها إلى الخلف ، وفركت عينيها بحركة سريعة ثم تابعت :

– ما آلم ذلك ! إنها لما تبلغ الخمسين . وكان يمكن أن تعيش زمناً أطول ، ولكني بالمقابل لا أستطيع الامتناع عن التفكير بأن الموت كان أفضل من الحياة التي تعيشها من دون ريب . لقد كانت وحيدة على الدوام ، وليس من إنسان إلى جانبها ، أو امرىء يحتاج إليها ، مذعورة دائماً من صياح والدي . أتسمين هذا حياة ؟ إن الناس الآخرين يعيشون في رجاء شيء أفضل ، ولكن أمي لم يكن أمامها ما تأمل فيه إلا المزيد من الاهانات .

وقالت الأم مفكرة :

– حق ما تقولين ، يا ناتاشا . الناس يعيشون في رجاء شيء أفضل ، فان لم يكن ثمة ما يأملون به فأية حياة تلك التي يعيشون إذن ؟

وربتت بلطف على يد الفتاة ، وأضافت :

وهكذا فقد أصبحت الآن وحيدة ؟

فأجابت ناتاشا في رقة :

- هو ما تقولين .

فابتسمت الأم ، وقالت بعد صمت قصير :

لا بأس في ذلك . إن الناس الطيبين لا يعيشون وحدهم طويلا ، بل هناك دائماً من يتعقبهم ويتعلق بأذيالهم ..

***

٨

حصلت ناتاشا على وظيفة مدرّسة في قرية قريبة من مصنع للنسيج ، وبدأت الأم تزودها بكراسات غير مشروعة ونداءات وصحف .

أصبح ذلك عملها ، فهي تتنكر عدة مرات كل شهر في ثياب راهبة ، أو بائعة خردوات ، أو بورجوازية ميسورة الحال ، أو حاجّة تقية .. ثم تضرب على وجهها عبر المقاطعة ، وعلى ظهرها كيس أو في يدها صندوق . وكانت دائماً ، في القطر أو في المراكب ، في الفنادق أو الخانات ، هي هي تلك المرأة الهادئة البسيطة التي تتوجه بالكلمة الأولى إلى الغرباء تجلب الانتباه إليها ، غير هيابة ، بلطفها واجتماعيتها وتلك الثقة بالنفس التي يتحلى بها من خبر الحياة جيداً وعرك تجاربها .

وكانت تحب التحدث إلى الناس ، والسماع إلى أقاصيصهم وشكاواهم وما يزعجهم من أمور . وكانت تسعد أبداً كلما التقت بشخص ناقم جداً ، بتلك النقمة التي تفتش في عناد ، وهي تحتج على صفعات القدر ، عن الأجوبة لأسئلة واضحة جلية . وكانت لوحة الحياة البشرية ، باضطرابها الدائب ونضالها العديم الجدوى في سبيل الشبع ، تنبسط امام عينيها وتمتد . وفي كل مكان ، كانت ترى بكل وضوح تلك المحاولات الوقحة المبذولة في سبيل خداع الناس وسرقتهم وجرع دمائهم وامتصاص آخر قطرة منهم في سبيل المصلحة الشخصية .

ولقد رأت ايضاً أن ثمة خيراً عميماً من كل الأشياء على سطح الأرض ، بينما جماهير الناس في الوقت ذاته في حاجة ، يعيشون نصف جياع في ملء الغزارة الفائقة . إن كنائس المدن مليئة بالفضة والذهب اللذين لاحاجة لله بهما ، في حين يرتجف على أبواب الهيا كل عدد لايحصى من المتسولين ينتظرون ، بفارغ صبر ، هبات نحيلة تلقى في أيديهم المفتوحة . ولقد شاهدت فيما سبق كل هذا : الكنائس الغنية وثياب الكهنة المطرزة بالذهب ، المتناقضة بصورة هائلة مع مزارب المتسولين وأسمالهم المخجلة ، ولكنها قبلت به حينذاك على اعتباره أمراً طبيعياً ، بينما هي تجده الآن لا يعقل ولايطاق ، بل هو بالأحرى إهانة موجهة إلى الفقير الذي يعتبر ، فيما تعلم ، أقرب إلى الكنيسة وأحوج إليها من الرجال الأثرياء .

ولقد عرفت من الصور التي رأتها عن المسيح ، والقصص التي سمعتها عنه ، أنه كان يرتدي ثياباً بسيطة ، وأنه كان للفقير صديقاً قريباً . ولكنها رأت صورته في الكنيسة مصفدة في ذهب وقمح وحرير يخشخش في ازدراء لدى رؤية الفقراء الذين يأتونه ، هو المسيح ، يطلبون العزاء لديه . وتذكرت بالرغم منها كلمات ريبين :

لقد خدعونا حتى في مايتعلق بالله أيضاً .

وشرعت ، دون أن ترتاب في ذلك ، تقلل من صلواتها وإن راحت تفكر أكثر من ذي قبل في المسيح وفي أولئك الناس الذين ، دون أن يذكروا اسمه أبداً ، وحتى دون أن يعرفوا شيئاً عنه ، يعيشون في مايخيل إليها حسب مشيئته وعلى غراره ، معتبرين الأرض مملكة الفقير ، راغبين في تقسيم كل ثرواتها بين الناس بالعدل والقسطاط . كانت تعمل فكرها في ذلك ، فتنمو أفكارها في داخلها وتزداد عمقاً وهي تشمل كل ماتراه أوتسمعه . لقد ازدهرت تلك الأفكار واتخذت بريق صلاة تضيء كل هذا العالم المظلم باشعاعاتها ، كل الحياة وكل الناس . وبدا لها أن المسيح نفسه ، هذا الذي أحبته دائماً بحنان غامض — بعاطفة

معقدة كان الخوف فيها يسير مع الرجاء جنباً إلى جنب ، وكذلك الفرح مع الترح - قد أضحى عزيزاً على قلبها أكثر منه قبلاً . ولقد تبدل أيضاً فغدا أكثر ارتفاعاً وإدراكاً وأعظم بريقاً وبهجة فكأنه في واقع الأمر بعث إلى الحياة ، وقد اغتسل وانتعش بتلك الدماء التي أهدرها باسمه ، في سخاء ، قوم يمتنعون بكل تواضع عن لفظ اسم صديق الانسان هذا . وبعد كل سفرة من سفراتها كانت تعود إلى نيقولاي سعيدة متأثرة بكل ماشاهدت وسمعت في الطريق، راضية لأنها قد حققت واجبها على الوجه الأكمل .

أوضحت له ذات مساء :

— ماأروع أن يضرب الانسان في آفاق الأرض هكذا ، يطمح ببصره الى الكثير من الأمور ! ليجعلك ذلك تتفهم معنى الحيـاة . لقد ألقي الشعب على هامش الحياة حيث يدب متذللاً في مكانه دون وعي منه لما حدث ، وإن كان لايجسر على الامتناع عن التساؤل في مَ سبب هذه المعاملة التي يعاملونه بها . لم يجب أن يطرد الناس بعيداً ! لم يجب أن يجوعوا عندما يكون ثمة فيض من كل شيء ؟ لم يجب أن يكونوا أغبياء جاهلين عندما يكون هنالك ينبوع فياض من الثقافة في كل مكان ؟ وأين هو الله الكلي الرحمة الذي ليس في نظره غني أو فقير بل الكل أولاده المحبوبون ؟ إن الناس يثورون شيئاً فشيئاً حينما يفكرون بحيواتهم ، وهم يحسون أن الظلم سيكنسهم عن وجه الأرض إن لم يفعلوا بالظلم شيئاً.

وأصبحت تحس ، أكثر فأكثر ، أن من واجبها مخاطبة الناس عن حياتهم المضطهدة حتى ليصعب عليها كثيراً ، في بعض الأحيـان ، مقاومـة هذا الدافع الطموح وصده .

وعندما كان نيقولاي يجدها منحنية فوق صورها ، فهو يبتسم ويميل يحدثها عن بعض غرائب هذا العالم . فتستطلعه في شغف ، مذهولة لجرأة القضـايا التي يأخذها الانسان على عاتقه :

ـ أمثل هذا الشيء ممكن ؟

فينبري يصور لها المستقبل في صبر وإيمان لايتزعزع بحقيقة نبوءاته ، شاخصاً اليها بعينيه اللطيفتين من خلف نظارتيه :

ـ إن رغبات الانسان لا حدود لها ، وقوته لا ينضب لها معين . ومع ذلك فالعالم لايغتني فكرياً بعد إلا ببطء شديد ، لأن كل من يريد الآن أن يغتني مستقلا لابد له من تجميع المال بدلاً من المعرفة . وعندما يتحرر الناس من الجشع ، ويحررون أنفسهم من عبودية العمل الاجباري ...

لم تكن تفقه معنى كلماته إلا في الندرى ، لكن الايمان الهادىء الذي يوحي به ويحييه في نفسها كان يصبح شيئاً فشيئاً أقرب منالاً منها . قال :

ـ ثمة عدد قليل من الناس الأحرار على هذه الأرض ، تلك هي القضية !

وكانت تفهم هذا ، فهي تعرف قوماً تحرروا من الجشع والخبث ، وتعلم أنه لو وجد عدد أكبر من مثل هؤلاء الناس لكفت الحياة عن أن تكون مظلمة مخوفاً لتغدو أبسط وأشرق وأنبل ...

وكان نيقولاي يهتف بكآبة :

ـ إن الناس مجبورون على أن يكونوا قساة ...

فتهز رأسها إشارة الموافقة ، وهي تستعيد ذكر كلمات الأوكراني ...

* * *

٩

في ذات يوم آب نيقولاي ، وهو الدقيق أبداً في مواعيده حتى الدرجة القصوى من عمله متأخراً أكثر من المعتاد ، وأذاع دون أن يخلع معطفه ، وهو يفرك يديه بعصبية ظاهرة :

— لقد فرّ أحد رفاقنا من السجن هذا النهار ، يانيلوفنا . من عساه يكون؟ هذا ما لم أستطع معرفته ...

ترنحت الأم ، وقد طغى الاضطراب عليها ، فاقتعدت كرسياً وهي تهمس :

— أيمكن أن يكون بافل ؟

فهز نيقولاي كتفيه ، مجيباً :

— يمكن . ولكن كيف نساعده على الاختفاء ؟ وأين ترانا نعثر عليه ؟ لقد رحت الآن أتجول في الشوارع ذهاباً وإياباً أملاً في لقياه . تلك بلاهة بالطبع ، ولكن ينبغي أن نفعل شيئاً . وإني لذاهب من جديد ...

فصاحت الأم :

— وأنا أيضاً .

فاقترح نيقولاي ، وهو ينطلق مسرعاً :

— الأحرى بك أن تذهبي إلى ييجور وتري إن كان يعرف شيئاً .

فانقت وشاحاً على رأسها ، واندفعت خلفه في الشارع والأمل يملأ الصدر

منها . وراحت لطخ حمر تتراقص أمام عينيها وتترجح ، وقلبهـــا يخفق بسرعة وعنف ، فيدفعها إلى العدو تقريباً . كانت تسير نحو لقاء هذا الاحتمال ، مطأطأة الرأس ، ذاهلة عن كل مايحدق بها .

— ماذا لو وصلت ورأيته هناك !..

وتنخسها بارقة الرجاء هذه ، فتروح تحث الخطو دون شعور منها .

كان الحر شديداً ، وهي تلهث من الاجهـاد ، حتى إذا بلغت السلم الموصل إلى الشقة التي يقطنها ييجور توقفت عاجزة عن الذهاب قدماً ، والتفتت تتطلع حوالها ، وإذا هي ترسل فجاءة صيحة قصيرة وتغمض عينيها بشدة . هدّ هدَ لها أنها أبصرت بنيقولاي فيزوفشيكوف واقفاً قرب بوابة المنزل ، ويداه في جيبه. ولكنها ماإن نظرت من جديد حتى لم يقع بصرها على أي شخص كان .

زوّأت تفكر ، وهي تتسلق درجات السلم وتصيخ بسمعها جيداً :

— لقد تخيّلت ذلك ليس غير .

وبلغ سمعها من الفناء صدى خطوات بطيئـة ، فتوقفت برهـة ونظرت إلى الأسفل ، فشاهدت مرة أخرى الوجه المجدور ، وهو يبتسم لها هذه المرة .

صاحت ، وهي تعدو لملاقاته ، وقلبها منقبض من خيبة الأمل .

— نيقولاي ! نيقولاي !

فهمس بصوت هادىء ، وهو يلوّح بيده :

— إرجعي !..

فارتقت الدرج بسرعة ، ودخلت غرفة ييجور ، فألفته مضطجعاً على الأريكة. غمغمت لاهثة :

— نيقولاي ... لقد هرب ... من السجن .

فسأل ييجور بصوته الأجش ، وهو يرفع رأسه عن الوسادة :

— أي نيقولاي ؟ ثمة اثنان يحملان هذا الاسم .

فيزوفشيكوف ... وهو آت إلى هنا .

- عظيم !

وفي هذه اللحظة زهف نيقولاي نفسه إلى الغرفة ، وأوصد الباب خلفه بالمزلاج ، وخلع قبعته ، ووقف هناك يضحك في رقة وخفوت وهو يسرح شعره بيده . وتحامل بيجور على مرافقه ، وهز رأسه قائلا :

- أهلا بك ...

فاقترب نيقولاي من الأم ، تداعب شفتيه ابتسامة عريضة ، وتناول يدها كاشفاً :

- لو لم ألقك ، لما بقي أمامي سوى العودة إلى السجن . فلست أعرف أحداً في المدينة ، ولو عدت إلى الضاحية لما تأخروا في العثور عليّ . وهكذا رحت أدور وأدور وأنا أفكر طوال الوقت في مدى جنوني وحماقتي عندما أقدمت على الفرار . وفجأة ، رأيت نيلوفنا تركض في الشارع ، فانطلقت أعدو وراءها .

فاستقصت الأم :

- وكيف استطعت الفرار ؟

فجلس متململا على حافة الأريكة ، وهز كتفيه قائلا :

- إنه الحظ وحده . كنت في الفناء أتمتع بفرصة التهوية ، فاذا المجرمون العاديون ينهالون على أحد المراقبين ضرباً . وكان هذا المراقب دركياً سابقاً طرد من الخدمة لأنه أقدم مرة على السرقة ، ثم أصبح يتجسس على الجميع ، ويشي بهم ، وينغص عليهم الحياة بمضايقاته المستمرة . وهكذا انثالوا يكيلون له اللكمات دون حساب ، فعمت الفوضى كل شيء ، وراح المراقبون يتراكضون وهم ينفخون في صفاراتهم . نظرت فرأيت البوابات مفتوحة ، وإلى الوراء منها الساحة الكبرى والمدينة ، فسرت نحوها متباطئاً ، وكأنني في حلم ، حتى إذا مثلت في الشارع

وقطعت فيه مسافة كبيرة "تبت" إلى رشدي وفكرت : إلى أين أذهب الآن ؟ تطلعت إلى الخلف ، فرأيت البوابات قد أغلقت ...

وقال ييجور :

ـ هم ! ولم لم ترجع ، أيها السيد العظيم ، وتقرع الباب في أدب ، وتسألهم السماح لك بالدخول ؟ إني أسألكم العفو أيها السادة ، ولكني ارتكبت خطأ صغيراً ، وسهوت قليلا ...

فضحك نيقولاي :

تلك بلاهة بكل تأكيد . غير أني أسأت التصرف ، مع ذلك ، تجاه رفاقي إذ خرجت هكذا دون أن أقول شيئاً لأي كان . وهكذا مشيت اذن ، فرأيت جنازة كانوا يدفنون طفلا .. فانضممت اليها وسرت خلف النعش مطرق الرأس لا اتطلع في وجه احد على الاطلاق . ثم جلست فترة هناك في المقبرة اعب شيئاً من الهواء ، واذا فكرة تلمع في خاطري على غير انتظار ...

فاستطلع ييجور :

فكرة واحدة فقط ؟

ثم أضاف ، وهو يتنهد :

ـ لست أعتقد أنها أحست الضيق في رأسك هذا ...

فضحك فيزوفشيكوف منشرح الصدر ، ثم هز رأسه قائلا :

ـ أوه ! إن رأسي لم يعد اليوم فارغاً كما كان في سالف الأيام . أما زلت عليلا ، ياييجور إيفانوفيتش ؟

فأجاب ييجور ، وهو يسعل سعالا جافاً :

ـ إن كلا منا يعمل مافي وسعه ، هيا ، تابع قصتك .

ثم ذهبت إلى المتحف المحلي ، ورحت أدور فيه وأتفرج وأنا لاأفتأ أفكر : إلى أين أذهب الآن ! لا بل إني نقمت على نفسي أيضاً ، وكنت جائعاً

بالاضافة الى ذلك . خرجت الى الشارع من جديد وتركت قدمي تتدافعان الخطو فيه مضطرب البال مبلبل الفكر. وكان رجال الشرطة يراقبون سائر الناس عن كثب . هجست في نفسي : حسناً ، لن تتأخر سحنتي هذه عن إلقائي بين قوائم القاضي . ثم على حين فجأة ، جاءت بيلاجيا نيلوفنا تركض نحوي، فابتعدت جانباً ورحت أتبعها ، هذا كل شيء .

فقالت الأم في نغمة مذنبة :

- إني لم ألحظك .

وتفحصت فيزوفشيكوف بعناية ودقة .... فبدا لها أنحل منه فيما غبر من الزمن

وقال فيزوفشيكوف وهو يحك رأسه :

— إن الرفاق سيقلقون .

فلاحظ ييجور :

- وماذا عن السلطات ؟ يبدو أنك لا تشفق عليهم ، فلا ريب أنهم سيقلقون بدورهم أيضاً .

وفتح فمه وشرع يحرك شفتيه وكأنه يمضغ الهواء ، وأضاف :

- فلندع الهزل جانباً . ينبغي علينا أن نخفيك في مكان ما . وهذا ليس بالأمر اليسير وإن كان مبهجاً . ولو أستطيع النهوض فقط !

وتنهد ، ورفع يده الى صدره يفركه في ضعف وتكاسل .

جهو نيقولاي وهو يطرق برأسه :

— ليبدو مرضك شديد الوطأة ، يا ييجور إيفانوفيتش .

وتنهدت الأم ، واختلست النظر في قلق الى الغرفة الصغيرة المزدحمة .

وأجاب ييجور :

- ذلك من شأني أنا . هيا اسأليه عن بافل ، يا أماه . ودعي الحماقة جانباً .

فارتسمت على شفتي فيزوفشيكوف ابتسامة عريضة ، وأعلن :

- بافل على أحسن حال ، وصحته جيدة للغاية وهو هناك رئيسنا نوعاً ما . فهو الذي يتكلم مع الرؤساء ، ويصدر الأوامر بصورة عامة . إن الجميع يحترمونه .

كانت نيلوفنا تهز رأسها وهي تنصت إلى فيزوفشيكوف ، وتختلس النظر من زاوية عينيها الى وجه ييجور المنتفخ والمزرق في الوقت ذاته . كان هـذا الوجه يبدو مسترخياً بشكل غريب ، جامداً مجرداً عن كل تعبير ، أللهم إلا عيناه اللتان تبرقان وحدهما في مرح وحيوية .

وهتف نيقولاي بغتة :

- لو أعطيتماني شيئاً أمسك به رمقي ! لستما تستطيعان أن تتصورا مبلغ سغبي !

فقال ييجور :

- ثمة فتاة من الخبز على الرف ، يا أماه . ثم اخرجي الى الرواق واقرعي الباب الثاني على اليسار ، فتفتح لك امرأة،فاطلبي منها القدوم الى هنا ، وستجلب معها كل ما تجده ملائماً للأكل .

فقال نيقولاي معترضاً :

- ما حاجتي الى كل شيء ؟

- لا تقلق ، فلن يكون هناك كثير منه .

خرجت الأم وقرعت الباب الذي عينه لها . وبينما هي تصغي الى السكون فكرت في ييجور :

- إنه يموت ...

واستوضح صوت من داخل الغرفة :

- من هناك ؟

فرددت الأم بصوت خافت :

— لقد جئت من لدن ييجور إيفانوفيتش ... إنه يرجوك أن تأتي الى غرفته .

فأجابت المرأة دون أن تفتح الباب :

— إني قادمة في الحال .

وانتظرت الأم لحظة ثم طرقت الباب من جديد ، ففتح سريعاً وبدت على عتبته امرأة مديدة القامة ذات نظارتين ، دلفت الى الرواق ، وسألت الأم في برود وهي تسوي ما تغضن من كم قميصها :

— ماذا تريدين ؟

— لقد أرسلني ييجور إيفانوفيتش .

— هيا بنا .

ثم هتفت بصوت خافت :

— لكن يتراءى لي أني إعرفك .. كيف حالك ؟ هذه العتمة ...

تطلعت الأم اليها ، فتذكرت أنها شاهدتها عدة مرات عند نيقولاي ... وخطر في بالها :

— إنهم جميعاً من جماعتنا .

وأفسحت المرأه الطريق لبيلاجيا كي تسير أمامها ، واستفهمت :

— أساءت حالته ؟

— نعم . إنه راقد في فراشه . وهو يرجوك أن تحملي بعض الطعام .

— هذا ليس ضرورياً .

وبينما هما تدخلان غرفة ييجور ، قال هذا بصوته الأجش :

— إني ذاهب للقاء أجدادي ، يا صديقتي . لودميلا فاسيليفينا ، إن هذا الفتى قد تجرأ على الخروج من السجن دون إذن من السلطات . أعطيه قبل كل شيء

ما يأكله - ومن ثم أدركيه بمكان يختبئ فيه .

فأشارت المرأة برأسها إيجاباً . وألقت على الرجل المريض نظرة متفحصة ، ثم قالت بلهجة قاسية :

— كان يجب أن ترسل في طلبي منذ اللحظة التي قدما فيها ، يا ييجور . وإني لارى أنك تتناول دواءك مرتين متواليتين . يا للعار ! تعال إلى غرفتي أيها الرفيق، فسوف يأتون بعد قليل ليأخذوا ييجور الى المستشفى ؟

— وهكذا أنت عازمة حقاً على إدخالي المستشفى ؟

— نعم ، واسوف أبقى هناك بجانبك .

— وهناك أيضاً ؟ يا لله !

— كفاك هذراً !

وبينا هي منهمرة في الحديث، أصلحت من وضع الغطاء فوق ييجور ، وتفحصت نيقولاي بامعان ، ورفعت الزجاجات كي تقدّر مبلغ ما بقي فيها من الأدوية . كانت تتكلم بصوت خفيض ، متساوي النبرات، وتنتقل في أرجاء الغرفة برشاقة ولطف عظيمين . وكانت شاحبة الوجه ، وحاجباها السوداوان يلتقيان تقريباً فوق جذر أنفها . ولم يرق وجهها للأم ، بل وجدت فيه كثيراً من تكبّر وعجرفة . أما عيناها فلم تعرفا أبداً معنى الابتسام أو البريق . وكانت تخاطب الناس دائماً بلهجة الآمر المعتاد أن يطاع . تابعت تقول :

— سوف نترككما الآن ، ولكني سأعود سريعاً . أعطي ييجور ملعقة من هذا الدواء ، ولا تسمحي له بالحديث أبداً .

وخرجت مصطحبة نيقولاي ، فقال ييجور متنهداً :

- أمرأة زائعة ، مدهشة بكل بساطة . بودي أن تقيمي معها يا أماه ، فهي تجهد نفسها كثيراً...

فردت الأم بلطف :

— كفاك كلاماً ، خذ هذا الدواء .

فجرع الدواء وأغمض عينيه ، واستأنف :

— سوف أموت على أية حال ، وإن احتفظت بفمي مغلقاً .

وراح يراقب الأم بعينه الثانية،في حين انفرجت شفتاه عن ابتسامة صغيرة. أما الأمفأطرقت برأسها ، وتملكتها موجة من الرثاء رجرجت الدموع فيعينيها. قال :

— لا بأس في ذلك . إنه في حكم الطبيعة ... فلذة الحياة تستدعي ضرورة الموت .

فوضعت الأم يدها على جبينه ، وقالت مرة أخرى في لطف عظيم :

— أفلا تستطيع حقاً أن تكف عن الكلام !

فأغلق عينيه وكأنه يصيخ السمع الى خرخرة صدره ، ثم عاود في عناد :

— ليس في الصمت أي معنى ، يا أماه . ماذا عساني أربح به ؟ بضع ثوان أخرى من عذاب النزع الأخير ، وأنا أضيع لذة تبادل بعض الكلمات مع امرأة رائعة مثلك.إنني لعلى يقين أن البشر في العالم الآخر ليسوا على طيبهؤلاءالناس.

فقاطعته الأم في قلق :

— ستعود الآن هذه السيدة العظيمة وتعنفني لأني تركتك تتكلم .

— ليست سيدة عظيمة ، بل هي ثورية رفيقة ، إمرأة مدهشة حقاً . ولا ريب أنها ستعنفك ، فهي تعنف الجميع على حد سواء .

وشرع ييجور ، وهو يبذل جهداً واضحاً كي يحرك شفتيه ، يروي لها قصة حياة جارته . كانت عيناه تبتسمان، فتدرك الأم تعمده مضايقتها ، فتنظر في وجهه الندي المزرق وتفكر مذعورة :

— إنه يموت ...

ورجعت لودميلا ، ولم تكد تغلق الباب في عناية وحذر حتى استدارت

إلى الأم:

ينبغي لصديقك أن يبدل ثيابه ويغادر غرفتي في أسرع وقت ممكن ، وهكذا عليك أن تذهبي حالاً وتأتيه بما يرتديه . إحملي الثياب الى هنا . من سوء الحظ أن صوفيا ليست موجودة ... فذلك من شأنها وحدها ـ إخفاء الناس ؟

فقالت الأم ، وهي تلقي بوشاحها على كتفيها :

— إنها عائدة غداً .

كانت كلما أعطيت مهمة ما ، تمتلىء رغبة في تنفيذها سريعاً على أكمل وجه حتى لتعجز عن التفكير في شيء آخر ... سألت في صوت جدي ، وهي ترفع حاجبها في اهتمام :

— أي زي تفضلين ؟

— لا فارق ، إذ سيترك المدينة ليلاً .

— ذلك أسوأ منه في النهار، إذ لا يكون في الشوارع غير قليل من الناس، ويكون رجال الشرطة أشد حذراً وأكثر عناية وتزمتاً في المراقبة ... وهو ليس على كثير من المهارة ، كما تعلمين .

وأطلق ييجور ضحكة مبحوحة .

سألته الأم :

— هل أستطيع زيارتك في المستشفى ؟

فأشار برأسه وهو يسعل ...

واستفهمت لودميلا ، وهي ترمق الأم بعينيها السوداوين :

— هل تحبين أن نتبادل العناية به ؟ أنت تريدين ؟ عظيم . أما الآن فاذهبي بأقصى سرعة ممكنة .

وأمسكت بالأم في حنان ، ولكن في حزم ، ومن ذراعها، وقادتها نحو الباب،

حتى اذا خرجتا منه توقفت لتقول بصوت خافت :

— لا تغضبي من طردي إياك هكذا ، فالكلام يؤذيه كثيراً ، وأنا ما زلت أرعى آمالا ...

وشدت على يديها حتى فرقعت عظامها ، ثم أسبلت جفنيها المتعبين في إعياء .

واضطربت الأم لذلك الاعتراف ، فغمغمت :

— يا إلهي ! ما هذه الأقوال ...

فقالت المرأة بصوت خفيض :

— انتبهي من الجواسيس حولك .

ورفعت يدها الى وجهها تفرك صدغيها ، وارتعشت شفتاهـا ، في حين رقت سيماؤها كثيراً .

قالت الأم بخيلاء :

— إني أعلم !

وبينا هي تعبر البوابة وقفت برهة ، وراحت تصلح وضع وشاحهـا وهي تختلس النظر فيما حولها بعينين حادتين يقظتين . لقد أصبحت تعرف كيف تميز الجاسوس من بين حشد كبير من الناس دون خطأ تقريباً . إنها تعلم جيداً تلك اللامبالاة المبالغ بها في خطوهم ، وتلك السهولة غير الطبيعية في إشاراتهم ، وتلك السيماء من الملل والضجر التي لا تفلح في إخفاء البريق الملتاع المذنب الذي يطل من عيونهم الحادة البغيضة .

ولكنها لم تستطع هذه المرة أن تميز مثل هذه الوجوه . فأسرعت الخطو على طول الشارع ، ونادت عربة وأمرت سائقها أن يقلها الى السوق ، حيث راحت تشتري ثياباً لنيقولاي وهي تساوم في عناد ، وتكيل الشتائم دون حساب لذلك الزوج السكير الذي تجبرها عربدته الدائمة على أن تشتري له طقماً كاملاً من الملابس كل شهر تقريباً . ولم تؤثر خرافتها هذه في البائعين كثيراً ، ولكن

نفسها ارتاحت لها كل الارتياح ، على أية حال ، وانتهجت بها ، لأنها تصورت في الطريق أن رجال الشرطة سيدركون ضرورة شراء ثياب جديدة لنيقولاي ، فيرسلون بالتالي جواسيسهم الى السوق ... وقفلت الى مسكن يجور وهي تتخذ نفس الحيطة الساذجة ، ومن ثم رافقت نيقولاي حتى حدود المدينة ،وهما يسيران كل على جانب من الطريق ، والأم تضحك طوال الوقت،مسرورة برؤية نيقولاي يخب معها في تثاقل ، مطرق الرأس ، وهو يتعثر بأثناء معطفه الرمادي الطويل ، ويدفع الى الخلف بقبعته التي لا تنفك تنزلق فوق جبينه حتى تبلغ جذر أنفه . والتقيا بشاسا في زقاق جانبي متفر . فأشارت الأم الى فيزوفشيكوف برأسها ، ثم هرولت راجعة الى الدار . وفكرت في كآبة :

— ولكن بافل ما برح في السجن ... وكذلك أندريه ...

***

١٠

استقبلها نيقولاي إيفانوفيتش في بلبلة صاخبة من الاضطراب والقلق . هتف بها إذ رآها :

- إن بيجور في حالة سيئة ، سيئة للغاية ! لقد نقلوه الى المستشفى ، ومرت لودميلا بنا ، وهي تريدك على الذهاب ...

- الى المستشفى ؟

وأصلح نيقولاي من وضع نظارتيه بحركة عصبية ، ثم ساعد الأم على ارتداء سترتها . قال بصوت مرتعش . وهو يضغط أصابعها في يده الجافة الدافئة :

- انظري ، خذي هذه الرزمة معك ، هل دبرت أمر فيزوفشيكوف ؟

- نعم .

- سأذهب أنا أيضاً ، لرؤية بيجور .

كانت الأم متعبة جداً حتى تكاد أن تفقد الوعي ، فراح اضطراب نيقولاي يثير فيها توقعاً مؤلماً لكارثة قريبة . وكانت هذه الفكرة القاتلة « إنه يموت » لا تفتأ تنهال على رأسها ضرباً مثل مطرقة ثقيلة .

ولكنها ما إن دخلت الغرفة النظيفة المشرقة ، حيث كان بيجور يضحك بصوت مبحوح وقد اضطجع غارقاً في أكمة من الوسائد البيض ، حتى هدأ روعها وأحست ببعض الارتياح . فوقفت برهة على عتبة الباب تنصت إليهما يحدث

الطبيب به :

– إن مداواة المريض مثل الاصلاحات ...

فهتف الطبيب بصوت قلق :

– كفاك هذراً ، يايبجور .

– ولكني ثوروي ، وأمقت الاصلاحات ...

فوضع الطبيب ، في لطف ، يد يبجور على ركبتيه ونهض وهو يعبث بلحيته مفكراً ، ويجسُّ مافي وجه المريض من انتباج . وكانت الأم تعرف هذا الطبيب ، فهو من أعز أصدقاء يبجور ، واسمه إيفان دانيلوفيتش . اقتربت متمهلة من يبجور الذي حياها بمدِّ لسانه ، فاستدار الطبيب إليها وقال :

– آه ، هذا أنت ، ياثيلوفنا ! مرحباً بك ! ماهذا الذي تحمله في يدك ؟

فاستنبأ يبجور :

– كتب ، فيما أعتقد ؟

فأمر الطبيب القصير القامة :

– القراءة ممنوعة عليه .

فقال المريض شاكياً :

– في نيته أن يجعلني أبله غبياً .

وندّت عن صدره زفرة قصيرة مؤلمة ، مصحوبة بخرخرة رطبة ، واكتسى وجهه بقطرات دقيقة من العرق ، ولم يستطع رفع يده حتى جبينه إلا في جهد عظيم للغاية . وكان ذلك الجمود الغريب في خديه المنتفخين يشوه وجه المريض الدمث ، إذ يشلُّ سيماءه في قناع ميت لاحياة فيه . عيناه وحدهما ، الغارقتان عميقاً في الانتفاخ الذي يعم وجهه بأسره ، كانتا تشعان في بريق ، وتبتسمان في حنان .

– هيْ !... ياأبا الطب اسكولاب . إني متعب . أفلا أستطيع الاستلقاء ؟

فأجاب الطبيب في اقتضاب :

ـــ كلا ، لاتستطيع .

ـــ حسناً ، سوف أستلقي منذ اللحظة التي تغادر الغرفة فيها .

ـــ لاتسمحي له بذلك ، يانيلوفنا . رتبي وسائده ، وإياك أن يتكلم ـــ ذلك يقتله .

فأشارت الأم برأسها ، أما الطبيب فخرج وهو يكردح بخطوات سريعة قصيرة . وألقى ييجور برأسه إلى الخلف وأغمض عينيه ، وجمد دون حراك اللهم إلا أصابعه التي مافتئت تضطرب في لطف . وكانت جدران الغرفة الصغيرة البيضاء ترشح برداً جافاً ، وضيقاً ضابياً ثقيل الوطأة . وكانت قمم أشجار الزيزفون المتشابكة ترى من خلال النافذة الواسعة ، ولطخ صفر تلمع من خلال أوراقها المغبرة ، فتنذر بالخريف الوليد وبرده القارس .

قال ييجور ، دون أن يتحرك أو يفتح عينيه :

ـــ الموت يقترب مني في بطء ، وبالرغم منه ! إنه يشفق علي نوعاً ما على ما أظن .. فلقد كنت دائماً على استعداد لمرافقته ، والتآلف معه .

فرجته الأم ، وهي تربت على يده في لطف :

ـــ هلا كففت عن الكلام ، ياييجور إيفانوفيتش .

ـــ انتظري لحظة ... سوف أكف .

وتابع ، وهو يلهث ويبذل صعوبة كبرى كي يلفظ الكلمات ، ويستريح من عناء الحديث كلما أعوزته القوة للاستمرار فيه :

ـ ماأروع أن تكوني بيننا ، وما أبهج رؤية وجهك ! لأسأل نفسي أحياناً كيف ستكون نهايتها ؟ ومما يرثى له حقاً ان يدرك المرء أنك ـ مثل الباقين جميعاً ـ ستحطين الترحال في السجن أخيراً ... إلى آخر ماينتظرك من التعاسات . أخائفة أنت من المضي إلى السجن ؟

فأجابت بكل بساطة :

ـ كلا .

ـ بالطبع لا ، ومع ذلك فلا مهرب منه ...فالسجن أمر فظيع ! والسجن من صنع بي هذا ! وإذا أردت الحقيقة ، فأنا لا أريد أن أموت...

وكادت الأم تقول : « ربما لن تموت بعد » ، ولكن نظرة وحيدة إلى وجهه ردت الكلمات عن شفتيها ،

ـ كنت أستطيع إذن متابعة النشاط ... ولكن إذا كنت عاجزاً عن العمل .. فلا معنى لحياتي إذن ... فهي تكون سخيفة عندئذ ...

وتنهدت الأم وهي تتذكر التعبير المحبب إلى أندريه : « ذلك عدل ... ولكنه لا يعزي » . لقد قضت يوماً متعباً ، وهي إلى ذلك جائعة .. وكان تنفس الرجل المريض المبحوح ، المتردد على وتيرة واحدة ، يملأ الغرفة وينزلق على الجدران الملساء عاجزاً مقهوراً . وكانت قمم أشجار الزيزفون خارج النافذة أشبه بسحب واطئة قاتمة متوعدة حتى لتثير الذهول والعجب في نفس الناظر إليها . لقد أضحى كل شيء هادئاً بشكل غريب ، غارقاً في جمود القيلولة المظلمة ، ينتظر معذباً قدوم الليل .

قال ييجور ، وهو يغمض عينيه ويلوذ بالصمت :

ـ أشعر بكثير من الضعف والانحطاط .

فنصحته الأم :

ـ هلا رقدت ! لعلك إذن تتحسن حالاً .

وأنصتت فترة إلى تنفسه ، ثم صعدت النظر في ماحولها ، وعادت إلى الجلوس دون حراك بعض الوقت ، ونير حزن بارد يجثم عليها بوطأته ، وأخيراً هجد النعاس في عينيها ...

أيقظتها حركة حريصة عند الباب . فانتفضت ورأت عيني ييجور

مفتوحتين .

قالت بصوت خافت :

— لاريب أني غفوت ، فاصفح عني ..

فأعلن في مثل خفوت صوتها :

— أنت بالأحرى من يجب أن يصفح عني .

وأطلت دجنة الليل الأغبش من خلال النافذة ، وانساح برد عجيب بملأ الغرفة ، والظل يغمر كل شيء بصورة غريبة . وكان وجه الرجل المريض مظلماً فاحم اللون .

وسمع حفيف ، ثم صوت لودميلا يقول :

— ما بالكما تجلسان هكذا في العتمة البهاء تتهامسان ؟ ... أين مفتاح النور ؟

وعلى حين فجأة ، غمر نور أبيض قلب الغرفة التي وقفت لودميلا في وسطها بقامتها المديدة وظهرها المستقيم .

مرت رعشة في جسد ييجور برمته ، فعطا يده إلى صدره .

صاحت لودميلا ، وهي تركض إليه .

— ماذا دهاك ؟

فرمق الأم بعينين جامدتين بدتا الآن متسعتين كثيراً ، براقتين بشدة ، وفغر فاه ، ورفع رأسه ومد يده الى الأمام ، فتناولتها الأم وأدققت النظر في وجهه وهي لاتجرؤ على التنفس . إلا انه ألقى برأسه إلى الخلف وقد أطبق على عنقه اختلاج شديد ، وقال بصوت مرتفع النبرة جهوري الجرس :

— لا أستطيع ... إنها النهاية !..

وملكت جسده رعشة سريعة ، وسقط رأسه خائراً على كتفه ، وانعكس نور المصباح المعلق فوق سريره ، ميتاً ، في عينيه البجاوين .

تمتمت الأم :

– أواه ، ياعزيزي !

وابتعدت لودميلا في بطء عن السرير حتى صاقبت النافذة ، ووقفت تشخص إلى الخارج . وصاحت على غير انتظار بصوت اجش غير مألوف :

– لقد مات !

وانحنت فوق النافذة ، وقد اعتمدت حفافها بمرفقيها ، ثم سقطت فجأة خائرة القوى على ركبتيها ، وكأنها تلقت ضربة شديدة على أم راسها ، وغطت وجهها بيديها وانثالت تزمجر بصوت مخنوق .

وصلبت الأم يدي ييجور فوق صدره ، وأحسنت من وضع رأسه على الوسادة ، ومن ثم مسحت دموعها وخطت مقتربة من لودميلا ، ومالت عليها تمسح على شعرها الكثيف . فحولت المرأة الثانية إليها عينين باهتتين متوسعتين ، وناضلت كي تنهض على قدميها ، وهي تهمس بصوت راعش النبرات :

– لقد عشنا معاً في المنفى . لقد ذهبنا إلى هناك معاً ، وقضينا مدة إدانتنا . ذلك لايطاق ، في بعض الأحايين ... ذلك يبعث على النفور ، وكثيرون هم الذين تخونهم الشجاعة ...

اعتصرتها نوبة من بكاء مرتفع جاف تغلبت عليها في جهد عظيم ، ثم أطفأت من الأم بوجهها الذي رفت سيماؤه بما انطبع عليه من حنان وكآبة حتى بدت صاحبته أصغر سناً مما هي عليه ، وتابعت في همس سريع وهي تبكي دون عبرات :

– أما هو ، فلم يكن ينضب لمرحه معين . يضحك أبداً ويمزح ، مخفياً آلامه الخاصة ليسكب الشجاعة في قلوب الضعفاء منا ... لقد كان أبداً طيب القلب ، لطيفاً ، رقيق الشعور . وهناك .. في سيبيريا .. كثيراً ماتفسد البطالة الناس وتقودهم إلى إطلاق العنان لغرائزهم الدنيئة ... لكم كان يعرف كيف يحارب كل هذا !.. آه لو تعلمين أي رفيق مدهش رائع كان ... لقد كانت

حياته الخاصة ثمة كل التعاسة ، لكن أحداً لم يسمع قط كلمة شكوى او تبرم من شفتيه . أبداً ! ولقد كنت صديقة عزيزة عليه ، وأدين للطفه بالشيء الكثير ، ولقد أعطاني كل مافي مقدوره من ثراء فكره .. ومع ذلك فانه لم يسأل أبداً ثواباً ، بالرغم من إعيائه ووحدته ، ولم يطلب أدنى عطف أو أية عناية شخصية ..

وأكثبت من ييجور ، وانحنت عليه تقبل يده . ثم قالت بصوت خافت :

ـــ أيها الرفيق ، يارفيقي العزيز الطيب ، شكراً لك .. شكراً لك من صميم قلبي . وداعاً ! لسوف أتابع العمل كما عملت أنت دائماً .. دون كلل ، وبأيمان لايتزعزع ، طوال حياتي . وداعاً !

راح جسدها ينتفض وهي تجهش بالبكاء ، ثم ارتمت عند قدمي ييجور . وكانت الأم تبكي في سكون وغزارة ، وهي تحاول ، لسبب ما ، أن تحبس عبراتها إنها تريد أن تعزي لودميلا بحنان عميق وعطف عظيم ، تريد أن تقول كلمات رائعة عن ييجور تطفح حباً وحزناً . ومن خلال دموعها نظرت إلى وجه المنتفخ وعينيه نصف المغمضتين بجفنيه المسبلين فكأنه يغفو أو يحلم وشفتيه القاتمتين الطافرة عليها ابتسامة خفيفة ... لقد كانت كل الأشياء ساكنة براقة حتى درجة الايلام .

ودخل إيفان دانيلوفتش بخطواته السريعة المعهودة ، وتوقف بغتة في وسط الغرفة ، ثم دفع يديه في جيبه بقسوة ، واستقصى بصوت مرتفع عصبي :

ـــ متى حدث ذلك ؟

فلم يتلق جواباً . مسح جبينه واتجه صوب ييجور ، وهو يترنح قليلاً ، وبعد أن ضغط على يده ، ابتعد جانباً ...

ـــ لم يكن ذلك مفاجأة ، كان يجب أن يحدث ، بمثل قلبه ، قبل ستة أشهر على الأقل ..

وفجأة انكسر صوته الحاد ، المرتفع كثيراً ، والهادىء في الوقت ذاته ، فاستند الى الحائط وراح يعبث بلحيته في عصبية ، وهو يراقب المرأتين قرب السرير . قال بصوت خافت :

واحد آخر يتلاشى !

نهضت لودميلا وذهبت تفتح النافذة ، وبعد لحظة كانوا يقفون جميعاً بالقرب منها يشخصون في وجه ليل الخريف الأدعج . وكانت مصابيح الدجى تتلألأ ، فوق قمم الأشجار القاتمة ، فتزيد فراغ السماء اللامتناهي عمقاً وبعداً ..

وأخذت لودميلا ذراع الأم ،واعتمدت على كتفها في سكون ؛ ووقف الطبيب مطرق الرأس، يمسح نظارتيه ؛ ومن خلال النافذة أتت أصداء ليل المدينة المتعبة. وداعب البرد وجوههم وحرك شعورهم في لطف ، فارتجفت لودميلا ، في حين راحت دمعة ملتهبة تترقرق على خدها . وفي الرواق كانت أصداء متكسرة مذعورة ، ووقع أقدام سريعة مضطربة ، غير أن الثلاثة ظلوا ساكنين لا حراك بهم عند النافذة يشخصون في الليل البهيم .

وأحست الأم أن وجودها لم يعد مستحباً في الغرفة ، فتخلصت من لودميلا في أناة واتخذت طريقها الى الباب . وعند العتبة انحنت لييجور .

استجلى الطبيب بصوت خفيض ، ودون أن يلتفت اليها :

- أتذهبين ؟

- نعم ...

ولما بلغت الشارع رأت تفكر بلودميلا وعبراتها المكتومة :

- إنها لا تعرف كيف تبكي ...

وتنهدت إذ تذكرت آخر ما تفوه به ييجور من كلمات قبل وفاته . وراحت تتذكر طوال الطريق عينيه الحبيبتين ، ومرحه الدائب ، والقصص التي رواها عن الحياة . هجست في نفسها :

ـ إنّ الحياة عسيرة على الانسانُ الطيب ، أما الموت فسهل للغاية . كيف سأموت أنا ، يا ترى ؟

ورأت بعيني فكرها لودميلا والطبيب واقفين الى نافذة تلك الغرفة البيضاء المشعشعة بالضياء ، وعيني يجور الى الخلف منها . وعلى حين فجأة غمرها رثاء عظيم للجنس البشري، فأنشأت خطاها تتدافع وهي تصعد زفرة كالنار ، يحرضها شعور غامض غير محدود . وفكرت ، وهي تخضع لقوة داخلية تمتزج بكثير من الكآبة والاقدام :

ـ يجب أن أسرع !

* * *

١١

قضت الأم اليوم التالي برمته منهمكة في تدبير أمور المأتم . وفي المسا ، بينما هي وصوفيا ونيقولاي يترشفون الشاي ، هبطت ساشا عليهم كثيرة المرح والحيوية حتى درجة غريبة . كانت وجنتاها متوقدتين . وعيناها تلمعان فرحاً ، حتى بدا للأم أن صدرها يطفح برجاء بهيج للغاية ، كان مزاجها على طرفي نقيض مع جو الكآبة الذي راحو يستعيدون فيه الذكريات عن حياة ييجور . ولم تتكيف ساشا مع ذلك الجو ، بل عكرت صفوه ، وأعمت عيون الغارقين فيه مثل نار تتأجج ، دون انتظار ، في الظلمة الغاضبة .

وقال نيقولي ، وهو يضرب على الطاولة بأصابعه :

— مادهاك اليوم ، ياساشا ؟ لست على طبيعتك ومزاجك ؟

فأجابت ساشا ، مرسلة ضحكة سعيدة :

— حقاً ؟ ربما !

وتطلعت الأم اليها في عتاب أخرس ، بينما همهمت صوفيا تذكرها :

— لقد كنا نتكلم عن ييجور إيفانوفتش بالضبط .

فهتفت ساشا :

أي انسان رائع كان ! إني لم ألقه أبداً إلا والابتسام يموج على شفتيه ، والمزاح يتراقص في فمه . وكيف كان فناناً في الثورة ، أستاذاً

في التفكير الثوري . بأية قوة بساطة كان يرسم لوحاته عن الضعف، والكذب ، والخداع ، والظلم !

كانت تتكلم بصوت خافت ، وفي عينيها ابتسامة مفكرة ، لكن هذه الابتسامة أعجز عن إطفاء نار الغبطة التي استطاع ثلاثتهم تمييزها ، وإنلم يستطع أحد منهم فهمها .

وأبوا أن يستبدلوا ذلك المرح الذي تحمله ساشا بالكآبة الناشئة عن موت رفيقهم فطفقوا يدافعون ، دون وعي منهم ، عن حقهم في الانغماس في الحزن ساعين أن يروا الفتاة إلى مشاركتهم أتراحهم .

قالت صوفيا في إصرار ، وهي ترمق ساشا بنظرة مدققة :

- وهاهو الآن قد مات !

شملتهم ساشا بنظرة مستفهمة وعبست ، ثم أطرقت برأسها وهي تصفف شعرها . وأخيراً رفعت رأسها بغتة ، وجمجمت بصوت يرن بالتحدي ، بعد فترة من الصمت المتوتر :

- لقد مات ! ماذا يعني هذا ..مات ؟ ماالذي مات ؟ هل مات احترامي ليبجور ، أو حبي له كرفيق ، أو ذكرياتي عن آرائه وأعماله ؟ هل اختفى ذلك الشعور الذي يثيرهفي قلبي ، أو معرفتي به كانسان شريف مقدام ؟ هل مات كل هذا ؟ أعلم أن ذلك لايمكن أن يموت أبداً بالنسبة إلي . يؤتى لي أننا نتسرع كثيراً حينما نقول عن شخص ما ... إنه مات . لقد ماتت شفتاه ، وأما كلماته فتظل حية في قلوب الأحياء !

وفي انفعالها جلست على المائدة ، واعتمدت عليها بمرفقيها ، وتابعت هي أكثر هدوءاً وتأملاً مبتسمة لرفاقها بعنين مكفهرتين :

- لعل ماأقول يبدو لكم حماقة أيها الرفاق . ولكني أؤمن بخلود الناس الشرفاء ، خلود أولئك الذين منحوني الامكانيات حتى أعيش هذه الحياة الرائعة

التي أحياها ، هذه الحيا التي تسكرني بتعقدها المدهش . وغناها بالحوادث ، ونمو الأفكار العزيزة على معزة قلبي نفسه . لعلنا نبخل كثيراً بعواطفنا ، فنحن نعيش كثيراً مع أفكارنا وهذا يشوهنا نوعاً ما . نحن نقدر جميع الأشياء دون عاطفة ...

فاستفهمت صوفيا ، وشفتاها تفترّان عن ابتسامة صغيرة :

ـ هل وقع لك حادث سعيد ؟

ـ نعم ، حادث جميل جداً على مايخيل إلي . لقد قضيت الليل بطوله أحادث فيزوفشيكوف . إني لم أحبه من قبل أبداً . كنت أخاله فظاً جاهلاً ، ومما لاريب فيه أنه كان فظاً جاهلاً ... كان أبداً مفعماً بنقمة سوداء مريضة ضد سائر الناس ، وهو يضع نفسه نوعاً ما في قلب جميع الأشياء فكأنه مركز الثقل ، ويروح يقول في جفوة وخبث دون انقطاع : أنا ، أنا ، نا ، لقد كان ضيق التفكير بشكل هائل ، يعيش بعواطف البورجوازي الصغير ...

وابتسمت ، ثم راحت تحدجهم من جديد بعينين لامعتين :

ـ أما الآن فهو يقول : أيها الرفاق . ويجب أن تسمعوه كيف يقول هذه الكلمة ... إنه يلفظها بنوع من المحبة اللطيفة الخجول التي لايمكن التعبير عنها بالكلمات . لقد أضحى بسيطاً مخلصاً ، مليئاً بالرغبة في العمل بصورة تبعث على الذهول . لقد وجد نفسه . إنه واع تماماً لقواه ولمساوئه على حد سواء . الأمر الرئيسي هو ذلك الشعور الحقيقي بالرفقة الذي ولد فيه ...

وكانت الأم سعيدة وهي تنصت إلى ساشا ، إذ تكتشف أن مثل هذا الانسان الصارم النفس يمكن أن يصبح لطيفاً فرحاً . ولكنها في الوقت ذاته كانت تفكر ، في مكان ما من أعماق قلبها ، في غيرة :

ـ وماذا عن بافل ؟

وتابعت ساشا تقول :

ـــ إنه يفكر في رفاقه فحسب ، وهل تعلمون بماذا حاول إقناعي ؟ بضرورة تدبير أمر فرارهم . انه يدّعي أن ذلك بسيط سهل للغاية .

فرفعت صوفيا رأسها ، وقالت في لهفة :

ـــ تلك فكرة رائعة ، ياساشا ! مارأيك ؟

ارتجف قدح الشاي في يد الأم ، أما ساشا فعقدت حاجبيها وهي تحاول كبت عواطفها وانفعالاتها . وبعد فترة من الصمت قالت بصوت رزين ، ولكن بابتسامة سعيدة :

ـــ إن كان مايقول حقاً ، فعلينا إذن أن نحاول ... واجبنا أن نحاول .

واحمر وجهها بغتة ، وسقطت في أحد المقاعد دون أن تقول شيئاً .

وفكرت الأم ، وهي تبتسم :

ـــ ياحبيبتي !

ـــ وكذلك ابتسمت صوفيا ، بينما اختلس نيقولاي النظر إلى ساشا وضحك في رقة ، فرفعت الفتاة رأسها إليهم : كانت شاحبة الوجه ، وعيناها تبرقان ، وصوتها جافاً جريحاً . قالت :

ـــ أني أفهم سبب ضحككم . أنتم تظنون أن لدي دافعاً شخصياً إلى تحقيق ذلك .

فقالت صوفيا في خبث ، وهي تنهض وتقترب منها :

ـــ لماذا ، ياساشا ؟

وشخص للأم أن ذلك قد آلم ساشا ، وأن صوفيا محقة في ذلك القول ، فتنهدت ونظرت إليها في عتاب . هتفت ساشا :

ـــ إذن فأنا أرفض التدخل في هذه القضية ، لست أقوى على المساهمة في تقرير ذلك مادمتم تعتقدون أنه ...

فقال نيقولاي في هدوء :



ناتاشا

— كفى ، يا ساشا .

ذهبت الأم إليها أيضاً وراحت تمسح على شعرها ، فأمسكت الفتاة بيدها ورفعت محياها المورد نحو وجه الأم ، فابتسمت هذه وتنهدت وقد أعوزتها الكلمات ، بينا جلست صوفيا على المقعد بجانب ساشا وأحاطت كتفها بذراعها ، وقالت وهي تتطلع في عينها بابتسامة مستفهمة :

— لأنت حبيبة رائعة !

- ربما كان من البلاهة أن ...

فتابعت صوفيا :

— كيف يمكن أن تراودك مثل هذه الأفكار ؟

ولكن نيقولاي قاطعها بلهجة رزينة :

— يجب تدبير هربهم من دون أدنى ارتياب ، إن كان هذا الهرب ممكناً . ولكن يجب أن نعرف قبل كل شيء إن كان رفاقنا في السجن يريدوننا أن نفعل هذا .

فأطرقت ساشا برأسها ...

أشعلت صوفيا لفافة ، وألقت بعود الثقاب في إحدى الزوايا وهي ترنو إلى أخيها . أما الأم فتنهدت ، وقالت :

— كيف يمكن ألا يريدوا ذلك ؟ ولكني لا أعتقد بإمكانه ...

كانت تتلهف أن تسمعهم يؤكدون احتمال الفرار ؛ بيد أنهم ظلوا سكوتاً .

قالت صوفيا :

— يجب أن أرى فيزوفشيكوف .

فأجابت ساشا :

— سأقول لك غداً متى يمكن ذلك ، وفي أي مكان .

واستوضحت صوفيا ، وهي تذرع أرض الغرفة في ذهاب وأوبة .

— وماهي مشاريعه ؟

— ينوون أن يسندوا إليه عملاً في المطبعة الجديدة ، وفي انتظار ذلك سيعيش مع أحد حراس الغابات .

كانت ساشا عابسة ، وقد استرد وجهها تعبيره الكالح المألوف . وكانت تتكلم بجفاء واقتضاب :

قال نيقولاي ، وهو يتجه إلى حيث الأم تغسل بعض الأواني الزجاجية :

— يجب أن تسلمي بافل رسالة صغيرة حين تنطلقين لزيارته بعد غد . أنت تفهمين ... يجب أن تعرف ...

فأسرعت الأم تؤكد له :

— إني أفهم . سأتدبر الأمر كي أسلمه إياه .

— إني ذاهبة الآن .

أعلنت ساشا ذلك ، وبعد أن صافحت كلاً منهم اختفت منتصبة القامة بشدة ، وبخطوات ثابتة حازمة أكثر من المعتاد .

وبعد أن ذهبت ، وضعت صوفيا يديها على كتفي الأم وطفقت تهزها إلى الأمام والخلف . سألت :

— أفي استطاعتك حب مثل هذه الابنة ، يانيلوفنا ؟

فصاحت الأم ، وهي على شفا البكاء :

— آه ، يا إلهي ! لو أستطيع رؤيتها معاً ليوم واحد فقط !

فغمغم نيقولاي بصوت رقيق :

— نعم ، إن قليلاً من السعادة لايؤذي أحداً . ولكن أحداً لايقنع بالقليل من السعادة ، فاذا كثرت جداً .. أصبحت رخيصة

واتجهت صوفيا إلى البيانو ، وأنشأت تعزف لحناً حزيناً .

١٢

في صباح اليوم التالي كان ثلاثون أو أربعون شخصاً يقفون عند بوابة المستشفى ينتظرون خروج نعش رفيقهم المتوفى في العشية ، وقد تغلغل بينهم بعض الجواسيس يصغون إلى هتافاتهم، ويسجلون في أذهانهم الوجوه والحركات والكلمات ، بينما اصطف عبر الشارع فريق من رجال الشرطة ، والمسدسات في أحزمتهم . وثارت ثائرة الحشد من وقاحة الجواسيس ، والابتسامات الساخرة التي تعلو شفاه رجال الشرطة المستعدين في كل لحظة لأن يبرهنوا على قوتهم . وراح بعضهم يخفون ضجرهم وراء الهزل والمزاح ،في حين استمر البعض الآخر يشخصون في عناد إلى الأرض حتى يتجنبوا الاهانات الموجهة اليهم ، وفريق ثالث ، وقد عجزوا عن إخفاء مشاعرهم ، يلقون بملاحظات جارحة عن السلطات المذعورة من قوم لم يتسلحوا إلا بالكلمات. وكانت سماء الخريف الزرقاء الشاحبة تلتمع ببريق فوق حجارة الطريق الرمادية المزروعة بأوراق صفر تساقطت عن الأشجار ، فراح الهواء يعصف بها عند أقدام القوم المحتشدين ويذروها .

ووقفت الأم بين الحشد تفكر في كآبة ، وهي تحدج الوجوه المألوفة المحيطة بها .

— ليس عندكم كبيراً .. ليس كبيراً .. وليس عمال بينكم تقريباً ...

وفتحت البوابة ، وخرج منها بعض الرجال يحملون النعش الذي توّج

غطاؤه يبمض أكاليل من الازهار أحاطت بها أشرطة حمر ، فأسرع المتجمهرون يرفعون قبعاتهم ، فكأن سرباً من العصافير السود قد خفق بأجنحته على حين فجأة . واندفع في الحشد ضابط شرطة طويل القامة ، أحمر الوجه ، كث الشارب الأسود ، يتبعه الجنود وهم يدفعون الوقوف في فظاظة ، ويضربون الأرض بأحذيتهم الثقيلة في شدة وعنف .

صاح الضابط بصوت أجش :

— ارفعوا هذه الأشرطة .

فاستكف الرجال والنساء حوله يتكلمون بانفعال وهياج شديدين يلوحون بأذرعتهم ويتدافعون بالأكتاف . وتراقصت أمام عيني الأم وجوه شاحبة ، منفعلة ، ترتجف شفاهها في عصبية . وانحدرت دموع الهوان واليأس على وجنتي إحدى النساء غزيرة مدرارة .

وعلا صوت فتى يقول :

- فليسقط العنف .

غير أن هتافه ضاع فوراً في حمأة الجدال وضجيجه .

كانت المرارة تملأ قلب الأم أيضاً ، فالتفتت إلى فتى رث الثياب يقف إلى جانبها وقالت ساخطة مغيظة :

— إنهم لا يسمحون حتى بالاحتفال بمأتم ميت كما يحلو لكم ... ذلك مخز حقاً .

وانما شعور العداء بين المجتمعين ، بينا راح غطاء النعش يترنح فوق رؤوس القوم ، واشرطته الحمر تخفق في الفضاء فتنال الرؤوس والوجوه تحتها بحفيف ثائر من الحرير الناعم .

اجتاح الأم الخوف من حدوث اصطدام بين الفريقين ، فراحت تهمس بسرعة ذات اليمين وذات اليسار :

— فليأخذهم الشيطان إن كان ذلك رأيهم في الموضوع ... فليأخذوا الأشرطة إذن ، فنحن نستطيع الاستمرار من دونها .

وتردد صوتٍ مرتفع حاد النبراتِ طاغياً على الضوضاء :

— إننا نطلب الحق بتشييع رفيقنا إلى مثواه الأخير ، هذا الرفيق الذي عذبتموه حتى الموت .

وبدأ صوت عالٍ ينشد .

« لقد سقطتم ضحايا نبيلة .. »

— إنزعوا الأشرطة . اقطعها ، يا يا كوفليف !

وعلا صليل سيف يستل من غمده ، فأغلقت الأم عينيها تتوقع صراخاً وانفجاراً ، لكن القوم لم يزيدوا عن الغمغمة والتكشير عن الأنياب مثل ذئاب جائعة ، ومن ثم ساروا في سكون ، مطرقي الرأس ، يملؤون الشارع بوقع خطاهم .

كان غطاء النعش الذي دنس واعتدي عليه يسبح فوق رؤوس الناس بأكاليله المهشمة ، وإلى جانبه يترنح فرسان الشرطة على متون جيادهم . وكانت الأم تمشي على الرصيف فلا تستطيع سبيلاً إلى رؤوية النعش الذي تكالله الناس من كل حدب وصوب ، وهم يتكاثرون باستمرار بصورة غير محسوسة ، حتى أصبحوا حشداً كبيراً يغمر الشارع برمته . وإلى الخلف من الحشد كانت أشباح فرسان الشرطة العادية تنتصب أيضاً ، وثمة آخرون يسيرون راجلين على جانبي الموكب وأيديهم على مقابض سيوفهم . وفي كل مكان كانت الأم تستطيع تمييز أعين الجواسيس الحادة تتفحص بإمعان وجوه الناس .

وأنشد صوتان كئيبان :

« وداعاً ، أيها الرفيق ، وداعاً . »

فصاح صوت ثالث :

— إننا نستطيع الاستغناء عن هذا ! ... ينبغي أن نسير في صمت وخشوع ، أيها السادة .

كان في هذه الصيحة شيء صارم كثير الجد حتى إن النشيد انقطع للحال، وسكن لغط الحديث بين المشيعين فلم يعد يسمع سوى وقع الأقدام الحزين المتسق . كانت هذه الاصداء ترتفع فوق رؤوس الناس وتحلق عالياً فوق السماء الشافة ، وهي تهز الفضاء مثل هزيم الرعد الأول المبشر بعاصفة لما تزل بعيدة . وكانت ريح قارسة تشتد شيئاً فشيئاً تلفح بعداء وجوه القوم بغبار شوارع المدينة وأوساخها ، وتتشبث بقبعاتهم وثيابهم ، وتعمي أعينهم ، وتضربهم في صدورهم ، ثم تدور حول أقدامهم في حمية وجنون ...

كان ذلك المأتم الصامت ، الغني عن الكهنة والترتيل المؤثر ، وهذه الوجوه المغرقة في التفكير ، والحواجب العابسة المقطبة ، تملأ الأم باحساس من غم وهلع ... فتروح أفكار متماثلة تدوّم في ذهنها ... فتكسوها في كلمات كئيبة قليلة .

— لستم كثراً ، أنتم الذين تقفون للدفاع عن الحقيقة ..

ومشت مطأطأة الرأس ، يبدو لها أنهم لايدفنون ييجور بل شيئاً آخر.. شيئاً مقرباً إليها عزيزاً عليها . وكانت بائسة ضيقة الصدر ، يعصر قلبها القلق والمرارة ، وشعور بالتنافر مع هؤلاء القوم الذين يدفنون ييجور . فكرت :

— بالطبع ، إن ييجور لايؤمن بالله ، وليس أحد بين هؤلاء الناس يؤمن به ...

ولم تشأ أن تسترسل في الفكرة ، فتنهدت وهي تجرب تحرير نفسها من عبء حمل ثقيل .

— أواه ، يا إلهي . أواه ، يايسوع الحبيب ؛ أيمكن أني أنا أيضاً مثل هؤلاء ...

وبلغوا المقبرة ، وظلوا طويلا يدورون حول القبور خلال دروب ضيقة حتى أهدفوا أخيراً من فسحة طليقة من أرض مزروعة بصلبان صغيرة بيض كثيرة العدد ، فتحلقوا في صمت حول القبر المفتوح . كان سكون الأحياء هذا بين القبور يحمل في طياته شيئاً مخوفاً كثير الرهبة حمل قلب الأم على الارتعاش في توقع أليم . وعوت الريح وصفرت بين الصلبان ، وهي تخفق بين الأزهار المهشمة فوق غطاء النعش .

ووقف رجال الشرطة على أهبة العمل ، وعيونهم مثبتة في رئيسهم . وانتصب بجانب اللحد شاب طويل القامة شاحب الوجه ... ذو حاجبين سوداوين وشعر باسق الطول مسترسل ... وفي ذات اللحظة صاح ضابط الشرطة بصوته الأجش :

— أيها السادة ...

وبدأ الشاب ذو الحاجبين السوداوين يقول بصوت مرتفع واضح النبرات :

— أيها الرفاق ؟

فزعق الضابط :

— لحظة واحدة ! ينبغي أن أحذركم بأني لا أستطيع السماح بأية خطبة على الاطلاق .

فأجاب الفتى في هدوء :

— أريد أن أقول كلمات قليلة ليس غير ، أيها الرفاق ! فلنقسم على قبر صديقنا ومعلمنا أننا لن ننسى قط مبادئه ، وأن كلاً منا سيحفر دون كلل ، طوال حياته ، قبر تلك السلطة التي هي مصدر سائر آلام وطننا الأم ، تلك السلطة الشريرة المجرمة التي تضطهده : الملكية .

فصاح الضابط :

— اعتقلوه !

ولكن صوته ضاع في عاصفة من الهتافات :

— فلتسقط الملكية !

وشق رجال الشرطة طريقهم بين المحتشدين ، نحو الخطيب ، ولكنه لوح بذراعيه من حيث ازدحم أصدقاؤه لحمايته ، وصاح :

— عاشت الحرية !

ودفعت الأم جانباً فاعتمدت ، مذعورة ، أحد الصلبان وأغمضت عينيها تنتظر أن تصفع وتلطم . وأصمّت أذنيها زمجرة أصداء متنافرة ، ومادت الأرض تحت قدميها وغدا التقاط أنفاسها عسيراً عليها ، بسبب من الريح والذعر جميعاً . وراحت صفارات الشرطة تمزق الفضاء في لوعة ، وترددت أصوات قاسية تصدر الأوامر بعنف ، وطفقت النساء يصحن مضطربات ، وعيدان السور تتكسر ، وأحذية ثقيلة تضرب الأرض الجافة بثقل وقوة . استمر ذلك زمناً طويلاً ، حتى لم تعد تستطيع احتمال الوقوف هناك مغلقة العينين أكثر مما فعلت .

فتحت عينيها ، فأطلقت صيحة ثم وثبت إلى الامام ممدودة الذراعين . كان رجال الشرطة ، غير بعيد عنها ، في الدرب الضيقة بين القبور ، قد أحاطوا بالشاب المسترسل الشعر ، وهم يصدون الجماهير المندفعة من كل صوب ومنحنى لحمايته . ولمعت السيوف العارية بيضاً باردة في الفضاء ، تسطع تارة فوق رؤوس الناس وتهوي بينهم تارة أخرى . وارتفعت العصي وقضبان الحواجز المهشمة أسلحة للدفاع ، وقد اختلط الحشد الثائر في رقص مجنون يشرف عليه وجه الفتى الطويل من عل . وجاء صوته خلال هذه العاصفة من العواصف المجنونة الصاخبة :

— أيها الرفاق ، لم تبددون قواكم ؟

وكان في كلماته الاقناع كله ، فألقى القوم عصيهم ، وولوا الأدبار الواحد تلو الآخر . ولكن الأم ظلت تتابع الطريق قدماً تدفعها قوة لا تقاوم ، فرأت نيقولاي

وقبعته فوق مؤخرة رأسه وهو يدفع الناس بعيداً . كان يصيح معاتباً :

ـ هل جننتم ؟ ثوبوا إلى رشدكم .

وشخص لها أن إحدى يديه حمراء . صاحت ، وهي تندفع نحوه :

ـ نيقولاي إيفانوفتش ! اذهب من هنا !

ـ إلى أين تذهبين ؟ سوف يضربونك !

وأحست يداً على كتفها ، ورأت صوفيا تقف إلى جانبها عارية الرأس ، شعثاء الشعر ، ممسكة بصبي من يده . وكان الصبي ، وهو يكاد أن يكون ولداً صغيراً ، يمسح الدم عن وجهه ويغمغم بشفتين مرتعشتين :

ـ اتركيني ليس هذا بذي بال ...

قالت صوفيا في عجلة :

ـ اعتني به .. خذيه إلى بيتنا . إليك هذا المنديل كي تضمدي وجهه .

وحين وضعت يد الصبي في يد الأم ، ذهبت عدواً وهي تقول .

ـ إذهبي سريعاً وإلا اعتقلوك .

كان القوم يتشتتون في المقبرة في سائر الاتجاهات ، ورجال الشرطة يستعجلون الخطا بين القبور وهم يتعثرون في معاطفهم الفضفاضة . ويقسمون الأيمان المغلظة ، ويلوحون بسيوفهم ، بينما راح الصبي يراقبهم بعيني ذئب جريح .

صاحت الأم به ، وهي تمسح وجهه بالمنديل :

ـ أسرع بنا !

فتمتم ، وهو يبصق من فمه دماً :

ـ لا تقلقي من أجلي .. ذلك لا يؤذي ... لقد ضربني بقبضة سيفه ، إلا أني ناولته بالمقابل ما يستحق ... لقد ناولته ضربة من عصاي أرسلته يعوي .. ولكن انتظري ..

وصاح ، وهو يهز قبضته الدامية في الهواء :

– هذا ليس شيئاً بالنسبة لما سيكون .. لسوف نسحقكم دون قتال إذا ما نهضنا يوماً – جميعنا نحن العمال .

فحثته الأم ، وهي تتخذ طريقها نحو بوابة المقبرة :

– أسرع .

– كانت تخال أن أفراد الشرطة ينتظرونها في الحقل العاري ماوراء سور المقبرة ، ولن يكادا يطلان على الخارج حتى يهاجموها ويشبعوها ضرباً . ولما بلغت البوابة أخيراً ، واختلست النظر في عناية إلى الحقل المكسو بنسيج رمادي من قيلولة الخريف ، طمأنها السكون والخلاء وهدأ آمن روعها . قالت :

– تعال هنا ، دعني أضمد وجهك .

– لا تزعجي نفسك ، فلست خجلاً منه . لقد كان ذلك قتالاً شريفاً ، أعطاني نصيبي وأعطيته نصيبه .

ضمدت الأم الجرح بسرعة . كانت رؤية ذلك الدم تملؤها شفقة ، فيزحف على طول ظهرها قشعريرة باردة عندما تحتك أصابعها بلزوجته الدافئة . وجرت مع الصبي سريعاً ، دون أن تتفوه ببنت شفة ، عبر الحقل ، وهي تمسك به من ذراعه . ولكنه حرر فمه من الضماد ، وقال لها ساخراً :

– إلى أين تذهبين بي ، أيتها الرفيقة . أستطيع الذهاب دون معونتك .

وأحست أن يده ترتعش ، وأنه يترنح على قدميه . واستمر يتكلم ويطرح الأسئلة بصوت ضعيف ، منطلقاً عجلان الخطو دون أن ينتظر من رفيقته جواباً .

– من أنت ؟ أنا سنكري واسمي إيفان . ولقد كنا ثلاثة في حلقة ييجور إيفانوفيتش الدراسية . ثلاثة من السنكريين ، وكان المجموع أحد عشر . لقد كنا مغرمين به بصورة فظيعة ... أسكن الله نفسه جنان فردوسه . وبالرغم من أني لا أؤمن بالله فاني ...

وفي أحد الأزقة ، نادت الام عربة . وبعد أن أجلست إيفان فيها همست :

ـ والآن ، اطبق شفتيك .

. ضمدت فمه بالمنديل في عناية ، فرفع يده إلى وجهه ، ثم تركها تسقط في حجره عاجزاً ، أضعف من أن يناضل ضد الضماد . غير انه استمر مع ذلك يغمغم من خلال المنديل :

ـ لاتظنوني أنس هذا أبداً ، أيها الشجعان ... قبل أن يأتي كان ثمة طالب يدعى تيتوفيتش يدرسنا الاقتصاد السياسي ثم اعتقلوه ...

فأحاطت الام ايفان بذراعها ، وألقت برأسه على صدرها . وفجأة ثقل رأسه وأخلد إلى السكون ، أما هي فراحت . مشلولة رعباً ، تتطلع في كل الاتجاهات ؛ تخال أن الشرطة ستأتي لملاقاتها ركضاً من وراء زاوية ما ، فاذا مارأت ضماد إيفان أمسكت به وقتلته .

سأل السائق ، وهو يتململ في مقعده ، ويبتسم منشرح الصدر :

ـ أهو سكران ؟

فقالت ، وهي تتنهد :

لقد شرب كثيراً .. حتى فقد الوعي ...

أهو ابنك ؟

نعم . وهو إسكافي ، أما أنا فطاهية .

ـ ما أصعب حياتك !

وهز السوط فوق ظهر جواده ، ثم استدار إليها من جديد ، وتابع في هدوء :

ـ هل بلغك خبر القتال الذي جرى قبل لحظات في المقبرة ؟ يبدو أنهم كانوا يدفنون واحداً من أولئك السياسيين .. واحداً من أولئك الذين يعملون ضد السلطات .. والذين أخذوا على عاتقهم منازعتهم ابداً .. ويبدو أن المشيعين كانوا جميعاً من مثل طينته ، أريد أن أقول إنهم أصدقاء له ... وقد راحوا يصيحون : فلتسقط السلطات لأنها تجعل الشعب فقيراً ! . وهجمت الشرطة عليهم تكيل لهم الضربات .. ويقال إن بعضهم قد جرحوا حتى الموت ،

ولقد تلقت الشرطة نصيبها أيضاً..

- صمت لحظة ، ثم أضاف بصوت غريب ، وهو يهزّ رأسه ارتياباً وإنكاراً :

- يوقظون الأموات هكذا ، ولا يعطونهم فرصة للراحة ...

وراح رأس إيفان يتدحرج في هدوء فوق صدر الأم والعربة تقفز فوق حجارة الشارع ، وقد استمر الحوذي يتمتم متأملاً ، وهو مابرح مستديراً نصف استدارة نحو الأم :

— إن الاظطراب قد دخل الشعب .. والفوضى تنبثق من الأرض انبثاقاً . في الليلة الفائتة جاء الدرك إلى بيت أحد جيراننا ، وظلوا ينبشون وينبشون حتى الصباح ، ثم اقتادوا معهم واحداً من الحدادين عندما ذهبوا . والناس يقولون إنهم سيأخذونه في إحدى تلك الليالي إلى ضفة النهر ويغرقونه هناك في سكون . لقد كان الحداد رجلاً طيباً للغاية ...

فسألت الأم :

— وما هو إسمه ؟

— الحداد ؟ سافل ، سافل يفشنكو . وهو مابرح صغير السن ، ولكنه يعرف أشياء كثيرة . يبدو كأن المعرفة ممنوعة . كان يأتي الينا عادة ويقول لنا : ماهذه الحياة التي تعيشون ، أيها الحوذيون ؟ فكنا نقول : أسوأ من حياة الكلاب ، إذا أردت الحقيقة ..

قالت الأم :

— قف !

أيقظ وقوف العربة إيفان ، فأرسل أنيناً خافتاً .

قال الحوذي :

— إن الفتى فاقد الوعي تماماً ! تلك هي نتيجة الفودكا ، الفودكا ..

عبر إيفان الساحه مترنحاً في صعوبة جمة ، وهو يحتج طوال الوقت :

- إني على أحسن حال .. إني أستطيع السير ..

١٣

كانت صوفيا قد سبقتها إلى الدار ، فاستقبلتها في قلق وانفعال وبين أسنانها لفافة مشتعلة . وبعد أن مددا الصبي على الأريكة ، حلت ضماده في حذق ومهارة ، وبدأت تلقي الأوامر ، وهي ترف بعينيها تفادياً من دخان لفافتها ومنعاً له من الدخول إليها :

— لقد أتيا ، ياإيفان دانيلوفيتش ! متعبة ، يانيلوفنا ؟ ولقد ذعرت أيضاً ، أليس كذلك ؟ حسناً ، استريحي الآن .. أعط نيلوفنا كأساً من النبيذ ، يانيقولاي .

كانت الأم تشكو الصدمة التي تلقتها قبل قليل ، وهي تجد صعوبة في التنفس وتحس في الصدر ألماً حاداً جارحاً . غمغمت :

- لاتقلقوا من أجلي .

ولكن كانها بمجموعه كان يستدعي الانتباه .. ويسأل عطفاً حنوناً .. ورعاية مواسية .

وجاء نيقولاي من الغرفة المجاورة مضمد اليد ، وبصحبته الطبيب إيفان دانيلوفيتش ، مشعث الهندام منتصب الشعر كالقنفذ . وأسرع هذا الأخير يعبر الغرفة حتى الأريكة التي اضطجع إيفان عليها ، ومال عليه قائلاً :

— ماء ، كثيراً من الماء . وقطناً وقطعة قماش نظيفة .

فاتجهت الأم نحو المطهى . لكن نيقولاي أخذها من ذراعها وقادها إلى غرفة الطعام ، قائلا في لطف :

— طلب ذلك من صوفيا ، وليس منك . أخاف أن تكوني لقيت كثيراً من الازعاج ، أليس كذلك ياعزيزتي ؟

وعندما لاقت الأم عينيه القلقتين الرفيقتين ، لم تستطع أن تضبط عبراتها . صاحت :

— أواه ! ما أفظع ماحدث ! لقد ذبحوا الناس ، وقطعوهم بأسيافهم ..

فقال نيقولاي وهو يهز رأسه ، ويناولها كأساً من النبيذ :

— لقد رأيت ذلك . إن كلا الجانبين قد أضاع رشده قليلاً ، ولكن لاتقلقي من أجل ذلك . لقد ضربوا بجوانب السيوف ، ويبدو أن ثمة شخصاً واحداً جراحه خطيرة . لقد فعلوا ذلك به أمام ذات عيني ، ولقد تدبرت الأمر كي أجره بعيداً عن الحشد .

هدأ صوت نيقولاي ونور الغرفة وحرارتها من روع الأم ، فنظرت إليه في امتنان قائلة :

— هل ضربوك أيضاً ؟

— الظاهر أني فعلت ذلك بنفسي ... إذ اصطدمت يدي على غير انتباه مني بشيء فسحجت البشرة عنها . إليك قليلا من الشاي ، إن البرد شديد في الخارج ، وأنت لاتريدين إلا ثياباً خفيفة .

وأرادت تناول الكأس ، فاذا بها تلاحظ دماً جافاً يغطي يدها الممدودة ، فألقت بها من دون وعي في حجرها ... كان ثوبها رطباً أيضاً .. رفعت حاجبيها ، وفتحت عينيها واسعتين وهي ترمق أناملها ملياً .. وخفق قلبها ، وأحست دواراً في رأسها :

— بافل أيضاً .. لعلهم يفعلون به الشيء نفسه !

دخل إيفان دانيلوفيتش الغرفة وقد شمر أكمام سترته . وأجاب على استفهام نيقولاي الأخرس بصوته المرتفع :

– الجرح في وجهه ليس بذي بال ، ولكن في جمجمته كسراً ليس خطراً أيضاً ، فالفتى ذو بنية متينة . سوى أنه أضاع كمية كبيرة من الدم على اية حال . هل نرسله إلى المستشفى ؟

فقال نيقولاي :

– لمَ ؟ فليبق هنا .

– هذا اليوم ، ولربما الغد أيضاً . أما فيما بعد ، فمن الأفضل بالنسبة إليّ أن يكون في المستشفى ، إذ ليس لدي الوقت الكافي لزيارة المرضى في منازلهم . هل ستكتبون منشوراً عن هذا الحادث في المقبرة ؟

فجزم نيقولاي :

– بكل تأكيد .

ونهضت الأم في هدوء ، وأخذت سمتها صوب المطبخ ، فاستجلى نيقولاي معترضاً والقلق مرتسم على محياه :

– أين تذهبين ، يانيلوفنا ؟ ستدبر صوفيا كل شيء وحدها .

فحدجته بناظريها ، وهزّت كتفيها وقالت ، وهي ترسل ضحكة غريبة :

– أنا غارقة في الدم من رأسي حتى قدميّ :

وبينما هي تبدل ثيابها في غرفتها الخاصة راحت تفكر ، متعجبة ؛ في هدوء هؤلاء الناس ومهارتهم في التغلب على مثل تلك الأشياء المرعبة بكل هذه السهولة الفائقة ، فأسبغت هذه الأفكار على روعها شيئاً من طمأنينة ، وطردت المخاوف من قلبها . ولما دلفت أخيراً إلى الغرفة حيث ينام الصبي المريض ، وجدت صوفيا منحنية عليه وهي تقول :

– هراء ، أيها الرفيق !

فاعترض في ضعف :

ــ سوف أزعجكم .

ــ كفَّ عن الكلام ... ذلك خير لك ...

وقفت الأم خلف صوفيا ويدها على كتفها ، وراحت تبتسم في وجه الصبي الشاحب وهي تقصُّ عليه كيف أرعبها في العربة بما تمتم من أمور غريبة ، فاذا عينا إيفان تلتهبان في حمية ، ثم صفق بلسانه وقال في حياء وخفر :

ــ يالي من أحمق !

فقالت صوفيا ، وهي تصلح من وضع غطائه :

ــ سوف نتركك الآن . هلا رقدت ؟

ودخلنا غرفة المائدة حيث جلسوا طويلاً يناقشون حوادث النهار ؛ وراحوا، وهم ينظرون إلى تلك المأساة وكأنها شيء قد أمسى من الماضي البعيد ، يتطلعون في ثقة نحو المستقبل ويضعون الخطط لتنظيم أعمال الغد . كانت وجوههم متعبة ، ولكن أفكارهم جريئة مقدامة . وبينا كل يتحدث عن العمل الذي أنجز ، لم يكن يخفي عدم رضاه عن نفسه . وكان الطبيب يتململ في مقعده بعصبية وهو يقول ، مجرِّباً أن يخفف من حدة صوته وارتفاعه :

ــ الدعاية ليست كافية في هذه الأيام . والعمال الشباب على حق ، فعلينا توسيع نطاق فعالياتنا . أقول لكم إن العمال على حق .

فقطب نيقولاي حاجبيه ، وقال بذات النغمة التي تحدث بها الطبيب :

ــ إننا نسمع شكاوي من كل جانب عن عدم كفاية المطبوعات ، ومع ذلك لم نتمكن حتى الآن من تأمين مطبعة حسنة . ولودميلا تنهك نفسها للغاية ، ولسوف تذوب وتنهار إن لم نقدم لها بعض المعونة .

فسألت صوفيا :

ــ وماذا عن فيزوفشيكوف ؟

إنه لايستطيع العيش في المدينة ، ولن يبدأ العمل قبل الحصول على المطبعة الجديدة ، ولكننا مازلنا نحتاج إلى شخص آخر قبل أن نفعل ذلك .

فاستوضحت الأم بصوت خفيض :

– أفلا أصلح أنا لذلك ؟

فاشرأبت أنظار الثلاثة إليها في صمت عدة ثوان ، ثم هتفت صوفيا :

– تلك فكرة رائعة ، وربي !

فقال نيقولاي بجفاء :

ذلك شاق عليك جداً ، يانيلوفنا . إذ ستضطرين إلى العيش خارج المدينة ، وهذا يعني أنك لن تستطيعي رؤية بافل بعد ذلك اليوم . وعلى العموم ..

فردت ، وهي تتنهد :

– ذلك لن يعني الشيء الكثير بالنسبة إلى بافل . وكذلك الأمر بالنسبة إليّ في الحقيقة ، فتلك الزيارات تقطع نياط القلب في الواقع . لايحق لنا أن نقول شيئاً ، بل أقف هناك أواجه ولدي مثل الحمقاء ، بينما هم يشخصون إلى فمي ليبصروا إن كنت لن أجمجم شيئاً لايجوز لي فتح فمي به .

كانت متعبة من حوادث الأيام القليلة الأخيرة ، حتى إذا سنحت لها الآن فرصة العيش بعيداً عن مأساة المدينة ، تشبثت بها في لهفة وجشع .

لكن نيقولاى بدل موضوع الحديث ، فقال وهو يلتفت إلى الطبيب :

– ماذا يشغل بالك ، يا إيفان ؟

فرفع الطبيب رأسه المطرق ، وأجاب بكآبة :

– أفكر في قلتنا ! علينا أن نعمل بعزم أكثر من ذي قبل ، وأن نقنع بافل وأندريه بضرورة هربهما ... فما أثمن من يجلسا هناك دون أن يأتيا عملاً .

فتجهم وجه نيقولاي ، وهز رأسه ، وتطلع جهة الأم ، فأدركت أنهم

يجدون الحديث عن ابنها في حضورها من الصعوبة بمكان ، فنهضت وبرحت الغرفة جريحة الكبرياء لأن هؤلاء القوم قد تجاوزوا رغبتها ولم يعيروها التفاتاً . وبينا هي تستلقي في سريرها متسعة العينين تنصت إلى همس الأصوات الرقيق ، شرع إحساس بالجزع والقلق يطغى عليها شيئاً فشيئاً ، وهي تستسلم إليه دون مقاومة .

لقد انقضى النهار مظلماً ممتنعاً عن الادراك ، مليئاً بالاحساسات المنذرة بالويل والثبور ، ولكنها تأبى التفكير في ذلك فتروح ، وهي تطرد تلك الانطباعات المقلقة من ذهنها ، تركز كل انتباهها حول بافل . كانت تتلهف إلى رؤيته حراً طليقاً ، وفي الوقت نفسه تستشعر الخوف من حريته ، فهي تحس أن الحوادث التي تجري حولها ستقود حتماً إلى جو شديد التوتر ينذر بصدام قاس وخيم العاقبة . إن تحمل الناس الساكن الأخرس ليفسح المجال الآن لتوقع كثير القلق ، وسخطهم يزداد بصورة محسوسة يوماً بعد يوم ، وهي تسمع من كل لفتة وصوب كلمات حادة ناقمة ، وتجد كل ما يحيط بها يتنفس القلق والاضطراب . كان كل بيان يثير مناقشات حادة في الأسواق والحوانيت ، وبين الخدم وأرباب المهن ؛ وكانت تعليقات مذعورة متبلبلة ، بله ساخطة في بعض الأحايين ، تتبع كل اعتقال مهما كان سببه . وإنها لتسمع أكثر فأكثر أناساً بسطاء يتفوهون بتلك الكلمات التي طالما أهرقت الذعر في قلبها والثورة في أفكارها : الاشتراكيون الثائرون ، السياسة .. وإذا كانوا يرددونها في سخرية فقد كان يمكن تمييز السخرية وراء الفضول ؛ وإذا كانوا يقولونها في خبث فقد كان يمكن اكتشاف الخوف وراء الخبث ؛ واذا كانوا يتلفظون بها في تفكر فقد كان الرجاء والوعيد يجثمان وراء التفكر .. كانت أمواج الاضطرابات تنتشر في تباطؤ فوق المياه الآسنة لهذه الحياة الراكدة . وقد أخذت الأفكار الناعسة تستيقظ ، والخضوع المألوف الهادىء للحوادث اليومية يفقد ثباته ويترنح . كانت تستطيع رؤية كل هذا بوضوح أكثر من الناس الآخرين لأنها أعرف منهم بسيماء الحياة العابثة . وهي إذ ترى الآن

غضون التفكير والسخط تتلامح على وجوه البشر ، لاتستطيع لقاء ذلك إلا أن تفرح وتقلق في وقت واحد ... تفرح لأنها ترى في كل ذلك عمل فتاها ، وتقلق لأنها تعلم حق العلم أنه إذا هرب من السجن فسيأخذ مكانه في الطليعة وفي المركز الأخطر ، وسيفنى من جراء ذلك .

وفي بعض الأحيان ، كانت صورة ابنها تتخذ في عينيها أبعاد أحد أبطال الأساطير ، فتوحد فيها سائر الكلمات الباسلة الشريفة التي رنت في سمعها أبداً ، وجميع أولئك الناس الذين أعجبت بهم يوماً ، ومختلف تلك الأشياء البراقة البطولية التي عرفتها فيما سبق من الأزمان . وفي مثل هذه الحالات يملؤها الخيلاء والحنان ، فتروح تتأمل فيه في إشراق حنون ، وهي تفكر طافحة رجاء وأملا ..

- كل شيء سينتهي على خير مايرام ... كل شيء !

وكان حبها ، حبها الأمومي ، يلتهب عندئذ ويجعل قلبها ينقبض بصورة مؤلمة . وبعدئذ كان الأمومي فيها يعيق نمو ماهو انساني خالص ويحرقه في لهيب عظيم ، فيحل مكان ذلك الشعور العظيم رماد خوف وقلق تضرب فيه فكرة واحدة فقط ، ألا وهي :

— لسوف يموت ... لسوف يقضى عليه ..

* * *

١٤

كانت تجلس ، ظهراً ، مقابل بافل في مكتب السجن تراقب وجهه الملتحي بعينين مظلمتين ، وهي تفتش عن فرصة مؤاتية كي تدس في يده الرسالة المسحوقة بين أصابعها .

قال بصوت خافت :

— إني لعلى أحسن حال ، وكذلك سائر الباقين . كيف حالك أنت ؟

فأجابت بصورة آلية :

— على أحسن حال . لقد مات ييجور إيفانوفيتش .

فهتف بافل :

— حقاً ؟

وأطرق رأسه ببطء ...

وتابعت الأم في بساطة ودون حذق :

— ولقد عيَّث رجال الشرطة معركة أثناء المأتم واعتقلوا أحد الفتيان .

فصفق معاون مدير السجن بلسانه سخطاً وقفز ناهضاً على قدميه ،وهو يغمغم:

— أفلست تعلمين أن الحديث عن هذه الأمور ممنوع ؟ الحديث عن السياسة غير مسموح به .

ونهضت الأم بدورها وقالت في سذاجة ، وفي رنين صوتها ظل من

الاعتراف بالجرم :

- لم أكن أتكلم عن السياسة بل عن معركة . والحقيقة أنهم تقاتلوا، لا بل حطموا رأس أحد الفتيان أيضاً ...

- لافرق بين هذا وذاك . ينبغي لي أن أسألك الصمت ، يعني أن تسكتي عن كل شيء ليس له بك علاقة شخصية ... يعني عائلتك وبيتك بصورة عامة .

وإذ أدرك أنه يتلعثم ، جلس إلى مكتبه من جديد ، وشرع ينبش في بعض الاوراق ، وهو يضيف في إعياء :

- إني مسؤول عن مثل هذه الأمور .

وأسرعت الأم تلقي الورقة الصغيرة في يدي بافل دون أن تحيد بناظريها عن معاون المدير ، ثم تنهدت وقد رفعت عن قلبها عبئاً ثقيلاً . قال الضابط :

- أنت لاتفهمين ما هو مسموح لك بالحديث عنه ...

فضحك بافل ، وهمهم :

- ولا أنا أيضاً .

فنبر معاون المدير منتاظاً .

- إذن فلا فائدة من المجيء إلى هنا . ما معنى عدم إدراك ما يمكن الحديث عنه ، والاستمرار في القدوم إلي هنا ... وإزعاج الناس .

وسألت الأم :

- هل ستجري المحاكمة سريعاً ؟ ..

- لقد كان النائب العام هنا قبل عدة أيام مضت ، وقال إن ذلك سيتم عما قريب ...

وتبادلا بعض الملاحظات التافهة الأخرى . لاحظت الأم أن بافل ينظر إليها بعينين رقيقتين طافحتين بالمحبة . كان هادئاً صارماً مثله أبداً ، لم يتبدل فيه شيء ، اللهم إلا بياض يديه ولحيته التي جعلته يبدوا أكبر سناً منه في واقع الأمر .

وأرادت أن تقول له شيئاً جميلاً ... أن تعلمه شيئاً عن نيقولاي ،فاسترسلت دون أن تغير اللهجة التي بادلته بها الملاحظات السابقة :

— لقد رأيت فليونك بالأمس ...

فبحث بافل عن عينيها في استفهام صامت ، فشرعت تضرب على خدها باصبعها كي تذكره بعلامات الجدري على وجه فيزوفشيكوف ، وهي تقول :

— إن الصبي على أحسن حال .. ولسوف يُعطى عملا في وقت قريب ..

وفهم فتاها ما تريد ، فأشار لها برأسه بعينين ضاحكتين . قال :

- هذا رائع !

فاختتمت حديثها ، راضية عن نفسها ، متأثرة بسعادته :

— حسناً ، أظن هذا كل شيء .

وضغط على يدها بشدة مودعاً :

— شكراً يا أمّ !

اجتاحها شعور بهيج بتقارب قلبيها ، وصعد إلى رأسها مثل حمرة قوية ، فضغطت على يده في سكون ، وقد أعوزتها الكلمات كي ترد عليه .

وجدت ساشا تنتظرها في الدار لدن عودتها . كانت الفتاة تزورها عادة في الأيام التي ترى بافل فيها ، ولكنها لاتسأل عنه قط ، فاذا لم تذكره الأم من تلقاء ذاتها ، كانت ترضي فضولها بالتطلع طويلا في عينيها . أما هذه المرة فقد لاقتها في استفهام قلق :

— حسناً ، كيف حاله ؟

— جيدة .

— هل أعطيتيه الرسالة ؟

— بالطبع ، وبصورة رائعة جداً ...

— هل قرأها ؟

وكيف يستطيع ذلك ؟

فقالت الفتاة في تماهل :

— طبعاً . . لقد نسيت . علينا أن ننتظر أسبوعاً آخر . . أسبوعاً كاملاً .

أتعتقدين أنه سيقبل ؟

وعبست ساشا ، ونظرت إلى الأم ملياً . كانت هذه تفكر :

— لا أدري ! ولم لايقبل ، إن لم تكن ثمة خطورة في الأمر ؟

وهزت ساشا رأسها ، وسألت :

— أتعلمين ماذا يستطيع المريض أن يأكل ؟ إنه جائع

— يستطيع أن يأكل أي شيء كان ، لحظة واحدة وسوف ...

وزهفت إلى المطهى حيث لحقت بها ساشا في بطء .

— هل أستطيع مساعدتك .

— شكراً لك ، ليس من حاجة .

انحنت الأم فوق الموقد وتناولت منه قدراً . قالت الفتاة بصوت خافت :

— انتظري ...

وشحب وجهها ، واتسعت عيناها في ألم .. في حين راحت شفتاها المرتعشتان تهمسان بسرعة :

— كنت أريد أن أسألك . إني على يقين من أنه سيرفض .. ولذلك أرجوك أن تقنعيه بذلك . نحن في أشد الحاجة إليه هنا . قولي له إن ذلك ضروري في سبيل القضية . قولي له إني خائفة من أجل صحته . وأنت ترين بنفسك أن يوم المحاكمة لم يعيَّن بعد ..

كانت تتكلم بصعوبة واضحة ، وهي تنظر في ثبات إلى إحدى الزوايا ، وقد انتصبت قامتها كل الانتصاب ، وراح صوتها يتموج ويضطرب . ثم أسبلت جفنيها في إعياء ، وعضت شفتيها في عذاب وقهر ، واستطاعت الأم أن تسمع طقطقة

قبضتيها المنضمتين .

أقلق هذا الانطلاق العاطفي نفس الأم ، غير أنها فهمت ساشا تماماً ،فضمتها إليها في حزن ، وأجابت بكآبة :

- آه ، ياعزيزتي ! إنه لن يعير أحداً أذناً صاغية . سوى نفسه وحدها . لن يصغي إلى أحد على الاطلاق .

وبقينا صامتين فترة ، وقد التصقت كلتاهما بالأخرى ، ثم تحررت ساشا بلطف من ذراعي الأم المحيطتين بكتفيها وقالت مرتعشة :

- أجل ، أنت على حق .. كل هذا هراء ... إن أعصابي ...

وفجأة ، قالت في هدوء وبساطة :

- حسناً ، هلا أطعمنا مريضنا ؟

وإذ جلست إلى جانب سرير إيفان سألته في حنان هل يؤلمه رأسه ، فأجاب وهو يجر الغطاء حتى ذقنه مرتبكاً . ويرف بعينيه فكأن النور أشد من أن يحتمل :

- ليس كثيراً ، فكل شيء ما ينفك عكراً نوعاً ما ، وإني لاحس ضعفاً.

وأدركت ساشا أنه يخجل من تناول الطعام في حضورها ، فنهضت وغادرت الغرفة ، فجلس إيفان في فراشه يتبعها بعينيه . وغمغم :

- ما أجملها !

كانت عيناه الزرقاوان مرحتين ، وأسنانه بيضاً منتظمة ، وصوته متبدل الجرس .

استعلمت الأم مفكرة :

- كم عمرك ؟

- سبعة عشر عاماً .

- وأين والدك ؟

— في القرية . أما أنا فهنا منذ كنت في العاشرة من سني ، إذ لم أكد أنهي دراستي حتى هربت إلى المدينة . ما أسمك ، أيتها الرفيقة ؟

كانت الأم تبتهج كلما توجه الناس اليها بهذه الكلمة . سألت ، وهي تبتسم :

— ولم تريد أن تعرف ذلك ؟

فصمت الصبي فترة ، ثم أوضح في ارتباك :

ذلك أن واحداً من الطلاب في حلقتنا الدراسية ... يعني واحداً من الذين يدرسوننا ، قد حدثنا عن والدة بافل فلاسوف العامل . هل تذكرين مظاهرة أول أيار ؟

فأشارت الأم برأسها ، وأصاخت بسمعها .

وأعلن الفتى في خيلاء وجد صداها في قلب الأم .

— لقد كان أول من رفع راية حزبنا على رؤوس الاشهاد . ولم أكن أنا ، هناك يوم ذاك . لقد كنا نريد تنظيم مظاهرتنا الخاصة . ولكننا لم ننجح لأن عددنا قليل جداً . ولكننا سننظمها في العام المقبل .. لسوف ترين ذلك !

كان يتنفس بصعوبة لشدة ما يثير فيه تصور حوادث المستقبل من انفعال . ثم تابع ، وهو يلوح بملعقته :

— إذن فقد كنت أتكلم عن أم فلاسوف هذا . لقد انضمت إلى الحزب بدورها بعد ذلك . يقال إنها ، بكل بساطة ، أعجوبة مدهشة .

فافترت شفتا الأم عن ابتسامة عريضة ، وقد أبهجها الاصغاء إلى مديح الصبي ، أبهجها وأربكها في الوقت نفسه . وأرادت أن تقول : « إني أم فلاسوف ذاك ! .. » ولكنها ردت الكلمات عن شفتيها ، وقالت تحدث نفسها في قليل من السخرية اللطيفة :

— يا لك من حمقاء عجوز !

وانحنت عليه بغتة ، وراحت تقول في انفعال :

- كل شيئاً آخر ، ينبغي أن تتحسن حالك سريعاً في سبيل القضية ..
وفتح باب الشارع مفسحاً السبيل لأنفاس الخريف البـاردة الرطبة . وإذ رفعت الأم عينها رأت صوفيا واقفة هناك مشرقة الوجه ابتساماً ، مضرجة الخدين فرحاً .

- قسماً بشرفي أن الجواسيس يتعقبونني مثلما يلاحق الخطاب وريثة كثيرة الثراء ! لقد آن لي أن أرحل من هنا .. حسناً ، وكيف حالك ، ياإيفان ؟ أتشعر بتحسن ما ؟ ماهي الأخبار عن بافل ، يانيلوفنا ؟ هل ساشا هنا ؟

وداعبت صوفيا الصبي بعينيها الرماديتين وهي تشعل لفافة ولا تنقطع عن طرح أسئلة دون أن تتوقع أجوبة لها ، فما ابتسمت الأم بينها وبين نفسها وهي تراقبها ، وفكرت :

- ها إني أنا أيضاً أعتبر واحدة من هؤلاء القوم .

ومالت إلى إيفان مرة أخرى ، وقالت :

- هيا عجل بالشفاء ، يابني !

ومن ثم دلفت إلى غرفة الطعام حيث وجدت صوفيا تتحدث إلى ساشا :

- لقد جهزت حتى الآن ثلاثمائة نسخة ، ولسوف تقتل نفسها بهذه السرعة التي تسير بها . تلك بطولة ، وربي ! إنها لسعادة أن يعيش المرء بين هؤلاء القوم ، ياساشا ، وأن يكون لهم رفيقاً ويشاركهم العمل .

فأجابت الفتاة بصوت رقيق :

- بلى .

وبينما هم يتناولون الشاي ذلك المساء ، قالت صوفيا للأم :

- يجب أن تقومي بزيارة أخرى إلى الريف . يانيلوفنا !

- حسناً ، متى ؟

- أتظنين أنك تستطيعين ذلك في ثلاثة أيام ؟

— بالطبع .

فقال نيقولاي ناصحاً

يفضل هذه المرة أن تستأجري أحصنة البريد وتسلكي طريقاً أخرى ، عبر مقاطعة نيقولسكويه مثلاً .

كان عابساً مكتئباً ، الأمر الذي لايلائمه ، إذ يفسد سكينته الهادئة المعتادة.

لاحظت الأم :

— إن الطريق ستطول جداً عبر نيقولسكويه ، أما استئجار الأحصنة طوال الطريق ...

فقال نيقولاي :

— الحقيقة أني ضد مثل هذه الطريق ، فالأمور ليست هادئة هناك — بل جرت بعض الاعتقالات — ويبدو أنهم ألقوا القبض على أحد المدرسين ، يتوجب علينا أن نكون أكثر حذراً وأن ننتظر قليلاً أيضاً .. ذلك أفضل إذن.

فلاحظت صوفيا ، وهي تنقر على المنضدة بأصابعها :

- ينبغي لنا أن نزودهم بالمطبوعات دون انقطاع .

ثم سألت الأم على حين غرة :

- هل أنت خائفة من الذهاب ، يانيلوفنا ؟

فتأذت الأم من ذلك . قالت :

وهل كنت خائفة في أي وقت كان ؟ عندما ذهبت للمرة الأولى لم أستشعر خوفاً ... والآن .. على حين فجأة ...

وأطرقت برأسها دون أن تنهي حديثها . كانت تحس ، كلما سألوها إن كانت خائفة ، أوإن كانت تجد هذا الشيء أوذاك ملائماً ، أو إذا كانت تستطيع أن تفعل هذا الأمر أوذاك ، أنهم يتوجهون إليها برجاء خاص ، فتخال أنهم يضعونها جانباً ويعاملونها على خلاف مايعاملون بعضهم بعضاً .

قالت في صوت مرتجف :

— لِمَ تسألونني إن كنت خائفة أم لا ؟ إنكم لا تطرحون على بعضكم البعض مثل هذه الأسئلة .

فرفع نيقولاي نظارتيه عن عينيه ثم أعادها من جديد في عصبية وهو ينظر بلياً ألى أخته وأحست الأم انزعاجاً من السكون المتوتر ، فنهضت عن المائدة في ارتباك ، وأرادت أن تقول شيئاً ، لكن صوفيا تناولت يدها في لطف وقالت بصوت رقيق :

— إصفحي عني ، إني لن أفعل ذلك بعد الآن أبداً .

وحمل هذا ابتسامة إلى وجه الأم ، وبعد عدة دقائق كان الثلاثة يناقشون ، في حمية ونشاط ، السفرة المطروحة على بساط البحث .



١٥

عند الفجر كانت الأم تتلكأ في إحدى عربات البريد على طول درب غسلته أمطار الربيع . وكانت ريح رطبة تعصف في الفضاء ، ورذاذ الوحل يتطاير في كل حدب وصوب . استدار الحوذي نحوها في مقعده كي يشتكي إليها بصوت ينبعث من فمه وأنفه معاً :

— وهكذا قلت له — أعني لأخي - ، فلنتقاسم ذلك ... هذا ماقلته .. وعندئذ ابتدأنا نتقاسم ...

وبغتة انهال بسوطه على الحصان الأيسر ، وصاح غاضباً :

— هيا ! إمش ! يابن الساحرة !

كانت غربان الخريف السمينة تنتقل في قلق فوق أخاديد الأرض العارية ، وريح باردة تصفر في كل الأرجاء ، فتشد الغربان أعطافها كي تلاقي هجمات الريح التي تنفش أرياشها وترفعها عن أقدامها ، وتضطرها إلى الانتقال في تكاسل إلى بقعة أخرى من الحقل الشاسع الأبعاد .

وتابع الحوذي حديثه قائلا :

— وهكذا راح يجردني من حصتي ، فاذا بي أجد نفسي خاوي الوفاض ...

وأصغت الأم أليه وكأنها في حلم ، وحوادث السنين القليلة الأخيرة تتدفق في ذاكرتها ، فتجد نفسها تساهم فيها جميعاً بفعالية ونشاط . فيما سبق كانت الحياة

تخلق في مكان ما بعيداً جداً ، دون أن يعرف أي إنسان من خلقها والغاية الحقيقية من وراء ذلك . أما الآن فان قسماً كبيراً منها يخلق أمام ذات عينها ، وبمساهمتها الشخصية . وأيقظ ذلك فيها مشاعر مختلفة من الرضى ، والارتياب في ذاتها ، والبلبلة ، وشيئاً من الغم الهادىء ...

كان كل ماحولها يترنح في حركة بطيئة ، وغيوم رمادية كثيفة تسبح في السماء متثاقلة يلاحق بعضها بعضاً ، وعلى قارعتي الطريق تلوح الأشجار الرطبة بأغصانها العارية وهي تفر إلى الوراء ، والحقول تفسح مكانها لهضبات واطئة تتلاشى بدورها أيضاً .

واختلط صوت الحوذي الأخن وقرع الأجراس ، وصفير الريح الرطبة وحفيفها ، وامتزجت جميعاً في تيار رنان واحد يتدفق دون انقطاع فوق الحقول .

تابع الحوذي ، وهو يتأرجح فوق مقعده :

— إن الفردوس نفسه يضيق عن الانسان الثري . وهكذا فقد شرع يضايقني ... وكانت السلطات كلها تقف بجانبه ، فهم أصدقاء له ...

وعندما بلغ المحطة ، خلّ أعنة الحصانين وقال للأم بنغمة شاكية :

— هلا أعطيتني خمسة كوبيكات لأشرب كأساً بها ..

وعندما أعطته قطعة النقود ، قلبها في راحته وتابع بالنغمة ذاتها :

— سأشرب الفودكا بثلاثة منها ، أما الاثنان الباقيان فمن أجل الطعام .

وبعد الظهيرة بلغت الأم ، منهوكة القوى باردة الأطراف ، مدينة نيقولسكويه الصغيرة ، واتجهت الى بناء المحطة كي تتناول قدحاً من الشاي . وجلست الى احدى النوافذ ، وقد وضعت حقيبتها الثقيلة تحت دكة جانبية . وكانت تستطيع أن ترى من النافذة ساحة صغيرة مكسوة بعشب أصفر معفر ، وبناء رمادياً اسود هو مقر محافظة المقاطعة . وكان موجيك أصلع ذو لحية طويلة يجلس على العتبة يدخن الغليون وهو لايرتدي من الثياب شيئاً فوق قميصه . وكان خنزير يرعى العشب

في الساحة ، وهو يهز ذنبه في استياء ويدس انفه في الأرض ، ويلوح برأسه يمنة ويسرة دون انقطاع .

وتسلقت السحب بعضها فوق بعض في كتل كثيفة مظلمة ، وكان كل شيء هادئاً ، قاتماً ، كئيباً ، فكأن الحياة نفسها تنام ، منقطعة الأنفاس ، في انتظار شيء ما ...

وبغتة بدا أحد رقباء الشرطة يعدو بجواده عبر الساحة حتى بلغ عتبة بناء المحافظة حيث لوح بسوطه في الهواء وصاح بالفلاح الأصلع ، فقرعت صيحاته زجاج النوافذ قرعاً شديداً . لكن الأم لم تستطع تمييز الكلمات فيها . ونهض الموجيك على قدميه وأشار بيده الى المدى البعيد ، فقفز الفارس عن صهوة جواده وترنح قليلا على قدميه ، وألقى عنان الحصان الى الموجيك ، واتجه نحو درجات البناء يتسلقها في تثاقل معتمداً الدرابزون ، ثم اختفى وراء باب البناية .

وخيم السكون على كل شيء آخر ، اللهم الا الحصان الذي ضرب الأرض بحافره مرتين . ودخلت الغرفة بنية صغيرة تتدلى جديلة من الشعر صفراء اللون على نقرتها ، وتشع عينان لطيفتان في وجهها المستدير ، وهي تحمل بين ذراعيها الممدودتين صفيحة مهترئة الحفافي ، مثقلة بالآنية ، ولا تفتأ تعض شفتيها ، وتلقي السلام بإشارات متتابعة من رأسها .

قالت الأم :

- نهارك سعيد ، ياعزيزتي .

- نهارك سعيد .

وعندما وضعت الفتاة الصحون وأدوات الشاي على المائدة أعلنت بغتة في انفعال شديد :

لقد اعتقلوا لصاً قبل قليل .. ولسوف يأتون به إلى هنا .

ومن هو هذا اللص ؟

لا أدري ...

– ومتى سرق ؟

فردت البنية :

– لا أدري . لقد سمعت أنهم أمسكوا به . وقد ذهب حارس المحافظة يدعو رئيس الشرطة .

وتطلعت الأم من خلال النافذة ، فرأت الساحة تغص شيئاً فشيئاً بالفلاحين. وكان بعضهم يأتون في وقار وتماهل ، والآخرون يندفعون إلى الساحة في عنف وهم يبكلون أثناء ذلك أزرار معاطفهم الجلدية . واحتشدوا عند عتبة البناء ، وهم ينظرون إلى مكان ما ناحية اليسار .

ونظرت البنية من النافذة ، ثم أسرعت تعدو إلى الخارج وصفقت الباب خلفها ، فانتفضت الأم ودفعت بحقيبتها تحت الدكة إلى أبعد مدى من ذي قبل ، ومن ثم ألقت بوشاح على رأسها ، وأسرعت نحو الباب وهي تكبت رغبة في الفرار غير مفهومة السبب .

وعندما بلغت عتبة بناء المحطة عضّ البرد عينيها وصدرها جميعاً ، فوجدت صعوبة جمة في تدارك أنفاسها ، وتحجرت رجلاها : كان ريبين آتياً عبر الساحة مقيد اليدين خلف ظهره ، يسير شرطيان إلى جانبيه وهما يضربان الأرض بعصاهما دون انقطاع ، فيما الحشد يقف ساكناً عند عتبة بناية المحافظة ينتظر .

وانتصبت الأم ، مصعوقةً ، لا تستطيع أن تحيد بعينيها عن هذا المشهد . وكان ريبين يدمدم شيئاً لم تستطع أن تتبينه ، ولكن كلماته تركت ، على أية حال ، رجعاً مؤلماً في فراغ قلبها القاتم .

وأرسلت نفساً عميقاً ، واستردت زمام نفسها من جديد . كان يقف قرب الوصيد موجيك ازرق العينين ، اشقر اللحية عريضها ، يشخص اليها ملياً في اهتمام . سعلت ، وفركت حلقها بيدين ترتعشان فرقاً ، ثم سألته وهي تبذل

جهداً كبيراً :

— ما الذي حدث ؟

فأجاب ، وهو يستدير عنها :

— تحققي من ذلك بنفسك .

وذنا موجيك آخر ، ووقف بالقرب منها ...

توقف الشرطيان اللذان يقودان ريبين أمام الحشد المتوافر دون انقطاع ، وإن ظل ساكناً لاتصدر عنه أية ضوضاء . وارتفع صوت ريبين بغتة فوق رؤوسهم يقول :

— أيها المؤمنون الحقيقيون ، هل سمعتم شيئاً عن الكتابات التي تشرح بوضوح الحقيقة السافرة عن حياتنا نحن الفلاحين ؟ حسناً ، أنا أضطهد الآن من أجل هذه الكتابات ، فأنا الذي وزعتها على الناس .

فأهدف الحشد من ريبين أكثر فأكثر .. كان صوته هادئاً غير متسرع ، الأمر الذي بعث القوة والنشاط في قلب الأم .

قال الموجيك الثاني بصوت خافت ، متوجهاً بالخطاب إلى ذي العينين الزرقاوين :

— أسمعت هذا ؟

فرفع الأخير رأسه ، وحدج الأم بناظريه مرة أخرى دون أن يجري جواباً . وتطلع الآخر إليها أيضاً ، وكان أصغر سناً من رفيقه ، ذا لحية سوداء قليلة الشعر ، ووجه ناحل تغطيه بقع من النمش ، ثم ابتعد كلاهما عن العتبة .

وفكرت الأم :

— إنهما خائفان !

وأضحت أشد انتباهاً . كانت تستطيع أن تبصر بكل وضوح ، من العتبة حيث تقف ، وجه ميخائيلو إيفانوفيتش القاتم الملفوح بأشعة الشمس ، وبريق عينيه الملتهب . وأرادت أن يراها هو الآخر ، فتطاولت على رؤوس أصابعها ومدت

عنقها في اتجاهه .

نظر القوم إليه في ارتياب كئيب وظلوا بالصمت معتصمين . اللهم إلا في الصفوف الأخيرة من الحشد حيث كانت بعض أصوات مكتومة تتلاحق في خفوت ..

نبر ريبين بصوت مرتفع ثابت النبرات :

أيها الفلاحون ! ألا صدقوا ما كتبَ في تلك الأوراق . قد ينبغي لي التكفير عنها بذات حياتي .. فقد ضربوني وعذبوني ، يريدونني على الجهر بالمكان الذي حصلت عليها منه ، ولسوف يضربونني من جديد أيضاً . ولكني على استعداد لتحمل كل شيء ، لأن ما ترويه تلك المناشير هو الحقيقة بعينها ، والحقيقة يجب أن تكون أعزّ علينا من خبزنا اليومي نفسه .. تلك هي القضية !

وهتف أحد الفلاحين الواقفين قرب العتبة :

- لم يقول هذا ؟

فقال ذو العينين الزرقاوين :

- سواء بالنسبة اليه الآن ، فالمرء لا يموت الا مرة واحدة .

واستمر الناس وقوفاً هناك مضببين لا ينبسون بحرف ، شاخصين في اكتئاب من تحت حواجبهم ، يلوح أن عبئاً غير منظور يثقل عليهم ويضنيهم .

وخرج الرقيب مترنحاً من بوابة بناية المحافظة ، وصاح بصوت ثمل :

- من ذا الذي يتكلم هنا ؟

وتدحرج بغتة على درجات السلم وأطبق على ريبين من شعره ، وراح يهزّ راسه الى الأمام والخلف صائحاً :

أأنت من كنت تتكلم ، يابن الكلبة ؟

رنح الحشد وانتشرت فيه موجة من الغمغمة ، بينا أطرقت الأم برأسها في عذاب يائس ، ولكن صوت ريبين تردد مرة أخرى في رنين مرتفع :

.. أنظروا ، أيها القوم الطيبون ..!

فصاح الرقيب ، وهو يلطمه على أذنه :

ـ صمتاً !

فترنح ريبين ورفع كتفيه :

ـ إنهم يوثقون يديّ الانسان ، ثم يفعلون به مايحلو لهم ..

ـ قوداه ، أيها الشرطيان . أما أنتم أيها الناس ، فتفرّقوا جميعاً !

وجعل الرقيب يقفز أمام ريبين مثل كلب يمسك بقطعة من اللحم ، وهو يضرب وجهه وصدره بقبضتيه .

وصاح بعضهم من وسط الحشد .

ـ كفاك تضربه !

وجاء صوت آخر يدعمه :

ـ لماذا تضربه ؟

وقال الفلاح الأزرق العينين ، وهو يشير إلى رفيقه :

ـ فلنذهب !

واقتربا من بناء المحافظة في تماهل بينا الام تشيعهم بنظرة عطوف . وصعّدت زفرة ارتياح حينما رأت رقيب الشرطة يركض نحو بوابة البناية من جديد ، حيث صرخ من هناك بصوت مجنون :

ـ اجلباه هنا ، قلت لكما .

وعلا صوت قوي بين المحتشدين أدركت الأم تواً أنه صوت الفتى ذو العينين الزرقاوين .

ـ لاتفعلوا ذلك ! لاتتركوهم ، أيها الشباب ! إن أخذوه هناك فسوف يضربونه حتى الموت ، ثم يقولون إننا نحن الذين فعلنا ذلك . لاتتركوهم يأخذوه .

وصاح ميخائيليو :

ـ أيها الفلاحون ! أفلا تستطيعون أن تروا ما أشبهت حياتكم ؟ أفلا



« كفاكم تعذبون الشعب ، أيها المتوحشون »

تستطيعون أن تدركوا كيف يسرقونكم ويخدعونكم ويمتصون دماءكم ؟ كل شيء يأتي منكم ... أنتم أعظم قوة على وجه الأرض .. وأية حقوق تملكون ؟ حق الموت جوعاً ليس غير !

وفجأة راح الفلاحون يصيحون ، وهم يقاطعون بعضهم بعضاً :

ـ إنه يقول الحقيقة ؟

ـ ادعو رئيس الشرطة . أين هو رئيس الشرطة ؟

ـ لقد ذهب رقيب الشرطة يدعوه !

ـ مَنْ ؟ ذلك العربيد ؟

ـ ليس من شأننا أن ندعو السلطات .

وانهمرت الأصوات تتزايد وتعلو :

ـ هيا تكلم ، فلن ندعهم يضربونك .

ـ حلوا وثاق يديه !

ـ حذار لئلا يقبضوا عليك أنت أيضاً .

وقال ريبين في هدوء ، بصوت رنان علا فوق سائر الأصوات :

ـ الحبال تؤذي يدي ، وأنا لن أهرب ، أيها الفلاحون ! لست أقوى على الاختفاء من الحقيقة .. إنها تعيش في داخلي ، تلك هي القضية !

وانفصل بعض الرجال عن الحشد ووقفوا جانباً وهم يتبادلون الملاحظات ويهزون رؤوسهم ، ولكن أناساً مهتاجين ، يرتدون الأسمال البالية ، كانوا يأتون باستمرار في حالة شديدة من الانفعال ، وينضمون إلى المتجمهرين ، تغلي مراجلهم حول ريبين الذي ينتصب بينهم مثل حرم في الغابة ، يلوّح بذراعيه فوق رأسه ويصيح :

ـ شكراً لكم ، أيها القوم الطيبون ، شكراً لكم . إن لم نحل أيدي بعضنا البعض ، فمن يفعل ذلك لنا إذن ؟

ومسح لحيته ، ورفع مرة أخرى يداً ملطخة بالدم :

ـ هذا هو دمي ، أهرق في سبيل الحقيقة .

هبطت الأم عن العتبة ، ولكنها إذ لم تستطع رؤية ميخائيلو بين الحشد ، تسلقت الدرجات مرة أخرى ، وفي صدرها بعض سعادة غامضة تخفق .

ـ أيها الفلاحون ! افتحوا أعينكم جيداً من أجل تلك الأوراق ، واقرأوها في أناة ! لاتصدقوا الكهنة والسلطات عندما يقالون لكم أن المبشرين بالحقيقة كفرة متمردون . الحقيقة تضرب في أرجاء الأرض خفية تفتش لها عن أعشاش بين الشعب ، هي مثل النار والسيف بالنسبة إلى السلطات . إنهم لايستطيعون الامساك بها وسجنها فهي تذبحهم إذن وتحرقهم . الحقيقة صديق طيب عندكم ، أما عندهم فعدو لدود ! هذا هو السبب في أنها تضرب خفية في أرجاء الأرض !

وارتفعت الهتافات مرة أخرى بين المحتشدين :

ـ أصغوا ، أيها المؤمنون الحقيقيون !

ـ آه أيها الأخ ، لسوف ينالونك من أجل هذا .

ـ من الذي خانك ؟

فأجاب أحد الشرطيين :

ـ الكاهن !

فأرسل اثنان من الفلاحين أيماناً مغلظة .

وارتفع صوت محذر :

ـ انتبهوا ، أيها الشجعان !

* * *

١٦

كان رئيس الشرطة يقترب متمهلاً ، وهو رجل طويل القامة متين البنيان مدور الوجه ، انعطفت قبعته كثيراً فوق أذنه الواحد وانحرف أحد شاربيه إلى العلي ، أما الآخر فمال نحو الأرض حتى بدا وجهه وكأنه قد التوى وتشوه بابتسامة بلهاء ميتة . كان يحمل سيفاً بيده اليسرى ، ويؤرجح اليداليمنى في عنف وقوة ويتقدم بخطاً ثقيلة ثابتة استطاع سائر الحضور سماع وقعها الأصم على الأرض وتباعد المحتشدون يفسحون له الطريق . وقد اعتلى وجوههم الأعياء الكآبة ، وذابت ضوضاؤهم فكأن الأرض قد امتصتها . وأحست الأم عينيها تلتهبان ، وعضلات جبهتها ترتجف ، وقد انتابتها الرغبة في الانضمام إلى الحشد من جديد ، فانحنت إلى الأمام وجمدت متوترة الأعضاء متيبسة الأطراف دون حراك

سأل رئيس الشرطة ، وهو يقف أمام ريبين ويقيسه بعينيه :

ـ ماذا ؟ لمَ يداه غير مربوطتين ؟ أيها الشرطيان ، قيداه !

كان صوته مرتفعاً رناناً ، لكنه لا حياة فيه .

وأجاب أحد الشرطيين :

ـ لقد كانتا مقيدتين فحلّ الشعب وثاقه .

ـ ماهذا ؟ الشعب ؟ أي شعب هذا ؟

ورمق رئيس الشرطة الحشد الملتف حوله في نصف دائرة ، واستفسر دون أن يرفع أو يخفض صوته الأبيض الرتيب :

ـ من هو الشعب ؟

ولمس الفلاح ذا العينين الزرقاوين بصفحة قبضة سيفه ، وقال :

ـ أعتقد أنك أنت هو الشعب ، ياشوماكوف ، حسناً ، ومن أيضاً ؟ أنت، ياميشين ؟

وأطبق على أحدهما من لحيته بيده اليمنى .

ـ يفضل أن تتفرقوا من هنا ، أيها الأوغاد ، وإلا .. وإلا أريتكم من أكون .

لم يكن في وجهه أثر للغضب أو الوعيد ، فهو يتكلم في هدوء ، ويضرب الناس بحركة مألوفة من ذراعيه الطويلتين . وتراجع القوم أمامه يطرقون برؤوسهم ويشيحون بوجوههم .

توجه إلى الشرطيين قائلاً :

ـ حسناً ، لم أنتما هنا ؟ اربطاه ، قلت لكم ..

وأطلق سيلاً من الشتائم ، ثم حملق في ريبين مرة أخرى وأمره بصوت مرتفع :

ـ ضع يديك وراء ظهرك ، أنت ...

فقال ريبين :

ـ لا أريدهما على ربط يدي ، فلست أفكر في الفرار كما أني لن أقاوم ، فما معنى تقييدهما إذن ؟

فسأل رئيس الشرطة ، وهو يخطو في اتجاهه :

ـ ماهذا ؟

فتابع ريبين ، وهو يرفع صوته :

ـ كفاكم تعذبون الشعب ، أيها المتوحشون ؟ لسوف تدق ساعتكم عن قريب !

وقف رئيس الشرطة ينظر في وجه مرتعش الشارب ، ثم تراجع إلى الخلف خطوة ، وصاح بصوت مجنون :

ـ أنت ، يابن الكلبة ! ماهذا الذي تقول ؟

ووجه إلى ريبين ، بغتة ، صفعة رنانة على وجهه ، فصاح هذا متقدماً نحوه :

ـ لن تستطيعوا قتل الحقيقة بقبضاتكم ، وليس لك الحق في ضربي ، أيها الكلب القذر !

فعوى رئيس الشرطة ، وهو ينبر الكلمات بقوة :

ـ أنا ، ليس لي الحق ؟ أنا ؟

ورفع يده مرة أخرى يهدف ريبين ، ولكن هذا انحنى فأخطأته اللطمة ، وكادت أن ترمي رئيس الشرطة أرضاً . قهقه أحد الواقفين وهو ينفخ من منخريه بضوضاء ، في حين ارتفع صوت ريبين الغاضب مرة أخرى :

ـ إني أمنعك من ضربي ، ياأيها الشيطان القذر !

وأسف رئيس الشرطة النظر حوله ، فوجد الناس قد تألفوا في حلقة كثيفة قاتمة ، صاح :

ـ نيكيتا ! هي نيكيتا !

فبرز من قلب الحشد فلاح قصير القامة ، متين البنية ، مفتول العضلات ، يرتدي معطفاً من جلد الخراف . كان رأسه العريض الشاعث مطرقاً إلى الأرض .

قال رئيس الشرطة ، وهو يفتل شاربيه في هدوء :

ـ نيكيتا ! أعطه لكمة على أذنه .. لكمة قوية !

فتقدم الفلاح ، ووقف أمام ريبين ، ورفع رأسه نحوه ، فأطلق عليه ريبين سيلاً من الكلمات العنيفة المثقلة بالحقيقة :

ـ أنظروا فقط ، أيها الشعب . كيف يخنقكم هؤلاء الوحوش بذات أيديكم ! أنظروا ، وفكروا في ذلك جيداً !

ورفع الفلاح ذراعه في بطء ، ثم وجه إلى ريبين لطمة شديدة على رأسه .

فصاح رئيس الشرطة في شبه عواء :

ـ أهكذا قلت لك ، يابن الكلبة ؟

وارتفع صوت من الحشد يقول :

ـ هيْ نيكيتا ! لاتنسَ الله !

فصاح رئيس الشرطة ، وهو يمسك به من رقبته :

ـ إضرب ، قلتُ لك ...

فطأطأ الفلاح رأسه ، ثم ابتعد جانباً ، وهو يغمغم :

ـ لن أفعل ذلك .

ـ ماذا ؟

ومرت رعشة على وجه رئيس الشرطة ، فضرب الأرض بقدمه ، ثم انطلق نحو ريبين وهو لاينى عن شتمه . وتردد صدى صفعة ترنح ريبين لها ، فرفع ذراعه ، ولكن صفعة ثانية عاجلته ورمته أرضاً ، وإذا برئيس الشرطة يهجم عليه ويروح يرفسه في صدره وعطفه ورأسه .

وارتفعت غمغمة غامضة من المحتشدين ، وبدأوا يتحركون صوب رئيس الشرطة . ولكنه لاحظ ذلك منهم فتراجع إلى الوراء وهو يستل سيفه من غمده .

ـ ماهذا ؟ عصيان ؟ بخ ، بخ .. هكذا إذن !

ارتجف صوته ، ثم انقطع وهو يرسل هديراً حاداً عديم الجدوى . وخارت

ثُواه بغتةً مع صوته ، فانحنى وأدخل رأسه بين كتفيه ، وراح يتطلع حوله بعينين فارغتين وهو يتقهقر متحسساً الأرض إلى الوراء منه بقدميه . صاح بصوت أجش :

ــ حسناً جداً . خذاه من هنا ، أنا ذاهب . والآن ؟ أفلستم تعرفون أيهـا الأوغاد ، أنه مجرم سياسي ؟ أفلا تعلمون أنه يحرّض الشعب ضد القيصر ؟ ثم أنتم تدافعون عنه ! إذن فأنتم ثائرون أيضاً ، أليس كذلك ؟ هكذا إذن !

كانت الأم تقف دون حراك ، دون أن يرف لها جفن واحد ، مجردة عن القوة ، خالية من القدرة على التفكير ، يعتلج فيها الرعب والرثاء فكأنها ترزح تحت نير كابوس ثقيل . وكان صراخ الناس المكتئب ، الغاضب ، الثائر ، يختلط في ذهنها بصوت رئيس الشرطة المرتجف وبعض همس مكبوت ينطلق من هنـا وهناك ، ويتحول إلى دويّ أشبه بطنين سرب مغيظ من الزنابير .

ــ إن كان مذنباً ، فقدموه الى المحكمة ...

ــ إرفق به ، ياصاحب السعادة ...

ــ الحقيقة أنه لايوجد قانون يسمح بهذه المعاملة ...

ــ بالطبع ، فلو كان هذا الشيء ممكناً ، إذن كان سائر الناس يلجأون إلى الضرب ... وذلك يكون شيئاً رائعاً في الحقيقة !..

انفصل الحشد إلى فريقين أحاط أحدهما برئيس الشرطة يصيح معه ويدافع عنه ، بينما التف الفريق الآخر ، الأقل عدداً ، حول الرجل المطروح وأفراده يغمغمون مهذين متوعدين . وأنهض عدد من هؤلاء ريبين عن الأرض ، وعندما حاول الشرطيان تقييد يديه من جديد صاحوا بهما :

ــ لم كل هذه العجلة ، أيها الشيطانان ؟

مسح ميخائيليو الطين والدم عن وجهه ولحيته ، ثم تطلع حوله في سكون فوقعت نظرته على الأم التي انتفضت وانحنت في اتجاهه وهي تلوح بذراعيهـا

بالرغم منها . لكنه استدار عنها ، ثم راحت عيناه بعد عدة دقائق تفتشان عن وجهها من جديد . وخيل إليها أنه قد انتصب ورفع رأسه ، وأن وجنتيه الملطختين بالدماء ترتعشان .

ـ لقد عرفني ... أيمكن حقاً أن يكون قد عرفني ؟

وأشارت إليه برأسها ، وهي ترتعش بلهفة مؤلمة مخيفة . وفي اللحظة التالية لاحظت أن الفلاح الأزرق العينين يقف إلى جواره ويرنو إليها بدوره . وأثارت نظرته في الأم إحساساً بالخطر لم يدم أكثر من لحظة قصيرة .

ـ ماذا أفعل ؟ لسوف يأخذونني أنا أيضاً !

وقال الفلاح لريبين شيئاً ، فأجاب عليه هذا بإشارة من رأسه ، ثم قال بصوت واضح النبرات جريء بالرغم من ارتعاشه :

ـ حسناً ! لستُ الوحيد على وجه الأرض ! وان يستطيعوا قط أن يسجنوا الحقيقة بأسرها . إن ذكراي ستبقى في كل مكان مررت به ، وإن أتلفوا العش وساقوا سائر الرفاق ..

وخمنت الأم :

ـ إنه يتوجه بهذا إلي ...

ـ ولكن يوماً سيأتي تحلق النسور فيه حرة ، ويحطم الشعب أصفاده .

وأتت امرأة بسطل من الماء وراحت تغسل وجه ريبين وهي تئن وتتأوه طوال الوقت ، فيختلط صوتها المرتفع الشاكي بكلمات ريبين حتى تعجز الأم عن تمييزها . وقحم فريق الفلاحين الثاني يتقدمهم رئيس الشرطة ، وصاح البعض من بينهم :

ـ هاتوا عربة تأخذ السجين من هنا ! نوبةُ منْ هذه المرة ؟

وارتفع صوت رئيس الشرطة متبدلاً ، أقرب إلى الشكوى :

ـ أستطيع أن أضربك ، أما أنت فلا تستطيع أن تضربني . لست تجرؤ على

ذلك ، أيها الخبيث !

فصاح ربيين :

ـ حقاً ؟ ومن تحسب نفسك ... الله ؟

وغطى انفجار من الهتافات المكتومة صوته وطغى عليه .

ـ لاتناقشه ، أيها الأخ .. إنها السلطة !

ـ لاتنقم عليه ، ياصاحب السعادة ، فهو لايملك زمام نفسه .

ـ هدىء روعك ، أيها الشجاع .

ـ سيأخذونك إلى المدينة الآن .

ـ في المدينة عدالة أكثر !

كانت صيحات القوم مترجية مصالحة . تختلط في دوي غامض يعبر عن نضاضة من الأمل . وأمسك الشرطيان بربيين من ذراعيه وقاداه إلى بوابة بناء المحافظة حيث اختفوا به . وأخذ الفلاحون يتفرقون في تماهل ، ولكن الأم شاهدت ذا العينين الزرقاوين يأتي صوبها ، وهو يحدجها من تحت حاجبيه ، فتخاذلت خوفاً وانثال اليأس يمسك قلبها بقبضة حديدية ، ويثير فيها إحساساً شديداً بالغثيان . فكرت :

ـ يجب ألا أذهب ، كلا !

وأمسكت الدرابزون بقوة ، وانتظرت .

كان رئيس الشرطة يقف على وصيد بناء المحافظة ، يحرك ذراعيه ويتحدث إلى الفلاحين معاتباً بصوت عاد من جديد أبيض لاروح فيه :

ـ مجانين أنتم ، ياأبناء الكلبة ، إذ تدسون أنوفكم في أمور لاتفهمون منها شيئاً . هذه قضية تتعلق بالدولة ، أيها الدواب . واجبكم أن تشكروني ، واجبكم أن تجثوا على ركبكم امتناناً لي لعاية قلبي تجاهكم . لو أردت لأرسلت بكم جميعاً إلى الأشغال الشاقة ...

كان عشرون فلاحاً تقريباً يقفون عراة الرؤوس ينصتون إليه ، وتكاثف الظلام ، بينما السحب تنخفض نحو الأرض أكثر فأكثر . واقترب ذو العينين الزرقاوين من العتبة حيث تقف الأم :

ـ هل رأيت ماجرى ؟

فأجابت الأم في صوت خافت :

ـ نعم .

فسأل ، وهو ينظر في عينيها باستقامة وجرأه :

ـ ماهي أشغالك هنا ؟

ـ إني أشتري مطرزات من الفلاحات ، وبعض الأصواف أيضاً .

فمشط الفلاح لحتيه في تباطؤ ، ثم قال في ضجر وهو ينظر إلى بناء المحافظة:

ـ إن نساءنا لايصنعن هذه الأشياء .

فحدجته الأم بناظريها فترة من الوقت ، وهي تنتظر الفرصة الملائمة للرجوع إلى داخل الغرفة . كان وجه الفلاح جميلاً متأملاً ، وعيناه حزينتين . وكان طويل القامة عريض المنكبين ، يرتدي قفطاناً مرقعاً ، وقميصاً قطنياً نظيفاً ، وسراويل سمراء اللون ، وحذائين مهترئين في قدميه العاريتين . .

وأرسلت الأم ، لسبب ما ، زفرة ارتياح ، ثم قالت بغتة وهي تستسلم لحدس كان أسبق من أفكارها المضطربة :

ـ أيمكن أن أقضي الليل عندك ؟

كان السؤال مفاجئاً بالنسبة إليها ، ولم تكد تطرحه حتى أصبح كل شيء في داخلها شديد التوتر ، فانتصبت ونظرت إلى الرجل في ثبات ، وأفكار حادة تتراقص في ذهنها :

ـ لسوف أدمر نيقولاي إيفانوفيتش . ولن أرى بافل زمناً طويلاً .. طويلاً جداً ؛ ولسوف يضربونني !

أجاب الموجيك دون تسرع ، وعيناه مثبتتان في الأرض ، بينما هو يدكل أزرار قفطانه :

- تبيتين الليل عندي ؟ لم لا ، إلا أن كوخي حقير جداً .

فقالت الأم :

- إني لم أعتد ماهو أفضل

فوافق الموجيك ، وهو يرفع عينيه ويقيسها بناظريه مرة أخرى :

- حسناً ، إذن .

كان الظلام قد اشتد ، فراحت عيناه تلمعان باردتين ، وقد بدا وجهه شاحباً في ضوء القيلولة .

قالت الأم بصوت خفيض ، وهي تشعر كأنها تتدحرج في هاوية :

- إذن فسوف أذهب وإياك مباشرة ، ولعلك تحمل الحقيبة عني .

- حسناً جداً .

رفع كتفيه ، وهو يصلح من قفطانه مرة أخرى . قال :

- هذه العربة قد جاءت .

وظهر ريبين على عتبة بناء المحافظة ، مقيد اليدين من جديد ، مغمور الرأس والوجه في قماش أسمر ، وارتفع صوته في ضوء القيلولة البارد :

- وداعاً ، أيها القوم الطيبون ! فتشوا عن الحقيقة ، واكنزوها ! ثقوا بالانسان الذي يحمل إليكم الكلمة الحقة ، ولا توفروا أنفسكم في الدفاع عن الحقيقة .

فصاح رئيس الشرطة :

- سد حلقك ! حث الجياد ، أنت أيها الشرطي الأبله ...

- ماالذي تخافون من خسرانه ؟ أنظروا إلى حيواتكم فقط !

وانطلقت العربة ، فصاح ريبين من حيث كان جالساً بين اثنين من رجال الشرطة :

— ماالذي يدفعكم إلى الاستمرار في الجوع حتى الموت ؟ إذا مانلتم حريتكم مرة ، فسوف تحصلون على الخبز والعدالة . تلك هي القضية ! الوداع ، أيها القوم الطيبون !

وطغت زمجرة العجلات على صوته ، وابتلعه عدو الجياد وصياح رئيس الشرطة.

قال الموجيك ، وهو يهز رأسه :

— لقد انتهى كل شيء .

ثم استدار نحو الأم ، وتابع بصوت مخفوض :

— انتظريني هنا في المحطة ، فسوف أعود بعد هنيهة .

دلفت الأم إلى الغرفة ، وجلست إلى المائدة تجاه السماور ، وتناولت كسرة من الخبز نظرت إليها لحظة ، ثم ردتها متثاقلة إلى مكانها من الصحن : إن موجة الغثيان تجتاحها مرة أخرى ، فلا تستطيع إلى الطعام سبيلاً . وأحست حرارة مزعجة تنهكها ، تمتص كل الدم من قلبها وترميها بدوار شديد لاتقدر له على مقاومة. وكانت ترى إلى الأمام منها وجه الفلاح الأزرق العينين ، منقوصاً بصورة غريبة، موحياً بالارتياب والتشكك . ولسبب ما لم تشأ أن تفكر في إمكان وشايته بها ، ولكن هذه الفكرة كانت قد سبقت واخترقت ذهنها واستقرت ثقيلة لاحراك بها فوق قلبها . هجست في ضعف وإعياء :

— لقد لاحظني ، لقد لاحظني .. وخمن كل شيء !

ولم تتطور تلك الفكرة أو تنمو على الاطلاق ، لشدة ما كانت غارقة فيه من يأس يرافقه إحساس لزج بالغثيان المرهق .

وكان صمت مطبق حل محل الضوضاء ماوراء النافذة يكشف عن إحساس الخوف والاضطهاد المسيطر على القرية . واحتد الشعور بالوحدة يملأ النفس بظلمات قاتمة ناعمة مثل الرماد .

وظهرت البنية مرة أخرى على عتبة الباب . قالت :

— أأجيئك ببعض البيض المسلوق ؟

- لا تزعجي نفسك ، فلست أرغب في الطعام . لقد أخافوني بصياحهم وصراخهم .

فاقتربت الصغيرة من المائدة ، وهي تقول بصوت مكتوم :

— كان يجب أن تري كيف ضربه رئيس الشرطة . لقد كنت أقف بالقرب منه ... لقد إقتلع أسنانه ، وأنا رأيته يبصقها بأم عيني وكان الدم ثخيناً ، أسود وأحمر معاً .. أما عيناه فقد انتفختا كثيراً جداً . إنه فحام ؛ ورقيب الشرطة يرقد فوق — ثملاً للغاية ، ومع ذلك يطالب بالخمر باستمرار . وهو يقول إن ثمة عصابة كاملة منهم ، وإن ذلك الملتحي هو رئيسهم . لقد اعتقلوا ثلاثة منهم ، ولكن واحداً استطاع الفرار ، وكذلك اعتقلوا معلم مدرسة ينتمي إلى عصابتهم ... إنهم لا يؤمنون بالله ، ويحاولون باستمرار أن يقنعوا الناس الآخرين بالكفر به حتى يسرقوا الكنائس ... ذلك هو جوهرهم ! إن بعض فلاحينا يأسفون من أجله ولكن الاخرين يقولون إنه من الضروري وضع حد له .. ثمة كثير من الفلاحين الأشرار عندنا .. يالطيف !

وأنصتت الأم بانتباه إلى رواية البنية المتقطعة السريعة ، جاهدة أن تتغلب على مخاوفها .. وكانت الصغيرة سعيدة فيما يبدو بأن تجد من يصغي إليها فاستمرت تتحدث في هياج وانفعال ، ولكن في صوت خفيض دائماً :

— أبي يقول إن سبب كل ذلك الموسم السيىء ، فالأرض تكاد لم تنتج شيئاً طوال سنتين .. لقد جفت وانكمشت .. ولذلك أصبح فلاحونا أشراراً حتى هذه الدرجة . إنهم يتصايحون ويتقاتلون في اجتماعات القرية . وفي ذات يوم ، بينما كانوا يبيعون ممتلكات فاسكوف كي يفوا ديونه بها ، ضرب المختار على وجهه بعنف وهو يقول : « إليك ديونك مني . فخذها » .

وسمع وقع أقدام ثقيلة عند الباب ، فأمسكت الأم بالمائدة وتحاملت على

نفسها ناهضة .

رَعَف الباب بالفلاح الأزرق العينين الذي قال دون أن يخلع قبعته :

ـ أين حقيبتك ؟

ورفع الحقيبة بكل يسر وهزها ...

ـ فارغة . دلي هذه المرأة على الطريق إلى كوخي ، ياماركا .

وخرج دون أن ينظر إلى الخلف أبداً .

سألت البنية :

ـ أتقضين الليل هنا ؟

ـ نعم . لقد جئت طلباً للمطرزات .. إني أشتري المطرزات ...

ـ إنهم لايشتغلون بها هنا ، يشتغلون بها في تنكوفا وداربنا ، أماهنافلا .

ـ سأذهب إلى هناك في الغداة ..

وعندما دفعت الأم ثمن الشاي ، منحت الصغيرة ثلاثة كوبيكات كان لها في نفسها وقع بهيج للغاية . ثم غادرتا المحطة ، والفتاة تسير بخطاً سريعة فوق الأرض الندية بقدميها الحافيتين . قالت :

إن شئتِ ذهبت إلى داربنا وقلت للنساء أن يحملن مطرزاتهن إلي هنا . ولسوف يأتين هنا فلا تحتاجين إلى ركوبٍ حتى هناك . أن المسافة تبلغ الاثني عشرة فرسخاً على أية حال ...

فقالت الأم ، وهي تلاحق خطاها كي تلحق بها :

ـ لاتزعجي نفسك ، ياعزيزتي .

أنعشها الهواء البارد ، وراح عزم غامض ينمو فيها شيئاً فشيئاً . كان ينمو في بطء واضطراب ، فشرعت تسأل نفسها ، راغبة في أن تعجل ذلك النمو .

ـ ماذا ينبغي أن أفعل ؟ لو أتلفت كل شيء ...

كان الطقس بارداً ، مظلماً ، رطباً . وبدت نوافذ الكوخ أخيراً تلمع بنور أحمر ،

وفي ذلك السكون تتردد صيحات خافتة ويرتفع خوار الابقار الناعس في مزاربها . والتفت القرية بالعتمة ، وبكآبة ثقيلة العبء أيضاً .

قالت الصغيرة :

ـ هنا ، لقد وقفت على مكان حقير تقضين الليل فيه . إنه فلاح فقير للغاية !

وتحسست الباب . وعندما فتحته مدت رأسها من خلاله ، وصاحت :

ـ أيتها العمة تاتيانا !

ثم ولت الأدبار ...

وجاء صوتها عبر الظلمة

إلى اللقاء !

* * *

١٧

وقفت الأم على العتبة ، ورفعت يدها إلى عينيها حتى يحسن استطلاعها للكوخ. كان الكوخ ضيقاً ، ولكنه سرعان ما لفت أنظار الأم بنظافته . وز نرت إليها امرأة شابة بعينيها من وراء إحدى زوايا الموقد ، وأشارت برأسها مسلمة دون كلام ، ثم انسحبت ... وكان مصباح يلتهب على مائدة جلس إليها صاحب الكوخ ينقر عوارضها بأصابعه في عصبية ، باحثاً بناظريه عن عيني الأم . قال بعد برهة من الصمت :

— تفضلي . تاتيانا ، هلا ناديت بيوتر ، وأسرعت في ذلك .

فلفظ البابُ المرأة ، دون أن تنظر إلى الأم التي قبعت على دكة مقابل الرجل وراحت تصرو حواليها ، فلا تقع أنظارها على حقيبتها في أي مكان . كان الكوخ يعجّ بسكون ثقيل ، لا يعكر صفوه إلا طقطقة المصباح من وقت لآخر . وراح وجه الموجيك الأنيس القلق يتموّج أمام عيني الأم موقظاً في فؤادها اضطراباً كئيباً .

استوضحت ، فجأة ، في صوت دهشت هي نفسها لارتفاعه :

— أين حقيبتي ؟

فأجاب الموجيك ، وهو يهزّ كتفيه :

— إنها لن تضيع .

ثم أضاف :

— لقد قلت عمداً في المحطة إنها فارغة حتى تسمع البنية ذلك . ولكنها ليست فارغة ، بل على العكس ثقيلة جداً .

فسألت الأم :

— حسناً ، وما في ذلك ؟

فنهض ورسم نحوها ، ثم انحنى عليها كثيراً ، وهو يهمس في صوت خافت :

— أنت تعرفين ذلك الرجل ؟

فردت الأم بصوت ثابت ، رغم أن السؤال دهمها على غير انتظار :

— نعم .

وبدا أن الكلمة قد أضاءت ، بغتة ، كل شيء من الداخل ، فأوضحت الأمور وأجلتها . فتنهدت الأم بارتياح ، واستقرت على الدكة في ثبات أكثر .

واستطالت في شفتي الموجيك ابتسامة عريضة شبعى ، وقال :

— حزرت ذلك وقتما أشرت إليه هناك فرد على إشارتك . ولقد همست في أذنه إن كان يعرف المرأة الواقفة على العتبة هناك .

فاستجلت الأم في اندفاع :

— وبم أجاب ؟

— هو ؟ لقد أجاب : ثمة كثيرون منا . ثمة الكثيرون . هذا ما قال .

ونظر الفلاح مستفهماً إلى عيني ضيفته ، وتحايلت على شفتيه ابتسامة أخرى وهو يتابع حديثه قائلاً :

— إنه لرجل قوي حقاً ! وشجاع أيضاً . لقد قال دون لف أو دوران : « أنا من فعل ذلك » . واستمر يقول ما يريد أن يقول غير آبه لما ينزلون به من تنكيل .

ارتاحت الأم أكثر فأكثر إلى صوته الضعيف المتردد وهدأت من روعها

رؤية عينيه الصريحتين في وجه يبدو كأنما يعوزه شيء ما . وراح القلق والإعياء يفسحان المجال شيئاً فشيئاً لرثاء حادعنيف من أجل ربيين . صاحت فجأة في غيظ مرير :

ــ يا للأوغاد ! يا للوحوش !

وانخرطت تبكي ... فصدر الموجيك عنها ، وهو يهز رأسه ساخطاً . قال :

ــ السلطات تجعل الناس يحبونها من دون ريب .

واستدار إلى الأم مرة أخرى ، وقال في هدوء :

ــ يخيل إلي ... أعتقد أن في الحقيبة صحفاً . ألست على حق ؟

فأجابت الأم ببساطة ، وهي تمسح عبراتها :

ــ بلى . كنت أحملها إليه .

فقطب الفلاح حاجبيه . وأخذ لحيته في قبضته ، وراح يشخص إلى إحدى الزوايا في ثبات . خنخن أخيراً :

ــ لقد جاءونا بتلك الصحف إلى هنا ، وببعض الكتب أيضاً . ونحن نعرف هذا الرجل ... لقد كنا نراه في بعض الأحايين .

وسكت مستغرقاً في التفكير ثانية قصيرة ، ثم سأل :

ــ ماذا تنوين الآن أن تفعلي بها ؟... الحقيبة .

فقالت الأم ، وهي ترمقه في تحد :

ــ سأتركها معكم .

فلم يرفض ، ولم يند عليه أي أثر للدهشة ... ردد :

ــ معنا ؟

وجلس إلى المائدة ، وهو يشير برأسه موافقاً ، ويمشط لحيته بأصابعه .

كان مشهد المعاملة الوحشية التي لاقاها ربيين يثقل على الأم ويقتحم مخيلتها في عناد لا يعرف الرحمة . وطردت صورته كل الأفكار من ذهنها ،

وطرد ، ما أحست به من ألم ومذلة تجاه الجنس البشري ، سائر العواطف الأخرى حتى أمست عاجزة عن التفكير في الحقيقة أو في أي شيء آخر . وتسحسحت عبراتها متدفقة . وإن ظلت سماؤها قاسية ، وصوتها ثابتاً غير مرتعش ، وهي تقول :

— ألا فلتحل اللعنة عليهم إلى الأبد لطريقتهم في سرقة الكائنات البشرية ، والتنكيل بهم ، وتعفيرهم في الوحل هكذا .

فهمهم الموجيك بصوت رقيق :

— إنهم أقوياء ، أقوياء جداً .

فهتفت الأم في يأس :

— ومن أين يجيئون بقوتهم ؟ إنهم يأتون بها منّا ، نحن عامة الشعب ... إن سائر الأشياء تؤخذ منا .

كان وجه الفلاح النير ، الغامض التعبير في الوقت ذاته ، يثيرها ...

قال في تثاقل :

— أجل ، إن العجلة ...

وانتفض فجاءة ، وأصاخ بأذنيه في اتجاه الباب ، وقال :

— إنهم آتون :

— من ؟

— أصدقاء ، فيما يبدو ...

دخلت زوجته يصحبها فلاح آخر ألقى بقبعته في إحدى الزوايا ، واقترب سريعاً من صاحب الكوخ . سأل :

— حسناً !

فأشار الآخر برأسه ... وقالت زوجته من حيث وقفت أمام الموقد :

— إستيفان ، لعلّ الضيفة تريد أن تأكل شيئاً .

فقالت الام :

— كلا ، شكراً لك ياعزيزتي .

ودنا الفلاح الآخر من الأم ، وقال بصوت سريع متكسر :

- اسمحي لي أن أقدم نفسي ، إن إسمي بيوتر بيجوروف ريابنين وألقب بالخرز ؛ وإني أفهم شيئاً أو شيئين عن عملك ؛ وأعرف القراءة والكتابة ؛ ولست أبله ، إن صح التعبير ...

وأخذ اليد التي مدتها الأم له واستدار نحو المضيف ، وقال :

- تحقق من ذلك بنفسك ، ياستيفان . إن ربارا نيقولايفنا سيدة كثيرة اللطف ، فيما أعتقد . ولكنها تدعي أن هذا العمل يدل على الجنون ولا يجلب إلا الضرر ، فكأنه من صنع أولاد وطلاب يملؤون عقول الناس هراءً وهذراً . ولكن أنت وأنا قد رأينا أنهم قد اعتقلوا اليوم رجلاً طيباً ، فلاحاً مائة في المائة . والآن ، انظر ، ههنا امرأة نصف لاتمت إلى الأسياد بصلة كما تدل كل المظاهر . ماهو أصلك ، إذا غفرت السؤال ؟

كان يتكلم في تسرع ووضوح دون أن يستريح لتدارك أنفاسه ، ولحيته ترتجف بعصبية ، وعيناه لاتفتآن تتمعنان في وجه الأم وجسدها . وكانت ثيابه ممزقة مهترئة ، وشعره مشعثاً فكأنه خارج تواً من قتال يملؤه الفرح إذ انتصر فيه على خصمه . وأحبته الأم مباشرة لاندفاعه وحديثه البسيط الصريح ، المجرد من اللف والدوران . وتطلعت مبتسمة في وجهه وهي ترد على سؤاله ، حتى إذا انتهت منه صافحها من جديد وأطلق ضحكة جافة قصيرة ، قائلاً :

- وإنه عمل رائع ، ألم أقل لك إنه يصدر عن الشعب نفسه ؟ أما تلك السيدة العظيمة فهي لاتقول لك الحقيقة . فهي تؤذي نفسها إن روت لك الحقيقة بعينها . أواه ، أنا احترمها — هذا أمر ليس فيه خلجة من شك .

فهي طيبة كثيراً وتريد أن تمدّ لنا يد المساعدة ـ قليلا جداً ـ دون أن يسبب ذلك لها أي أذى على الاطلاق . أما عامة الناس فانهم يريدون الخير دون لف أو دوران ، وهم لايخافون من الأذى والمضرة . هل فهمت الفارق ؟ إنهم يتأذون طوال حياتهم ـ يصيبهم الأذى مها فعلوا ، ولامكان لهم يلجأون إليه ، والكلمة الوحيدة التي يسمعونها هي « قف » مها تكن الطريق التي يسلكون .

وقال ستيفان ، وهو يشير برأسه :

ـ إني أرى ...

ثم أضاف مباشرة :

ـ إنها قلقة من أجل حقيبتها .

فغمز بيوتر الأم في خبث وقال ، وهو يلوح بيده مطمئناً :

ـ لاتقلقي. فكل شيء سيجري على مايرام ، ياأماه . حقيبتك في منزلي . عندما حدثني اليوم عنك ـ فكأنك أنت أيضاً تشتركين في هذا العمل وتعرفين ذلك الشخص ـ قلت له : راقبها جيداً لأن القضية كثيرة الخطورة . ويبدو أنك اشتممت شيئاً بدورك عندما كنا واقفين إلى جانبك . فالمرء لايخطىء وجه الشريف إذا رآه ، مادام ليس في العالم كثرة من أمثاله ، وتلك حقيقة لامراء فيها . لاتقلقي من أجل حقيبتك ...

وجلس بجانبها ، وتطلع إليها مستفهماً :

ـ إن كنت تحبين التخلص مما فيها كنا سعيدين بمساعدتك ... فنحن نستطيع الاستفادة من تلك الكتب والصحف .

فقال ستيفان :

ـ هي تريد أن تتركها كلها معنا .

ـ هذا رائع ، ياأماه ! ولسوف نجد مكاناً من أجل كل شيء .

قفز ناهضاً على قدميه وهو يضحك ، وشرع يجوس أرض الغرفة روحة

وغدوة في عجلة واندفاع :

ـ هذا حظ نادر، وإن لم يكن غريباً جداً . الحبل ينقطع في هذا الموضع فيعاد ربطه في موضع آخر ، وهذا حسن جداً . إن الصحيفة عظيمة ، ياأماه، وهي كثيرة الفائدة — ترفع المصائب عن العيون ، والأسياد لا يأبهون كثيراً لها . أنا أشتغل عند سيدة تبعد سبعة فراسخ من هنا — أنجر لها .. وهي امرأة شهمة تعيرنا كتباً من كل الأنواع ، نقرؤها أحياناً فتفتح عيوننا على أشياء كثيرة . ونحن ممتنون لها بصورة عامة . ولكني أريتها مرة هذه الجريدة ، فاغتاظت قليلا بسببها وقالت : لا تقرأ هذه البضاعة ، يابيوتر . إنهم جماعة من التلاميذ الخبثاء الذين يكتبون مثل هذه الأشياء ، ولن تستفيد من قراءتها سوى الوقوع في المشاكل ـ السجن ـ سيبيريا ـ هذا ماقالت ...

ولجأ إلى الصمت من جديد ، ثم سأل :

ـ هذا الرجل ، ياأماه .. أهو قريب لك ؟

فأجابت الأم :

ـ كلا !

فضحك بيوتر دون ضوضاء ، وهز رأسه فكأنه مسرور جداً من شيء ما . وشخص للأم ، بعد فترة قصيرة ، أنها قد نالت من كرامة ريبين بإنكارها كل صلة لها به ، فأضافت :

ـ ليس هو بقريبي ، ولكني أعرفه منذ زمن طويل ، وأحترمه مثل أخ لي .. أخ يكبرني سناً ...

لم تكن تستطيع إيجاد الكلمات الملائمة للتعبير عن شعورها ، وكان ذلك كثير الايلام حتى قد انخرطت تبكي في هدوء مرة اخرى . وساد الكوخ سكون متحفز ثقيل الوطأة . وقد انتصب بيوتر مطرق الرأس كمن يصيخ السمع إلى شيء ما ، بينا جلس ستيفان مرتفقاً المائدة وهو لايبرح ينقر عليها بعصبية وقلق

وزوجته تستند إلى الموقد ، والأم تدرك أن نظرتها مثبتة في وجهها . وكانت الأم تختلس النظر بين الآونة والآونة إلى المرأة الشابة التي كان وجهها المسمر البيضوي الشكل ذا أنف مستقيم ، وذقن مدببة حادة ، وعينين لطيفتين يقظتين .

قال بيوتر بصوت خافت :

ـ لقد كان إذن صديقاً لك . إنه لذو شخصية فذّة في الحقيقة ، يعتدّ بنفسه كثيراً . إنه لفتى رائع حقاً . مارأيك ، ياتاتيانا ؟...

فقاطعته تاتيانا ، وهي تضم شفتي فمها الصغير :

ـ أمتزوج هو ؟

فردّت الأم في كآبة :

ـ بل أرمل .

فقالت تاتيانا بصوت عميق غني النبرات :

ـ هذا هو السبب في شجاعته . إن رجلاً متزوجاً لايختار هذه الدرب ، بل سيخاف ..

فصاح بيوتر :

ـ وأنا ؟ ألست متزوجاً ؟

فخنخنت المرأة ، وهي تبتسم ابتسامة ملتوية وتتجنب عينيه :

ـ بخ بخ ، أيها الجار ! وماذا تفعل أنت ؟ لاتفعل سوى الكلام ! ومن وقت لآخر تقرأ كتاباً أو ماشابه . إن قعودك وستيفان تتهامسان في إحدى الزوايا المظلمة على طريقتكما هذه لايفيد الشعب كثيراً .

فاحتج الموجيك بصوت مخفوض ، وقد آذاه ازدراؤها له :

ـ كثيرون يصغون إلى كلامي . وأنا ، إن صح التعبير ، أشبه الخميرة في عملي هنا ، لايحق لك أن تقولي إن ...

فسما استيفان ببصره إلى امرأته في سكون ، وأطرق برأسه من جديد.

وسألت تاتيانا :

ـ لم يتزوج الفلاح ؟ يدعي أنه في حاجة إلى امرأة تعمل من أجله . عمل عظيم ، وربي ؟

فاستفسر ستيفان بصوت أجش :

ـ أهو لا يكفيك ؟

ـ أي معنى في هذا العمل ؟ أن تعيش نصف جائع يوماً بعد يوم . وإن كان لديك أولاد فليس لديك الوقت للعناية بهم بسبب من العمل الذي لا يؤمن لك حتى خبزك اليومي .

وذهبت إلى الأم وجلست قربها ، وهي تتكلم في عناد ، لكن دون شكاية أو كآبة :

ـ رزقت طفلين أهرق أحدهما ماء مغلياً على نفسه وهو في الثانية من عمره . أما الآخر فولد ميتاً ـ قبل أن يحين موعد ولادته ـ وكل ذلك بسبب ذلك العمل اللعين . هل حمل إلي شيئاً من السعادة ؟ أقول لكم إن زواج الفلاحين عبث ، فهم لا يفعلون إلا ربط أيديهم ، في حين ينبغي لهم أن يعيشوا دون من يعترض سبيلهم ، يناضلون من أجل حياة أفضل . عندئذ يستطيعون الذهاب وراء الحقيقة باستقامة مثل ذلك الرجل . ألست على حق ، يا أماه :

فقالت الأم :

ـ أنت على حق ، أنت على حق يا عزيزتي .. وإلا فلا سبيل إلى تبديل هذه الحياة ..

ـ ألم يكن لك رجل ؟

ـ لقد مات . إن لي إبناً ...

ـ وهو يعيش معك ؟

ـ إنه في السجن .

وإذ قالت الأم هذه الكلمات أحست الخيلاء ترافق الألم المألوف الذي تثيره في صدرها .

ـ هذه هي المرة الثانية التي يطرحون به هناك . ومرد ذلك أنه يزرع حقيقة الله بين الشعب . إنه في ريعان الصبا ، جميل وذكي . وهو الذي اقترح إصدار صحيفتكم ، وهو الذي دل ميخائيلو إيفانوفيتش على الصراط المستقيم مع أن ميخائيلو يكبره سناً بمرتين . وعما قريب سوف يدينون ابني ، ويرسلونه إلى سيبيريا . ولكنه سيهرب ، ويعود إلى هنا ليتابع العمل .

وبينا هي تتكلم ، كان إحساس الخيلاء ينمو باستمرار في صدرها ، خالقاً صورة بطل تتطلب التعبير عنها في عزم وعناد . كان من الضروري بالنسبة إليها أن ترسم لوحة من النور والعقل تعيض عن ظلمة ذلك النهار الذي كانت شاهدة عليه ، تلك الظلمة التي ما برحت فظاعتها السخيفة ووحشيتها الوقحة تسحقانها تحت نيرها الثقيل . ولذلك راحت ، وهي تخضع دون وعي منها إلى حاجة طبيعتها السليمة ، تكتل كل ما رأت من نيّر وطاهر في لهب واحد يعميها بريقه الخلاب .

ـ ثمة كثير من الناس الآن على شاكلته .. وكل يوم يولد منهم عدد جديد ولسوف يناضلون حتى نهاية حياتهم في سبيل الحرية والحقيقة .

وراحت ، وقد نسيت كل حيطة وحذر ، وإن لم تذكر مع ذلك اية أسماء على الاطلاق ، تروي كل ما تعرف عن ذلك العمل السري الجاري في سبيل تحرير الجماهير من أصفاد الجشع . وبينا هي تصف أناساً أعزاء على قلبها ، طفقت تسكب في كلماتها تلك القوة العظيمة ، وذلك الفيض من المحبة التي أيقظتها فيها آلام الحياة ومصائبها . وكانت ، هي نفسها ، تنظر في بهجة إلى أولئك القوم الذين يهبون أمام عيني مخيلتها يضيئهم نور عاطفتها ويمجدهم .

ـ وهذا العمل يجري في سائر أنحاء الأرض ، في سائر المدن ، يقوم به أناس طيبون في كل مكان .. لا حدود له ، ولا مقاييس ، وهو ينمو أبداً ، ولن يبرح

ينمو حتى تحل ساعة انتصارنا ...

كان صوتها يسبح بثبات ، وهي لا تجد صعوبة في العثور على الكلمات ، فتجمعها مثل حبات من اللؤلؤ المتعدد الألوان في خيط متين من الرغبه اللاهبة في تطهير قلبها من دم ذلك النهار وطينة . كانت ترى أن هؤلاء الفلاحين يبدون وكأنهم قد رسوا في أماكنهم بفعل ماترويه لهم ، فهم يشخصون إليها بثبات حتى لا حراك بهم . وكانت تسمع تنفس المرأة المتلاحق إلى جانبها فيقوي ذلك كله إيمانها بما تقول وبما تعد به هؤلاء الناس .

- جميع أولئك الذين يحيون حياة شاقة ، جميع أولئك الذين أتلفهم العنف والحاجة ، جميع أولئك الذين حرموا من حقوقهم من قبل الأغنياء ، جميع أولئك سيذهبون قدماً وينضمون إلى الذين يفنون في السجن من أجلهم ويواجهون العذاب والموت في سبيل الشعب ... إنهم يدلون ، دون أن يفكروا بأنفسهم مطلقاً ، على طريق السعادة للشعب بأسره . ودون أية محاولة للخداع والكذب يقولون صعبة وشاقه هي الطريق . وليسوا يجبرون أحداً على سلوكها .. ولكن المرء حينما يأخذ مكانه مرة إلى جانبهم ، فلن يتركهم بعد ذلك قط ، إذ يدرك أن ذلك هو الحق ، وتلك هي الطريق ، وليس من سبيل آخر .

كانت سعيدة بأن تصنع أخيراً ماتمنت دائماً صنعه : إنها هي نفسها تروي الحقيقة للشعب ...

- إن بسطاء الناس ليسوا في حاجة للقلق والتردد قبل أن يرافقوا هؤلاء القوم . هؤلاء لن يرضوا بالشيء اليسير ، ولن يقفوا قبل القضاء على كل خداع ، وكل جشع ، وكل شر ... ولن يكتفوا أيديهم حتى ينضم إليهم الشعب بأسره ، ويصيح بصوت واحد : أنا هو السيد ، ولسوف أصنع أنا قوانين تكون سواء بالنسبة إلى الجميع .

وإذ أحست بالتعب ، توقفت عن الكلام ، وتطلعت فيما حولها ، وثقتها ثابتة

في أن كلماتها لن تذهب عبثاً . وظل الفلاحون يرمقونها بأنظارهم ، منتظرين شيئاً آخر . وصلب بيوتر ذراعيه فوق صدره ، وضيق فرجة عينيه ، بينما تطاولت ابتسامة ضالة تتيه على شفتيه . أما ستيفان فكان يستند إلى المائدة بأحد مرفقيه ، وإن كان جسده بأسره منعطفاً إلى الأمام فكأنه لما يزل منصتاً . وكان وجهه يختبىء في الظل فيبدو لذلك وقد اكتمل نوعاً ما . أما زوجته ، الجالسة إلى جانب الأم ، فكانت تعتمد ركبتيها بالمرفقين ، وهي تمعن النظر إلى أرض الكوخ . وتمتم بيوتر ، وهو يجلس متاهلاً على الدكة :

– كذلك هي المشكلة !

وانتصب ستيفان ، وأقنع بصره نحو زوجته ، ثم فتح ذراعيه فكأنه يريد ضم الحاضرين جميعاً .

قال متفكراً :

– إذا بدأ المرء مرة هذا النوع من العمل ، فلا ريب أنه سيهب له نفسه كلها ...

فقال بيوتر في حياء :

– نعم ، الحقيقة ! فليس من مجال للتطلع إلى الخلف .

وتابع ستيفان :

– يبدو أن العمل يسير على نطاق واسع .

فأضاف بيوتر :

– على نطاق عالمي .

١٨

استندت الأم إلى الجدار ، وألقت برأسها خلفاً ، مصغية إلى كلماتهم الهادئة الثقيلة . ونهضت تاتيانا واقفة ، وأشمت البصر فيما حولها ، ثم عاودت الجلوس ، وفي عينيها الخضراوين بريق بارد ترمق به الفلاحين في ازدراء واستياء .

التفتت صوب الأم بغتة ، وقالت :

— يخال لي أنك عرفت آلاماً كثيرة في حياتك .

فأجابت الأم :

— صدقت .

— أحب أن أسمع إليك تتحدثين، فكلماتك تضرب على أوتار القلب مباشرة عندما أصغي إليك أفكر : أواه ، ياإلهي ، أي شيء لا أعطي كي ألقي ولو نظرة خاطفة على مثل هؤلاء الناس الذين عنهم تتحدثين ، وعلى مثل تلك الحياة أيضاً ! كيف نعيش ههنا ؟ مثل قطيع من الغنم ، تلك هي حقيقتنا ! أنا مثلاً ، أنا أعرف كيف أقرأ وأكتب ، وكثيراً ما أطالع وأفكر أيضاً . . وإني لا أنام الليالي في بعض الأحيان لكثرة التفكير . لكن ماجدوى ذلك ؟ إذا توقفت عن التفكير ، ذبلت وفنيت في سبيل لا شيء على الاطلاق . وإذا تابعت التفكير ، فمن أجل لاشيء أيضاً .

كانت تتكلم وفي عينيها هزء وسخرية . يبدو أحياناً أنها تعض الكلمات عضاً

كما تفعل بسلك من المعدن بين أسنانها . ولم ينبس الفلاحان ببنت شفه . وكانت الريح تداعب زجاج النوافذ ، وتهمس بعذوبة في المدخنة ، وتنفخ القش الملقى على السطح وتخشخش فيه . وكان كلب يعوي في مكان ما ، ومن حين لآخر تقع قطرة من المطر ، مرغمة ، على النافذة فتقرع زجاجها قرعاً لطيفاً . وارتعش نور المصباح ، وقد خبا حتى كاد ينطفىء . كي يعود فيستعيد الحياة منتعشا ، ويستمر في اللهيب متألقاً ثابت الشعلة .

— وقتما سمعتك تتكلمين أخذت أفكر وأفكر : هذا شيء جديرة الحياة في سبيله ! وإنه لغريب حقاً ... إني أدرك ، وأنا أسني ، أني أعرف كل هذا . ولكني لم أسمع شيئاً مثيلاً له من قبل قط . . . كما أن مثل تلك الأفكار لم تراودني أبداً ...

فقال ستيفان متثاقلاً ، وهو يعقد ما بين حاجبيه :

— الأفضل أن نتناول شيئاً نمسك به رمقنا . وينبغي أن نطفىء المصباح ، ياتاتيانا . . فقد يلاحظ الناس أن النور في بيت آل شوما كوف يضيء أكثر من المعتاد هذه الليلة ، وذلك سواء بالنسبة إلينا ، ولكنه قد يؤذي ضيفتنا . .

فنهضت تاتيانا وسحت إلى الموقد . وابتسم بيوتر ، وقال :

— أجل ، فلا بدّ لنا من مراقبة خطواتنا في هـذه الأيام ، أيها الجار ! وعندما تظهر الصحيفة بين الناس ، فسرعان ...

— لست أفكر في نفسي : فاذا اعتقلوني ، فلن تكون الخسارة كبيرة .

فاقتربت زوجته من المائدة ، وقالت :

— ابتعد !

فنهض ، وفصل جانباً ، وراح يراقبها تهيىء المائدة . قال ، وابتسامة ساخرة تحايل على مرشفيه :

— أنتم وأنا ، ياإخوتي ، لاتساوي الباقة منا أكثر من خمسة كوبيكات ،

وذلك عندما يكون مائة منا في كل باقة أيضاً .

رثت الأم له ... كانت محبتها له تزداد بمقدار ازدياد معرفتها به . وأحست الارتياح من عبء ذلك النهار القذر بعد حديثها ، وكانت راضية عن نفسها ، تريد الخير العميم لسائر الناس على الاطلاق . قالت :

– إنك لعلى ضلال ، ياصاحبي . ينبغي ألا تقبل الثمن الذي يسعّرك به أولئك الذين لايفعلون سوى امتصاص دمائك . يجب أن تدرك قيمتك جيداً ، وأن تضع بنفسك ثمن ما في باطنك ، ثمن أصدقائك لا ثمن أعدائك .

فهتف الموجيك بصوت خافت :

– أي أصدقاء لنا ؟ إنهم أصدقاء – حتى نبدأ القتال من أجل أول كسرة خبز حقيرة .

– أؤكد لك أن لعامة الناس أصدقاءهم .

– ربما ، ولكن ليس هنا . وتلك هي المشكلة !

– ولِمَ لا تفتشون عن أصدقاء هنا ؟

فروّأ ستيفان لحظة قبل أن يجيب :

– بلى ، ذلك ما يجب أن نفعل .

وقالت تاتيانا تدعوه :

– إجلس ، فالعشاء جاهز .

واستعاد بيوتر مرحه ، أثناء العشاء ، بعد أن اضطرب ، على ما يظهر ، بفعل حاروت الأم له قال :

– عليك بالانطلاق باكراً في الصباح ، ياأماه ، حتى لا تلفتي انتباه أحد . فتركبين مباشرة حتى المحطة الثانية دون أن تمري بالمدينة . خذي عربة البريد .

فقال ستيفان :

– ولِمَ ذلك ؟ سأقودهـا بنفسي .

— كلا ! ينبغي ألا تفعل . ماذا لو سألوك : « هل قضت الليلة عندك ؟ » . « نعم ، لقد فعلت » . « وأين هي الآن ؟ » . « لقد قدتها إلى المحطة » . « ها ها ! إذن فأنت من ساعدها على الفرار ؟ » ... وهكذا يجرونك إلى السجن . ولكن لا حاجة تدعو إلى الاسراع في الذهاب إليه ، بل كل شيء يأتي في موعده المحدد ، وحتى القيصر نفسه يموت آونة تدق ساعته ، كما يقول المثل . أما الآن ، فهي قد قضت الليلة هنا بكل بساطة ، ثم استأجرت بعض الجياد ورحلت . كثيرون هم الذين يقضون الليل هنا باعتبار أن قريتنا تقع على الطريق الرئيسية .

فاستقصت تاتيانا في سخرية :

— ومن أين تعلمت أن تخاف هكذا ، يا بيوتر ؟

فهتف بيوتر . وهو يلطم ركبته :

— علينا إتقان الأمور ، أيتها الجارة ، علينا معرفة متى نخاف ومتى نشجع . تذكري كيف أساؤوا معاملة فاجانوف بسبب تلك الصحيفة . أنت لن تقنعيه بتناول كتاب بين يديه مرة أخرى ، لا بمحبة ولا إغراء بالمال . ولكنك تستطيعين الثقة بي ، يا أماه ، فأنا محتال ماكر كما يعترف الجميع بذلك ، وسأوزع تلك الصحف والمناشير التي حملت ، مهما تك كثيرة ، في الأماكن التي يجب أن توزع فيها . صحيح أن قومنا أميون في الغالب وجبناء ، ولكن هذه الأيام تجبر المرء على أن يفتح عينيه واسعتين ، ويتساءل عن الأسباب والنتائج . وهذه المناشير تقول الجواب ببساطة عظيمة ، والمشكلة كلها تتطلب قليلاً من التفكير فإذا اثنان زائد اثنان تساوي أربعة . ويحدث أحياناً أن الأميين يفهمون أكثر من المتعلمين ، وخاصة إذا كان المتعلمون غير جائعين . لقد سافرت كثيراً حول هذه الأماكن ورأيت أموراً عديدة ، ونحن نستطيع أن نتدبر الأمور على أفضل وجه ، ولكن ينبغي لنا من أجل ذلك أن نعمل فكرنا ، وأن نكون يقيظين حتى لا نتعثر منذ البداية . والسلطات ، فيما يبدو ، تشتم أن الفلاح قد تبدل ، ولم يعد كما يجب أن يكون .

لقد كفّ عن الابتسام ، ولم يعد لطيفاً تجاههم ، فكأنه بصورة عامة يريد التخلص من السلطات . وبالامس جاؤوا يجمعون الضرائب في سموليا كوفو – وهي قرية قريبة من هنا – ولكن الفلاحين هبوا على قوائمهم الخلفية ومجارفهم في أيديهم ، فقال لهم رئيس الشرطة دون لفّ أو دوران : « وهكذا فانكم تثورون ضد القيصر ، ياأبناء الكلاب ! » . فقام واحد من الفلاحين واسمه سبيفا كين ، وقال رداً عليه : « فلتذهب إلى الجحيم أنت وقيصرك جميعاً . ما هذا القيصر الذي يختطف منا آخر قميص نكسو به أجسادنا ؟ » . أترين إلى أي حد وصلت الأمور ، ياأماه ؟ ولقد قبضوا بالطبع على سبيفا كين ورموا به في السجن ، ولكن كلماته بقيت ، بل الأولاد أنفسهم يتذكرون ما قال ويرددونه . إن كلماته تعيش وتصرخ ...

ولم يأكل شيئاً ، بل تابع يتكلم في همس سريع ، محلقاً بجرأة فيما حوله بعينيه السوداوين الخبيثتين ، ناشراً أمام الأم بسخاء كثير ملاحظاته عن حياة الفلاحين ، فكأنه يفرغ كيساً من قطع النقود النحاسية الصغيرة .

وقاطعه ستيفان مرتين ليقول :

– هلا طعمت شيئاً ؟ . .

وفي كلتا المرتين تناول بيوتر كسرة من الخبز وملعقته ، ثم استمر يروي قصصه بطلاقة بلبل ينشد إحدى الأغنيات ، وعندما انتهى العشاء قفز على قدميه فجأة ، وتبر :

– حسناً ، لقد آن لي أن أعود إلى البيت ! إلى اللقاء ، ياأماه !

وأضاف ، وهو يصافحها .

– ربما لن نلتقي مرة أخرى ، ولكني أريدك أن تعلمي أني أعتبر كل هذا رائعاً للغاية . . . رائعاً أن ألقاك وأستمع إليك ! أثمة شيء آخر في حقيبتك تلك إلى جانب الصحيفة ؟ وشاح من الصوف ؟ حسناً ، وشاح من الصوف ، تذكر ذلك ، ياستيفان . لسوف يعود إليك بحقيبتك في لحظة واحدة فقط . هيا بنا ،

ياستيفان . إلى اللقاء ، وحظاً سعيداً !

أصبح ضجيج الصراصير مسموعاً بوضوح بعد رحيلها . . وكذلك عصف الريح فوق السطح . . وزمجرتها في المدخنة . . وقرع المطر الرتيب على زجاج النافذة . . وهيأت تاتيانا سريراً للأم من أغطية تناولتها من خزانة صغيرة في السقيفة ، ونشرتها على الدكة .

قالت الأم :

ـ إنه فتى مدهش .

ـ إنه يثير كثيراً من الضوضاء ، ولكنه لا يذهب أبعد من ذلك !

ـ وماذا عن زوجك ؟

ـ إنه رجل طيب . لايشرب الخمر أبداً . ونحن سعيدان معاً . ولكنه ضعيف الشخصية . . .

وانتصبت ، ثم قالت بعد صمت قصير :

ـ ماذا ينبغي أن نفعل الآن ؟ أفلن يثور الشعب ؟ بالطبع سيثور . هذا مايفكر فيه كل إنسان ، ولكن كل إنسان يفكر فيه بينه وبين نفسه ، في حين يجب أن يفكر فيه على رؤوس الأشهاد . . بيد أنه لابدّ من شخص يخطو الخطوة الأولى ...

وجلست على الدكة ، وسألت فجأة :

ـ لقد قلت إن فتيات من طبقة النبلاء يشتركن في هذا العمل . يختلطن بالعمال ويقرأن لهم . . أفلا يضقن بذلك ذرعاً ؟ أفلا يخفن ؟

وأرسلت زفرة عميقة بعدما أصغت بانتباه إلى جواب الأم ، ثم أطرقت بعينيها وطأطأت رأسها ، وهي تتابع :

ـ لقد وقعت في بعض الكتب على هذا التعبير : « حياة عديمة المعنى » ! أوه ، لقد فهمت مايعني ذلك تماماً ، منذ الوهلة الأولى ، إذ أني أعرف تلك الحياة

حق المعرفة . إن المعاني موجودة هناك ، لكنهـا غير مترابطة . . مثل الخراف دون راع ، ودون من يجمعهـا إلى بعضها البعض . تلك هي الحياة العديمة المعنى . بودي أن أهرب منهـا دون أن ألتفت إلى الوراء ولا مرة واحدة لو أستطيع ... كل شيء مؤلم لايطاق وقلما تدركين الحقيقة .

واستطاعت الام رؤية ذلك الألم في البريق الجاف الذي تشع به عينـا المرأة الخضراوان ، وفي وجهها الناحل ، وفي جرْس صوتها . وأرادت أن تلاطفها وتعزيها .

— إنك تفهمين ، أنت ، ما يجب عمله ، ياعزيزتي ...

قاطعتها تاتيانا بصوت رقيق :

— ولكن ينبغي لك أن تعرفي كيف تعملينه . سريرك جاهز الآن .

وذهبت حتى الموقد حيث وقفت منتصبة القامة ، ساكنة الحركات ، غارقة في لجة من التفكير . واستلقت الأم في فراشها دون أن تخلع ثيابها ، وعظامهـا تشكوا الأعياء فتئن بصوت خافت . وأطفأت تاتيانا المصبـاح ، حتى إذا غمرت الظلمة الكوخ راحت تحدث بنغمة خفيضة ثابتة ، فيتردد صوتها كأنه يمحـو شيئاً ثقيلاً عن وجه العتمة العريض .

— أرى أنك لم تصلي ، وأنا أيضاً لا أؤمن بالله ، ولا بالعجائب .

وتقلبت الأم في اضطراب على الدكة . كانت هـاوية الليل العديمـة القرار تشخص إليها من خلال النافذة ، بينا تزحف في الديجور أصداء خافتة ضئيلة حتى أذنيها . وتكلمت دون خوف ، في شبه همس تقريباً :

— أما فيا يتعلق بالله . . . فلا أعلم . ولكني أؤمن بالمسيح ، وإني أؤمن بكلماته : أحبب قريبك كنفسك . إني أؤمن بهذا .

ولم تحر تاتيانا جواباً . كانت الأم تميّز حدود جسدهـا الناهضة المرتسمة رمادية اللون على جدار الموقـد الأسود وراءها ، وهي جامدة لا تأتي نأمـة

على الاطلاق . وأغلقت الام عينيها في أسف ، ولكنها سمعت المرأة تقول بغتة بصوت بارد :

— لن أستطيع أبداً الصفح عن الله أو الانسان من أجل موت ولدي .. أبداً ،

فأنهضت بيلاجيا نفسها بقلق ، وروحها مدركة ذلك الأذى الفائق الذي يرن بمثل هذه الكلمات ، قالت في لطف :

— أنت مابرحت صبية ، ولسوف ترزقين أولاداً آخرين .

ولم ترد المرأة مباشرة ، وعندما أجابت كان حديثها همساً :

— أبداً . لم أعد أنفع لذلك ، والطبيب يقول إني لن أستطيع بعد الآن أن أحمل .

عدت فأرة عبر الغرفة .. ورن صوت مرتفع حطم السكون مثل برق خاطف .. وعلا مرة أخرى صدى سقوط المطر على السطح .. وهي تعبث بالقش كما تفعل أصابع نحيلة رهيبة . وكانت قطرات الماء تستاقط على الارض في وجوم ، تحصي دقائق تلك الليلة الخريفية ،

وسمعت الأم ، وهي تغفو ، صدى وقع أقدام ثقيلة في الطريق ، اقتربت حتى بلغت عتبة الباب ، ثم فتح هذا بحذر وتردد صوت من خلاله :

— أنت نائمة ياتاتيانا ؟

— كلا .

— أهي نائمة ؟

— فيما يبدو .

وانبثق نور تأرجح لحظة ثم اختنق في الظلمة . واطف الفلاح من فراش الأم وأصلح من وضع الغطاء الملقى على قدميها فتأثرت الأم من بساطة عنايته ، وأغلقت عينيها مرة أخرى وهي تبتسم . وخلع ستيفان ثيابه دون أن يقول شيئاً ،

ثم زحف إلى السقيفة . وخيم الهدوء مطلقاً .

استقلت الأم دون حراك ، تنصت في انتباه إلى تموجات الظلمة الحالمة ، وأمام عينيها يتراقص وجه ريبين الدامي .

وجاءها من السقيفه صدى وشوشة خافتة :

ـ هل ترى أي قوم يساهمون في هذا العمل ؟ شيوخ عملوا طوال حياتهم وشربوا كأس الآلام حتى الثمالة . وقد آن لهم أن يرتاحوا أخيراً . ولكن إليك مايفعلون بدلاً من ذلك أنت فتي بعد ، وذكي إلى ذلك .. أواه ، ياستيفان !..

وأجاب صوت الموجيك ، عميقاً ثرياً .

ـ يجب أن نفكر في ذلك جيداً :

ـ لقد سمعت هذا منك فيما سبق :

وانقطع الصوتان برهة ، ثم تابع ستيفان ..

ـ إليك كيف يجب أن نبدأ .. أولاً نتحدث إلى الفلاحين ، كل على انفراد ألكسي ماكوف مثلا ـ إنه متعلم عاقل ، وناقم على السلطات.وسرجي شورين فلاح ذكي أيضاً . أما كينيازيف فشريف غير هياب . وهذا يكفي من أجل البداية . ولا بد لنا من إلقاء نظرة على القوم الذين تحدثت عنهم . سوف آخذ فأسي واذهب إلى المدينة ، فكأني أريد أن اربح بعض المال الاضافي بتكسير الحطب . . .علينا ان نكون حذرين . لقد كانت على حق عندما قالت إن المرء يجب أن يدرك قيمته ، مثل ذلك الموجيك اليوم ، فهو لن يخضع حتى ولا للاله ذاته . ولكن مارايك بنيكيتا ذاك ؟ لقد خجل من نفسه . . . حسناً جداً !

ـ لقد ضربوا رجلا امامكم وتحت انوفكم ، وانتم لم تعلوا شيئاً سوى التطلع إلى ذلك بأفمام فاغرة .

ـ مهلا ، مهلا ! يجب ان تفرحي إذ لم نقم انفسنا بالتنكيل به .

ذلك الرجل !

واستمر يهمس فترة طويلة ، وهو يخفض صوته أحياناً فلا تستطيع الام التقاط كلماته ، ويتحدث في أحيان أخرى بصوت عميق واضح النبرات . وعندئذ توقفه زوجته عند حده :

— صه ، سوف توقظها !

واستغرقت الأم في نوم ثقيل هبط عليها مثل سحابة شاسعة الأبعاد غمرتها وجرفتها في تيارها .

وأيقظتها تاتيانا والفجر الرمادي يطل من النوافذ وهو مابرح أعمى العينين. وكان ناقوس الكنيسة يقرع إيذاناً بانتهاء حراسة الليل .

— لقد أضرمت نار السماور ، فتناولي قبلاً قدحاً من الشاي يدفئك ، وإلا جمدت أطرافك من البرد إذا رحلت أثر نهوضك من النوم مباشرة .

وبينا كان ستيفان يمشط لحيته الشعثاء ، سأل الأم عن مدينتها وعنوانها . خيل إليها أن وجه الموجيك قد نضج خلال الليل ، وأصبح أكثر نوعاً ما .

قال ضاحكاً ، وهم يحتسون الشاي :

— ما أغرب أن يتم ذلك على هذا الغرار !

فسألت تاتيانا :

— مـاذا ؟

— تعارفنا بمثل هذه البساطة ...

فقالت الأم متفكرة :

— ثمة بساطة مدهشة في كل ما يتعلق بعملنا .

ودعاهـا في هدوء ، دون إسراف في الكلام أو العواطف ، وإن أظهرا اهتماماً كلياً براحتها تجلى بألف عناية صغيرة ، أو تحذير رقيق ، أو توصية عابرة .

وعندما اقتعدت كرسي عربة البريد راحت تفكر في كيف سيبدأ ستيفان عمله بحذر وتواضع مثل خلد أرضي ، ولكن دون أن يكل أو يتعب أبداً . بل سترن شكاوي زوجته في أذنيه دون انقطاع ، وستلتمع عيناها الخضراوان على الدوام بذلك اللهيب الذابل ، ولن تتحرر قسط من ذلك الحزن المتعطش إلى الانتقام ، الذئبي الشرس ، حزن أم على أولادها الذين ماتوا .

وتذكرت ريبين . . تذكرت دماءه ، ووجهه ، وعينيه الملتهبتين ، وكلماته ، فانقبض قلبها باحساس مرير من العجز تجاه الوحشية الزاحفة في قسوة لا ترحم . ولم تبرح صورة ميخائيلو منتصبة أمام عينيها طوال طريق العودة إلى المدينة ، مرتسمة على قرار ذلك النهار الأسود القاتم : إنها ترى لحيته السوداء الشاعثة ، وقامته المتينة في قميصه الممزق ، ورأسه الجريح ، ويديه المعقودتين خلف ظهره . . تراه رجلاً طافحاً غضباً ، مفعماً أيماناً بالحقيقة التي يذود عنها . وفكرت الأمم في القرى التي لا يحصى عددها ، الرابضة في تواضع جم على وجه البسيطة،وفي الناس الذين ينتظرون سراً حصول المدالة ، وفي آلاف البشر الذين يقضون حياتهم كلها في عمل عديم الجدوى . دون أن يعترضوا عليه ، أو يأملوا بما هو أفضل .

وتصورت الحياة حقلاً صخرياً صلداً غير محروث ، ينتظر في سكون ، ولكن في لهفة ، الحارث الذي يقلب أحشاءه ، وهو يقول فيما يبدو للناس الأحرار الشرفاء :

- ازرعوني ببذر الحقيقة والعقل ، وسأرد لكم أتعابكم مائة ضعفاً .

وإذ تذكرت النجاح الذي توج به عملها الخاص ، غمرها خفقان من الفرح كبتته في كثير من الحياء والخجل ...

١٩

استقبلها نيقولاى على عتبة الباب ، مشعث الشعر ، يحمل كتاباً في إحدى يديه ، وصاح مبتهجاً :

— وراحت ! انك لسريعة حقاً !

وراحت عيناه تطرفان باستمرار وراء نظارتيه ، وهو يساعدها على خلع معطفها ويحدجها بابتسامة مغرمة . قال :

— لقد فتشوا بيتنا الليلة الفائتة فخفت أن يكون أصابك مكروه . ولكنهم لم يعتقلوني . لو كنت اعتقلت لأخذوني أنا الآخر بكل تأكيد .

وقادها إلى غرفة المائدة ، وهو يتابع حديثه باندفاع :

— مما لاريبة فيه أني سأفقد وظيفتي ، ولكن ذلك لا يزعجني على الاطلاق. لقد أملني الجلوس إلى مكتب أحصي عدد الفلاحين الذين لا يملكون جواداً .

كانت الغرفة تبدو وكأن عملاقاً جباراً ، أخذه جنون مفاجىء ، قد هز جدران البيت حتى انقلب عاليه سافله ، فالصور ملقاة على الأرض ، واوراق الحيطان منزوعة في بعض الأماكن ومتدلية مثل الأشرطة في الهواء ، وفي إحدى الزوايا من أرض الغرفة عارضة مقتلعة . وإطار النافذة مخلوع من مكانه ، ورماد كثير منتثر بالقرب من الموقد . وهزت الأم رأسها لدي رؤية هذا المشهد المألوف ونظرت إلى نيقولاي ملياً وهي تحس شيئاً جديداً عليها في وجهه المادىء .

كان السماور الفارغ يقبع على المنضدة وبجانبه صحون كثيرة وسخة وقليل من الجبن واللحم المقدَّد الذي ما برح جاثماً في الأوراق التى اشتُري فيها . وكان غطاء المائدة مغطى بالكتب رفتات الخبز والرماد المتساقط من السماور . حملقت الأم في كل هـذه الأشياء ، وأرسلت ضحكة قصيرة . وكذلك ابتسم نيقولاي مضطرباً ، وقال :

ـ بالطبع أضفتُ حصتي إلى الفوضى الشـاملة ، ولكن لا بأس في ذلك ، يا نيلوفنا . لقد فكرت أنهم سيعودون من جـديد ، ولذلك لم أرفع شيئاً من كل هذا . حسناً ، حدثيني عن رحلتك . .

وقع السؤال ثقيل الوطأة على قلبها ، وهبَّت من جديد صورة ريبين أمام عينيها ، فاستاءت من نفسها إذ لم تتحدث عنه فوراً . انحنت نحو نيقولاي وبدأت تقـدم له تقريرها ، محاولة الاحتفاظ بهدوئها ، وعدم حذف شيء من روايتها مطلقاً .

ـ لقد اعتقلوه ...

ـ حقاً ؟

قال نيقولاي ذلك وقد اختلج وجهه ، فأوقفته الأم باشارة من يدها ، وتابعت الحديث فكأنها في حضرة العدالة تحتج إليها على ذلك التعذيب الذي شاهدت كائناً بشرياً يُسامه . واستلقى نيقولاي إلى الخلف في مقعده يصغي شاحب الوجه ، وهو يعض شفته طوال الوقت . ورفع نظارتيه في تمهل ، ووضعها على المائدة وأمر يده على وجهه ، فكأنه يمسح عنه شبـكة عنكبوت غـير منظورة . واحتدت سيماؤه بغتة وقست ، وبرز عظما وجنتيه بشكل غريب ، وراح خيشوماه يرتعشان دون انقطاع . إن الأم لم تره قـط على مثل تلك الحـال . . ولقـد ذعرت منه .

ولما انتهت من قصتها ، نهض وراح يقطع أرض الغرفة رائحاً غادياً وقد دفع قبضتيه عميقاً في جيبيه . غمغم من خلال أسنانه المنطبقة :

— إنه شخص عظيم وربي ، ولسوف يصعب السجن عليه . فالناس الذين على شاكلته يجدون ذلك قاسياً .

ولم ين عن دفع قبضتيه أكثر فأكثر في جيبيه كي يلطف من حدة هياجه ، ولحظت الأم حالته وأدركتها . وراحت عدوى انفعاله تنتقل إليها شيئاً فشيئاً . . ضيق فرجة عينيه حتى أصبحتا أشبه بحد الموسى ، وقال مرة أخرى في غضب بارد ، وهو يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً :

— تصوري فظاعة ذلك ! ثمة قبضة من الأفراد الحمقى قد تملكهم الجنون في سبيل الاحتفاظ بسيطرتهم على الشعب ، فأخذوا يضربون كل الناس ، ويخنقونهم ويسحقونهم . إن البربرية تسيطر ، والوحشية تصبح قانون الحياة . فكري في ذلك فقط ! بعضهم ينكلون بالناس ، ويتصرفون فكأنهم حيوانات مفترسة ، إذ يعرفون أنهم أنهم وراء القانون يتجاوزون حدوده . هم مرضى بعطش دنيء إلى التعذيب . . . هذا الداء المنفر الكريه يغني العبيد الناعمين بحرية إطلاق العنان لأهوائهم العبودية وعاداتهم الحيوانية . وآخرون قد تسمموا برغبة الانتقام ، وثمة آخرون أيضاً قد صمت آذانهم وتوحشت نفوسهم لكثرة ما نالوا من جلد وضرب . لقد فسد البشر جميعاً .

وتوقف برهة ، ومال إلى الصمت وهو يحرق الارم .

— المرء يصبح متوحشاً رغم أنفه في هذه الحياة المتوحشة .

إلا أنه انتصر على انفعاله ، واستدار إلى الأم الباكية هادئاً كل الهدوء تقريباً ، وفي عينيه بريق ثابت :

— يجب ألا نضيع الوقت ، يا نيلوفنا ! هلا تمالكنا أنفسنا . أيتها الرفيقة العزيزة ...

وذهب إليها متربعة على شفتيه ابتسامة كئيبة ، واستوضح وهو يضغط على يدها :

— أين حقيبتك ؟

— في المطبخ .

— ثمة جواسيس قد اتخذوا مراكزهم عند بوابتنا ، فلا نستطيع أن نرسل من الدار شيئاً كثيراً من غير أن يلاحظوا ذلك ، كما ليس لدينا مكان نخفي البضاعة فيه . وأعتقد أنهم سيأتون هذه الليلة أيضاً ليتحروا البيت مرة أخرى ، ولذلك لا بدّ لنا ، مهما يكن من مدعاة للأسف ، أن نحرق كل شيء .

أي شيء ؟

— ما في الحقيبة .

فهمت الأم . فلم تقدر ، رغم كآبتها العظيمة ، منعَ شفتيها عن ابتسامة اعتزاز بما حققت . قالت ، وهي تنتعش رويداً رويداً إذ تروي له لقاءها مع شوماكوف :

— ليس في الحقيبة شيء على الاطلاق . حتى ولا قصاصة ورق واحدة .

عبس نيقولاي في البدء وهو يصغي في شيء من القلق ؛ ويا سرعان ما علت وجهه ، بدل العبوس ، سيماء الدهشة والذهول حتى قاطعها أخيراً ، وهو يصيح في انفعال :

— هذا بديع بكل بساطة ! إنك لسعيدة الحظ بصورة تفوق التصور .

وأمسك بيديها يضغط عليها ، وهو يهتف بصوت رقيق :

— إن لك لأيماناً مؤثراً في الشعب .. وإني لأحبك مثل أمي عينها !

فابتسمت وهي تراقبه في فضول ، متعجبة من انقلابه هكذا نشيطاً منفعلاً حتى هذه الدرجة . فرك يديه ، وضحك بعذوبة ، وهمهم :

— هذا ، على العموم ، شيء ممتاز . لقد قضيت وقتاً رائعاً في هذه الأيام القليلة الأخيرة .. بين العمال طوال الوقت .. أقرأ لهم وأتحدث إليهم وأراقبهم . ولقد امتلأ قلبي بشيء طاهر سليم بصورة مدهشة للغاية . إنهم لقوم رائعون جداً

في الحقيقة . أنا أتحدث ، يانيلوفنــا ، عن العمال الشباب .. هم أقوياء ، مرهفو الشعور ، متعطشون إلى المعرفة . وعندما تنظرين إليهم ، تشعرين أن روسيــا ستصبح يوماً أكثر البلدان ديموقراطية في العالم أجمع .

ورفع يده تأكيداً لذلك ، فكأنه يقطع على ذلك عهداً ، ثم تابع بعد صمت قصير :

— كنت أعيش سجيناً هنا بين هذه الكتب والوجوه العفنة . سنة كاملة قضيتها في مثل هذه الحياة .. يا للهول! لقد تعوّدتُ على العيش بين العمال، وأحسُّ نفسي ضائعاً لدن أكون بعيداً عنهم - أكون إذن متوتر النفس ، مجهد الروح. أما الآن فلسوف أعيش مثل رجل حرٍّ طليق مرة أخرى ، لسوف أراهم طوال الوقت وسأعمل معهم دون انقطاع . هل تفهمين ؟ سوف أكون عند مهـز أفكار جديدة ، في حضور طاقة فتية فائقة العنف .إن ذلك لبسيط ورائع بصورة مدهشة ، وهو دافع عظيم للعمل في الوقت ذاته . إنه يبعث في الانسان الفتوة والقوة : إنه لأسلوب في الحياة كثيرة الثراء .

وضحك سعيداً ، وهو لا يخلو من بعض الاضطراب في الوقت ذاته . وفهمت الأم فرحته وشاركته فيها .

هتف :

— وبالاضافة إلى ذلك – أنت نفسك امرأة رائعة .. بأية حيوية تصفين الناس ، وما أكثر ما تجيدين فهمهم وإدراكهم !

جلس بقربها . وقد أدار أول وهلة وجهــه المتألق جانباً وراح يسرح شعره إلى الوراء كي يخفي ارتباكه ، وما أسرع أن استدار إليها يرمقها بأنظاره وهي تعطيه تقريراً بسيطاً حياً عن تجاربها . هتف :

— ياله من حظ سعيد ! كان ثمة إمكانية كبرى كي تنتهي إلى السجن أيضاً ، ولكن بدلاً من ذلك ... بلى ، ان جميع الظواهر تشير إلى أن الفلاحين

قد بدأوا يستيقظون .. وإن ذلك لطبيعي جداً . تلك المرأة — أستطيع رؤيتها بوضوح مدهش .. يجب أن نعين أناساً خاصين بالعمل في القرية . الناس ! ليس لدينا كثرة منهم ! فنحن نحتاج إلى المئات !

قالت الأم بصوت خافت :

— آه لو كان بافل طليقاً ! .. وأندريه أيضاً .

فاختلس النظر إليها ، وخفض عينيه :

— قد يصعب عليك أن تسمعي أقول ذلك ، يا نيلوفنا ، ولكني أعرف بافل جيداً ، وأنا على يقين من أنه لن يفر من السجن أبداً . إنه يريد أن يقدم إلى المحاكمة ، يريد فرصة كي يبلغ شأوة كاملا ، وهو لن يأبى مثل هذه الفرصة أبداً ، ولمَ يرفضها ؟ لسوف يهرب من سيبيريا .

وتنهدت الأم ، وأجابت بصوت خفيض :

— حسناً ، أعتقد أنه يعرف أفضل ...

وقال نيقولاي بعد لحظة ، وهو يرمقها من خلال نظارتيه :

— أجل . أود أن يأتي فلاحك هذا سريعاً ويزورنا ، لمن الضروري أن نكتب منشوراً عن ريبين إلى الفلاحين ، وذلك لن يؤذية تقريباً ، مادام هو نفسه قد أعلن عن كل شيء بمثل تلك الجرأة . سوف أكتبه اليوم . وستطبعه لودميلا على الفور ... ولكن كيف نوصل أليهم المناشر ؟

— سأحملها إليهم .

فهتف نيقولاي سريعاً :

— كلا ، شكراً لك . لأتساءل إن كان فيزوفشيكوف يستطيع ذلك

— هل أحدثه بالامر ؟

— يمكنك أن تجربي ، وأن تعلميه كيف يفعل ذلك .

— وما عساي أفعل أنا ؟

— لا تقلقي ، فسوف نجد لك عملا .

جلس ليكتب ، فاستغرقت النظر اليه وهي تنظف المائدة ، ترى الريشة كيف ترتجف في يده وهو يملأ الورقة بصفوف من الكلمات السود . وكانت عضلات عنقه تختلج أحياناً، فاذا ألقى رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه استطاعت مشاهدة ارتعاش ذقنه . ولقد أقلقها ذلك .

قال أخيراً ، وهو ينهض :

— لقد انتهيت منه . خذي هذه الورقة واخفيها في مكان ما من ثيابك .. إذا جاء الدرك ، فسوف يفتشونك أيضاً .

فأجابت في هدوء :

— فليأخذهم الشيطان .

وجاء الطبيب إيفان دانيلوفيتش ذلك المساء . سأل ، وهو يتنقل بخطوات سريعة على طول الغرفة :

— ما الذي يقلق السلطات حتى هذه الدرجة على حين بغتة ؟ لقد فتشوا سبعة من المنازل في الليلة الماضية . أين مريضي ؟

فأجاب نيقولاي :

— لقد غادرنا البارحة . فاليوم سبت ، وهو لايستطيع التغيب عن حلقته الدراسية .

— ذلك جنون .. أن يجلس في حلقة دراسية بقحف مكسور ..

— لقد بذلت ما في وسعي لاقناعه ، فذهبت جهودي أدراج الرياح ...

فقالت الأم :

— لا ريب أنه يريد التباهي على رفاقه ... أنظروا إليّ ... لقد هدرت دمي منذ الآن .

فتطلع الطبيب إليها ، وقال :

ـ بر ـ ر ـ ر .. يالك من مخلوق قاسي القلب .

ـ حسناً يا إيفان ، ليس ما يدعوك للبقاء ههنا . نحن نتوقع ضيوفاً ، فهيا اذهب . نيلوفنا ، أعطيه الورقة .

وصاح الطبيب :

ـ ورقة أخرى !

ـ خذ ، خذ هذه الورقة وأوصلها إلى المطبعة .

ـ لقد أخذتها ، وسأوصلها إلى حيث يلزم . أثمة شيء آخر ؟

ـ لا شيء مطلقاً . إن جاسوساً يقف هناك عند الباب .

ـ لقد رأيته ، وثمة آخر عند بابي أيضاً . إلى اللقاء ، أيتها المرأة الشريرة ! وثقا ، أيها الصديقان ، أن القتال في المقبرة قد أحسن الاثمار رغم كل شيء . فالمدينة بأسرها تتحدث عنه ، والكراس الذي كتبته عنه رائع جداً ، وجاء في وقته تماماً . رأيي على الدوام أن قتالاً حسناً أفضل من سلم رديء .

ـ حسناً ، هيا اخرج من هنا .

ـ لاأستطيع القول إنك مضياف ، ياصاحبي . يدك ، يانيلوفنا . ذلك الصبي قد ارتكب فعلاً أحمق في الحقيقة ! هل تعرفان أين يقطن ؟

فأعطاه نيقولاي عنوانه ...

ـ سوف أزوره غداً . فهو فتى طيب ، أليس كذلك ؟

ـ كثيراً .

وتابع الطبيب ، وهو في طريقه إلى الباب :

ـ يجب العناية به ، فان له رأساً طيباً فوق كتفيه . إن شباناً مثله سوف يؤلفون الانتيليجنزيا البروليتارية الحقة التي ستأخذ مكاننا عندما نغادر نحن إلى تلك الشطئان حيث لايوجد ، فيما يخال لي ، أية تناقضات طبقية .

ـ لقد أمسيت كثير الثرثرة في هذه الأيام الأخيرة ، يا إيفان .

ـ ذلك أن معنوياتي عالية . وهكذا فأنت تنتظر الذهاب إلى السجن ؟ أتمنى لك راحة جيدة !

ـ شكراً ، إني لا أشعر بالاعياء .

أصغت الأم إلى حديثها ، وكانت مبتهجة باهتمامها بذلك الصبي المنحدر من الطبقة العاملة .

وعندما غاب الطبيب ، جلست الأم ونقولاي يتناولان العشاء ويتحدثان في هدوء بانتظار زوارهما في الليل .. حدثها نيقولاي عن رفاقه في المنفى ، وعن أولئك الذين فروا منه وهم يتابعون العمل الآن تحت أسماء مستعارة . وكانت الجدران العارية ترجع كلماته ، فكأن أقاصيصه عن هؤلاء الأبطال المتواضعين الذين يضحون بأنفسهم لبناء عالم جديد تتجاوز التصديق فلا تقبل أو يعترف بحقيقتها . وعانق الأم ظل رقيق وشملها في عطف ، يدفئ قلبها تجاه هؤلاء الناس المجهولين ، المنصهرين في مخيلتها في فرد واحد عظيم غير هياب يتحرك في تمهل على الأرض ، ولكنه يتحرك في ثبات ويقين ، يكنس عنها عفن الأكاذيب القديمة قدم التاريخ كي يبين للشعب حقيقة الحياة الواضحة البسيطة . وكانت هذه الحقيقة الكبرى المتولدة أبداً دون انقطاع تدعو الجميع دون تمييز ، وتعد كلاً منهم بالتحرر من الجشع والحقد والكذب ، هؤلاء الأبالسة الثلاثة المرهوبين الذين يستعبدون العالم أجمع بقوتهم الدنيئة ... كانت تلك الصورة تثير فيها شعوراً أشبه بذلك الشعور الذي كانت تجثو به أمام الأيقونة كي تختتم نهاراً خالته أسهل من سواه . أما الآن فقد نسيت تلك الأيام ، سوى أن الاحساس الذي كانت تثيره قد اتسع وانتشر ، واصبح أكثر لماناً وفرحة ، يستقر أعمق فأعمق في روحها ، ويحترق بلهب أشد قوة وروعة .

وهتف نيقولاي بغتة :

ـ يبدو كأن الدرك لن يأتوا .

فأجابت الأم ، وهي ترشقه بنظرة سريعة :

ـ فليأخذهم الشيطان ، وربي !

ـ صدقت ، ولكن حق لك الآن تنيل بعض الراحة ، يانيلوفنا . أنت متعبة فوق كل حدود إن صدق حدسي ، وليس من ينكر أن لك بنية متينة بصورة تذهل الألباب . كل هذه الأخطار والانفعالات ، وأنت لا تأبهين لها .. ولكن شعرك يشيب بسرعة كبيرة . حسناً ، أسرعي وتمتعي بقليل من النوم !



٢٠

استيقظت الأم على قرع شديد ينهال على باب المطبخ . كان شخص يقرع الباب باستمرار من نفذ صبره وعناده ، وكانت الظلمة والهدوء مابرحا يسودان كل شيء ، فاذا ذلك القرع العنيد يملأ العتمة الغبشاء بقلق شديد . وطرحت الأم سريعاً على كتفيها أول شيء نالته يدها ، ودلفت إلى المطبخ ووقفت عند الباب . سألت :

— من هناك ؟

فأجاب صوت غير مألوف :

— أنا !

— من ؟

فتوسل الطارق بصوت خفيض :

— افتحي الباب .

فرفعت الأم المزلاج ، ودفعت الباب بقدمها ، فمرق أغناطيوس من خلاله وصاح :

— وهكذا فأنا لم أخطىء .

كان ملطخاً بالوحل حتى خاصرتيه ، ووجهه رمادي اللون ، وعيناه غائصتين في محجريها ، وشعره الجعد منبوشاً ينطلق من تحت قبعته في سائر الجهات .

همس ، وهو يغلق الباب :
ـ لقد وقعنا في كارثة ؟
ـ أعلم هذا .
فدهش الفتى لسماعه ذلك .. سأل ، وهو يطرف بعينيه :
ـ كيف عرفته ؟
فأوضحت له كل شيء باختصار ..
ـ هل أخذوا أيضاً ذينك الاثنين الآخرين .. رفيقيك ؟
ـ لقد كانا غائبين ، فهما مدعوان للخدمة . وقد ذهبا لتسجيل اسميهما . لقد اعتقل خمسة ، بما فيهم العم ميخائيلو .
وأرسل نفساً عميقاً ، وأضاف وهو يطلق ضحكة قصيرة :
ـ وبقيت أنا ، ولا ريب أنهم يفتشون الآن عني .
ـ وكيف تدبرت أمر الهرب ؟
وفتح باب الغرفة المجاورة قليلاً ...
هتف أغناطيوس ، وهو يجلس على دكة ويتطلع حواليه :
ـ أنا ؟ دقيقة أو دقيقتين قبل مجيئهم فقط ، فقد ركض حارس الغاب وقرع نافذتي صائحاً « انتبهوا ، أيها الشجعان ، فهم يلاحقونكم » .
وضحك بصوت خافت ، وهو يمسح وجهه بمعطفه :
ـ حسناً ليستحيل التغلب على العم ميخائيلو في حال من الأحوال ، قال : « ياأغناطيوس ، انطلق إلى المدينة بأقصى سرعة . أتذكر تلك المرأة العجوز ؟» وتابع ، وهو يكتب ورقة صغيرة أثناء حديثه : « إليك ، خذها إليها » . وهكذا زحفت في الحرش ، وسمعتهم بكل وضوح يقتربون . كانوا كثرة ، يزحفون من كل الجهات ، أولئك الشياطين ! ويحيطون بمكان عملنا من كل حدب وصوب ، انبطحت في الحرش فمروا بجانبي دون أن ينتبهوا إليّ ، وعندئذ نهضت وطفقت

أمشي وأمشي بكل ما في وسعي . ولقد مضى علي في الطريق ليلتان ويوم كامل دون أن أقف أو أستريح .

كان يبدو انه مسرور بنفسه ، فيضيء ابتسام عينيه كل وجهه ، بينما ترتجف شفتاه العارمتان الحمراوان دون انقطاع .

وقالت الأم ، وهي تتناول السماور :

ـ سأهيىء لك بعض الشاي في لحظة واحدة .

ـ إليك ، خذي الرسالة .

رفع قدمه بصعوبة جمة ، وهو يدمدم ويكشر ، ووضعها على الدكة . وفي تلك اللحظة ظهر نيقولاي في فرجة الباب .. قال ، وهو يزوي مابين عينيه :

ـ عم مساء ، أيها الرفيق . اسمح لي أن اساعدك .

وانحنى فوق رجل اغناطيوس ، وشرع يرفع بسرعة قماطاتها الوسخة التي تعيض عن الجوارب ... صاح الفتى ، وهو يمد رجله ويتطلع دهشاً إلى الأم :

ـ لا !

فقالت دون أن تلاحظ نظرته :

ـ يجب أن نمسد له قدميه بالفودكا .

فأجاب نيقولاي :

ـ بالطبع .

وشخر أغناطيوس مرتبكاً حائراً ..

التقط نيقولاي الرسالة ، وسوى ما أصاب الورقة الرمادية من غضون ، ثم رفعها إلى قرب عينيه وهو يقرؤها . « لاتهملوا قضيتنا ، ياأماه . قولي لتلك السيدة الطويلة ألا تنسى أن تكتب عن قضيتنا أكثر من قبل .. أرجو ذلك . إلى اللقاء . ريبين .. » وأسبل نيقولاي يبطء يده الممسوكة بالرسالة ،

وغمغم :

ـ ما أروع هذا !

قعد أغناطيوس يراقبها . وهو يحرك في حذر وعناية أصابع رجله العارية الوسخة . وجربت الأم إخفاء الدموع في عينيها ... وهي تحمل وعاء من الماء وتجثو أمامه وتمد يدها إلى قدمه .. ولكنه صاح فزعاً ، وهو يدفع بقدمه تحت الدكة :

ـ لا ، ماذا أنت فاعلة ؟

ـ اعطني قدمك ، واسرع في ذلك .

وقال نيقولاي :

ـ سأجلب بعض الفودكا .

ولكن الفتى دفع قدمه أكثر فأكثر تحت الدكة ، وتمتم :

ـ ماذا تحسبان ؟ أأنا في المستشفى ؟

طفقت الأم ترفع الحروق عن قدمه الأخرى . فشخر أغناطيوس بصوت مرتفع ، وهو يلوي عنقه مضطرباً ويتطلع إلى الأم .

قالت هذه بصوت مرتجف :

ـ لقد ضربوا ميخائيلو إيفانوفيتش .

فهتف الفتى في هدوء :

ـ حقاً ؟

ـ أجل ! لقد كان في حال سيئة عندما جاؤوا به إلى نيقولسكويه . وهناك ضربه رقيب الشرطة ورئيسها .. على وجهه .. وانهالا عليه رفساً .. حتى غمر الدم جسده كله .

فقال الفتى عابساً ، وكتفاه يرتعشان :

ـ إنهم يعرفون كيف يفعلون ذلك . يعرفون جيداً . أنا اخاف منهم كما

أخاف من ألف شيطان . هل ضربه الفلاحون أيضاً ؟

ـ لطمه واحد منهم عندما أمره رئيس الشرطة بذلك . ولكن موقف الباقين كان رائعاً ، لا بل وقفوا إلى جانبه أيضاً ، وصاحوا بهم أن لاحق لهم في ضربه .

ـ كذا ؟ لقد بدأ الفلاحون يدركون من هم الذين يدافعون عنهم . ولماذا يدافعون .

ـ ثمة أناس عاقلون بين الفلاحين أيضاً .

ـ ثمة اناس عاقلون في كل مكان . هي الحاجة تجعلهم على ماهم عليه ، ونحن في حاجة إليهم ، لكن الصعوبة هي في العثور عليهم .

وحمل نيقولاي زجاجة من الفودكا ، ودس قليلا من الفحم في السماور ، ثم خرج دون أن يقول شيئاً . وكان أغناطيوس يرقبه في سكون . سأل الأم عندما أصبح نيقولاي خارج الغرفة ..

ـ من هو السيد ... طبيب ؟

ـ ليس سادة بيننا . كلنا رفاق .

فقال أغناطيوس ، وابتسامة تشير إلى الارتباك والارتياب تتراقص على شفتيه :

ـ يبدو لي ذلك مضحكاً .

ـ ما الذي يبدو مضحكاً ؟

ـ الامور بصورة عامة . فمن جهة يدمون لك انفك ، ومن جهة اخرى يغسلون لك قدميك ؛ وفي الوسط ، ماذا يوجد ؟

وفتح الباب ، وقال نيقولاي من خلاله :

ـ في الوسط يوجد اولئك الناس الذين يلحسون ايدي من يدمي انوفكم . ويمتصون دماء من تدمى انوفهم . ذلك مافي الوسط .

اسام اغناطيوس نظره إليه في احترام ، ثم قال بعد صمت قصير :

ـ ما أقرب ذلك إلى الحقيقة ، فيما أعتقد !

ونهض ، وخطا بضع خطوات ثابتة ، ثم قال :

ـ لكأنها قدمان جديدتان . شكراً .

ثم زرفوا الى غرفة الطعام كي يحتسوا الشاي ، فراح اغناطيوس يحدثها عن حياته وهو يتكلم بصوت عميق مؤثر :

ـ لقد اعتدت ان اوزع صحيفتنا . إني مشاء عظيم .

فسأل نيقولاي :

ـ ايقرؤها كثيرون في الريف ؟

ـ جميع المتعلمين ، وإن كانوا اغنياء . ولا يأخذها الأغنياء منا نحن طبعاً ... إنهم يدركون تماماً أن الفلاحين سوف يغسلون الأرض بدمائهم ويطهرونها من الملاكين . فاذا فعلوا ذلك مرة اقتسموها فيما بينهم ، فلا يبقى بعد ذلك ملاكون ورجال بالأجرة ... ذلك واضح جداً ، وإلا فلمَ نبدأ القتال ؟

وبدا كأنه غاضب ، وراح يرمق نيقولاي مستفهماً مرتاباً ، فابتسم هذا ولم يقل شيئاً .

ـ وإذا رحنا اليوم نقاتل العالم كله وندمر الجميع كي يكون في الغد أغنياء وفقراء مرة اخرى .. فأي معنى في ذلك ؟ لا ، شكراً ! إننا لن نخدع ! فالثراء مثل الرمال الجافة .. لا تقبع في مكانها هادئة قط ، بل تعود فتبعثر في كل حدب وصوب . اوه ، كلا . نحن لن نقبل بهذا أبداً .

فضحكت الأم ، وقالت :

ـ حسناً ، لا حاجة لك لأن تغضب بسبب ذلك .

وقال نيقولاي متفكراً :

ـ ما يشغل بالي هو كيف يمكننا ان نسرع ونوصل ذلك المنشور عن اعتقاله

ريبين إلى جماعتك ،

فتيقظ أغناطيوس ، وأصاخ بأذنيه . سأل :

— أهناك مثل هذا المنشور ؟

— نعم .

فاقترح ، وهو يفرك يديه :

أعطني إياه ، وسأحمله أنا .

ضحكت الأم بصوت خافت دون أن تنتظر إليه . :

— ولكنك متعب ، وقد قلت إنك خائف .

فسرّح أغناطيوس شعره المجعد إلى الوراء براحته المريضة ، قائلا بلهجة جدية :

— الخوف شيء آخر . لم تضحكين ؟ لغريبة حقاً ، أنت أيضاً ؟

فهتفت الأم بالرغم منها ، محاولة كبت السعادة التي أثارها فيها :

— آه ، أيها الطفل الخبيث !

فابتسم خجلا ، وقال :

— بخ ، أنا طفل !

فقال نيقولاي ، وهو يرمقه بنظرة عطوف :

— إنك لن تعود إلى هناك .

فسأل أغناطيوس قلقاً :

— ولم لا إلى أين أذهب إذن ؟

— سيأخذ المنشور شخص آ ، أما أنت فما عليك إليك إلا إعطاء التعليمات المفصلة عما يجب أن يفعل وكيف .. أتوافق ؟

فقال أغناطيوس ، أخيراً ، بلهجة من خاب أمله :

— حسناً .

ـ وسوف نؤمن لك أوراقاً جديدة ونسند إليك عميل غفير في الغابات .

ـ وماذا أفعل إذا جاء الفلاحون يقتطعون حطباً أو يأخذون أي شيء آخر ..؟ هل أمسكهم وأقيدهم ؟ كلا ! هذا العمل لا يلائمني .

ضحكت الأم ، وضحك نيقولاي كذلك ، الأمر الذي آلم الفتى وضايقه مرة أخرى ، فقال له نيقولاي معزياً :

ـ لا تقلق ، فلن تحتاج إلى تقييد أي فلاح كان . أعطيك عهداً بذلك .

فقال أغناطيوس ، وابتسامة سعيدة تشرق على شفتيه :

ـ حسناً ، مادام الأمر كذلك . ولكني أفضل الحصول على عمل في مصنع . يقال إن فتيان المصانع أذكى من سواهم .

فنهضت الأم عن المائدة ، واقتربت من النافذة . فكرت :

ـ ياللحياة من شيء مضحك ؟ يضحك المرء خمس مرات في اليوم ويبكي مثلها ، حسناً ، هل انتهيت . ياأغناطيوس ! هيا ، وارقد قليلا .

ـ ليس بي حاجة إلى النوم .

= هيا ، هيا .

ـ أنت دقيقة وصارمة جداً ، ألست كذلك ! حسناً . إني ذاهب . شكراً من أجل الشاي .. ومن أجل لطفكما ...

وبينما هو يتسلق سرير الأم ، حك رأسه وتمتم :

ـ كل هذه الاشياء ستتلوث الآن بالقطران .. لامعنى في كل هذا ... فلست ناعساً ... لشد ماكان سريعاً في تعليقة على أولئك الذين في الوسط.. ياللشياطين ...

استغرق في النوم بغتة . وراح يشخر بضوضاء ، فمه نصف مفتوح ، وحاجباه مرتفعان .

٢١

كان يجلس ، في ذلك المساء عينه : قبالة فيزوفشيكوف في غرفة صغيرة في أحد الأقبية يهمس في أذنه :

— أربع مرات على النافذة الوسطى ...

فسأل نيقولاي في قلق :

- أربع ؟

- في البدء ثلاث ، هكذا ..

وقرع المرات الثلاث على المائدة ...

— واحدة ، اثنتان . ثلاث . انتظر ثانية ، ثم مرة رابعة .

— فهمت .

— وسيفتح لك الباب موجيك أحمر الرأس ، ويسأل : « أجئت من أجل القابلة » ؟ فتقول : « نعم ، من قبل زوج صاحب المصنع » . هذا كل شيء ولسوف يفهم .

جلسا متقاربي الرأس ، كلاهما فتى قوي البنية مفتول العضلات ، يتكلما بأصوات خافتة بينما الأم تراقبهما وذراعاها متصالبان على صدرها ، مسرورة بكل تلك الضربات وكلمات السر . هجست في خاطرها

— لما يزالا ولدين .

كان مصباح معلق على الحائط ينير لطخات الرطوبة القائمة في السقف والصور المقتطعة من المجلات المغطية الجدران ، وسطول عتيقة وقطع من القرميد مبعثرة هنا وهنالك على أرض الغرفة الممتلىء جوها برائحة العفونة ودهان الزيت والصدأ .

وكان أغناطيوس يرتدي معطفاً ثقيلاً مصنوعاً من نسيج وبري يروقه كثيراً فيما يظهر . بينما الأم تنظر إليه يمسح على كمه في حنان، ويمدفي جهد عنقه الضخمة كي يتفرج على نفسه . فكرت ، وحنان دافيء يغمر قلبها :

ـ أيها الطفلان ؟ أيها الطفلان المباركان . . .

قال أغناطيوس ، وهو ينهض :

ـ حسناً ، لا تنس أن تذهب إلى موراتوف أولاً ، وتسأل عن الجد .

فأجاب فيزوفشيكوف :

ـ لن أنسى .

ولكن أغناطيوس لم يقنع بذلك ، فأعاد كل الضربات والاشارات وكلمات السر قبل أن يمد يده أخيراً ، ويقول :

ـ بلغهم أشواقي ، ولسوف ترى أنهم قوم طيبون .

ورشق نفسه بنظرة راضية ، ومسح على كم معطفه ، وسأل الأم :

ـ هل آن لي الذهاب ؟

ـ أتستطيع أن تجد الطريق ؟

ـ سأجدها . إلى اللقاء ، أيها الرفيق !

خرج منتصب القامة ، عريض المنكبين ، مرفوع الصدر ، وقبعته الجديدة مائلة فوق إحدى أذنيه ، ويداه مدفوعتان بجرأة في جيبيه ، وخصل من شعر مجعد أشقر تموج على صدغيه .

قال فيزوفشيكوف ، مقترباً من الأم :

ــ وهكذا فقد مُنحتُ الآن عملاً . لقد بدأت أضجر وأتساءل لمَ هربت من السجن ، فأنا لا أفعل هنا شيئاً إلا الاختباء ليلاً ونهاراً ، بينما كنت أستطيع هناك أن أتعلم شيئاً . لقد كانت طريقة بافل التي تجعلنا نستفيد من عقولنا رائعة حقاً . ماذا تمّ في شأن فرارهم ، ياتيلوفنا ؟

فقالت ، وهي ترسل زفرة بالرغم منها :

ــ لا أدري .

فوضع نيقولاي يداً ثقيلة على كتفها واقترب بوجهه منها ، وقال :

ــ أقنعيهم أنت ، فسوف يصغون إليك . ذلك بسيط للغاية . أنظري بنفسك ، ههنا يقوم جدار السجن ، وإلى جانبه عامود أحد مصابيح الشارع يقابله تماماً ميدان خال ، وإلى اليسار المقبرة ، وإلى اليمين شوارع وبنايات ... ولسوف يأتي أحد شعلة المصابيح لينظف ذلك الفانوس في وضح النهار ، فيلقي سلماً على الحائط ويتسلق عليه ويثبّت طرف سلم من الحبال باحدى القرميدات في قمة الجدار ، ثم يلقي به إلى فناء السجن و ... هذا كل شيء ! وهم يعرفون ، داخل السجن ، متى سيحدث ذلك ، ويقنعون المجرمين العاديين بأن يثيروا بعض الاضطراب ، أو يثيرونه هم أنفسهم حتى يعطوا الحرس شيئاً يفكرون فيه ، في حين يتسلق الفارون السلم ويولون الأدبار ... واحد ، اثنان ، ثلاثة ، وينتهي كل شيء ... ما أبسط ذلك !

كان يلوّح بيديه دون انقطاع وهو يشرح خطته البادية كثيرة الوضوح والبساطة والفطنة . لقد عرفت نيقولاي ثقيلاً مرتبكاً دائماً ، ولقد كان فيما سبق ينظر إلى سائر الأشياء في ارتياب وحقد دفين . أما الآن ، فالمرء يخاله قد ولد من جديد ، فيشع منه نور دافئ ثابت اكتسب قلب الأم وأثار مشاعرها .

ـ فكري أنهم سوف يفعلون ذلك في وضح النهار ، وفي وضح النهار تماماً . لن يرتاب إنسان في أن سجيناً يجرب الهرب في وضح النهار والسجن كله مفتوح

العينين ، يقظ ، حذر :

فاستجلت الأم ، ورعشة تجتاح كل جسدها :

ــ أفلا يمكن أن يطلقوا الرصاص ؟

ــ من ؟ ليس ثمة جنود ، والحرس يستعملون مسدساتهم ليدقوا المسامير بها.

ــ ذلك يلوح بسيطاً جداً .

ــ ولكنك ستتحققين من ذلك بنفسك . أقنعيهم به . ولقد أعددت أنا كل شيء : السلم الحبلي ، والكلاليب . وصاحب بيتي هذا سيكون موقد المصباح .

وسعل شخص ما في الجهة الثانية من الباب ، وأثار بعض الضجيج ..

ــ هذا هو .

برز في فرجة الباب مغسل من القصدير ... وغمغم صوت أجش في الوقت نفسه :

ــ اعبُر من هنا ، أيها الشيطان العجوز ...

ووقعت أبصارها إلى الاعلى من المغسل على وجه رقيق السيماء ، ذي عينين جاحظتين ، وشعر وشارب أشيبين .

ساعده نيقولاي في نقل حمله ، فزرف إلى الغرفة رجل طويل القامة ، محدودب الظهر ، سعل وهو ينفخ وجنتيه الملفوحتين ، ويبصق على الارض ، ثم حياها بصوت أجش :

ــ السلام عليكما .

فهتف نيقولاي :

ــ إليك ، فاستوضحيه .

ــ تستوضحني ماذا ؟

ــ عن موضوع الفرار .

فقال السمكري ، وهو يمسح شاربيه بأصابع سود ملوثة :

— آه ! آه !

— إنها لا تؤمن بسهولة ذلك ، يا يا كوف فاسيليفيتش .

— لا تؤمن بذلك ؟ إذن فأنا أعتقد أنها لا تريده . أما أنت وأنا فنريده ، ولذلك نؤمن به .

قال السمكري ذلك في هدوء ، ثم تقوّس فجأة ؛ وانطوى على نفسه وهو يسعل بشدة حتى إذا انتهت نوبة السعال وقف فترة طويلة في وسط الغرفة ، يفرك صدره ويتمعن في الأم بعينيه الجاحظتين . قالت الأم :

— سيقرر بافل ورفاقه هذه المسألة .

فأطرق نيقولاي برأسه متفكراً ، فيما سأل الحداد وهو يقتعد كرسياً :

— من هذا ، بافل ؟

— ولدي .

— وكنيته ؟

— فلاسوف .

فأشار برأسه ، وتناول علبة تبغه ، وطفق يحشو غليونه . قال :

— سمعت عنه . وابن أخي يعرفه . ابن أخي في السجن أيضاً — اسمه يفشينكو . أسمعت عنه ؟ أما اسمي فجوبون . عن قريب سيلقون بكل الفتيان وراء القضبان ، وبذلك يخلو الجو لنا ، نحن الشيوخ ! لقد قال لي أحد رجال الدرك إنهم سيرسلون ابن أخي إلى سيبيريا ، وإنهم لقادرون على ذلك ، أولئك الكلاب !

واستدار إلى نيقولاي ، وشرع يدخن غليونه وهو يبصق على الأرض من وقت لآخر . قال مازحاً :

— وهكذا ، فهي لا تريد هذا ؟ ذلك من شأنها . عندما يكون المرء طليقاً فهو حر في أن يمشي إن كان متعباً من القعود ، أو يقعد أن كان متعباً من المسير . إن سرقوك فاغلق عينيك ... وإن ضربوك فلا تصرخ .. وإن قتلوك فانك

تضطجع هناك . . كل إنسان يعرف هذا . ولكني سأنتزع سافكا ابن أخي من هناك ، سأنتزعه بكل تأكيد .

ذهلت الأم لجملة القصيرة المتلاحقة في شبه عواء . ولكن كلماته الأخيرة أثارت الحسد في قلبها .

كانت تفكر في نيقولاي وهي تسير على طول الشارع ، تتلقى الريح الباردة ورذاذ المطر في وجهها .

— لشدّ ما تبدل ! فظاعة !

وتذكرت جوبون ، فومض في خاطرها في شبه صلاة تقريباً :

— مما لا شك فيه أني لست الوحيدة التي عادت إلى الحياة ، وبدأتها من جديد ...

وفي اللحظة نفسها ، طفح قلبها بالأفكار عن ولدها :

— لو أنه يقبل !



٢٢

بينا هي تودع بافل في الأحد التالي ، أحست به يدفع في راحتها كرة صغيرة من الورق ، فانتفضت كأن الكرة أحرقت يدها ، ونظرت إلى وجه فتاها في تساؤل صامت ، ولكنها لم تجد في محياه أي جواب على تساؤلها . كانت عيناه الزرقاوان تفتران عن ابتسامتها المألوفة ، الهادئة والحازمة في وقت واحد . قالت، وهي تتنهد :

— إلى اللقاء .

ومد فتاها يده مرة أخرى ،واكتسى وجهه ،لحظة عابرة ، بظل من الحنان :

— إلى اللقاء ، يا أماه .

فانتظرت دون أن تفلت يده . قال :

— لا تقلقي ، ولا تغضبي أيضاً .

كانت هذه الكلمات ، وذلك الخط العنيد المرتسم على جبهته ، الجواب المنتظر .

غمغمت ، وهي تطرق برأسها :

— يا إلهي ! ما هذا الذي تقول ؟ ...

وأسرعت في الخروج دون أن تنظر إليه مجدداً حتى لا يرى الدموع في عينيها ، والارتعاش في شفتيها . وبدا لها طوال الطريق إلى الدار أن اليد التي تحمل الورقة تؤلمها، وأن ذراعها برمتها تتدلى ثقيلة فكأنها قد تلقت لطمة على كتفها.

ولم تكد تبلغ الدار حتى أعطت الرسالة إلى نيقولاي ووقفت تنتظره وهو يسوي غضون الورقة ، وفي قلبها خفقان من رجاء. ولم يبرر نيقولاي ذلك الخفقان، قال:

— بالطبع ! إليك ما يكتب : « يجب ألا نحاول الفرار ، أيها الرفاق . إننا لا نستطيع ، ليس أحد منا يستطيع ، فنحن سنخسر احترامنا لأنفسنا إن فعلنا ذلك . ولكن جربوا أن تساعدوا ذلك الفلاح الذي اعتقل حديثاً . إنه في حاجة إلى عنايتكم ، وهو جدير بكل ما تستطيعون من أجله . إنه يتعذب كثيراً ههنا ، وفي كل يوم يتقاتل مع السلطات . وقد قضى حتى الآن أربعاً وعشرين ساعة في الزنزانة ، ولسوف يعذبونه حتى الموت . إننا جميعاً نشفع له ، عزوا والدتي وأوضحوا لها كل شيء ، وهي ستفهم . »

رفعت الأم رأسها ، وقالت بصوت خفيض يتخلله الارتعاش :

— ماذا هناك للايضاح ؟ إني أفهم .

واستدار نيقولاي جانباً بسرعة ، وتمخط بشدة وضجيج .

غمغم :

— يبدو أني أصبت بزكام ...

ورفع يديه يصلح من وضع نظارتيه ، ثم قال وهو يتمشى جيئة وذهاباً في الغرفة :

— الحقيقة أنه ليس لدينا على أية حال متسع من الوقت .

فقالت الأم عابسة ، بينا الكآبة تثقل على قلبها وتغمره مثل ضباب كثيف :

لا بأس في ذلك ، فليقدموه إلى المحاكمة .

— إليك ، لقد تلقيت قبل هنيهة رسالة من أحد الرفاق في بطرسبرج ..

— وعلى أية حال ، فهو يستطيع الفرار من سيبيريا ، أفليس كذلك ؟

— طبعاً ! ذلك الرفيق يقول إن المحاكمة ستجري عما قريب ، وإن الحكم قد اتفق عليه منذ الآن . . . النفي لهم جميعاً . هؤلاء الأشقياء يجعلون من قضائهم

أضحوكة دنيئة . تصوري ذلك ... الادانة قد قررت في بطرسبرج حتى قبل انعقاد المحكمة .

فقالت الأم بثبات :

- لا تبال بهذا ، يانيقولاي إيفانوفيتش ، فلا حاجة بك إلى إيضاح الامور لي أو تعزيتي . بافل لا يرتكب الخطل قط ، ولن يرضى بأن يتألم هو وجميع رفاقه من أجل لا شيء . وهو يحبني . . وأنت تستطيع أن ترى من تلقاء نفسك كيف يفكر فيّ على الدوام . إنه يقول : أوضحوا لها الأمور ، عزوها .

وراح قلبها يخفق بعنف ، فيدور رأسها لشدة انفعالها .

هتف نيقولاي بصوت مرتفع غير معهود منه :

— إن ابنك لشخص رائع ، وأنا أكنّ له عظيم الاجلال .

فاقترحت الأم :

— فلنبحث عن طريقة ما لمساعدة ريبين .

كانت تود أن تصنع شيئاً في التو واللحظة . . أن تذهب إلى مكان ما . . أن تمشي حتى تسقط إعياء ...

قال نيقولاي ، وهو يدب على أرض الغرفة :

— حسناً ، إننا نحتاج إلى ساشا ..

— لسوف تأتي دائماً في الأيام التي أزور بافل فيها .

وجلس نيقولاي على الأريكة إلى جانب الأم ، وأطرق برأسه مفكراً وهو يمض شفته ويعبث بلحيته :

— لما يؤسف له أن أختي بعيدة ...

— ما أروع أن نحقق ذلك وبافل لما يبرح هناك . . ذلك سيسعده كثيراً .

وسكتا فترة من الوقت قالت الأم بعدها :

— لا أفهم لماذا لا يريد ذلك ...

فهب نيقولاي ناهضاً ، ولكن الجرس قرع في تلك اللحظة بالذات ، فتبادلا نظرات سريعة . قال نيقولاي بصوت خافت :

— هذه ساشا دون ريب .

فسألت الأم بمثل خفوت صوته :

— كيف ستقول لها ذلك ؟

— آه .. بلى ...

— إني آسف كثيراً من أجلها ...

تردد القرع من جديد ، ولكنه أقل حزماً هذه المرة ، فكأن الشخص الواقف إلى الباب يتردد في الدخول . واندفع كلا نيقولاي والأم نحو الباب معاً ، ولكن نيقولاي وقف جانباً عندما بلغا المطهى ، وقال :

— الأفضل أن تذهبي وحدك ..

ولم تكد الأم تفجو الباب حتى سألتها الفتاة في شجاعة وثبات :

— هل أبى :

— نعم .

— كنت أعرف ذلك .

قالت ساشا هذا بكل بساطة ، ولكن وجهها شحب حتى أضحى أبيض اللون. فكت أزرار معطفها ثم زررت بعضاً منهـا ، وحاولت عبثاً أن تخلع المعطف عن كتفيها .. قالت :

— رياح ومطر .. ياللطقس الفظيع ! أهو في صحة جيدة ؟

— نعم .

فقالت بصوت خفيض ، وهي تتفحص يدها :

— مرح وفي صحة جيدة ؟

فردت الأم ، دون أن تنظر إليها :

ـ لقد كتب يقول : علينا أن نجرب إنقاذ ريبين .

فأجابت الفتاة في تماهل :

ـ نعم ، يخال لي أن علينا الإستفادة من مشروعنا .

وهتف نيقولاي ، وهو يبدو بغتة في فرجة الباب :

ـ وهذا ما أفكر فيه أنا أيضاً . مرحباً ، ياساشا .

فمدت الفتاة يدها اليه . سألت :

ـ ولمَ لا ؟ الجميع يعترفون بأنه مشروع حسن .

ـ ولكن منْ يطبقه ؟ الجميع مشغولون ...

فقالت ساشا بسرعة ، وهي تنهض واقفة :

ـ سأفعل ذلك ، فلدي الوقت الملائم له .

ـ حسناً ، عليك أن تسألي الآخرين إذن ..

ـ سوف أسألهم ، سأذهب إليهم حالاً .

وشرعت تبكل أزرار معطفها مرة أخرى بحركات ثابتة من أصابعها النحيلة .

قالت الأم :

ـ يجب أن تنالي بعض الراحة قبلاً .

فأجابت الفتاة بابتسامة هادئة :

ـ لست متعبة .

صافحتهما في سكون وخرجت ، صارمة الوجه باردة التقاطيع كعادتها .

وذهب نيقولاي والأم إلى النافذة يراقبانها وهي تعبر الحديقة وتختفي وراء البوابة ، ثم أرسل نيقولاي من بين شفتيه صفيراً رقيقاً ، وجلس إلى المائدة وشرع في الكتابة . قالت الأم :

ـ لسوف يخفف هذا العمل عنها كثيراً .

ـ بالطبع .

قال نيقولاي ذلك ، واستدار إلى الأم وعلى وجهه اللطيف ابتسامة حلوة .
تابع

ـ يبدو أن تلك الكأس قد وفرت عنك ، يانيلوفنا ، وإخال أنك لم تعرفي قط معنى اللهفة والشوق إلى رجل تحبينه .

فأجابت الأم ، ملوحة بيدها :

ـ إيه ! أن العاطفه الوحيدة التي أحسست بها هي الخوف من أن يزوجوني

ـ ألم تغرمي بأحد قط ؟

ـ لست أذكر . وأعتقد أني أغرمت ، لابد أني أغرمت بأحد ما ، ولكني لا أذكر .

وحدجته بأنظارها ، ثم تابعت في لهجة حزينة :

ـ لقد ضربني زوجي كثيراً حتى انتزع من رأسي كل ما حدث لي قبل زواجي منه .

واستدار نيقولاي إلى المائدة ، بينما خرجت الأم من الغرفة برهة قصيرة . وعندما عادت ، نظر نيقولاي إليها في عطف ، مستغرقاً في ذكريات حبيبة إلى قلبه :

ـ أما بالنسبة إلي ، فقد مررت في تجربة أشبه ما تكون بتجربة ساشا . كنت أحب إحدى الفتيات . وكانت فتاة رائعة ! كنت في العشرين من عمري تقريباً عندما التقيت بها ، ولقد أحببتها من ذلك الحين . واني لأحبها الآن مثلما أحببتها يومذاك تماماً .. من كل قلبي ، وفي استنان ، والى الأبد .

ورأت الأم ، من حيث كانت تقف الى جواره ، النور البراق الدافىء المشع من عينيه ، وقد وضع يديه على مسند أحد المقاعد ، وأراح رأسه عليها وراح ينظر الى مكان ما بعيد بعيد ، وكل جسده ، النحيل والمتين البنيان في الوقت ذاته ، ينجذب نحو رؤيا جميلة ، مثلما تنجذب الزهرة نحو الشمس النيرة .

سألت الأم :

ــ لم لا تتزوجها ؟

ــ لقد تزوجتْ منذ أربعة أعوام .

ــ ولم لم تسبق وتتزوجها ؟

فاستغرق في التفكير برهة ، ثم قال :

ــ لم تسنح لنا الفرصة ، إن صح التعبير . عندما أكون أنا حراً ، فهي في السجن والمنفى ، وعندما تكون هي طليقة ، فأنا سجين . وذلك يشبه وضع ساشا إلى حد بعيد ، أليس كذلك ؟ وأخيراً أرسلوها إلى سيبيريا لمده عشرة أعوام. أرسلوها إلى إحدى المناطق الأبعد . وأردت الذهاب معها ولكني خجلت ، وكذلك خجلت هي أيضاً . وهناك التقت برجل آخر ، فتى رائع للغاية ــ وأحد رفاقي . وقد هربا معاً ، وهما الآن يعيشان خارج الحدود .. هِمْ ــ م ...

رفع نيقولاي نظارتيه ومسحها ، ثم عرضها على النور يتحقق من نظافتها ، وعاد يمسحها مرة أخرى .

وهتفت الأم في حنان ، وهي تهز رأسها :

ــ أواه ، يا صديقي العزيز ؟

رثت له من صميم قلبها ، ولكن شيئاً فيه كان يدفعها في الوقت نفسه إلى الابتسام بحرارة ، بعاطفة الأم الرؤوم . وأحسن نيقولاي من جلسته ، وتناول الريشة من جديد ، وراح يلوح بها في تناسق مع كلماته ، وهو يقول :

ــ الحياة العائلية تنقص طاقة الثوري .. إنها تفعل ذلك دائماً . الأطفال ، والحرمان ، وضرورة العمل لاطعام العائلة ... ينبغي للثوري أن يضاعف طاقته باستمرار ، بحيث تستطيع فعاليته أن تتسع أكثر فأكثر . الأيام تتطلب ذلك ، فمن واجبنا أن نسير في مقدمة الجميع ، لأننا نحن العمال الذين اختارهم التاريخ لتدمير العالم القديم وبناء عالم جديد ، إذا تقاعسنا في المؤخرة ، مستسلمين للاعياء

أو تخدير فوز حقير ، فاننا مسؤولون إذن عن أذى يقارب خيانة القضية . ليس هناك من نستطيع السير معه جنباً إلى جنب دون أن نلحق الضرر بأعمالنا ، ونحن يجب ألا ننسى قط أن واجبنا ليس فوزاً صغيراً عارضاً ... بل الانتصار التام الأخير ...

وأصبح صوته ثابتاً ،ووجهه شاحب اللون ، وعيناه تبرقان بتلك القوة الهادئة المتماسكة المألوفة عنده .

وقرع الجرس مرة أخرى ، ودلفت منه لودميلا مضرجة الخدين بفعل الصقيع ، مرتجفة الأوصال في معطف أرق من أن يدفع عنها زمهرير الفصل البارد .

قالت في غضب ، وهي تخلع جزمتيها المهترئتين :

- ستجري المحاكمة في الأسبوع المقبل .

فصاح نيقولاي من الغرفة المجاورة :

ـ أمتأكدة أنت من هذا ؟

وانطلقت الأم نحوه ، لاتدري على وجه التحقيق إن كان الخوف أوالفرح هو الذي يثير كل ذلك الضجيج في صدرها . ولحقت لودميلا بها ، تقول وفي صوتها ظل من سخرية :

ـ إني متأكدة ! ... وهم لايخفون في المحكمة حقيقة إصدار الادانة سلفاً .. كيف تستطيع ان تفسر مثل هذا الأمر ؟ هل تخاف الحكومة ان يعامل موظفوها عداءها في شيء من اللين ؟ هل تخاف ألا يكون أجراؤها أوغاداً آخر الامر ، بالرغم من كل الزمن والطاقة اللذين صرفتها في تسميم افكارهم ؟

وجلست لودميلا على الأريكة تفرك خديها الناحلين بيديها . وعيناهـا تعبران عن ازدراء لا حدود له ، وصوتها يلتهب غضباً اكثر فأكثر .

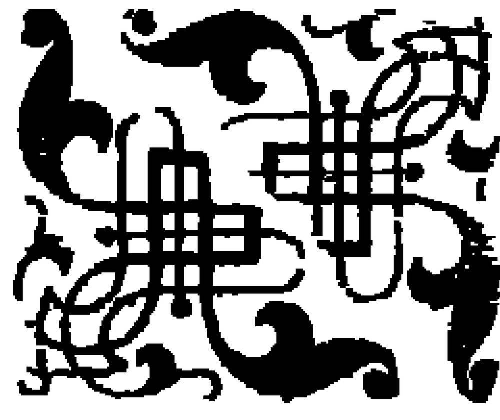
قال نيقولاي ، ساعياً إلى تهدئتها :

ـ لا تضيعي طاقتك ، يالودميلا . إنهم لا يسمعونك ، كما تعلمين ...

وأصغت الأم في انتباه عميق إلى كلماتها ، ولكنها لم تفقه منها شيئاً ، لأن فكرة واحدة فقط لم تكف عن الضجيج في ذهنها :

ـ المحاكمة .. في الاسبوع المقبل .

وبغتة أحست باقتراب قوة لا إنسانية ، قوة لا تعرف معنى للرحمة والشفقة مطلقاً ...



٢٣

هكذا عاشت الأم في سحابة من البلبلة والانتظار القلق طوال يومين آخرين ، وفي اليوم الثالث جاءت ساشا وتوجهت الى نيقولاي بالخطاب قائلة :

ـ كل شيء جاهز .. اليوم في الساعة الواحدة ..

فسأل دهشاً :

ـ بكل هذه السرعة ؟

ـ ولم لا ؟ ما كان علي سوى تأمين الثياب لريبين ، وتدبير مكان يلجأ اليه . وقد أخذ جوبون على عاتقه القيام بكل شيء آخر ، وليس على ريبين سوى الذهاب بضع مئات من الأمتار فقط ، وسيلقاه فيزوفشيكوف ، متنكراً طبعاً ، ويلقي معطفاً على كتفيه وقبعة على رأسه ، ويدله على الطريق . وسأكون في انتظاره بلباس كامل له ، واقوده بقية الطريق .

فسأل نيقولاي :

ـ لا غبار على ذلك ، ولكن من هو جوبون هذا ؟

ـ انت تعرفه ، ففي غرفته كنت تعقد حلقتك الدراسية مع الميكانيكيين .

ـ آه ، تذكرت . طير غريب الأطوار .

فقالت ساشا متفكرة ، وقد انفذت بصرها من النافذة :

ـ إنه جندي متقاعد ـ سنكري ـ قليل الثقافة ، ولكنه يرعى حقداً هائلاً

ضد العنف مهما كان ظاهره . وهو إلى ذلك فيلسوف حتى درجة ما .

أنصتت الأم في سكون ، وفي ذهنها تنمو فكرة غامضة غير محدودة :

ـ إن جوبون يريد إنقاذ ابن أخيه بيفشنكو ذاك ؟ كنت تحبه ، إذ كان رشيقاً دائماً ، ونظيفاً إلى الدرجة القصوى .

فأشار نيقولاي برأسه ..

ـ لقد هيأ كل شيء على الوجه الأكمل ، ولكني بدأت أرتاب في أن المحاولة ستكلل بالنجاح ، لأنها ستجري ساعة النزهة ، وأنا أخاف أن يرغب عدد كبير من المساجين في الهرب ساعة يرون السلم من فوق الجدار .

وأغلقت عينيها وسكتت ، فذهبت الأم إليها ..

ـ ولسوف يضايق بعضهم بعضاً بالطبع ...

كان ثلاثتهم وقوفاً إلى النافذة ، والأم وراء نيقولاي وساشا ، يثير حديثها السريع عواطف مختلفة في صدرها . قالت بغتة :

ـ سأذهب انا أيضاً .

فسألت ساشا :

ـ لماذا ؟

ونصحها نيقولاي :

ـ لا تذهبي ياعزيزتي ، فقد يصيبك مكروه . لا تذهبي .

فرمقته الأم طويلاً ، وقالت بصوت رقيق ، ولكن بثبات وعزم :

ـ كلا إني ذاهبة .

وتبادلوا نظرات سريعة ، ثم قالت ساشا وهي تهز كتفيها :

ـ لقد فهمت :

استدارت نحو الأم وأمسكت بها من ذراعها ، وقالت بلهجة بسيطة خفق قلب الأم لها :

ـ عليك إدراك أن كل رجاء عبث ...

فصاحت الأم ، وهي تقربها منها بيد مرتعشة :

ـ ياحبيبتي ، خذيني معك ، ولن أضايقكم أبداً ! يجب أن أذهب ، فلست أعتقد أن ... الهرب ممكن حقاً ؟

وقالت الفتاة لنيقولاي :

ـ إنها آتية معنا .

فأجاب ، وهو يطرق برأسه :

ـ ذلك من شأنك وحدك .

ـ ولكن يجب ألا نكون معاً . أنت تذهبين إلى الحدائق في الحقول الخالية ، ومن هناك تستطيعين رؤية جدار السجن ... لكن ، كيف تفسرين وجودك هناك فيما إذا استجوبوك ؟

فنبرت الأم بلهفة :

ـ سوف أجد ما أقول .

فحذرتها ساشا بقولها :

ـ لا تنسي أن حراس السجن يعرفونك ، فان رأوك هناك ...

ـ لن يروني ...

كان الرجاء المتولد في صدرها دون وعي منها يلتهب الآن في بريق عظيم ، فتروح تفكر وهي ترتدي ثيابها : ربما هو أيضاً ...

وبعد ساعة ، كانت الأم قد بلغت الحقل الممتد خلف السجن ، وريح صرصر تهب فتتعلق بثيابها ، وتلطم الأرض المتجلدة ، وتهز سور حديقة تمر بجوارها ، ثم ترمي بنفسها بكل ما فيها من عزم على جدار السجن القليل الارتفاع ، ثم تسقط في فنائه فتلتقط من هناك صيحات بشرية ، ثم ترسلها في إعصار نحو السماء حيث السحب المتلاحقة تنشق من وقت لآخر فتتشكل ثغرات

صغيرة الأبعاد في الجلد الأزرق .

كانت الحدائق تستلقي وراء الأم بينما المقبرة تقوم إلى الأمام منها ، والسجن ينتصب على بعد سبعين قدماً تقريباً إلى اليمين منها . وكان جندي يتنزه بجواده بالقرب من المقبرة ، وجندي آخر يقف دانياً منه وهو يضرب الأرض بحذائيه ، صائحاً ، ضاحكاً ، ومصفراً ... ولم يكن ثمة إنسان آخر في جوار السجن .

مرت بالقرب من الجنديين في تمهل حتى بلغت السور المحيط بالمقبرة ... وهي تختلس النظر إلى الوراء وإلى اليمين منها . وفجأة ، أحست ركبتيها ترتخيان ، وقدميها يثقلان فكأن الجليد قد لصقها بالأرض لصقاً . هذا موقد المصابيح يبرز من وراء زاوية الشارع ، وعلى كتفه سلم طويل ، عجلان الخطا كما ينتظر من موقدي المصابيح أن يفعلوا . وتطلعت الأم إلى الجنديين وعيناها تطرفان هلعاً ، فرأتهما ثابتين في مكانهما والجواد يحوم حولهما وشخصت إلى الرجل ذي السلم ، فوجدته قد أسند سلمه إلى الجدار وراح يتسلقه في هدوء ثم لوح بيده نحو فناء السجن ، وعاد يهبط بنشاط ليختفي وراء زاوية الجدار . وثقل قلب الأم ، وراحت الثواني تتباطأ حتى لتثير في النفس ألماً لا يطاق . وكان السلم لا يكاد يرى إلا بصعوبة مسنداً إلى جدار السجن القاتم الملطخ بالأوحال حتى غاض اللون منه ، المبقع هنا وهناك بالقرميد الأحمر الظاهر من وراء الجص المتساقط . وبغتة ، ظهر رأس أسود فوق الحائط ، ثم جسد تدحرج فوق قمة الجدار وهرول يهبط الجهة المقابلة ، ثم ظهر رأس آخر مغطى بقبعة ممزقة ، وقفزت على الأرض كرة سوداء ضخمة اختفت سريعاً وراء الحائط . وانتصب ميخائيلو بقامته ؟ وحملق حواليه ، وراح يهز رأسه ...

همست الأم ، وهي تضرب الأرض بقدميها :

— إهرب ، إهرب .

كان طنين يدوي في أذنيها ،وصيحات عالية تبلغ سمعها من وراء جدار السجن . وظهر فوق الجدار رأس ثالث ، فأطبقت الأم بيديها منقبضتين على صدرها ، وأنشأت ترقب ما يجري منقطعة الأنفاس . واندفع الرأس الأشقر الفتي ، الحليق الذقن ، في الفضاء مثل لمح البصر ، لكنه اختفى فجأة خلف الجدار من جديد . وأصبحت الصيحات أكثر ارتفاعاً وهياجاً ، فيما طبقت الريح تحمل ارتعاش الصفارات الحاد عبر الفضاء . سار ميخائيلو على طول الجدار حتى تجاوزها ، واخترق الحقل الخالي المرتمي بين السجن ودور المدينة . خيل إليها أنه يسير في بطء شديد وأنه يرفع رأسه في الهواء كثيراً ، وأن كل من رأى وجهه مرة فلن ينساه همست :

— أسرع ، أسرع !

وعلا رنين في الجهة الثانية من جدار السجن ، وبلغ سمعها صوت زجاج يتحطم . وكان أحد الجنديين يقف وقدماه مغروستان في الأرض ، وهو يشد عنان الحصان ، بينا رفع الآخر قبضته إلى فمه ، وجعل يصيح بشيء ما في اتجاه السجن ، حتى إذا انتهى من صياحه أدار أذنه نحو الريح كي يلتقط الجواب .

وقفت الأم متوترة الاعصاب ، تدور برأسها في كل الاتجاهات ، ترى عيناها كل شيء ولكنها لا تصدقان مما تريان شيئاً . إن ما تخيلته معقداً مثقلاً بالمخاطر قد تم الآن في سرعة وبساطة ، أذهلتها عن نفسها وأفقدتها الوعي . وقد اختفى ريبين الآن ، ولكن رجلاً مديد القامة ، يرتدي معطفاً طويلاً فضفاضاً ،يسير الآن على طول الطريق ، تعدو أمامه فتاة في ميعة الصبا . وانطلق من وراء زاوية السجن ثلاثة حراس يركضون متلاصقين ، وأذرعتهم اليمنى ممدودة إلى الأم ، فأهذب أحد الجنديين لملاقاتهم ، بينا استمر الآخر يكردح حول الحصان محاولاً امتطاء صهوته ، فيحرن الحيوان ويروح يقفز في الهواء باستمرار ، فيتراءى للأم أن كل شيء آخر حولها يقفز معه . وجاء صدى الصفير يقتطع الفضاء في عناد

مجنون فيثير صياحه اليائس في المرأة شعوراً بالخطر ، فترتجف وتسير على طول سور المقبرة ، دون أن تحيد بناظريها عن الحرس حتى اختفوا مع الجنديين وراء زاوية أخرى من زوايا السجن . وسرعان مالحق بهم شبح يرتدي معطفاًغير مبكل الأزرار ، عرفت فيه معاون المدير ... ومن مكان ما ظهر بعض رجال الشرطة والمتفرجين المهتاجين .

وعصفت الريح في رقص إعصاري فكأنها تبتهج وتفرح ، وهي تحمل حتى أذني الأم فتاتاً من صيحات مختلطة . وصفير متقطع ... أبهجها الاضطراب فحثت خطاها ، وهي تفكر :

— كان في مكنته أن يفعل ذلك بمثل هذه البساطة . . .

وعلى غير انتظار ... اندفع من وراء الزاوية شرطيان ، صاح أحدهما منقطع الانفاس :

— قفي ! هل رأيت ... رجلاً ... ذالحية ؟

فأشارت نحو الجنائن ، وقالت بهدوء :

— لقد انطلق في ذلك الاتجاه . لماذا ؟

— يجوروف ، أنفخ في صفارتك .

رجعت الأم أدراجها إلى الدار وهي تحس الأسف على شيء ما ، وفي قلبها شعور بالمرارة والألم . ومرت عربة من أمامها ، وهي تجتاز الشارع بعد أن قطعت الحقل ، فاختلست النظر إلى داخلها لترى رجلاً فتياً أشقر الشارب ، شاحب الوجه متعبه . ولقد رآها هو أيضاً ، وكان يجلس منكمشاً على نفسه بحيث ارتفعت كتفه اليمنى على الكتف اليسرى .

استقبلها نيقولاي فرحاً .

— حسناً . ماذا حدث ؟

يبدو أن كل انتهى على مايرام .

وشرعت تقدم له تقريراً عن الهرب ، محاولة أن تتذكر التفاصيل . ولكنها تحدثت كمن تروي قصة سمعتها من سواها ترتاب في صدقها وحقيقتها .

قال نيقولاي، وهو يفرك يديه :

- إن الحظ في جانبنا . الشيطان وحده يعرف كم كنت قلقاً لئلا يصيبك أذى . إسمعي ، يانيلوفنا ! خذي مني نصيحة صديق وكفي عن الخوف من تلك المحاكمة ، فكلما اقترب موعدها اقتربت حرية بافل معه . ولعله سيهرب وهو في طريقه إلى المنفى ، أما المحاكمة فستكون هكذا على وجه التقريب . . .

وأخذ يصف لها لوحة الجلسة وبينما هو يتكلم أدركت أن ثمة شيئاً يخافه هو نفسه رغم جهوده لتهدئة روعها . سألت ، على حين فجأة :

– هل تخاف أن أقول شيئاً في المحكمة ينبغي ألا أقوله ؟ أو أني سأرجوهم شيئاً ما ؟

فهب ناهضاً على قدميه ، ولوح بيديه مستنفراً ، وقال بلهجة مشبعة باللوم :

– بالطبع لا !

– إني خائفة ، وتلك هي الحقيقه . لكني لا أدري مم أخاف ، –

وتوقفت عن الكلام ، يتيه بصرها عبر الغرفة :

— أعتقد أحياناً أنهم سيقسون بالكلام على باشا ،سيقولون.أنت،أيها الفلاح أنت ، ياابن الفلاح ، ماذا تحسب نفسك ؟ وباقل رجل عزيز النفس ، ولسوف يرد عليهم ، أو سيروح أندريه يسخر . وإن الآخرين نزقون أيضاً ، الأمر الذي يدفعك إلي التفكير فيا سيحدث إن فقدوا صبرهم بغتة، فأدانتهم المحكمة... أدانتهم بحيث لا أراهم مرة أخرى أبداً .

فعبس نيقولاي دون أن يجيب ، وهو يعبث بلحيته . . . وتابعت الأم في هدوء :

— ليس من وسيلة لنزع هذه الأفكار من رأسي .وهذا هو السبب في أن

المحاكمة .. مخيفة إلى هذه الدرجة . وعندما يشرعون يتفحصون كل شيء ويزنون كل شيء ، ما أرهب ذلك ؟ ليس الحكم هو المخوف ، بل المحاكمة . لست أدري كيف أعبر عن ذلك . . .

وأحست أن نيقولاي لم يفهمها ، فزاد ذلك في صعوبة التعبير عن مخاوفها . .

٢٤

لم تفعل هذه المخاوف ، الأشبه بعفونة تعيق رطوبتها الثقيلة تنفسها ، سوى النمو في صدرها . وعندما حل يوم المحاكمة أخيراً ، ذهبت إلى مكان انعقادها محنية الظهر تحت عبء نير يثقل على قلبها ويرهقها .

وحياها في الطريق من يعرفها من الضاحية فكانت تنحني لهم دون أن ينض مرشفاها شيئاً ، وهي تشق لها طريقاً بين الجماهير العابسة . والتقت في أروقة المحاكمة ومقرها بأقارب المتهمين : كانوا يتبادلون الملاحظات بأصوات خفيضة ، فتخال أن الكلمات عبث ، وأنها لا تستطيع لها فهماً . إنهم جميعاً مشربون بالألم نفسه المنتقلة عدواه إلى الأم ، وهي تدرك هذا فيضاعف الثقل وطأته على قلبها .

قال سيزوف ، وهو يفسح لها مكاناً على الدكة :

— إجلسي هنا ، بالقرب مني .

فجلست صاغرة ، وأصلحت من هندامها ، ثم جحظت النظر حواليها . كان مزيج من الشعاعات الخضر والحمر وخيوط صفر رفيعة للغاية تتراقص أمام عينيها . وتمتمت امرأة تجلس بالقرب منها :

— ابنك أوصل فتانا جريشا إلى هنا .

فقال سيزوف غاضباً :

ـــ صه ، ياناتاليا . .

نظرت الأم إلى المرأة ،فعرفت فيها أم صموئيلوف . كان زوجها يجلس بجانبها وهو رجل أصلع الرأس ، لطيف الطلعة ، ضامر الوجه عريض اللحية الحمراء المنتشرة كالمروحة ، يشخص إلى الأمام باستمرار وقد ضيق فرجة عينيه ، فترتجف لحيته بتأثير التوتر النفساني الطاغي عليه .

كان نور قاتم ينسكب في قاعة المحكمة من خلال نوافذ عاليه علق الثلج بهـا من الخارج . وكانت صورة كبيرة للقيصر تتدلى بين النوافذ في إطار مزين تختفي جوانبه وراء غضون الستر الثقيلة الكستنائية اللون المسترخية على جانبي النوافذ ، والى الأمام من الصورة مائدة مغطاة بقماش اخضر تحتل كل عرض الصالة تقريباً ؛ والى اليمين ، وراء بعض القضبان المشبكة ، كانت دكتان من الخشب تستندان الى الجدار ؛ بينما يشغل الشمال صفان من المقاعد المكسوة بجلد كستنائي اللون . وكان بعض الآذنين ، بياقاتهم الخضر وأزرارهم المذهبة المصطفة فوق صدورهم وبطونهم ، يروحون ويغدون دون ضوضاء ، ووشوشة من الأصوات المكتومة تسبح بحياء في الجو المضطرب حيث تفوح رائحة حادة تتصاعد من أدوية مختلفة . وكانت كل هذه الألوان والانعكاسات والأصوات والروائح تثقل على الأعين ، وتخترق الصدر مع الهواء المستنشق ، وتملأ القلب الفارغ بخوف راكد يمتزج به الإضطراب والجمود .

وتكلم بعضهم فجأة بصوت مرتفع ، فأجفلت الام ، وإذ رأت الجميع ينهضون وقوفاً وقفت بدورها ممسكة بيد سيزوف . انفتح باب مرتفع الى اليسار ودخل منه ، مترنحاً ، رجل عجوز تغطي نظارتان عينيه الصغيرتين ، وترتجف سالفان رقيقان أشيبان فوق عظام صدغيه . وكانت شفته العليا الحليقة تهوي في الشدقين الخاليين من الأسنان ، وذقنه ووجنتاه البارزتان ترتاحان على ياقة لباسه المرتفعة، الموحية بأن العنق معدومة تحتها . وكان يسنده من الخلف فتى طويل القامة، يبدو

كأن وجه المدور الاحمر قد نحت من الخزف ، ومن خلفها يتقدم ثلاثة اشخاص آخرين يرتدون ألبسة طرزت بالذهب ، يتبعهم آخرون في ثياب مدنية .

أنفقوا زمناً طويلاً حتى اتخذوا اماكنهم الى المائدة الطويلة ، فاذا تم ذلك انحنى أحدهم ، وكان طويل أزرار الثياب ، حليق الذقن ، متعب المحيا ، واشال يهمس شيئاً في أذن الرجل العجوز ، وهو يحرك شفتيه المنتفختين في تثاقل وسكون . وجلس الرجل العجوز ، منتصب القامة بصورة غريبة ، عديم الحراك ينصت الى ما يهمس اليه ، والام تميز ، من وراء زجاج نظارتيه ، بقعتين صغيرتين عديمتي اللون .

وكان رجل طويل أصلع الرأس يقف عند طرف المنضدة ، أمام مكتب صغير ، ينظف حنجرته ويقلب الأوراق الموضوعة أمامه .

انحنى الرجل العجوز الى الامام ، وشرع يتكلم . وقد تفوه بكلماته الأولى في وضوح ، أما الكلمات التي تلت ذلك فبدت كأنها تتدحرج فراراً عن شفتيه الرماديتين الرقيقتين :

ـ إني أعلن ... أدخلوهم .

ـ أنظري .

وانفتح الباب القائم خلف القضبان ، ودلف منه جندي يتنكب سيفاً مجرداً ، يتبعه بافل وأندريه وفيودور مازين وكلا الاخوين جوسيف وصموئيلوف وبوكين وسوموف وخمسة شبان آخرين لا تعرف الأم أسماءهم . ابتسم بافل لها ، وافترت شفتا أندريه عن ابتسامة عريضة وهو يحييها بإشارة من رأسه . وتراءى لها أنها بتسلمتهما ، ووجهيهما الحبيب ، وحركاتهما اللطيفة قد خففت من وطأة ذلك الجو الثقيل الكئيب المخيم من القاعة ، وحملت اليه النور حتى خبا بريق الذهب فوق الالبسة الرسمية . وانتعشت الأم ، واجتاحها تيار من القوة لتلك النفحة من الثقة الهادئة والقوة الحية ـ اللتين حملهما المسجين معهم ، فيما ارتعشت وشوشة خافتة الى

الوراء منها ، حيث كان القوم حتى ذلك الحين يقبعون في هدوء وينتظرون في إعياء وكلل . همس سيزوف :

- ليسوا هم بخائفين .

وانفجرت أم صموئيلوف تبكي وتعول ... صاح صوت صارم :

- صمتاً !

وقال الرجل العجوز :

- يجب أن أحذركم ...

كان بافل وأندريه يجلسان متجاورين على الدكة الاولى مع مازين وصموئيلوف والأخوين جوسيف ، وكان أندريه قد حلق ذقنه ، وإن أطلق العنان لشاربيه حتى تدليا على جانبي فمه وأشبها رأسه المدور برأس القط ، وكان في محياه شيء جديد : سيماء صرامة وحدة حول فمه ، وظلال ظلمة في عينيه ... أما مازين فقد ظهر خطان أسودان على شفته العليا ، وتدور وجهه وقد امتلأ بعد أن كان نحيلا. وكان صموئيلوف مجعد الشعر مثله أبداً ، وإيفان جوسيف يبتسم ماشاء له الابتسام . همس سيزوف ، وهو يخفض رأسه :

- آه ! فيدور ، يافيدور !

وأرهفت الأم السمع إلى الاسئلة غير الواضحة التي يطرحها الرجل العجوز على المساجين ، دون أن ينظر إليهم ، ورأسه يرتاح دون حراك في ياقته . وأصغت الى أجوبة فتاها الهادئة المقتضبة ، فخيل اليها أن رئيس المحكمة والقضاة المساعدين لا يمكن أن يكونوا قساة على ابنها ، وأشراراً يريدون الأذى به . وبينا هي تتفحص الوجوه الجالسة الى المنضدة الطويلة ، ساعية الى تخمين نتيجة المحاكمة ، راحت بارقة من الرجاء تنمو في قلبها وتتعاظم .

قرأ الفتى الخزفي الوجه وثيقة ما بنغمة رتيبة لا مبالية ، فرن صوته في القاعة يملؤها ضجراً يخدر الحضور ، فكأن الرشد قد سلب منهم . وكان أربعة محامين

يحادثون المتهمين بأصوات خفيضة ، ولكنها حية .. وكانت حركاتهم سريعة واسعة ، حتى ليشبهون طيوراً ضخمة ..

وطفح المقعد القائم على أحد جانبي الرجل العجوز ببدانة قاضٍ دفنت عيناه الصغيرتان الناعستان في الشحم ، بينما جلس على الجانب الآخر من الرجل العجوز قاضٍ آخر محدودب الظهر ، أحمر الشاربين ، شاحب المحيا ، قد أراح في إعياء رأسه على مسند المقعد ، وأغمض عينيه نصف إغماضة ، وراح يسبح تائهاً في لجة من التفكير . وكذلك كان النائب العام متعباً ، ضجراً . وجلست ، إلى الوراء من القضاة ، الشخصيات الهامة التالية : عمدة المدينة ، وهو رجل ضخم الجثة ، مهيب الطلعة ، قعد مستغرقاً في التفكير يداعب وجنته دون انقطاع ؛ ومارشال النبلاء ، وهو رجل أشيب الشعر ، أحمر الوجه طويل اللحية عريضها ، لطيف العينين ؛ ثم رئيس المحافظة ، وهو رجل عريض المعدة التي تسبب له — فيما يبدو — بعض الارتباك إذ طفق يغطيها بأذناب معطفه التي راحت تنزلق عنها باستمرار .

وارتفع صوت بافل يقول بثبات :

— ليس ثمة مجرمون وقضاة . بل ثمة أسرى ومنتصرون ليس غير .

سيطر الهدوء على الجميع ، ولم تستطع الأم — طوال بضعة ثوانٍ — أن تسمع شيئاً خلا صرير ريشة على الورق ، وخفقان قلبها أيضاً .

وبدا رئيس المحكمة منصتاً ينتظر ما يتلو ذلك .. أما مساعدوه فقد اضطربوا وراحوا يتململون في مقاعدهم . قال أخيراً :

— همْ — مْ ! أندريه ناخودكا ! هل تعترف ؟ ...

فنهض أندريه متباطئاً ، ودفع بكتفيه إلى الخلف ، وراح يفتل شاربيه وهو ينظر إلى الرجل العجوز من تحت حاجبيه المنخفضين ، وأجاب بصوته الأغنّ المتهدل ، هازاً كتفيه :

— ولكن بأي ذنب أعترف ؟ إني لم أقتل أحداً ، ولم أسرق أي شيء كان .

أنا ، بكل بساطة ، أعارض شكلا من الحياة يقود الناس الى أن يسرقوا ويقتلوا بعضهم بعضاً .

فقال الرجل العجوز في جهد :

ـ كن أكثر اقتضاباً في أجوبتك .

أحست الأم هرجاً إلى الوراء منها ، وعيث الناس يتهامسون ويتحركون ، فكأنهم يتخلصو من خيوط العنكبوت التي نسجتها كلمات ذلك الفتى الخزفي الوجة . وهمس سيزوف

ـ أتسمعين ما يقولون ؟

ـ أجب ، يافيودور مازين ...

فقال فيودور ، وهو يهب على قدميه :

ـ كلا ، لن أجيب .

كان وجهه ملتهباً ، وعيناه براقتين ، قد اختفت يداه ـ لسبب ما ـ خلف ظهره . وتأوه سيزوف ، واتسعت عينا الأم دهشة وذهولاً .

ـ لقد رفضت ان يكون لي محام للدفاع . وانا ارفض التفوه بأي شيء كان . اني اعتبر هذه المحاكمة غير مشروعة . من انتم ؟ هل اعطاكم الشعب الحق كي تحاكمونا ؟ كلا ، انه لم يفعل . اني ارفض الاعتراف بسلطتكم .

وجلس ، وخبأ وجهه المضرج خلف كتف أندريه ...

أشار القاضي البدين الى رئيس المحكمة ، وهمس شيئاً ما في أذنه ... ففتح القاضي الشاحب الوجه عينيه ، ورشق المساجين بنظرة جانبية ، وكتب بالقلم شيئاً على ورقة امامه ... وهز رئيس المحافظة رأسه ، وحرك قدميه حتى يريح معدته أكثر من ذي قبل ويغطيها بيديه ، كما مال الرجل العجوز ، دون ان يدير وجهه ، نحو القاضي الشاحب الوجه وهمس شيئاً في أذنه ، فأصغى اليه هذا الاخير مطرق الرأس . أما مارشال النبلاء فأسر شيئاً الى النائب العام

والعمدة يصغي اليها ، وهو ما برح يداعب وجنته ، ثم راح رئيس المحكمة يتكلم من جديد بصوته الخفيض . همس سيزوف في أذن الأم مدهوشاً :

ـ إسمعي كيف يقطع عليهم الدرب . إن موقفه أفضل من موقف الآخرين في الحقيقة .

ابتسمت الأم دون أن تفهم شيئاً . كان كل ما يجري أمامها يبدو لها مقدمة مملة عديمة الضرورة لذلك الشيء المخيف الذي سيحدث بعد هنيهة ، فيسحقهم جميعاً بهوله البارد . إلا أن كلمات بافل وأندريه قد ترددت قوية غير هيابة ، فكأنهما يتكلمان في دارها الصغيرة في الضاحية العمالية لا أمام منصة محكمة معقودة لادانتهما ، كما أن انفجار فيودور اللاهب قد أنعشها وبعث الحياة في قلبها . ثمة جرأة تنتشر في قاعه المحكمة . . . وإذا أخذ هرج القوم الجالسين وراءها بعين الاعتبار ، فادراك ذلك ليس وقفاً عليها وحدها . سأل الرجل العجوز :

ـ ما هو رأيك ؟

فنهض النائب العام الأصلع الرأس ، ووضع إحدى يديه على المكتب أمامه وهو يلقي خطاباً سريعاً ويذكر أرقاماً عديدة . ولم يكن في صوته ما يحمل على الخوف أبداً .

لكن إحساساً ناخساً راح ، في الوقت ذاته ، يثير القلق من جديد في قلب الأم ، إحساساً غامضاً بوجود شيء عدائي في الجو لا يهز قبضته أو يزعق بصوته ، بيد أنه ينمو باستمرار بصورة خفية غير محسوسة على الاطلاق ، ويسبح حول القضاة حتى ليخال المرء أنه يغمرهم في سحابة كثيفة تنصلهم من كل ما يجري خارجا عنها وتعزلهم عنه . نظرت إلى القضاة فوجدتهم غامضين لا قبل للادراك بفهمهم . إنهم لا يغضبون على بافل وفيودور كما كانت تتوقع ... ولا يهينونهما بل ليبدو لها أنهم لا يعلقون أية أهمية على الاسئلة التي يطرحونها ، فلهجتهم غير مبالية ، تعوزهم القوة على سماع الاجوبة عليها ،

فكأنهم يعرفون سلفاً كل شيء ، وكأن كل مايجري لايثير فضولهم أبداً

ووقف دركي أمامهم ، وانهمر يقول خافض الصوت :

— بافل فلاسوف هو ، في رأي الجميع ، المحرض الرئيسي ...

فسأل القاضي البدين :

— وماذا عن ناخودكا !

— وهو كذلك ...

فنهض أحد المحامين ، وقال :

— أيمكن أن أقول كلمة ؟

فسأل الرجل العجوز :

— أثمة اعتراضات ؟

تراءى للأم أن سائر القضاة يشكون اعتلالاً في صحتهم ، وأن إعياء مريضاً يتجلى في تصرفاتهم وأصواتهم ، وأن وجوههم تحمل ذات الطابع من الاجهاد والضجر . وكان من الواضح أنهم يجدون كل هذه الأمور : ألبستهم الرسمية ، وقاعة المحكمة ، ورجال الدرك ، والمحامين ، وضرورة الجلوس في مقاعدهم ، يطرحون الأسئلة ويسمعون الأجوبة ، ثقيلة متعبة ، لا تطاق .

وتقدم ذلك الضابط الأصفر الوجه الذي تعرفه إلى أمامهم ، وهو الآن يروي ما يعلم عن بافل وأندريه بصوت مرتفع شديد النبرات

همهمت الأم في خنايا نفسها ، وقد أعارته أذنيها :

— لست تعرف الشيء الكثير !

نظرت إلى الاشخاص الواقفين خلف القضبان ، دون خوف من أجلهم ودون شفقة عليهم . إنها لا تستطيع الرثاء لهم ؛ فهم لا يثيرون فيها إلا الدهشة ، ويمشون في صدرها إلا تلك الموجة الدافئة من المحبة التي تفيض في قلبها الآن . وكانت الدهشة هادئة ، والمحبة حية فرحة . كانوا يجلسون هناك شباناً

أقوياء ، مستندين الى الجدار ، لا يعيرون إلا القليل من الانتباه حديث القضاة والشهود الرتيب ، وحجج المحامين مع النائب العام . يضحك احدهم في سخرية من الوقت لآخر ، ويلقي بملاحظة إلى رفاقه فتمر على وجوههم الابتسامة الساخرة نفسها . وكان بافل وأندريه يهمسان دون انقطاع بشيء في أذن احد المحامين الموكول اليه الدفاع عنهم ، وهو الذي رأته الأم في العشية في دار نيقولاي ؛ ومازين ، وهو أكثر حيوية وانفعالاً من الآخرين جميعاً ، لا يفتأ ينصت الى حديثهم . وفي بعض الاحيان كان صموئيلوف يتمتم شيئاً لابفان جوسيف ، فيرد عليه الآخر بلكزة من مرفقه ، ويبذل جهداً عظيماً كي يمتنع عن الضحك حتى ليصبح وجهه احمر لون الدم ، وتنتفخ وجنتاه ، ويطأطئ رأسه كي يخفي مايبدو على محياه من تلك الامارات . ولقد انفجر ضاحكاً مرتين متواليتين ، فكان بعد كل مرة يجلس منكمشاً بضع دقائق محاولاً استعادة زمام نفسه . ولكن فتوة طاغية كانت تفور في باطنهم تتحدى كل جهودهم لكبت غليانها الرائع وتتغلب عليها بكل سهولة ويسر .

لمسها سيزوف في مرفقها ، حتى إذا استدارت اليه وجدته مسروراً ولكنه قلق بعض الشيء . همس :

— أنظري كم اصبح هؤلاء الفتيان اقوياء واثقين في انفسهم ! لكأنهم اسياد حقيقيون !

وكان الشهود في قاعة المحكمة لا ينفكون يتحدثون بأصواتهم المتسرعة العديمة اللون ، بينما القضاة يتكلمون مرغمين غير مبالين . وتثاءب القاضي البدين ، وهو يغطي فمه بيده السمينة ، اما الأحمر سالفاه فأضحى اكثر شحوباً منه في اي وقت آخر ، وهو يضغط على صدغيه بأصابعه بين الفينة والفينة ، ويشخص الى السقف متألماً بعينين لا تريان شيئاً على الاطلاق . وكان المدعي العام يكتب شيئاً بقلم الرصاص من حين لآخر ، ثم يعود الى متابعة حديثه المكبوت مع مارشال النبلاء الذي يمشط لحيته الشائبة ، ويحملق بعينيه الكبيرتين الجميلتين ،

ويبتسم وهـو يلوي رقبته بصورة تدل على الخطورة . أما العمدة فجلس متصالب الرجلين يشخص إلى أصابعه مراقباً حركاتها المستمرة فوق ركبتيه وكان يلوح أن رئيس المحافظة الذي استلقت معدته فوق ركبتيه،واحاطت بهاذراعاه في حنان، هو الوحيدالذي يعيروشوشةالأصوات الرتيبةأذنين مفتوحتين،اللهم إلا الرجل العجوز الجالس في مقعده دون حراك مثل الهوائي في يوم سكنت ريحه ، جديراًهو أيضاً أن يمنح شرف الاستماع إلى مايجري . ولقد طال ذلك حتى ملأ الضجر من جديد قلوب الناس وأرهقهم .

قال الرجل العجوز ، وهو ينهض :

— إني أعلن ...

وضاعت بقية كلماته وراء شفتيه الرقيقتين . وامتلأت قاعةالمحكمةبالتنهدات، والهتافات الخافتة ، والسعال ، وحفيف الأقدام . بينا قيد المساجين إلى الخارج وهم يبتسمون ويهزون رؤوسهم مسلمين على أقاربهم وأصـدقائهم ... بل إن إيفان جوسيف لم يتورع عن الهتاف . متوجهاً إلى شخص ما

— لا تفقد الشجاعة ، يايجور .

وخرجت الأم وسيزوف إلى الرواق حيث استوضح الشيخ في رفق وحنان:

— هل تذهب إلى المقصف كي نتنـاول قدحاً من الشاي ؟ لدينـا سـاعة ونصف الساعة .

— أعتقد أن ذلك سواء بالنسبة إليّ .

— وأنا أيضاً . مارأيك في هؤلاء الفتيان ؟ لقدقعدواهناك وكـأنهم البشر الوحيدون على وجه الأرض ، وكأن كل ماعـدام لا يعني شيئاً على الاطلاق . وفيودور ذلك !

واقترب والدسمويلوف منها ... وقبعته بين يديه . . . وأعلن بابتسامة مرتبكة حائرة :

- أرأيتنا فتاني جريجوري ؟ لقد رفض كل دفاع وأبى حتى التحدث إليهم . لقد كان أول من فكر في ذلك . أما ابنك . يابيلاجيا ، فقد كان يصرُّ على ضرورة المحامين . ولكن ابني قال إنه لا يريد أي محام مطلقاً ... وعندئذ فعل أربعة مثله . . .

وقفت زوجته إلى جانبه ، وهي تطرف بجفنيها كثيراً كي تمنع الدموع في عينيها من الانهيار ، وتمسح أنفها بطرف منديلها في الوقت ذاته .

وتابع صموئيلوف ، عابثاً بلحيته شاخصاً بناظريه إلى الارض :

- يالهذه القضية ! عندما ينظر المرء إليهم ، هؤلاء الأوغاد ، لايستطيع إلا أن يفكر في حماقتهم عندما ألقوا بأنفسهم في هذه المشاكل ، وضيعوا أنفسهم مقابل لاشيء . ثم هو يفكر بغتة : لعل الحقيقة هي معهم رغم كل شيء ، وخاصة عندما يرى كيف يزداد عددهم باستمرار في المعمل . والشرطة لاتني تعتقلهم الواحد تلو الآخر ، ومع ذلك فهم يتضاعفون كالسمك في النهر . ومرة ثانية يفكر المرء : لعل القوة هي وراءهم رغم كل شيء .

فقال سيزوف :

- ليصعب علينا فهم هذه الأمور ، ياستيفان بتروفيتش .

فوافق صموئيلوف :

- أجل ، ليصعب علينا .

وقالت زوجته ، وهي تشخر في ضوضاء :

- إنهم ، جميعاً ، في صحة جيدة ، أولئك الأوغاد !

ثم استدارت إلى الأم ، وعلى محياها العريض الكثير البدانة ابتسامة باهتة . قالت :

- لا تغضبي مني ، يابيلاجيا ، لقد نقمت في الصباح الباكر على فتاك من أجل هذا . ولكن الشيطان وحده يعرف من هو الملوم أكثر من سواه في هذه

القضية . أسمعت ماقال الجواسيس ورجال الدرك عن جريجوري ؟ لقد سام بحصته، هذا القرد الأحمر الرأس .

كان من الواضح أنها فخورة بابنها دون أن تقدّر ، فيما يبدو، مشاعرها وعواطفها . ولكن الأم أدركت ذلك ، وأجابت بابتسامة لطيفة وكلمات منبعثة من صميم القلب :

ــ القلوب الفتية أسرع إمساكاً بالحقيقة على الدوام ...

تاه الناس في الرواق على غير هدى يشكلون جماعات تتحدث بأصوات منفعلة مكتومة .ولم يكن أحد يقف وحيداً تقريباً . بل إن سائر الوجوه تعبر عن الرغبة في الكلام وطرح الأسئلة والاصغاء إلى الأجوبة.وراحوا يتمشون غدوة وروحة في الممر الضيق الأبيض المحصور بين جدارين قاتمين ، وكأن ريحاً صرصراً تعصف بهم فيفتشون عن شيء متين ثابت يمكن أن يلقوا عنده مراسيهم ويطووا أشرعتهم .

وكان شقيق بوكين البكر ، وهو فتى طويل القامة ، رفيق المحيا مثل أخيه، يلوّح بذراعيه ويستدير في كل الاتجاهات ساعياً إلى أن يبرهن شيئاً ما :

ــ كليبا نوف هذا ، رئيس المحافظة ، لاشأن له هنا البتة ...

فقال عجوز قصير ، هو أبوه دون ريب ، رانياً حواليه في حذر :

أغلق فمك ، ياقسطنطين .

ــ كلا ، لا أريد ! ثمة بعض الاشاعات تقول إنه قتل أحد موظفيه في العام الأخير من أجل زوجة الموظف . إنه يعيش معها ! ماذا تسمون هذا ؟ بالاضافة إلى ذلك ، فالجميع يعرفون أنه لص ...

ــ محبة بالله ، ياقسطنطين ...

وقال صمويلوف :

ــ حسناً ، حسناً . لستم تستطيعون القول إن المحاكمة هي غير قانونية

ونظامية ...

وسمع بوكين صوبه فاقترب منه مسرعاً ، جاراً معه سائر الباقين . وكان وجهه أحمر اللون ، وهو لا يفتأ يلوح بذراعيه ويصيح :

— عندما يكون هناك قضية قتل وسرقة فان لجنة من المحلفين تحاكم الناس... تحاكمهم عامه الشعب ، الفلاحون وسكان المدينة والعمال . أما عندما يقوم الناس ضد السلطات فان السلطات نفسها هي التي تحاكمهم . ماذا تسمون هذا ؟ أنت تهينني ، فألطمك على حنكك ، فتذهب أنت وترفع الدعوى عليّ . ولا ريب أنك تجدني مذنباً ، ولكن من هو السائق إلى ارتكاب الخطأ ، أنت !

وفرق الحشدَ حرسٌ أشيب الشعر ، مقوس الأنف، مغطى الصدر بالمداليات والأسمة ، وهزّ إصبعه في وجه بوكين متوعداً . قال :

— كف عن الصياح ، فأنت لست في حانة .

حسناً ، أيها السيد ! إني أفهم ، ولكن إذا كنت أنا الذي اضطر إلى ضربك ، ثم كنت أنا القاضي ، فمن تظن ...

فقال الحارس بصرامة :

أظن أنه من الأفضل أن أرمي بك خارج هذا المكان ! ... تلك هي القضيـة !

— تلقي بي خارجاً ؟ ولماذا ؟

— لأنك تثير هذا الضجيج . هيا ، واخرج إلى الشارع .

فنظر بوكين إلى أولئك الذين يحيطون به ، ثم قال بصوت خافت :

— كل يريدون هو أن يسكتوا الناس .

فصاح الشيخ بقسوة :

— طبعاً ، ماذا تحسب إذن ؟

فهزّ بوكين كتفه ، وبدأ يتكلم بهدوء أكثر :

— ولمَ لا يسمح للشعب بحضور المحاكمة ؟ الأقارب فقط ؟ إن كانت محاكمتك قانونية فاسمح للجميع بحضورها ، من تخاف ؟

فأجاب صموئيلوف بصوت مرتفع :

— المحاكمة ليست قانونية ، هذا أمر ليس فيه جلجة من شك .

وأرادت الأم أن تروي له ما سمعت من نيقولاي عن عدم شرعية المحاكمة ، ولكنها لم تفهم وقتذاك كل ماقال ، ثم إنها نسيت بعض الكلمات . وحاولت أن تتذكرها ، فتنحت جانباً ، ولاحظت أن فتى على مقتبل العمر ، رفيع الشارب ، يراقبها ويده اليمنى في جيب سرواله ، مما جعل كتفه اليسرى أوطأ من اليمنى ، الأمر الذي بدا مألوفاً لدى الأم نوعاً ما . ولكنه سرعان ما أدار لها ظهره فنسيته في اللحظة ذاتها ، منهمكة في أفكارها الخاصة ومحاولتها تذكر مافاتها . ولكن اذنها التقطت ، في اللحظة التالية ، سؤلاً خافتاً :

— هذه ؟

فجاء الجواب المتلهف :

— نعم !

فتطلعت حواليها .. كان الرجل المرفوع الكتف الواحدة يقف جانباً يقول شيئاً لجاره ، وهو فتى أسود اللحية ، يتوشح معطفاً قصيراً ، وحذائين يبلغان منه الركبتين . .

نقبت مرة أخرى في ذكرياتها واضطربت ، ولكنها لم تجد شيئاً معيناً واضح الحدود ، كانت ممتلئة رغبة في أن تحدث الناس عن مثل ابنها الأعلى ، لتسمع ماذا سيقولون ضده ، فتقدر هكذا ما سيكون حكم المحكمة عليه . بدأت تقول في حيطة وصوت خفيض ، متوجهة الى سيزوف :

— أهكذا يسيرون بالمحاكمة ؟ يصرفون كل الوقت ساعتين لان يجدوا من ارتكب هذا وذاك ، دون أن يعيروا انتباها للسبب الذى فعلوه من أجله . وم

جميعاً شيوخ متقدمون في السن . يجب أن يحاكمهم الشاب .

فوافق سيزوف قائلاً :

— بلى ، ليصعب علينا فهم مثل هذه الأعمال ، يصعب جداً .

وهز رأسه متفكراً ...

فتح الحرس باب المحكمة ، وصاح :

— الأقارب . أظهروا بطاقاتكم :

وقال شخص ما ، معلقاً على ذلك في حذر :

— البطاقات ! لكأننا في السيرك .

إن نقمة غاضبة تعصف بين الناس ، فقد أصبحوا أكثر هرجاً وأكثر حركة، وأكثر تطاولاً مع الحرس .

٢٥

دمدم سيزوف بشيء مادل عليه صرير أسنانه وهو يأخذ مكانه من الدكة ، فسألته الأم :

— مابالك ؟

— لا شيء على التعيين . إن الناس حمقى ...

قرع جرس ، وارتفع صوت يقول :

— المحكمة ...

وهب الجميع نهوضاً مرة أخرى عندما دخل القضاة واتخذوا أماكنهم بالترتيب السابق ، ثم جيء بالمساجين إلى مقاعدهم . همس سيزوف :

انتبهى ! المدعي العام سيلقي مرافعته .

فمالت الأم بكل جسدها إلي الأمام يحدوها توقع جديد لشيء هائل . بأحد مرفقيه المنصة أمامه ، وأرسل زفرة عميقة ، ثم بدأ يتحدث ملوحاً بيده اليمني . ولم تستطع الأم التقاط كلماته الأولى ، فقد كان صوته ثخيناً سيالاً ، لكنه غير ثابت ، فهو سريع تارة كثير التماهل . كانت الكلمات تأتي طوال فترة من الوقت بطيئة رتيبة مثل خياطة دقيقة . ثم تصبح ، على حين فجاءة متلاحقة متسارعة فتحلق في جو القاعة مثل سرب من الذباب حول قطعة من

السكر ، ولم تجد الأم فيها شيئاً مرعباً أو متوعداً ، فهي تتبعثر في القاعة باردة كالثلج ، رمادية كالرماد ، تملؤها قليلا فقليلا بضجر مثير مثل غبار دقيق جاف. وكان يبدو أن هذا الخطاب ، الثري بالكلمات ، الفقير من كل عاطفة ، لا يبلغ بافل ورفاقه مطلقاً ، ولا يؤثر فيهم أبداً بكل تأكيد ، فهم يجلسون هنالك وراء القضبان هادئين مثلهم أبداً ، يتحدثون بأصوات مخفوضة ، ويبتسمون أحيانًا ، ومن وقت لآخر يعبسون كي يخفوا ضحكهم .

همس سيزوف

— إنه يكذب .

لم يكن هي تستطيع أن تقول هذا . كانت كلمات المدعي العام تصل الى مسمعها فتدرك أنه يتهم سائر المساجين دون استثناء . فبينا هو يتكلم عن بافل ، شرع يتحدث عن فيودور ، وعندما انتهى من فيودور انتقل إلى بوكين ، فكأنه يريد حزمهم جميعاً في إبالة واحدة . ولم ترض الأم عن معنى كلماته الصوري التي لم تؤثر فيها ولم تخفها أبداً . فهي ما برحت تترقب شيئاً مهولا فتروح تبحث عنه وراء كلماته ، في وجهه ، وعينيه ، وصوته ، وفي يده البيضاء التي يلوح بها برشاقة في الفضاء دون انقطاع . أجل ، لقد كان ثمة شيء مخوف ، والأم تحسه ، ولكنها تعجز عن الامساك به وتعريفه في كلمات محدودة ، وان كان قلبها لا يفتأ يحذرها منه باستمرار .

وتطلعت إلى القضاة : مما لاريب فيه أن الخطاب يبعث الضجر في قلوبهم ، فهذه الوجوه العديمة الحياة والرمادية الصفر ، خالية من أي تعبير على الإطلاق . وكلمات المدعي العام تبث في الفضاء ضباباً غير مرئي يتكاثف حول القضاة ويغمرهم أكثر فأكثر بسحابة من اللامبالاة والانتظار التعب الملول . ولم يك رئيس المحكمة يأتي حركة ، بل هو يجلس جامداً ، مستقيماً كالعصا ، ومن وقت لآخر تختلط البقعتان الرماديتان وراء نظارتيه بامتداد وجهه العديم اللون وتذوبان فيه .

وبينا هي تحدج هذه اللامبالاة الميتة ، هذا التجرّد العديم الاحساس والعاطفة ، لم تستطع الامتناع عن التساؤل : « أحقاً إنهم مُحاكَمون ؟ » .

وانقبض قلبها لهذا الارتباك طارداً شيئاً فشيئاً ذلك الترقّب لما هو مخوف مرعب ، غير محتفظ إلا باحساس حادّ من الإهانة ليس غير .

انتهت مرافعة المدعي العام على غير انتظار ، فأضاف إليها بضع كلمات سريعة أخيرة ، وانحنى للقضاة ، ثم جلس في مقعده وهو يفرك يديه . وأشار مارشال النبلاء نحوه برأسه وهو يحملق بعينيه ، ومدّ يده إليه ، أما رئيس المحافظة فشخص إلى معدته بكل بساطة وابتسم . ولكن القضاة لم يبتهجوا بخطابه فيما يبدو ، فظلوا في مقاعدهم جامدين دون حراك ، ثم قال الرجل العجوز ، وهو يقرب ورقة من وجهه حتى كادت تلتصق به :

— والآن ، فان المحكمة ستستمع إلى محامي الدفاع عن فيدوسييف وماركوف وزاجاروف .

فنهض المحامي الذي أبصرته الأم في العشية عند نيقولاي . كان وجهه عريضاً دمثاً ، ذا عينين صغيرتين تلتمعان مثل شفرتين حادتين من تحت حاجبيه الحمراوين ، تقطعان الهواء مثل المقص وراح يتكلم بصوت مرتفع ، وبصورة واضحة غير متسرعة ، ولكن الأم لم تستطع متابعة خطابه .

همس سيزوف في اذنها :

— افهمت ما يقول ؟ فهمت ؟ يقول إن المساجين كانوا مختلطي العقل نصف مجانين . وكذلك هو فيودور في الحقيقة .

كانت خيبة الأمل تجتاحها بصورة فظيعة حتى لم تستطع إلى الجواب سبيلاً . وازداد إحساسها بالاهانة حتى أصبح ثقلاً هائلاً يجثم على قلبها . إن بيلاجيا تفهم الآن لمَ كانت تنتظر العدالة ، لقد كانت تنتظر أن تشهد لقاء شريفاً صارماً بين حقيقة ابنها وحقيقة قضاته . كانت تنتظر أن يستجوبه القضاة

طويلا وبانتباه جم ، وفي تدقيق كثير عما يعتمل في باطنه ، وأنهم سينظرون بأعين لطيفة نيرة إلى أفكاره وأفعاله حتى إذا رأوا الحقيقة أعلنوا بصوت مرتفع وبكل عدالة :

— إن هذا الانسان لعلى حق صراح !

ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث . كان يبدو أن أولئك المتهمين المقدمين إلى المحكمة بعيدون جداً عن أن تصل إليهم بصائر قضاتهم ، لا بل إن هؤلاء لا يأبهون لهم مطلقاً . وأضاعت الام ، في إعيائها ، كل اهتمام بالمحاكمة ، فراحت تفكر دون إصغاء إلى ما يقال :

— أتسمون هذه محاكمة ؟

وهمس سيزوف مؤيداً :

— كذلك هم !

كان محام آخر يتكلم الآن ، وهو رجل قصير ذو وجه حاد القسمات شاحب اللون ، ساخر التقاطيع . وكان القضاة يقاطعونه باستمرار ... وقفز المدعي العام غاضباً وتفوه بشيء عن سير المحاكمة ، حتى إذا انتهى نطق الرجل العجوز باحتجاج ضعيف ، فأصغى إليه محامي الدفاع مطرق الرأس احتراماً ، ثم تابع خطابه .

قال سيزوف :

— أنخسهم ، أنخسهم جيداً !

واجتاحت القاعة موجة من الهرج ، وبدا أن طاقة متعطشة إلى القتال قد انطلقت من عقالها عندما شرع المحامي يلسع جلد القضاة السميك المتقادم العهد بكلماته اللاذعة . وبدا أن القضاة يقتربون من بعضهم البعض ، عابسين متجهمين حتى يردوا طعنات بلاغته الحادة .

ولقد نهض بافل الآن ، فاذا الهدوء يخيم فجأة على القاعة . ومالت الأم إلى

امام بكل جسدها ... كان بافل يتكلم في هدوء :

— إني لا أعترف ، باعتباري عضواً في حزب ، بأي حكم إلا ذلك الذي يدينني به حزبي ، ولذلك فلن كي أدافع عن نفسي . ولكني سأحاول ، نزولاً عند رغبة وفاقي الذين رفضوا أيضاً الدفاع عن أنفسهم ، أن أوضح لكم تلك الأمور التي لم تفهموها . . لقد دعا المدعي العام مظاهرتنا تحت راية الديموقراطية الاشتراكية عصياناً على السلطة الحاكمة ، وراح ينظر إلينا طوال الوقت على أننا قوم نحاول قلب القيصر . ولكني أحب أن أوضح هنا أننا لا نعتبر الملكية الغل الوحيد الذي يقيد بلادنا ، ولكنه الغل الأول والأقرب إلى الادراك ، الغل الذي من واجبنا تحرير الشعب من ربقته .

أضحى السكون أعمق بفعل رنين صوته القوي الذي لاح كأنه يدفع جدران قاعة المحكمة بعيداً ، حتى ليخال المرء أن بافل قد بعد جداً وأصبح في مستوى أعلى من السامعين له .

وتململ القضاة في ضيق وقلق في مقاعدهم . وهمس مارشال النبلاء شيئاً في أذن القاضي المترهل الوجه الذي أشار برأسه ، ثم همس شيئاً في أذن الرجل العجوز اليمني ، بينا همس القاضي المعتل شيئاً آخر في أذنه اليسرى ، فاستدار الرجل الشيخ مترنحاً في مقعده ذات اليمين وذات اليسار ، وقال شيئاً لبافل ، ولكن صوته ضاع في تيار حديث فلاسوف المتدفق في ثبات :

— نحن اشتراكيون ، وهذ يعني أننا ضد الملكية الخاصة ، هذا النظام الذي تفسح المجتمع ، ويقيم الناس ضد بعضهم البعض ، ويخلق عداء بين المصالح لا وفاق له ، ويلجأ إلى الكذب والخداع في محاولاته ستر هذا العداء أو تبريره ، ويفسد سائر البشر بالأكاذيب ، والرياء والأعمال الشريرة . نحن نعتقد أن مجتمعاً ينظر إلى الفرد على أنه وسيلة للاثراء هو مجتمع لا إنساني معاد لمصالحنا ، فلا نستطيع قبول أخلاقه الكاذبة الثنائية ؛ نحن نفضح وقاحة موقفه من الفرد

ووحشيته ؛ نحن نريد أن نناضل ، ولسوف نناضل ، ضدَّ كل أشكال الاستعباد الجسدي والأخلاقي الذي يفرضه على الفرد مثل هذا المجتمع ، ضدسائروسائل سحق الكائنات البشرية في سبيل الجشع الأناني الشخصي . نحن العمالقوم نصنع سائر الأشياء من دمى الصغار حتى الآلات الجبارة بعملنا وكدنا ، ومع ذلك فنحن قوم محرومون من حق الدفاع عن كرامتنا الانسانيه . يستطيع أي كان تسخيرنا لمآربه الشخصية ، ولكننا نريد الآن أن نحقق درجة من الحرية تمكننا من استلام سائر السلطات بأيدينا . وإن شعاراتنا بسيطة للغاية :« فلتسقط الملكية الفردية ! » ، « سائر وسائل الانتاج ملك للشعب » ، « العمل واجب الجميع على حدسواء » ، ومن هنا تستطيعون أن تجدوا أننا لسنا مجرد متمردين عصاة .

وأطلق بافل ضحكة قصيرة ، وأرسل أصابعه في شعره ببطء ، والتمع النور في عينيه أكثر تألقاً منه في أي وقت آخر .

قال الرجل العجوز بصوت مرتفع واضح النبرات :

— أرجوك أن تتكلم ضمن الموضوع .

واستدارت كي ينظر إلى بافل ، فشخص للأم أن نوراً جشعاً ، خبيثاً ، قدالتمع في عينه اليسرى الخابية . وأثار سائر القضاة النظر إلى ابنها ، وقد التصقت أعينهم بوجهه يريدون امتصاص قوته ، متعطشين إلى دمائه حتى يبقوا الحياة في أجسادهم المنهوكة المضعضعة . ولكنه وقف هناك ، طويل القامة منتصب الظهر ، قوياً باسلا ، يقول وقد رفع رأسه عالياً :

— نحن ثوريون ، وسنبقى ثوريين مادام البعض لايفعلون إلا إصدار الأوامر ، والبعض لا يفعلون إلا العمل والتنفيذ . نحن ضد ذلك المجتمع الذي أمرتم بالدفاع عن مصالحه : نحن أعداؤه اللد ، كما أننا أعداؤكم أيضاً ، فليس من مصالحة ممكنة بيننا إذن مالم ننتصر في نضالنا . وإننا ، نحن العمال ،لعلى يقين تام بالنصر . إن أسيادكم ليسوا بأقوياء كما يحسبون ، فتلك الملكية الخاصة التي



« نحن اشتراكيون ، وهذا يعني اننا ضد الملكية الخاصة . »

يضحون من أجل توسيعها وحمايتها بملايين الحيوات التي استعبدوها ، تلك القوة بالذات التي تعطيهم السلطة علينا ، تثير الشقاق فيما بينهم ، وتدمرهم جسدياً ومعنوياً . إن تكاليف الدفاع عن الملكية الخاصة لباهظة . والحقيقة الراهنة أنكم ، أنتم أسيادنا جميعاً ، أكثر عبودية منا . إنكم مستعبدون روحياً – أما نحن فمستعبدون جسدياً فقط . أنتم عاجزون عن تحرير ذواتكم من نير العادات والتعصب ، هذا النير الذي قتلكم روحياً . ولكن شيئاً لا يمنعنا ، نحن ، عن أن نكون أحراراً في الروح . فالسموم التي تغذوننا بها أضعف من الترياق الذي تصبون ، رغم إرادتكم ، في ضمائرنا . وإن وعينا للحقيقة ينمو باضطراد ، وبسرعة متزايدة ، وهو يجذب أفضل الناس – سائر أولئك الذين يسمون أخلاقياً حتى إذا كانوا من بيئتكم الخاصة عينها . انظروا فقط .. لقد أضحيتم الآن وأنتم لا تجدون من يستطيع القيام بدفاع أخلاقي عن طبقتكم ، لقد استهلكتم حتى الآن سائر الحجج التي يمكن أن تنقذكم من الهجمات الساحقة التي تشنها عليكم العدالة التاريخية . إنكم عاجزون عن خلق أية أفكار جديدة ، فلقد أجدبتم فكرياً ولكن أفكارنا تنمو ، وهي تلتهب بتألق متزايد الشدة والاشعاع ، تلهم الجماهير وتنظم نضالها في الحرية . إن وعي الدور العظيم الذي ستلعبه الطبقة العاملة يوجد سائر عمال العالم في قوة واحدة ، وليس لديكم شيء تجابهون به تجدد الحياة الذي يحملونه إلى العالم ، أللهم إلا الوحشية والصفاقة . ولكن الصفاقة كثيرة الوضاح ، وأما الوحشية فتثير النقمة ، وإن الأيدي المطبقة اليوم على أعناقنا سوف تمتد إلينا غداً في مصافحة أخوية . طاقتكم مضاعفة الذهب الآلية ، وهي تقسمكم فرقاً ، مصيرها أن يلتهم بعضها بعضاً ؛ أما طاقتنا فتقوم في وعي حي متزايد الشدة باضطراد ، وعي تضامن سائر الشغيلة . كل ما تفعلون إجرام ، لأنه موجه نحو استعباد الناس ، أكاذيبكم وجشعكم وشروركم قد خلقت عالماً من الأشباح والأبالسة لاخافة البشر ، وإنه لو اجبنا أن نحررهم من هذه الأبالسة .

لقد انتزعتم الانسا من الحياة ودمرتموه ، ولكن الاشتراكية ستأخذ هذا العالم الذي هدمتموه وتسيد بناءه في كل واحد . ذلك سيحدث بكل تأكيد !

وتوقف بافل برهة عابرة ، ثم ردد في نبرات أقوى وأعذب :

ـ ذلك سيحدث بكل تأكيد !

تهامس القضاة وكشروا بصورة غريبة دون أن يحيدوا بأعينهم عن بافل ، فأحست الأم أنهم يوسخون جسده القوي بنظراتهم المليئة حسداً لصحته ، وقوته ، وحيويته . وكان المساجين يستمعون إلى خطاب رفيقهم بانتباه شديد ، شاحبي الوجوه ، براقي الأعين سعادة وهناء . وكانت الأم تنهل كلا من كلمات فتاها ، فتنطبع في ذهنها في صفوف متراصة ... ولقد قاطع الرجل العجوز بافل عدة مرات ، محاولا إيضاح شيء ما ، حتى إنه كشر مرة عن ابتسامة كئيبة . وكان بافل يتوقف في كل مرة كي يعود فيتابع الحديث في ثبات رزين يجبر الناس للاصغاء إليه ، مخضعاً إرادة القضاة لارادته الخاصة . ولكن الرجل العجوز صاح أخيراً في عنف ومد يده ملوحاً ، فاتخذ صوت بافل ، جواباً عليه ، نغمة من السخرية :

ـ إني أختتم حديثي .. ليس لي رغبة في إهانتكم شخصياً . بل إني امتلأت ، على العكس ، عطفاً نحوكم وأنا جالس ههنا شاهداً مرغماً على هذه المهزلة التي تسمونها محاكمة . إنكم كائنات بشرية رغم كل شيء ، وإننا لنشمئز دائماً عندما نرى الكائنات البشرية ، حتى الذين يعادون قضيتنا ، ينحطون هكذا ، بمثل هذا العار ، ويتدهورون في خدمة القوة الهمجية ، محرومين كل الحرمان من شعورهم بالكرامة الانسانية ...

وجلس دون أن ينظر إلى القضاة ، بينما ثبتت الأم أنظارها فيهم منقطعة الأنفاس .

كان وجه أندريه مشرقاً كل الاشراق وهو يضغط على يد بافل ، وانحنى نحوه

صموئيلوف ، ومازين ، والباقون جميعاً ، فابتسم بافل مرتبكا من حماسة رفاقـه ، وتطلع نحو أمه وأشار برأسه ، فكأنه يسألها :

- هل أنت راضية :

فأجابت بتنهدة سعيدة ، وقد أشرق وجهها بموجة دافئة من المحبة .

همس سيزوف :

- والآن ، فان المحاكمة الحقيقية تبدأ ، لقد نخسهم جيداً ، أليس كذلك ؟

فهزت رأسها ولم تفه بحرف ، سعيدة لأن ولدها قد تكلم بكل تلك الجرأة - ولربما كانت أكثر سعادة لأنه انتهى من خطابه ، وكان سؤال لا يفتأ يهاجم ذهنها بضرباته :

- والآن ، ماذا هم فاعلون ، يا ترى ؟



٣٦

لم يقل ابنها شيئاً جديداً عليها ، فقد كانت متآلفة مع سائر أفكاره . ولكنها أحست للمرة الأولى هنا، أمام المحكمة ، بانجذاب غريب إلى إيمانه . كانت مذهولة لرزانة بافل ، فراح خطابه يتكاثف في صدرها مثل نجمة مشعة من الإيمان بقضيته ، وبانتصاره الأخير . وانتظرت أن يبدأ القضاة نقاشاً حاداً معه الآن ، يناقضونه في غضب ، ويقدمون آراءهم الخاصة . غير أن أندريه نهض واقفاً ، وتأرجح في مكانه ورمى القضاة بنظرة صارمة من تحت حاجبيه ، وقال :

— يا حضرات المحامين ...

فقال القاضي المعتل بصوت مرتفع غاضب :

— أنت تخاطب القضاة ، ولا تخاطب المحامين ...

وميزت الأم في وجه أندريه سيماء الخبث . ارتجف شارباه ، والتمعت عيناه ببريق من المكر مألوف عنده ، وحك رأسه بعنف بيده الطويلة النحيلة ، وتنهد ، وقال :

— حقاً ؟ لقد كنت أعتقد أنكم لستم قضاة ، بل محامين

فلاحظ الرجل العجوز في جفاء :

— أرجوك أن تتحدث في الموضوع .

— في الموضوع ؟ حسناً جداً . إني لأضطر نفسي إذن على القبول بكونكم

قضاة حقاً ، رجالاً شرفاء مستقلين ...

— إن المحاكمة لفي غنى عن تقريظك !

هي في غنى حسناً ، ومع ذلك فسأتابع . . . فلنقل إذن أنكم قوم حياديون ، غير متعصبين أو متحيزين ، دون « هذا لكم » ، و « هذا لنا » . إن أمامكم فريقين ، يقول أحدهما : لقد سرقني وصفعني ، والآخر يقول : إني أملك الحق في سرقة الناس وصفعهم لأني أملك بندقية ...

فسأل الرجل العجوز ، وهو يرفع صوته :

— هل أنت عاجز عن الحديث في الموضوع ؟

كانت يداه ترتجفان ، فابتهجت الأم إذ تراه غاضباً . ولكنها استاءت من سلوك أنديه .. إن تصرفه لا يتناسق ، نوعاً ما ، مع خطاب ابنها .. إنها تريد أن تكون حججهم رزينة ، وقورة .

وتطلع الأوكراني الرجلَ العجوز بنظره في سكون قبل أن يتابع في رزانة . وهو يمسح جبينه :

— في الموضوع ؟ ولم أتكلم في الموضوع ؟ قد قال لكم رفيقي كل ما يجب أن تعرفوه في الوقت الحاضر . وإن آخرين سيقولون لكم البقية عندما يحين الوقت ...

فأنهض الرجل العجوز نفسه في مقعده ، وصاح :

— أسكت .. المتهم الثاني — جريجوري صموئيلوف !

فضم الأوكراني شفتيه ، وجلس على مقعده بتكاسل . ووقف صموئيلوف إلى جانبه ، وهو يدفع بخصل شعره الجعد إلى الوراء :

— المدعي العام قد دعا رفاقي برابرة ، أعداء للحضارة ...

— قيّد نفسك بما يتعلق بمحاكمتك الخاصة .

— وهذا يتعلق بها . ليس هناك شيء لا يتعلق بالناس الشرفاء . ثم إني

ارجوكم ألا تقاطعوني . ما هي حضارتكم هذا ـ ماوأد معرفته ؟

فزمزم الرجل العجوز ، وهو يعرّي أسنانه :

ـ لسنا هنا لنخوض نقاشاً معك ! انتقل إلى القضية !

إنّ تبدلاً واضحاً قد طرأ على القضاة بعد كلمات أندريه ، فكأنها قد كنّست شيئاً كان عالقاً بهم وجرفته بعيداً ، فظهرت بقع حمر على وجوههم الرمادية ، وراحت شرارات خضر باردة تلتمع في عيونهم : لقد ثارت نقمتهم لخطاب بافل ، ولكن قوة كلماته جبرتهم على احترامه ، والامتناع عن التعبير بالكلام عن نقمتهم هذه . ولكن الأوكراني أزاح ذلك العائق ، وكشف عما كان يكمن وراءه ، فراحوا يتهامسون ، مكشرين بصورة غريبة ، مهتاجين بشدة حتى أصبحت حركاتهم سريعة جداً ، غير معهودة في القضاة .

ـ إنكم تعلّمون الناس كيف يكونون جواسيس ، وتغوون النساء والفتيات وتغوونهن ، وتجعلون من الرجال لصوصاً وقتلة ، وتسممونهم بالفودكا ، والحروب الدولية ، والأكاذيب ، والعربدة ، والجهالة ... تلك هي حضارتكم ! وإننا لأعداء مثل هذه الحضارة !

فصاح الرجل العجوز :

ـ أرجوك...

ولكن صموئيلوف ردّ عليه ، مضرّج الوجه ، براق العينين ، صائحاً :

ـ نحن نحترم ونقدّر تلك الحضارة الأخرى ، التي ينادي بها أولئك القوم الذين تلقون بهم في السجن كي يتعفنوا ويذووا ويضيعوا عقولهم . .

ـ إصمت ! المتهم الثاني ـ فيودور مازين !

فهب مازين الصغير على قدميه ، منتصباً ناحلاً كالخرز ، وغمغم :

ـ إني .. إني أقسم ! أنا أعلم أنكم قد أصدرتم سلفاً حكمكم علي !

وشحب وجهه كثيراً ، حتى بدا أن عينيه هما كل مابقي منه . صاح ، وهو

يهز قبضته :

– أنا – أقسم لكم بشرفي – أينما أرسلتم بي ، فلسوف أتدبر أمر هربي بطريقة ما ، وأتابع العمل والنشاط دائماً – طوال حياتي . إني أقسم على ذلك !

أرسل سبزوف فحيحاً عالياً وتململ في مقعده ، واجتاحت موجة من الهمس الجمهور المتفاقم الهياج ، وبكت إحدى النساء ، بينما أصابت أحد الحاضرين نوبة عنيفة من السعال . وتطلع رجال الدرك إلى المساجين في ذهول ، والى المتفرجين في غضب . وترنح القضاة في مقاعدهم الى الأمام والخلف ، في حين صاح الرجل العجوز :

– المتهم الثاني – إيفان جوسيف .

– ليس لدي ما أقول .

– المتهم الثالث – فاسيلي جوسيف !

– وكذلك أنا .

– فيودور بوكين !

فنهض الفتى المبيض ، الحرنوبي الشعر ، في تثاقل ، وقال وهو يهز رأسه :

– يجب أن تخجلوا من أنفسكم . اني رجل قليل الثقافة ، ولكني استطيع مع ذلك فهم ما هو عدل .

ورفع يده فوق رأسه ولاذ بالصمت ،وقد أغمض عينيه نصف إغماضة فكأنه يرنو إلى شيء ما في المنتأى . وصاح الرجل العجوز في دهشة غاضبة ، وهو يرتمي الى الوراء في مقعده :

– ما هذا ؟

– فقفوا إذن فليأخذكم الشيطان ...

ثم جلس مكفهر الوجه . كان في كلماته القاتمة شيء كثير الضخامة والأهمية ، شيء من العتاب المكتئب الحزين . ولقد أحس ذلك سائر الحاضرين ، لا بل إن

القضاة أيضاً قد أصاخوا بسمعهم فكأنهم يتوقعون صدى يكون أوضح من أقوال بوكين نفسها . وخيم سكون متجلد على المتفرجين لايحطمه إلا غصات من البكاء قليلة مرتعشة . وأخيراً هز المدعي العام كتفيه وأرسل ضحكة قصيرة ، وسعل مارشال النبلاء ، وشملت القاعة من جديد موجة من الوشوشة .

همست الأم في أذن سيزوف :

— هل يتكلم القضاة ؟

— لقد انتهى كل شيء ، ولم يبق إلا الادانة ...

— لا شيء سواها ؟

— لا .

ولم تستطيع أن تصدقه .

كانت والدة صموئيلوف تتحرك باضطراب دائب فوق دكتها ، وهي تدفع بيلاجيا بكتفها ومرفقها . سألت زوجها :

— ما هذا ؟ كيف يمكن ذلك ؟

— كما ترين ، إنه ممكن تماماً .

— وماذا يفعلون بجريشا ؟

— أف ، دعيني وشأني

كان الجميع يحسون وقوع بعض اعتداء ، ويدركون حدوث بعض تمزق ، انحطام شيء لم يكن منتظراً ، فطفقوا يطرفون بأعينهم دون فهم ، فكأنهم يراقبون كتلة غير واضحة الحدود ، غامضة المعنى ، لكن ذات قوة لا تقاوم ، تحترق بلهيب عظيم . وراح الناس ، دون أن يفهموا هذا الشيء العظيم الذي كشف النقاب عنه بغتة أمام أعينهم ، يبعثرون هذا الشعور غير المألوف في أمور تافهة يستطيعون فهمها . سأل بوكين البكر في همس مرتفع :

— اسمعوا — لم لا يتركونهم يقولون ما يريدون قوله ؟ لقد تركوا المدعي

العام يقول ما يحلو له ، وما شاءت له قريحته أن يقول .

وكان أحد الحجاب يقف قرب المقاعد ، فلوح بيده في وجه الناس وقال محذراً :

— هدوءاً . هدوءاً .

وانحنى صموئيلوف من وراء ظهر زوجته ، وراح يتمتم بكلمات متكسرة :

— حسناً ، فلنقل إنهم مذنبون ، ولكن اعطوهم فرصة كي يوضحوا ما يريدون ! ضد من هم ؟ هذا ما أريد معرفته . ذلك يثير اهتمامي أنا أيضاً ...

فحذّر الحاجب ، وهو يهز إصبعه في وجه صموئيلوف :

— صه !

فهز صموئيلوف رأسه في كآبة . .

وأجالت الأم نظرها في القضاة فلاحظت أن انفعالهم يتزايد ، وهم يتحادثون بصورة غير واضحة . وكان صدى أصواتهم البارد اللزج يلفح وجهها فيرتعش له خداها ، ويمتلىء فمها بطعم كريه مزعج . وخيل اليها ، لسبب ما ، أنهم يتكلمون عن أجساد ابنها ورفاقه ، عن عضلات هؤلاء الفتيان وأعضائهم الطافحة دماً حاراً وقوة حية . إن مثل هذه الأجساد لتثير فيهم حسد المتسولين الوضيع ، وذلك النهم الرديء الدبق الذي يملك عادة نفوس المرضى والعميدين المشرفين من الموت . إنهم يتلمظون بشفاههم ، ويتحسرون على خسارة مثل تلك الأجساد القمينة بالعمل وزيادة الثنى ، الضمينة بأن تكون خلاقة ، وأن تتمتع بالحياة ، ولكن هذه الأجساد تنسحب من الدوران ، وتلقى بعيداً عن ميدان الحياة ، وهذا يعني أنها أصبحت ممتنعة بعد الآن على الامتلاك ، والاستثمار ، والاستهلاك . وذلك هو السبب في أن هؤلاء الفتيان يثيرون في القضاة الشيوخ تلك النقمة القارصة ، الساعية الى الانتقام ، المتعطشة الى الثأر ، التي تحسها الحيوانات المستضعفة حين ترى الطعام الطازج أمام أعينها ولكن تفتقر الى القوة اللازمة للامساك به ، هذه الحيوانات التي لم تعد بقادرة أن تنال شبعها من قوى المخلوقات الأخرى ، بل كل

عزمها أن تزمجر وتعوي أذ ترى وسيلة طيبة لارواء غليلها تفلت منها وتضيع عليها.

كانت هذه الأفكار الغريبة الفجة تتضح في ذهنها أكثر فأكثر كلما زادت إمعاناً في دراسة القضاة. وهدهد لها أنهم لا يبذلون أدنى جهد كي يخبئوا ذلك الجشع الشديد وهذا الغيظ العاجز اللذين يعزان المخلوقات الجائعة التي عرفت يوماً معنى الشبع والتخمة. وكان يخيفها ـ وهي المرأة والأم التي جسد ابنها أعز عليها، في آخر تحليل، مما يطلقون عليه اسم النفس - أن ترى هذه الأعين الخابية تزحف على وجهه، وتلمس صدره وكتفيه وذراعيه، وتحتك بلحمه الحي. فكأن هذا الاحتكاك سيدفئ الدم الجاري في أوردتهم الضامرة، وعضلاتهم المنهوكة نصف الميتة، إن وخزات الجشع والحسد التي يلسعهم بها تأمل هؤلاء الفتيان الذين قدر لهم أن يدينوهم، فيحرمون بذلك أنفسهم من أجسادهم إلى الأبد، لتبعث الحياة فيهم نوعاً ما. وبدا لها أن بافل يعي هذا الاحتكاك الرطب الكريه، فينظر إليها مرتعشاً مرتجف الأوصال.

ترنى بافل إليها في هدوء وحنان، وفي نظرته ظل من الاعياء. ومن وقت لآخر كان يشير اليها برأسه ويبتسم. وقرأت في ابتسامته، الأشبه ما تكون بالعناق والمداعبة، هذه الكلمات: «الحرية ـ عما قريب».

ونهض القضاة فجأة، فنهضت الأم أيضا دون وعي منها. قال سيزوف:

ــ ها هم ذاهبون!

فسألت الأم:

ــ من أجل الادانة!

ــ نعم؟

وانقطع التوتر الذي كانت ترزح تحته على حين بغتة، فاجتاحها إعياء شديد كاد يذهب بوعيها. وراح حاجباها يرتجفان، وانبثقت قطرات من العرق فوق جبينها، وانبجس في قلبها شعور ثقيل الوطأة من الأذى وخيبة الأمل، سرعان

ما اسْتجابَ إلى كراهية للقضاة والمحكمة جميعاً . وأحست صداعاً شديداً ، فأمرت يدها على جبينها وتطلعت حواليها . كان أقارب المساجين قد انطلقوا نحو القضبان، وقاعة المحكمة غاصة بدوي الأحاديث، فذهبت بدورها إلى بافل، وضغطت على يده وأجهشت بالبكاء وقد طفح قلبها ألماً وفرحاً في وقت واحد ، وضاعت في تيه من العواطف المتناقضة ... راح بافل يحادثها في لطف ، بينما الأوكراني يضحك ويهزل .

وبكت سائر النسوة ، لا غماً ، بل خضوعاً لطبيعة البكاء . لم يكن ثمة أي غم ساحق ، يسقط من العلاء غير منظور وعلى غير انتظار ، بل كان ثمة ضرورة الفراق عن أبنائهن ، وهذه الضرورة التي خففت من وطأتها أيضاً انفعالات هذا النهار . كان الآباء والأمهات ينظرون إلى أبنائهم بمشاعر مختلطة يمتزج فيها - بصورة غريبة - الارتياب والتشكك بالشباب ، وإحساس تفوقهم المعتاد على فتيانهم ، بشعور أقرب ما يكون إلى الاحترام . إن الأعجاب بهؤلاء الفتيان الذين تكلموا بكل تلك الجرأة غير الهيابة عن بناء حياة أخرى أفضل من هذه ليكسف تلك الأفكار الكئيبة التي تراودهم عن حياتهم بعد الآن دون أولادهم . وكُظمت العواطف لاستحالة التعبير عنها ، ولكن الكلمات كانت غزيرة عن توافه الأمور مما يتعلق بالثياب ، والبياض ، وضرورة العناية بالصحة هناك في المنفى .

وراح بوكين البكر يلوح بذراعه ، وهو يحاول إقناع أخيه الأصغر :

— العدالة - تلك هي القضية ! ولا شيء آخر !

فأجاب الأخ الأصغر :

— اعتنِ جيداً بزرزورنا .

— سأفعل .

وأمسك سيزوف بابن اخيه من يده ، وقال :

— حسناً ، يا فيودور ، هذا يعني أنك تغادرنا ...

فانحنى فيودور وهمس شيئاً في أذنه ، وهو يبتسم في خبث. وكذلك ابتسم الحرس القريب منها ، ولكنه أسرع يستعد هيئته الصارمة وهو يتأمل :

حدثت الأم فتاها مثل بقية النسوة تماماً - عن الثياب وعن صحته ولكن صدرها كان مليئاً بآلاف الأسئلة المتعلقة بساشا، وبها هي نفسها - وبه أيضاً ، ويحلق فوق كل هذا موجة هائلة من المحبة لابنها ، ورغبة عظيمة في إدخال السرور إلى قلبه ، وفي أن تكون قريبة من فؤاده حتى الدرجة القصوى . وولى ذلك الخوف من حدوث شيء ما كثير الرهبة ، تاركاً ارتعاشاً مقيتاً لدى ذكرى القضاة ، وتلك الانطباعات القائمة المتوارية في أعماق ذهنها . كانت تحس ولادة فرح عظيم براق في جوفها لم تكن تفهمه ، وإن راح يشملها في عناق عنيف : وإذ رأيت أن الأوكراني يتكلم مع الجميع ، وأنه يحتاج إلى حنانها أكثر مما يحتاج بافل إليه ، استدارت نحوه تحدثه . قالت :

- إني لم أعجب بمحاكمتكم هذه !

فاستجلى ، وعلى شفتيه ابتسامة امتنان :

- لم لا ، يا أميمة ؟ إن الطاحون عتيق . ولكنه جيد كالعقيق ....

فقالت في تردد :

- ليس فيها ما يخيف - ولكنها لا توضح لك أين هو الحق ، وأين هو الباطل . .

فهتف أندريه :

- أوه ! أوه ! إذن فهذا ما تريدين ؟ أتحسبين أنهم معنيون بالبحث عن الحقيقة ؟

فقالت ، وهي تتنهد وتبتسم :

- لقد كنت أظن أنها ستكون مخوفاً .

- المحكمة ! ..

فأسرع كل إلى مكانه ...

اعتمد رئيس القضاة المائدة بيد واحدة ، بينا أمسك بورقة في يده الأخرى قريبة من وجهه ، وراح يقرأ بصوت مدو .

قال سيزوف :

ــ إنها الإدانة .

وجثم السكون على القاعة ، وقد وقف الجميع وأعينهم عالقة بالرجل العجوز الذي أشبه في ضآلته وانتصابه وجفافه عصاً تمسك بها يد غير منظورة . وكان بقية القضاة وقوفاً أيضاً : رئيس المحافظة ، وقد مال رأسه على أحد الجانبين وعلقت عيناه بالسقف ، والعمدة ، وقد تصالبت يداه فوق صدره ؛ ومارشال النبلاء ، وهو يمشط لحيته ؛ والقاضي المعتل وزميله البدين والمدعي العام ، وهم ينظرون في اتجاه المساجين ... ووراء القضاة كان القيصر يتطلع من صورته ، متألقاً في بزة حمراء ، وسيماء اللامبالاة تكسو وجهه الذي تزحف فوقه الآن حشرة صغيرة .

قال سيزوف ، وهو يتنهد ارتياحاً :

النفي ! حسناً ، شكراً لله على أن كل شيء قد انتهى . لقد قالوا : « الأشغال الشاقة » . لا بأس يا أماه ، لا تقلقي .

فقالت بصوت متعب :

ــ كنت أعلم ذلك .

= وعلى أية حال ، فنحن نعرف الآن مصيرهم ، أما قبل فمن كان يدري ؟

واستدار نحو المساجين وهم يغادرون القاعة ، وصاح :

ــ إلى اللقاء ، يافيودور ! وأنتم جميعاً أيضاً ! كان الله معكم !

وأشارت الأم برأسها في سكون إلى ابنها والباقين ، وأرادت أن تبكي ، لكنها خجلت من نفسها . . .

٢٧

دهشت عندما خرجت من قاعة المحكمة إذ شاهدت الليل يرين على المدينة. كانت المصابيح تلتهب في زوايا الشوارع ، والنجوم تتلألأ في السماء. وقد تجمهرت جماعات من الناس قرب باب المحكمة يتكسر الثلج المتجمد تحت أقدامهم ، وتتردد بينهم أصوات فتية تقاطع بعضها بعضاً . تطلع رجل يلبس قبعته رمادية في وجه سيزوف ، وسأل بسرعة :

- ما هو الحكم ؟

- النفي .

- للجميع ؟

— نعم .

- شكراً .

وابتعد الرجل ، فقال سيزوف :

ـ أترين ؟ الناس مهتمون بالقضية .

وأحاط بها عشرة من الفتيات والفتيات ، يمطرونها بوابل من الأسئلة ، فيجتذبون أناساً آخرين ينضمون إلى حلقتهم النامية باضطراد . وتوقفت الأم وسيزوف معاً يتلقيان الأسئلة عن الادانة وعن سلوك المساجين ، وعن الذين ألقوا الخطب وماذا قالوا فيها ... وكانت سائر هذه الأسئلة تطفح بفضول مشوق متلهف

تبعث حميته وصدقه في النفس رغبة جموحاً في إرضائه

قال أحد الواقفين :

— أيها السادة ! هذه والدة بافل فلاسوف .

فسيطر السكون على الجميع ...

— إسمحي لي بمصافحتك .

وأمسكت يد قوية بأصابع الأم ، وارتفع صوت منفعل يقول :

— سيكون ابنك لنا جميعاً مثالاً للشجاعة والاقدام ...

وترددت صيحة مرتفعة :

- عاش العمال الروسيون :

وازدادت الهتافات وتضاعفت . وهي تنطلق تارة من هنا وتارة من هناك . وتراكض الناس من كل حدب وصوب يتحلقون حول الأم وسيزوف . ورنت صفارات رجال الشرطة تقطع الفضاء ، لكنها لا تستطيع خنق الأصوات او إغراقها في لعلعتها . وكان سيزوف يضحك ، أما الأم فيتراءى لها أن ذلك كله إن هو إلا حلم جميل ، فتبتسم وتنحني وتروح تضغط على أيدي الناس وحلقها غاص بدموع الفرح ، ورجلاها ترتجفان إعياء ، فيما قلبها الطافح بهجة وسعادة يعكس سائر الانطباعات مثل سطح بحيرة براق لامع .

وبدأ شخص قريب منها يتكلم بصوت عصبي واضح النبرات :

— أيها الرفاق . إن الوحش الذي يلتهم الشعب الروسي قد أطبق اليوم أيضاً بأنيابه على ...

وقال سيزوف :

— الأفضل أن تذهب ، يا أماه .

ظهرت ساشا في هذه اللحظة ، وأمسكت بالأم من ذراعها وقادتها الى الرصيف الآخر من الطريق . قالت :

هيا بنا قبل أن يحدث اصطدام مع الشرطة ، أو يعتقل بعض الحاضرين النفي ؟ إلى سيبيريا ؟

— نعم .

— وكيف تكلم ؟ ولكني أعلم ـ لقد كان أقوى الجميع ، وأبسطهم أيضاً ، وأكثرهم صرامة بكل تأكيد . إن طبيعته حنون مرهفة الشعور ، ولكنه يخاف من إظهار ذلك .

هدأت من روع الام كلمات حبها هذه ، المهموس بها بكل تلك الحماسة وبكل تلك الحمية ، وبعثت فيها قوة جديدة ، فسألت ساشا وهي تضغط على ذراعها بحنان:

ومتى ستلحقين به .

فأجابت الفتاة ، وهي تنظر في ثقة الى الأمام منها :

— حين أجد من يستلم عملي هنا . وعلى أية حال ، فاني أنتظر إدانة بدوري ، ومن المحتمل ان يرسلوني الى سيبيريا أيضاً ، فان فعلوا سألتهم أن يرسلوني الى حيث أرسلوا به .

فجاء صوت سيزوف يقول :

— وفي هذه الحال بلّغيه تحياتي ، قولي له فقط : « من سيزوف » . انه يعرفني ، فأنا عم فيودور مازين .

فاستدارت ساشا اليه ومدت له يدها :

— إني أعرف فيدور ، واسمي ساشا .

— واسم أبيك ؟

فتطلعت في وجهه ، وأجابت :

— ليس لي أب .

— هل مات ؟

— كلا ، لم يمت .



رئيس المحكمة

ورنّ في صوت الفتاة شيء عنيد صارم ، وانعكس في تقاطيع وجهها أيضاً :
— إنه أقطاعي ، ورئيس ناحية الآن ... يسرق الفلاحين ...
— كذا ؟

قال سيزوف ذلك وراح يسير إلى جانب الفتاة في سكون ، وهو يرشقها بنظرات جانبية طوال الوقت . قال أخيراً :

— حسناً ! إلى اللقاء ، يا أم . إني ذاهب من اليسار ههنا . إلى اللقاء ، يافتاتي . أنت قاسية على أبيك هذا ، أليس كذلك ؟ بالطبع ، ذلك من شأنك وحدك ...

فصاحت ساشا في انفعال وحمية :

— إن كان ابنك شريراً ، إن كان يؤذي الشعب وأنت تحتقره ، أفما كنت تقول ذلك ؟

فأجاب الرجل المهزوم بعد لحظة من الصمت :

— حسناً ، أعتقد ذلك .

- وهذا يعني أن العدالة أعزّ عليك من ابنك ، وإنها لأعزّ علي من والدي.

فابتسم سيزوف ، وهز رأسه :

— حسناً ، يالك من فتاة عظيمة ! يحسن ألا يشتبك المرء طويلاً معك ، لأنك لابد ستقهرين الشيوخ مثلي وتتغلبين عليهم .. إنك لقوية جداً ! حسناً ، إلى اللقاء ، ولك أفضل تمنياتي . ولكن مارأيك في أن تكوني أرحم بالناس قليلا ؟ إلى اللقاء ، يانيلوفنا . عندما ترين بافل ، قولي له إني سمعت خطابه . إني لم أفهم كل ماجاء فيه ، ولقد كان بعضه مخيفاً نوعاً ما ، ولكنه كان صحيحاً وحقاً على العموم .

ورفع قبعته ، واختفى وراء الزاوية في تماهل ...

قالت ساشا ، وهي تتبعه بنظرة مبتسمة من عينيها الواسعتين :

— يبدو أنه شخص رائع !

. . واستبان للأم أن وجه الفتاة اليوم ألطف وأرق منه عادة .

عندما بلغنا الدار جلستا متجاورتين على الديوان وهما تتحدثان عن مشروع ساشا في السفر للحاق بيافل . ووجدت الأم السكون مريحاً ، أما ساشا فرفعت حاجبيها وراحت تنظر في المدى أمامها بعينين واسعتين حالمتين ، وعلى محياها الشاحب سيماء التأمل الرزين ...

— وعندما يولد أطفالكما ، فسألحق بكما للعناية بهم ، ولن تكون حياتنا أسوأ منها ههنا . ولن يصعب على بافل أن يجد عملا ... فهو يستطيع أن يفعل بيديه أي شيء كان ...

فتطلعت ساشا إلى الأم متسائلة ، وقالت :

— أفلا تنوين اللحاق به منذ الآن ؟

فأجابت الأم ، وهي تتنهد :

— وما حاجته إلي ؟ لن أفعل إذن إلا مضايقته واعتراض سبيله فيما لو أراد الفرار . لن يقبل أبداً بذهابي معه .

فأشارت ساشا برأسها ، وقالت :

— أنت على حق ، فهو لن يقبل أبداً.

وأضافت الأم في شيء من الخيلاء :

— وبالاضافة ، فهناك عملي ههنا .

— نعم ، وهذا حسن ..

وانتفضت ساشا بغتة ، فكأنها تلقي بعيداً عنها بشيء يثقل عليها ، وشرعت تقول بهدوء وبساطة :

— لن يقبل بالعيش هناك . ومن المؤكد أنه سيهرب ...

— وماذا عنك ؟ وعن الطفل ، إن كان ثمة طفل ؟

— سوف نرى ذلك في حينه . يجب ألا يأخذني بعين الاعتبار ، وأنا لن

أسمح لنفسي قط بالوقوف في طريقه . وسيصعب علي كثيراً الافتراق عنه ولكني سأتدبر أمري طبعاً . لن أقف أبداً في طريقه !

وأدركت الأم أن ساشا قمينة تماماً بأن تفعل ماتقول ، فرثت لها ، قالت وهي تقبلها :

ـ سيكون ذلك قاسياً عليك ، ياعزيزتي .

فابتسمت ساشا في حنان واقتربت من الأم .وفي تلك اللحظة دخل نيقولاي، متعبا مجهد القوى ، وقال بسرعة وهو يخلع معطفه :

ـ يفضل أن تولي الأدبار ، ياساشا ، قبل أن يفوت الأوان ... إن جاسوسين لم يكفا عن ملاحقتي منذ الصباح .. بصورة مكشوفة للغاية حتى لتفوح رائحة الاعتقال منها . وإن حدسي لايخدعني أبداً ، فلا ريب أن شيئاً قد حدث . وعلى فكرة ، إليك خطاب بافل ... لقد قررنا أن نطبعه . خذية إلى لودميلا ، واسأليها أن تعمل بأقصى ماتستطيع من سرعة . لقد ألقى بافل خطاباً رائعاً ، يانيلوفنا ... انتبهي إلى الجواسيس ، ياساشا ...

فرك يديه المتجمدتين وهو يتكلم ، ثم ذهب إلى مكتبه وبدأ يخرج أوراقا من الجرارات مزق بعضها ، ووضع بعضها الآخر جانبا . كان يبدو منهوك الأعصاب ، قلقا للغاية .

ـ لقد مضى زمن طويل منذ نظفت هذه الجرارات للمرة الأخيرة ، والشيطان وحده يعلم من أين جاءت كل هذه الأشياء إليها . وأعتقد أنه يحسن ألا تقضي الليل في الدار ، يانيلوفنا . مارأيك ؟ لمن المضجر أن يشاهد المرء هذه المهزلة . ثم قد يأخذونك أنت الأخرى . ولكن ، ينبغي لك أن تحملي خطاب بافل هنا وهناك ...

ـ وماذا عساهم يريدون مني ؟

فلوح نيقولاي بيده أمام عينيه ، وهو يقول في حزم .

ـ إن لدي أنفا يشم مثل هذه الأمور . ثم إنك تستطيعين تقديم يد المعونة إلي لودميلا ، فمن الخير ألا تتعرضي للخطر إذن ..

سرت الأم بفكرة المساهمة في طبع خطاب ابنها ، فقالت :

ـ إذا كان الأمر كذلك ، فسوف أذهب .

وأضافت مدهوشة من نفسها :

ـ لم أعد أخاف شيء على الاطلاق ، فشكراً لله .

فهتف نيقولاي . دون أن ينظر إليها :

ـ رائع ! ولكن الأفضل أن تقولي لى أين هي حقيبتي وثيابي . لقد أطبقت على كل شيء بيديك هاتين ، حتى أصبح يستحيل علي العثور على ممتلكاتي نفسها .

كانت ساشا تحرق الأوراق في الموقد بسكون ، وهي تخلط الرماد بالفحم .

قال نيقولاي ، وهو يمد اليها يده :

ـ آن لك الذهاب ، ياساشا ، إلى اللقاء . لاتنسي أن ترسلي إلي مايظهر من كتب هامة . إلى اللقاء ، أيتها الرفيقة العزيزة ، كوني حذرة ..

فسألت ساشا :

ـ هل تتوقع حكماً مديداً ؟

ـ من يدري . مما لاريب فيه أنهم يملكون أدلة ضدي . الا يفضل ان ترافقيها ، يانيلوفنا ؟ إن ملاحقة شخصين معا اصعب من ملاحقة كل بمفرده .

فأجابت الأم :

ـ حسناً ، سأرتدي ثيابي في لحظة واحدة .

راحت تراقب نيقولاي مليا ، ولكنها لم تستطع ان تميز فيه شيئا غريبا . اللهم إلا ذلك القناع الشفاف من القلق الذي يكسو تقاسيم وجهه بسيمائها المألوفة من الرقة واللطف . ما كان يصدر عن هذا الرجل ، وقد اضحى اعز على قلبها

من الآخرين جميعاً ، حركة تنمّ عن عصبية أو إشارة تدل على اضطراب وانفعال . لقد حدب دائماً على الجميع بالعناية عينها ، وكان في كل حين لطيفاً هادئاً ، وحيداً أبداً . وهو ما برح الآن . في نظر الجميع ، مثله قبلاً ، إنساناً يعيش حياة باطنية خفية تتقدم سائر الحيوات وتسبقها . وكانت تدرك أنه أقرب إليهـا من الباقين جميعاً ، وأنها تحبه مع ذلك حباً حـذراً غير وطيد الثقة في نفسه . أما الآن فهي ترثي له بصورة لا تطاق ولا تحتمل ، ولا تجرؤ مع ذلك على إظهار إشفاقها لأن هذا سيلقي الاضطراب في نفسه ، فيبدو عندئذ مضحكاً نوعاً ما ، وهي لا تريد أن تراه على هذا الحال .

وعندما عادت إلى الغرفة وجدت نيقولاي ممسكاً بيد ساشا ، وهو يقول :

— عظيم ! إني لعلى يقين من أن ذلك حسن لك وله على السواء ، فقليل من السعادة الشخصية لا يؤذي أحداً . هل أنت مستعدة ، يانيلوفنا ؟

واقترب منها ، وهو يبتسم ويصلح من وضع نظارتيه :

— حسناً ، إلى اللقاء ... حتى ثلاثة أو أو أربعة شهور .. ليس أكثر من ستة شهور كما أرجو.. ستة شهور ! .. إنها لقطعة كبيرة من الحياة ! اعتني بنفسك والآن ، فلنتعانق مرة أخيرة .

وأحاطها ، نحيلاً رقيقاً ، بذراعيه القويتين ، وتطلع في عينيهـا ، ثم ضحك قائلاً :

· يبدو أني وقعت في حبك ، حتى أعانقك هكذا ...

قبلت جبينه وخديه دون أن تقول شيئاً ، ولكن يديهـا كانتا ترتجفان ، فأبعدتهما حتى لا يلاحظ ما عراها من ارتعاش .

— كوني حذرة ! وإليك ما يجب أن تفعليه : أرسلي صبياً صغيراً إلى هنـا صباحاً — لودميلا تعرف مثل هذا الصبي — حتى يتحقق مما حدث . حسناً ، إلى اللقاء ، أيتها الرفيقتان . كل شيء هو كما يجب أن يكون .

وعندما وصلنا الشارع ، قالت ساشا :

— إذا اضطر يوماً أن يمضي إلى ملاقاة الموت ، مضى إليه بمثل هذه البساطة وبمثل هذه السرعة . وعندما ينظر الموت اليه متطلعاً في محياه ، فسوف يصلح من وضع نظارتيه ويقول : « عظيم ! » ، ثم يموت .

فقالت الأم همساً :

— إني أحبه !

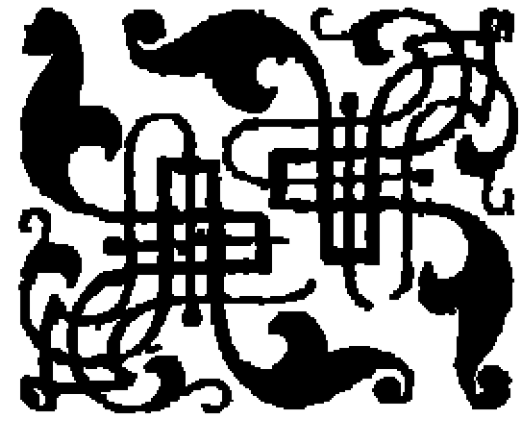
— إنه يدهشني ، ولكني لا أحبه . إني أحترمه كل الاحترام ، فهو لطيف ، بل إنه حنون في بعض الاحيان ، ولكن فيه شيئاً جافا ، إنه ليس إنسانياً بصورة كافية .. يبدو أننا ملاحقتان ، فالأفضل أن نفترق . لا تذهبي إلى لودميلا إذا وجدت أنك متبوعة .

— طبعاً .

لكن ساشا استمرت تقول في إصرار :

— لا تذهبي ، بل تعالي إلى بيتي . الى اللقاء الآن .

واستدارت بسرعة ، وعادت أدراجها من حيث أتت .



٢٧

كانت الأم تجلس . بعد عدة دقائق ، في غرفة لودميلا الصغيرة بجانب الموقد تتدفأ ، فيما صاحبة الدار ، المرتدية ثوباً أسود محزوماً بزنار من الجلد في وسطه، تذرع الأرض ذهاباً وإياباً في بطء ، تملأ الغرفة بحفيف ثوبها ورنين صوتها الآمر . وكانت النار تطقطق في الموقـد وهي تمتص الهواء ، وصوت المرأة ينساب ثانياً متساوي النبرات :

ــ الناس بلهاء أكثر منهم أشراراً ، فهم لايستطيعون رؤية سوى ماهو تحت أنوفهم ، ماءيمكن فهمه سريعاً . ولكن كل ماهو في متناول اليد رخيص والأشياء البعيدة وحدها هي الثمينة العزيزة ، عندما تفكرين في الأمر تجدين أن كلاً من الناس سيصبح أهنأ وأفضل لو أن الحياة على غير ماهي عليه .. لو أنها أيسر والبشر أعقل . ولكن لابدّ ، كي نحقق ذلك ، من خوض غمار بعض المشاكل .

ووقفت بغتة تجاه الأم ، وقالت معذرة :

ــ إني لا أرى الناس إلا قليلا ، وعندما يأتي أحد لزيارتي فاني أروح في ثرثرة لانهاية لها . هذ مضحك ، أليس كذلك ؟

فقالت الأم :

ــ لماذا ؟

حاولت أن تعرف أين تقوم هـذه المرأة بطبع مناشيرها وكراساتها ، فلم تستطع اكتشاف شيء غير طبيعي البتة . كان يقوم في هذه الغرفة ، بنوافذهـا الثلاث المطلة على الشارع ، أريكة ومكتبة ومائدة وبضعة مقاعد وسرير . وكانت مغسله تحتل إحدى الزوايا ، والموقد يحتل زاوية أخرى ، وصور معلقة على الجدران الأربعة في كل الجهات . وكان كل شيء جديداً نظيفاً متقن الترتيب ، ولكن وجه المرأة الصارم باقي على سائر الأشياء ظلاً بارداً . وأحست الأم أن ثمة شيئاً مخفياً ، ولكنها لم تستطيع تخمين مكانه . تطلعت إلى البابين : أحدهما يطل على الرواق وقد دخلت منه ، أما الثاني ، وهو مرتفع ضيق ، فينتصب إلى جانب الموقد . قالت مرتبكة ، وهي تحس أن لودميلا تراقبها :

— لقد جئت في عمل !

— أعلم ذلك ، فالناس لا يأتون لزيارتي إلا من أجل عمل ما .

خيل إلى الأم أنها تميز نغمة غريبة في صوت لودميلا ، فتطلعت في محياهـا لترى ابتسامة شاحبة مرتسمة على صواريها الرقيقين فردت ناظريهـا إلى إحدى الزوايا ، ومدت يدهـا بخطاب بافل :

— خذي . هم يودون منك أن تطبعي هذا في أسرع وقت ممكن .

ثم حدثتها عن توقع نيقولاي لاعتقاله .

دست لودميلا الورقة في حزامها دون أن تنبس ببنت شفـة ثم جلست ، فالتمعت انعكاسات النار ، حمراً زاهية ، على زجاج نظارتيها ، ، بينا راحت ابتسامتها الدافئة تتلاعب فوق وجهها الجامد . قالت في هدوء وحزم بعد أن أصغت إلى أقوال الأم :

— عندما يأتون ورائي فسوف أطلق النار عليهم . إني أملك الحق في الدفاع عن نفسي ضد العنف ، ولا بد لي من أشعال نار القتـال ضـده ، مادمت أدعـو الآخرين إلى ذلك .

وتلاشى لمعان النار عن وجهها ، فأضحى مرة أخرى صارماً ، متكبراً نوعاً ما .
فكرت الأم في رفق :
- إن حياتك لبائسة .
وشرعت لودميلا تقرأ خطاب بافل بإحجام وتردد ، ولكنها راحت تنحني أكثر فأكثر على الورقة وهي تتابع القراءة، حتى انتهت إلى إلقاء الصفحات جانباً، الواحدة تلو الأخرى ، في لهفة ونفاد صبر . وأخيراً نهضت ، وشدت كتفيها منتصبة القامة ، واقتربت من الأم ،
قالت :
- . خطاب رائع جداً .
ووقفت لحظة مطرقة الرأس ...
- أريد أن أتحدث إليك عن ابنك .. فأنا لم ألتق به أبداً ، كما أني لا أحب الأحاديث المؤلمة . إني أعرف معنى الألم الذي يعتصر القلب عندما يرسل إلى المنفى إنسان عزيز على القلب جداً . ولكن - أود أن أسأل - هل من الحسن أن يكون للمرء مثل هذا الابن ؟
فقالت الأم :
- كثيراً .
- وذلك ليس - مرعباً ؟
فأجابت الأم بابتسامة هادئة :
- أبداً ، بعد الآن .
فمسحت لودميلا شعرها بيد سمراء ، ثم استدارت إلى النافذة . ومر خيال عابر على وجهها : لعله كان خيال ابتسامة مكبوتة .
- سوف أبدأ العمل فيه سريعاً . أرقدي أنت ، فقد قضيت يوماً صعباً ولا بد أنك متعبة . اضطجعي على هذا السرير هنا ، فأنا لن أنام ، وربما أيقظتك في الليل

كي تساعديني ... أطفئي المصباح عندما تسعين إلى الفراش .

وألقت حطبتين في الموقد ، ثم خرجت من الباب الضيق ، وأترسته وراءها بأحكام . راقبتها الأم وهي تغادر الغرفة ، ثم شرعت تخلع ثيابها وأفكارها مشغولة بها !

ـ إنها حزينة لسبب ما ...

كانت شديدة الاعياء ، ولكن أفكارها هادئة بصورة غريبة ، وكل شيء يضيء في عينها بنور لطيف عذب يغمر روحها في هدوء عظيم . وكان هذا الهدوء مألوفاً لديها ، فهو يهبط عليها دائماً بعد كل انفعال عنيف ، ولقد كان يبعث في نفسها بعض القلق في البدء ، أما الآن فلا يعمل إلا على توسيع آفاق روحها وتوطيدها بعاطفة جموحعتية . أطفأت المصباح ثم تسلقت السرير البارد ، وانكمشت تحت الغطاء ، ولم تلبث أن استغرقت في نوم عميق .

عندما فتحت عينيها كانت الغرفة تمج بنور نهار الشتاء الأبيض البارد . وتطلعت لودميلا إليها من الأريكة حيث كانت تضطجع ، وكتاب بين يديها ، ثم ابتسمت بطريقة غير معهودة لديها . هتفت الأم مرتبكة :

ـ ياإلهي ! يالي مخلوقة غريبة ! هل تقدم النهار كثيراً ؟

فأجابت لودميلا ؟

ـ عمي صباحاً . ستدق الساعه العاشرة عما قريب . إنهضي ، وسوف نتناول قليلاً من الشاي .

ـ لِمَ لم توقظيني ؟

ـ أوشكت أن أفعل ذلك ، ولكني عندما اقتربت منك كنت تبتسمين في نومك بسلام عظيم فلم أجرؤ على إيقاظك .

نهضت عن الاريكة بحركة رشيقة ، واقتربت من السرير وانحنت على الأم ، فاستطاعت هذه أن تميز في عيني المرأة الشابة الخابيتين شيئاً مألوفاً لديها

وعزيزاً عليهما .

ـ بدا لي أن إيقاظك مؤلم ، فلربما كنت تحلمين حلماً سعيداً .

ـ إني لم أفعل .

ـ سواء ذلك . لقد أحببت ابتسامتك . كانت كثيرة الهدوء والطيبة و ... كبيرة جداً .

وضحكت لودميلا ، وكان ضحكها رقيقاً ، يحملي الاهاب :

ـ لقد حملني ذلك على التفكير فيك . هل حياتك قاسية ؟

فارتجف حاجبا الأم ، وشرعت تفكر في سكون . هتفت لودميلا :

ـ بالطبع هي قاسية .

فقالت الأم في بطء :

ـ لست على يقين تام من ذلك . فهي تبدو قاسية أحياناً ، ولكنها كثيرة الامتلاء ـ وكل الاشياء فيها كثيرة الرزانة ، مدهشة ، تتلاحق عن قريب في سرعة عظيمة ...

وهبت في صدرها تلك الموجة المألوفة من البأس تملأ ذهنها بالافكار والصور ، فجلست في السرير وراحت تكسو أفكارها بالكلمات .

ـ إنها تستمر وتستمر . . متجهة أبداً نحو الغاية نفسها . . . ولكن ذلك يصعب جداً في بعض الأحيان . الناس يتألمون ، وينكل بهم . . ينكل بهم بصورة وحشية ، وكثير من الأفراح ممنوعة عنهم . ذلك قاس للغاية !

ألقت لودميلا برأسها إلى الوراء وشملتها بناظريها ، ثم قالت :

ـ ولكنك لا تتحدثين عن نفسك .

فتركت الأم السرير ، وشرعت ترتدي ثيابها .

ـ كيف تستطيعين أن تفصلي نفسك عن الآخرين عندما تحبين هذا وذاك وتخافين من أجلهم جميعاً ... وترثين لهم جميعاً ... جميعهم يحتشدون معاً هناك في

قلبك ... كيف تستطيعين أن تفصلي نفسك عنهم ؟

وقفت برهة في وسط الغرفة غير مكتملة اللباس ، ضائعة في لجة من التفكير. وهدهد لها أنها لم تعد تلك المرأة المفعمة مخاوف وقلقاً من أجل ابنها ، المشغولة بالتفكير في كيف تستطيع حماية جسده من الأذى . تلك المرأة لم يعد لها بعد الآن وجود ، فلقد انسحبت من الميدان ، وذهبت إلى مكان بعيد بعيد ، أو لعلها احترقت بنار عواطفها فطهر ذلك الحريق روحها وأضاءها ، نافحاً إياها بقوة جديدة . وبحثت عن قلبها ، تنصت إلى خفقانه ، خائفة من إيقاظ المخاوف القديمة.

سألتها لودميلا ، وهي تقترب منها :

— فيمَ تفكرين ؟

فأجابت الأم :

— لا أدري .

تبادلتا النظر في سكون وابتسمتا ، ثم غادرت لودميلا الغرفة وهي تقول :

— لأتساءل عما يجري لساموري هناك .

تطلعت الأم من النافذة . كان النهار أرزاً نيراً ، وكذلك كان الصدر منها يطفح نوراً ، سوى أن الدفء كان يرن عليه أيضاً. وأرادت أن تتحدث عن كل شيء . . . وأن تتحدث طويلا بهناء وغبطة ، يغمر قلبها شعور غامض بالامتنان لشخص ما من أجل كل ما عمر روحها من أحاسيس . وهو الآن يلتهب هناك بنور قرمزي ، ذلك النور الذي يسبق مغيب الشمس . وعاودتها الرغبة في الصلاة . هذه الرغبة التي لم تجربها منذ زمن طويل ، ولمع في خاطرها وجه فتي ، وسمعت صوتاً واضحاً ينادي : « هذه هي أم بافل فلاسوف » . ورأت عيني ساشا السعيدتين الحنونين ، ووجه ريبين القاتم ، ومحيا ابنها الهادىء ، البرونزي اللون ، ونظرة نيقولاي المضطربة المرتبكة ، ثم امتزج كل هذا ، بغتة ، في زفرة عميقة واحدة ، واختلط في سحابة وحيدة شافة متعددة الألوان غمرت كل أفكارها في

إحساس بالسلام عظيم شاسع الابعاد .

قالت لودميلا ، وهي تدلف إلى الغرفة من جديد :

— لقد كان نيقولاي على حق ،فقد أوقفوه . لقد أرسلت الصبي للاستكشاف كما نصحتني ، فعاد يقول إن ثمة شرطياً في الفناء ، كما أنه رأى شرطياً يختبىء وراء البوابة ، والجواسيس منبثين حول الدار في كل مكان . الصبي يعرفهم .

فقالت الأم ، وهي تهز رأسها :

— آه ، يا للرجل المسكين ..

وتنهدت ، دون حزن ، مما أذهلها في سرها .

قالت لودميلا في هدوء ، والعبوس يعلو وجهها :

— لقد قام حديثاً بسلسة من الاجتماعات مع العمال هنا في المدينة ، فكان له على العموم أن يعتقل . ولقد نصحه رفاقه بالذهاب فأبى أن يقبل بنصائحهم ... يؤتي لي أن الناس ، في مثل هذه الحالات ، يجب أن يرغموا على الذهاب إرغاماً ، ولا يقنعوا به إقناعاً .

وفي تلك اللحظة بدا في فرجة الباب صبي أسود الشعر ، مضرج الخدين ، جميل العينين الزرقاوين ، مقوس الأنف ، وسأل :

— هل آتي بالسماور ؟

— إن شئت .

واستدارت الى الام ، وقالت :

— هو موضوع تحت وصايتي .

وخيل الى الأم أن لودميلا على غير عادتها هذا النهار ، فهي أكثر بساطة وأقل بعداً . وكان في حركات جسدها الرائع الرشيقة كثير من الجمال والقوة مما خفف من حدة وجهها الشاحب ، الصارم التقاطيع . وقد زاد الليل في عمق الدائر المستقرة تحت عينيها ، وأصبح المرء يحس في حضرتها جهداً مستمراً ،

ووتراً مشدوداً حتى الأقصى في روحها .

وعاد الفتى بالسماور ، فقالت لودميلا :

إسمح لي أن أقـدمك ، ياسيرجي . هذه بيلاجيا نيلوفنا ، والدة العامل الذي قدم البارحة إلى المحاكمة .

فانحنى سيرجي دون أن يقول شيئاً ، وهزّ يد الأم مصافحاً ، وغادرالغرفـة كي يعود إليها برغيف من الخبز ، ثم اتخذ مكانه إلى المائدة . وبينما راحبت لودميلا تصب الشاي ، سعت لاقناع الأم بالعدول عن الذهاب إلى الدار حتى تبين غاية الشرطة من الانتظار هناك .

— لعلهم ينتظرونك أنت أيضاً ! من المحتمل أن يرسلوا في طلبك كي يستجوبوك .

— فلفعلوا ! وليعتقلوني إن أرادوا ـ ليس فى ذلك ضرر كبير . آه لو نوزع قبلا خطاب بافل !

— لقد صففت الأحرف حتي الآن ، وغداً سيكون لدينا نسخ كافية للمدينة والضاحية العالية . هل تعرفين ناتاشا ؟

— طبعاً ؟

— خذي النسخ إليها .

كان الصبي يقرأ الورقة كمن لا يسمع شيئاً ، ولكنه يرشق وجه الأم بنظراته بين الفينة والفينة ، فاذا ما لقيت عينيه ابتهجت وابتسمت . وشرعت لودميلا تتحدث مرة أخرى عن نيقولاي دون أسىً ، فتجد الأم ذلك طبيعياً للغاية ومر الوقت أسرع من المعتاد ، فما انتهو من طعام الافطار حتى كان الوقت ظهراً ، هتفت لودميلا :

— يا لله !

قرع الباب بسرعة في هذه اللحظة ، فنهض الصبي ونظر إلى لودميلا بعينين

متضيقتين .

— إفتح الباب ، ياسيرجي ! من هذا ، يا تُرى ؟

ووضعت يدها في جيب سترتها بحركة هادئة ، وهي تقول للأم :

— إن كان القادمون رجال الدرك ، فقفي أنت هناك في الزاوية بابيلاجيا ، أما أنت ياسيرجي ...

فأجاب الفتى ، وهو يخرج :

— إني أعلم .

وابتسمت الأم . لم تعد هذه الاستعدادات تقلقها — لقد فارقها كل توقع للكارثة . ولكن الطارق لم يك سوى الصغير . قال بسرعة :

— قبل كل شيء ، لقد اعتقل نيقولاي . أها! هكذا فأنت هنا ، يانيلوفنا ، ألم تكوني في الدار ساعة الاعتقال ؟

— لقد أرسلني إلى هنا .

— وي ! كذا ؟ لا اعتقد أن ذلك سيعود عليك بأية فائدة . ثم إن بعض الفتيان قد طبعوا ، في الليلة الفائتة ، خمسمائة نسخة من خطاب بافل على الجلادتين . ولقد رأيتها — إنها ليست سيئة . . بل نظيفة واضحة . . . وهم يريدون توزيعها في المدينة هذه بالذات ، ولكني أعارض في ذلك ، إذ يفضل أن توزع المناشير المطبوعة في المدينة ، والاحتفاظ بتلك لمكان آخر .

فقالت الأم في لهفة :

— سآخذها إلى ناتاشا ! أعطنيها !

كانت لهفتها عظيمة كي تنشر خطاب فتاها في أسرع وقت ممكن ، كي تغرق الأرض بأسرها بكلماته ، فراحت تثبت عينيها متوسلة في وجه الطبيب وهي تنتظر جوابه . قال متردداً ، وهو يتطلع في ساعته :

— الشيطان وحده يعلم إن كان في مقدرك القيام بذلك الآن . الساعة

الحادية عشرة والدقيقة الثالثة والأربعين . وموعد أول قطار هو الثانية والدقيقة الخامسة ، وستصلين في تمام الخامسة والربع ، أي عند هبوط المساء . بيد أن الوقت لن يكون متأخراً على أية حال ، لكن ليست هذه هي المشكلة .

فودت لودميلا عابسة :

ـ ليست هذه هي المشكلة ؟

وسألت الأم ، وهي تتجه نحوه :

ـ ماهي المشكلة ؟ أن ينجز العمل على خيروجه فقط .

فرشقتها لودميلا بنظرة متمعنة ، ثم قالت وهي تمسح جبينها :

ـ ذلك خطر عليك .

فسألت الأم في إصرار حار :

ـ ولم ؟

فأجاب الطبيب بكلمات سريعة متكسرة :

ـ إليك السبب في ذلك : لقد غادرت الدار قبل اعتقال نيقولاي بساعة واحدة ،وذهبت إلى المصنع حيث يعرفونك على أنك عمة المعلمة ، وبعد فترة قصيرة ظهرت مناشير ممنوعة في المصنع ، كل هذا يشكل عقدة جميلة حول عنقك .

فقالت الأم في عناد :

ـ إن أحداً لن يلاحظني هنا ! وإذا اعتقلوني بعد عودتي وسألوني أين كنت ...

وترددت لحظة قصيرة ، ثم صاحت :

ـ أعرف ما سأقول ! سأذهب من هناك رأساً إلى الضاحية حيث أعرف صديقاً هناك ـ سيزوف ـ وسأقول إني ذهبت مباشرة من المحاكمة إلى داره ـ كي أخفف عن قلبي إن صح التعبير . وهو يحتاج إلى المؤاساة أيضاً ، فابن أخيه قد أدين بدوره.. ولسوف يقف إلى جانبي .

وإذ أحست أنها شرعا بميلاك إلى تلبية رغبتها، انطلقت تتكلم في عناد أكبر يحدوها الأمل في الاسراع بإقناعها، حتى استجابا إليها أخيراً، فقال الطبيب في تردد وإحجام:

— حسناً، تستطيعين الذهاب.

ولم تقل لودميلا شيئاً، وهي لاتفتأ تذرع أرض الغرفة غارقة في التفكير، وقد أصبح وجهها الآن قاتماً نحيلاً، وعضلات عنقها المشدودة تفضح الجهد الذي تبذل كي تمنع رأسها من السقوط فوق صدرها. لاحظت الأم ذلك، فقالت مبتسمة:

جميعكم تعنون بي كثيراً، ولكنكم لا تعيرون أنفسكم أدنى اهتمام على الاطلاق.

فقال الطبيب:

— هذا ليس صحيحاً، فنحن نعنى بأنفسنا. نحن مضطرون إلى ذلك. وأننا لقساة كل القسوة على أولئك الذين نجدهم يضيعون قواهم دون جدوى. والآن.. لسوف تستلمين نسخ الخطاب في المحطة...

وأوضح لها كيف سيتم ذلك، ثم نظر في وجهها، وقال:

— والآن، حظاً سعيداً.

لكن ظلا على الاستياء كان يرين على محياه لحظة غادر الغرفة. اقتربت لودميلا من الأم وقالت وهي ترسل ضحكة قصيرة:

— لا أستطيع أن أفهمك..

وأمسكت بذراعها، وشرعت من جديد تجوس أرض الغرفة بخطاهما:

— إن لي ابناً أنا أيضاً، وهو في الثالثة عشرة من عمره الآن، ولكنه يعيش مع أبيه. إن زوجي مدع عام، أما الولد فهو معه. الحكم سيصير؟ كثيراً ما أفكر في ذلك...

وانكسر صوتها ، ثم تابعت بعد برهة في هدوء وتفكر :

— إنه يتربي على أيدي عدو واع لسائر الناس الذين أحبهم والذين أعتبرهم أروع أناس على وجه البسيطة ، ولربما يشب ابني عدواً لي . إنه لا يستطيع عيشاً معي ، فأنا أحيا تحت اسم مستعار ، وأنا لم أره منذ ثماني سنوات... ثماني سنوات! ياله من زمن طويل !

ووقفت عند النافذة ، وراحت تنظر إلى السما الشاحبة المقفرة

— لو عاش معي كنت أقوى إذن ، وما كان هذا الجرح يؤلم قلبي أبداً . . . ولو مات ، فذلك يكون أسهل علي إذن وأيسر . . .

فتمتمت الأم ، وقلبها يتمزق ألماً :

— آه ، ياعزيزتي !

فهمست لودميلا ، وهي تطلق ضحكة مريرة :

— أنت محظوظة ! ما أروع ذلك .. الأم والابن جنباً إلى جنب ـ إنه لأمر نادر للغاية !

فهتفت بيلاجيا ، مدهوشة من ذات كلماتها :

بلى ، ذلك رائع جداً !

ثم قالت ، وهي تخفض صوتها فكأنها تتفوه بسر خطير :

— وأنتم جميعاً ـ نيقولاي إيفانوفيتش وسائر الذين يتبعون الحقيقة ـ أنتم جميعاً جنباً إلى جنب ! لقد أصبح الناس ، بغتة ، أقارب أعزاء ، وإني لأفهمكم جميعاً ، إني لا أستطيع أن أفهم الكلمات ، ولكني أستطيع ان أفهم كل شيء آخر .

— نعم . كذلك هي الأمور ... كذلك هي الأمور ...

ووضعت الأم يدها على صدرها ، وتابعت في شبه همس ، وكأنها هي نفسها تتأمل في الكلمات التي تتفوه بها :

— أبناؤنا يمشون فوق الأرض . ذلك ما أفهم ـ أبناؤنا يمشون فوق

الارض – فوق الارض بأسرها – من كل حدب وصوب نحو هدف واحـــد .

أطهر الناس قلباً ، وأروع الناس فكراً ، يسيرون قدماً ضد الشر دون ارتعاش ، يدوسون الكذب تحت أقدامهم القوية ، فتيان ، أقويا البنية ، من كل عيب ، يوجهون قواهم كلها نحو غرض واحد – ألا وهـو العدالة . إنهم يمشون نحو الانتصار على الألم الانساني ، وقد حملوا السلاح ليكنسوا كل بؤس عن وجه البسيطة ، وليقضوا على القباحة المعششة في الأرض ولسوف يقضون عليهـا ! ولقد قال لي أحدهم إنهم سيشعلون شمساً جديدة – ولسوف يشعلونها بكل تأكيد ! وإنهم سوف يوحدون جميع القلوب المنكسرة – ويقيناً أنهم سيوحدونها !

وتذكرت كلمات صلوات منسية ، انبثقت من صدرهـا كالشرر تشعل فيهـا إيماناً جديداً :

– أبناؤنا يسلكون طريق الحقيقة والعقل ، يحملون المحبة إلى قلوب البشر ، يغطون الأرض بسماء جديدة ، وينيرون الأرض بنار جديدة – نار الفكر التي لاتنطفئ . ومن لهيبها العظيم تنبثق حياة جديدة ، حياة تولد من محبة أبنائنا للجنس البشري بمجموعه ومن يملك القدرة على إطفاء هذا اللهيب ؟ من ؟ أية قوة تستطيع أن تدمرهم ، أية قوة تستطيع أن تعترض سبيلهم ؟ من الأرض هم انبثقوا ، والحياة بأسرها تتلهف إلى انتصارهم – الحياة بأسرها !

تركت لودميلا وقد أعيتها قوة انفعالها ، وجلست وهي تتنفس بصعوبة فائقة . وكذلك ابتعدت لودميلا في سكون وحذر ، فكأنها تخاف أن تزعج شيئاً ما وتعكر صفوه ، وراحت تتنقل في خفة عبر الغرفة ، ونظرة عينيها الخابيتين العميقة مثبتة أمامها ، يخيل للناظر إليها أنهـا قد ازدادت طولاً ونحولاً وانتصاباً . وكان وجهها الصارم الرقيق يعبر عن تفكير عميق ، وشفتاها منضمتين في عصبية . وما أسرع أن سكن الهدوء المخيم على الغرفة من انفعال

الأم ، فلاحظت حال لودميلا وسألتها بنغمة مذنبة :

لربما قلتُ شيئاً ما كان يجدر بي قوله ؟

فاستدارت لودميلا وتطلعت إليها كالمذعورة تكلمت بسرعة وهي تمدّ يدها إلى الأم فكأنها تريد أن توقف شيئاً ما في طريقها :

— لا ، لا ، كذلك هي الأمور ، كذلك هي ! ولكن يجب ألا نتكلم عنها بعد الآن أبداً ، فلتبق كما عبرت أنت عنها !

وازداد هدوء صوتها ، وهي تضيف :

— يتوجب عليك الذهاب عما قريب — فما برح أمامك طريق طويلة .

— أجل ، عما قريب . لو تدرين كم أنا سعيدة ! سأحمل إلى الآخرين كلمات ابني ، كلمات لحمي ودمي نفسيهما ! لكأني أعطي من نفسي ذاتها !

وابتسمت ، لكن ابتسامتها لم تنعكس على وجه لودميلا إلا غموض وإبهام وأحست الأم أن فرحتها تتضاءل بصرامة المرأة الأخرى ، فتجتاحها فجأة رغبة عنيدة في أن تصب نارها الملتهبة في صدرها ، في تلك النفس الشموس النابسة ، لتجعل تلك المرأة على التجارب مع نداءات قلب يلتهب فرحاً وصفاء ، فتناولت يدي لودميلا وضغطت عليها بشدة وهي تقول :

— ياحبيبتي ! ما أحسن أن يعلم المرء أن ثمة نوراً يضيء جميع الناس ، وأن ساعة ستأتي يراه فيها الجميع فيستديرون إليه بقلوبهم !

وارتعش وجه الأم اللطيف العريض ، والتهبت عيناها ، وارتجف جفناها فوقهما كجناحين يظللان بريقها . كانت تترنح بفعل تلك الأفكار العظيمة التي تضج في صدرها وتفور ، بفعل كل ماعاشت حتى ذلك الحين وجرّبت ، فراحت تصهر خلاصة تلك الأفكار وتسكبها في بلورات الكلمات البراقة النامية والمتضاعفة في هذا القلب الخريفي ، تنيرها القوة الخلاقة لشمس الربيع المحترقة هنالك والمشعة ببريق متزايد اللمعان أبداً .

ـ ذلك أشبه بأمة جديد يولد للشعب ! كل شيء للجميع ـ والجميع من أجل كل شيء ! هكذا أفهم أنا الأمور ! في الحقيقة أننا جميعاً رفاق ، أرواح متقاربة ، أبناء أم واحدة ، وهذه الأم هي الحقيقة !

وجرفتها من جديد موجة انفعال ، فتوقفت وشهقت نفساً عميقاً ، وقالت وهي تفتح ذراعيها عناق عريض :

ـ وعندما أقول لنفسي هذه الكلمة ـ رفاق أسمع في قلبي صوتاً يقول : إنهم سائرون قدماً !

وبلغت هدفها . لقد تضرج محيا لودميلا ، وارتجفت شفتاها ، وراحت دموع كبيرة شافة تتدحرج على وجنتيها .

واحتوتها الأم بين ذراعيها وهي تبتسم في سكون ، وتفرح فرحاً عذباً بانتصار قلبها ،

وبيناهما تفترقان تطلعت لودميلا في الأم ، وقالت بصوت خافت :

ـ هل تعرفين ما أحسن أن يكون المرء معك ؟



٢٩

إذ بلغت الشارع ، أطبق الهواء المتجلد على جسدها في عناق قاس ، وامسك بخناقها وحرمها . ثانية قصيرة . من أنفاسها . توقفت تتطلع حواليها فرأت عربة صغيرة تقف عند زاوية قريبة ممزقة الغطاء ، وإلى أبعد منها ، في الشارع الطويل ، يمشي رجل باسق القامة منحني العود ، غارق الرأس بين الكتفين ، وإلى الأمام منه جندي يركض وهو يفرك أذنيه . فكرت ؛

ـ لاريب أنهم أرسلوا به يشتري حاجة ما .

وتابعت طريقها ، مسرورة بسماع الثلج يتكسر تحت أقدامها في حيوية وفتوة. وبلغت المحطة قبل موعد القطار . سوى أن غرفة الانتظار من الدرجة الثالثة ، الوسخة العاجة بالدخان ، كانت مزدحمة تغص بالناس ، بعد أن طرد البرد إليها عدداً كبيراً من عمال السكة ، والحوذيين ، وكثيراً من الناس العاطلين المحرومين من أي مأوى آخر تلجأون إليه . وكان ثمة عدد من المسافرين أيضاً ، ومن بينهم بعض الفلاحين ، وتاجر بدين يرتدي معطفاً سميكاً ، وكاهن ترافقه ابنته المجدورة الوجه ، وخمسة أوستة جنود ، وبعض الباعة المضطربين القلقين . وكان القوم يدخنون ويتحدثون ، ويحتسون الشاي والفودكا ؛ وشخص ما ، عند المقصف ، يطلب أكداساً من الضحك ، وامواج من الدخان تتموج فوق الرؤوس دون انقطاع . وكان الباب يصر كلما فتح ، فاذا صفق ارتجف زجاج

النوافذ وإطاراتها ، وكان جو الغرفه عابقاً برائحة من التبغ والسمك والمملح تخدش الأنوف .

اتخذت الأم مقعداً بيناً للعيان عند المدخل وراحت تنتظر . كانت موجة من الهواء البارد تهب عليها كلما فتح الباب ، فتسر بذلك وتروح تنهل من الهواء أنفاساً عميقة . وكان معظم الحاضرين مثقلين برزم كبيرة . فاذا حاولوا عبور الباب في معاطفهم الشتائية السميكة علقوا في فرجته بصورة مضحكة . وهبوا يطلقون السباب وهم يلقون برزمهم فوق الأرض أو المقاعد الخشبية ، يدمدمون وهم ينفضون الثلج عن أكمامهم وياقاتهم ولحام وشواربهم .

ودلف من الباب فتى يحمل حقيبة صغيرة في يده ، وتطلع فيما حوله بسرعة ، واتجه نحو الأم رأساً . قال :

ـ أأنت ذاهبة إلى موسكو ؟

فأجابت :

ـ نعم إلى ثانيا .

آه !

وضع الحقيقة على الدكة إلى جانبها ، وأشعل لفافة ، ورفع قبعته عن رأسه قليلا ثم اختفى من خلال الباب الآخر دون أن يضيف شيئاً آخر ، وربتت الأم على جلد الحقيبة البارد ، ثم اعتمدتها بمرفقها ، وشرعت تتفحص القوم حولها وعلى محياها سيماء الرضى . وبعد برهة قصيرة نهضت تتخذ مقعداً آخر أقرب إلى المخرج . مشت منتصبة القامة ترنو إلى الوجوه المارة من أمامها غير هيابة ، وهي تحمل بكل يسر وسهولة الحقيبة لم تكن كبيرة أو ثقيلة على الاطلاق .

اصطدم بها شاب قصير المعطف مرفوع الياقة ، ثم تنحى جانباً في صمت وسكون ، وقد رفع يده إلى رأسه . وخيل إليها أن فيه شيئاً مألوفاً لديها ، فالتفتت إلى الوراء لتجد إحدى عينيه الشاحبتين مثبتة فيها . اخترقتها نظرته

كجدٌ الموسي ، فارتجفت يدها التي تحمل الحقيقة بعصبية ، وأحست بغتة أن حملها يزداد ثقلاً . فكرت : « لقد رأيته في مكان من قبل » ، وحاولت كظم هذا الاحساس المقيت وطرده من صدرها ، فرفضت تحديد ذلك الشعور الذي راح يضغط على قلبها في بطء ، ولكن في عناد أيضاً . بيد أنه نما وصعد حتى حلقها ، وغمر فمها بمرارة جافة فتملكتها رغبة لاتقاوم في أن تستدير وتلقي نظرة أخرى على هذا الرجل ، وإذ فعلت رأته يقف في المكان ذاته ، ينقل ثقل جسده من رجل إلى رجل أخرى فكأنه يريد أن يفعل شيئاً ما ، فلا يجد القدوة كي يحزم أمره عليه . وكانت يده اليمنى مدفوعة بين أزرار معطفه ، واليسرى مدفونة في جيبه بحيث يبدو كتفه اليمنى أكثر ارتفاعاً من الكتف اليسرى .

اقتربت من دكة وجلست عليها في تماهل وحذر ، فكأنها تخاف أن تسحق شيئاً ما في باطنها . واستيقظت الذكرى في ذهنها بتأثير توقع شر مستطير ، فتذكرت المناسبتين اللتين رأت فيهما هذا الرجل من قبل : الأولى في الحقول المجرّدة ، غير بعيد عن السجن ، بعد فرار ريبين ؛ والثانية في المحكمة . وما مضت برهة وجيزة حتى كان ضابط الشرطة الذي أرسلته في الطريق الضاله يتعقب ريبين واقفاً إلى جانبه فأدركت مباشرة أنها ملاحقة — لم يكن في ذلك مجال لارتياب . تساءلت :

— هل وقعتُ في الشبكة ؟

وارتعشت بعد هنيهة وردت على نفسها .

— ربما لم يحن الوقت بعد .

وما أسرع أن بذلت أن جهداً إرادياً عنيفاً ، وقالت في جفوة :

— لقد وقعت في الشبكة !

تطلعت حواليها دون أن ترى شيئاً ، وراحت الأفكار تتلاحق في ذهنها الفكرة تلو الفكرة :

ـــ هل أترك الحقيبة وأولي الأدبار ؟
ولكن شرارة أكثر تألقاً احتلت سريعاً مكان الفكرة السابقة .
ـــ لماذا ؟ أهجر كلمات ابني؟ أتركها بين أيدي مثل هؤلاء الأوغاد ؟
وضمت الحقيبة على عطفها :
ـــ هل أحملها معي ؟ هل أهرب ؟
بدت لها هذه الأفكار غريبة عنها ، فكأن شخصاً غيرها قد اضطرها إليها اضطراراً ، فهي تحترق في ذهنها وتثقب قلبها مثل أسلاك لاهبة . وأخرجها الألم الذي بعثته فيها تلك الأفكار عن رشدها ، وأبعدها عن بافل وعن سائر الذين أصبحوا أعزاء على قلبها . وأحست قوة معادية تضغط على كتفيها وصدرها وتذلها ، وتغرقها في هلع هائل مميت .وراحت أوردة صدغيها تنبض بعنف ، وهبت في جسدها حرارة شديدة بلغت جذور الشعر من رأسها .
وبذلت فجأة جهداً هائلاً ، وألقت بأفكارها بعيداً ، وداست تلك الشرارات الصغيرة ، الوضيعة المستضعفة ، وهي تقول لنفسها في حزم وقوة :
ـــ يا للعار !
ارتاحت في اللحظة نفسها ، وامتلأت شجاعة وبأساً ، وأضافت :
ـــ لا تشيني ابنك ، فهم لا يخافون قط !
ولاقت عيناها نظرة كئيبة حية ، والتمع في خاطرها وجه ريبين ، وشخص لها أن تلك الثواني القليلة من التردد قد جعلتها أكثر ثباتاً . فاذا خفقان قلبها يهدأ ويتلاشى . فكرت ، وهي تختلس النظر فيما حولها :
ـــ ماذا سيحدث الآن ، يا ترى ؟
نادى الجاسوس أحد حرس المحطة ، وهمس شيئاً ما في أذنه وهو يدل عليها بعينيه فحملق الحارس فيه طويلاً ثم تراجع ، بينما اقترب حارس آخر ـ وكان رجلاً هرماً ، ضخم الجثة ، أشيب الشعر ، مرسل اللحية ـــ وأنصت إلى ما يقال

له ، ثم عقد مابين حاجبيه ، وأشار برأسه إلى الجاسوس وبدأ يشقّ طريقه نحو الدكة حيث تجلس الأم . واختفى الجاسوس ...

اقترب الحارس متباطئاً ، يتمعن في وجه الأم باستياء ، فتراجعت حتى حافة الدكة . فكرت :

- لو أنهم لايضربونني !

توقف قبالتها ، واعتصم هنيهة بالصمت ، ثم قال بصوت مخفوض :

- ماذا تنتظرين ؟

- لاشيء .

- هكذا ؟ أيتها اللصة ! أتمتهنين السرقة وأنت في مثل هذه السن ؟

صفعتها كلماته - مرة ، مرتين ! كان الخبث القاسي الكامن فيها مؤلماً للغاية فكأنه يجرح الوجنتين منها ، ويقتلع العينين من محجريها . صاحت بأعلى صوتها ، وقد راح كل مايحيط بها يدوم في إعصار غضبها وثورتها ، إعصار مرارة الاهانة التي تلقتها :

- أنا ؟ أنا لصة ؟

شدّت على الحقيبة في عنف ، ففتح غطاؤها ، صاحت . وهي تهبّ واقفة على قدميها وترفع قبضة من المناشير فوق رأسها :

- أنظروا ! أنظروا جميعاً !

واستطاعت أن تسمع ، من خلال الطنين في أذنيها ، هتافات القوم الذين جاءوا يتراكضون من كل حدب وصوب .

- ماذا حدث ؟

- هناك جاسوس

- ما هذا ؟

- يقولون إنها لصة ..

- مثل هذه المرأة المحترمة ؟ بخٍ ، بخٍ ...

صاحت الأم بصوت مرتفع ، وقد هدأ من روعها قليلا رؤية الناس المتجمهرين حولها :

- أنا لست لصة ! لقد جرت البارحة محاكمة بعض المتهمين السياسيين . وكان بينهم ابني فلاسوف . ولقد ألقى في المحكمة خطاباً - وهذا هو ! إني أحمله إلى الشعب حتى يقرأوه ويعرفوا الحقيقة . . .

تناول أحد الوقوف من يدها منشوراً في حيطة وحذر فلوحت هي بالمناشير في الفضاء ورمتها فوق رؤوس الحشد حولها . وصاح بعض الواقفين بصوت مذعور :

- لسوف ينتقمون منك من أجل هذا .

رأتهم الأم يختطفون المناشير ويدسونها تحت معاطفهم وفي جيوبهم فثبت ذلك من عزيمتها مجدداً . وشرعت تتكلم وهي أهدأ وأثبت من ذي قبل ، تحس فخراً وفرحاً ينموان بازدياد في صدرها ، وبينما هي تتكلم ، كانت تتناول المناشير من الحقيبة وتلقي بها ذات اليمين وذات الشمال في الأيدي الممتدة بلهفة لتلتقفها :

- هل تعلمون لماذا قدموا ابني والذين كانوا معه جميعاً إلى المحكمة ؟ لسوف أقول لكم لماذا ، وانتم ستصدقون قلب أم وشعرها الشائب . لقد قدموهم إلى المحاكمة لأنهم ، بكل بساطة ، يقولون الحقيقة لسائر الناس ! ولقد اكتشفت البارحة أن إنساناً لا يستطيع نكران تلك الحقيقة - أبداً ليس من ينكرها !

ونما الحشد يشكل ، في سكون وهدوء ، حلقة من الأجساد الحية تحيط بالمرأة في إحكام .

- الفقر ، والجوع ، والمرض - هذا ما يكسبه الناس من عملهم ! كل

الاشياء ضدنا ـ نحن نعطي ، طوال حياتنا ، يوماً بعد يوم ، آخر رمق من أنفاسنا لعملنا ، ونحن أبداً معثرون في الوحل ، مخدوعون دائماً ، بينما يمص الآخرين كل الفرح والفوائد ، ويقيدوننا في الجهل إلى الأبد ، مثلما يقيدون الكلب إلى سلسلته ، حتى لانعرف شيئاً على الاطلاق ؛ وفي الخوف ، حتى نخاف من كل شيء دون تفرق . حياتنا أشبه بليل واحد طويل مظلم !

وانفع جواب مكتئب يقول :

ـ هذا حق !

ـ سدوا لها فمها !

وقعت عينا الأم ، وراء الحشد ، على الجاسوس وبرفقته اثنان من رجال الدرك ، فأسرعت توزع بقية المناشير . وعندما بلغت يدهـا الحقيبة ، اصطدمت بيد أخرى ، فقالت وهي تنحني جانباً :

ـ خذها ، خذها .

وصاح الدركيان ، وهما يدفعان الناس جانباً :

ـ تفرقوا !

فأفسح القوم لهما الطريق مرغمين ، وهم يتعثرون في طريقهما ويمنعونهما عن التقدم ، ربما دون أن يرغبوا في ذلك ويريدوه . كان الناس ينجذبون بقوة لا تقاوم نحو تلك المرأة الشائبة الشعر ، الواسعة العينين الطيبتين في وجهها اللطيف ! إنهم يجدون أنفسهم الآن ، وهم المنعزلون في الحياة ، المتباعدون عن بعضهم البعض ، وقد توحدوا في جسد واحد يصغون بانتباه عميق إلى هذه الكلمات اللاهبة التي ربما فتش عنها طويلاً عدد كبير من تلك القلوب التي داسها ظلم الحياة وتعسفها وقف الأقربون إليها في سكون ، مثبتة عيونهم فيها بانتباه مشوق ، حتى لتحس أنفاسهم الدافئة تلفح وجهها .

ـ إذهبي ، أيتها العجوز !



« اتحدوا ايها الناس في قوة واحدة ، عاتية ، جبارة »

– لسوف يقبضون عليك في دقيقة واحدة !

– ماأمتن أعصابها !

وصاح الدركيان ، وهما يشقان لها طريقاً ويقتربان منها شيئاً فشيئاً :

– إذهبوا من هنا .

ترنح القوم القريبون منها ، وتماسكوا بالأيدي . وتراءى لها أنهم جميعاً على استعداد لأن يفهموا ويصدقوها ، فأدارت أن تعجل وتقول لهم كل ما تعرفه ، كل تلك الأفكار التي جرّبت قواها وجبروتها ، والتى تهب في يسر من أعماق قلبها لتشكل أغنية رائعة ، فتدرك الأم في ألم وعذاب أنها أعجز من أن تنشد الأغنية التى تصدر عن شفتيها جشاء مرتجفة ، متكسره :

– إن كلمات ابني هى كلمات عامل شريف لم يبع نفسه . إنها الكلمات شريفة ولسوف تعرفونها من جرأتها !

وكان زوج من العيون الفتية عالقاً بها في هلع وإشراق .

تلقت ضربة فى صدرها أوقعتها على الدكة . وكان أذرعة الدركيين تتأرجح فوق رؤوس القوم ، وتطبق على التلابيب والأكتاف وتلقي بالناس جانباً ، وتنتزع القبعات وترمي بها في الزاوية الأخرى من القاعة . وأضحى كل شيء أسود مضطرباً في عينى الأم ، ولكنها تغلبت على ضعفها لتصيح بما تبقى من قوة في صوتها :

– اتحدوا أيها الناس في قوة واحدة ، عاتية ، جبارة.

وأمسك بها دركي من ياقتها بيد غليظة ضخمة ، وراح يهزها بعنف وهو يصيح :

– إخرسي .

واصطدم رأسها بالحائط ، فخيمت على قلبها ، برهة ، سحابة من ذعر . ولكنه عاد مره أخرى يفجر اللهب فيمزق السحابة ويلاشيها .

قال الدركي :

– إمشي .

– لا تدعوا شيئاً يخيفكم ، فليس من شيء يمكن أن يكون أكثر مرارة من الحياة التى تعيشون ...

إخرسي ، قلت لك !

وإمسك الدركي بذراعها ، وشدها بعنف ، وأمسك الدركي الآخر بذراعها الثانية واقتاداها معاً

– ... أكثر من المرارة التي تلتهم قلوبكم كل يوم وتقرض صدوركم !

واندفع الجاسوس الى الأمام منها ، يهزّ قبضته في وجهها ويصيح :

اخرسي ايتها الكلبة !

فالتمعت عيناها واتسعتا ، وراح فكها السفلي يرتجف بعنف فصاحت وهي تثبت قدميها على بلاط الفرج:

– لن يستطيعوا قتل روحي روحي الحية !

– ايتها الكلبة !

ولطمها الجاسوس على وجهها ، فارتفع صوت يصيح فى خبث :

– انها تنال ماتستحق ، هذه الكلبة الهرمة !

وعماها هنيهة شيء اسود وأحمر ، ومتلأ فمها بطعم مالح من الدماء . ولكن ضجيجاً من الهتافات القصيرة حياها :

– لاتضربها !

– هيا بنا ، ايها الشجعان .

– يالك من وغد، أنت !

إضربوه !

– لن يستطيعون إغراق عقولنا بالدماء

ودفوها في ظهرها وعنقها ، واطموها على كتفها ورأسها ، فراح كل شيء يترنح أمام عينيهـــا ، ويحوم في إعصار هائج من الصياح والعويل والصفير . وتلقت صدمة صغيرة ثقيلة أصمت أذنيها ، وملأت حلقومها ، وأطبقت على خنـاقها بعزم ،فمادت الأرض تحت قدميها ، وتراخت ركبتاها ، وارتجف جسدها تحت لسعات الآلام المحرقة وثقل ، ثم ترنح عاجزاً خائر القوى .ولكن عينيها لم تفقدا بريقها ، لا بل التقتـا بأعين أخرى تلتهب جميعاً بتلك النار البراقة الجريئة التي أصبحت مألوفة عندها كثيراً ، عزيزة جداً على قلبها .

ودفعوها من خلال الباب ، فانتزعت إحدى يدها من قبضة الدركي وتمسكت بمصراع الباب وصاحت :

لطموها على رأسها ...

لن يغرقوا الحقيقة ، ولا في محيط من الدماء .

لطموها على رأسها ...

— إنكم لا تثيرون إلا نيران حقدنا عليكم ، ياأيها المجانين ، وذلك سوف يسقط على رؤوسكم يوماً ما.

وأمسك به احد الدركيين من عنقها وراح يهزه ، فصاحت :

— أيتها المخلوقات البائسة !.

فأجابت احداهن بنشيـج عنيف ...

(تمت)

المطبعة العمومية بدمشق

دار اليقظة العربية

للتأليف والترجمة والنشر بسورية

مؤسسة علمية ثقافية أسست عام ١٩٣٩ بدمشق

يعضدها

نخبة من العلماء والأدباء والمفكرين



صاحبها

و

المدير العام المسؤول

محمد حمدان



المركز الرئيسي دمشق

الدار والمكتبة : شارع فؤاد الاول — المتنبي — هاتف ١٢٢٦٤

السجل التجاري رقم ٢٣٠٤ أنشئ عام ١٩٣٩

المطبعة ومعمل التجليد — شارع خالد بن الوليد — هاتف ١٤٩٧٢

السجل الصناعي رقم ٣٠٢٩ أنشئ عام ١٩٢٩



كلمة الدار

دار اليقظة العربية

للتأليف والترجمة والنشر بسورية

الدار الاولى بسورية التي تطبع وتنشر كافة الكتب العربية والأجنبية على اختلاف أنواعها والتي عرفت منذ فجر تأسيسها بالدأب على العمل المتواصل بنشر الكتب العربية وترجمة الكتب العالمية إلى لغة الضاد. يعضدها ويؤازرها في هـذا العمل الجليل نخبة من خيرة الأدباء والعلماء والمفكرين من جميع الأقطار العربية فحازت كتبها القبول والرضى من جميع الطبقات وكانت محط الانظار وموضع الثقة من كافة البلاد العربية . والدار لا تتوانى عن التضحية تلو التضحية لتبقى محافظة على تأدية رسالتها نحو الشباب الناهض والجيل الصاعد بكل قواها المادية والمعنوية وإيمانها المطلق للوصول إلى مستوى أكبر دور النشر العالمية والله ولي التوفيق .

نخبة من رجال الفكر والأدب والعلم

الذين أسهموا بقسط وافر في مؤازرة الدار على السير قدماً في ميدان التأليف والترجمة والنشر والنهوض بالمستوى الثقافي في العالم العربي من مدنيين وعسكريين

الدكتور عبد العزيز الأهواني	الدكتور عابدين حمادة	الدكتور فؤاد أيوب
الدكتور ممدوح حقي	الدكتور شكيب الجابري	الدكتور محمود رشدي خاطر
الدكتور محمد حاج حسين	الدكتور يوسف خوري	الدكتور جورج حداد
الدكتور سامي الدهان	الدكتور كامل حسين	الدكتور بدر الدين السباعي
الدكتور جميل سلطان	الدكتور شكري فيصل	الدكتور عزة سويد
الدكتور صبري القباني	الدكتور شوكة الشطي	الدكتور عبد القادر القطب
الدكتور وجيه الصباغ	الدكتور ابراهيم الكيلاني	الدكتور محمد علي صبري

الدكتور
جمال الحاسب
*
الدكتور
شوقي ضيف
*
الدكتور
رفيق المهايني
*
الدكتور
خلدون الكناني
*
الاستاذ
ياسين الحوي
*
الاستاذ
نظير زيتون
*
الاستاذ
ادوار خوري
*
الاستاذ
حافظ الجمالي
*
الاستاذ
جلال فاروق الشريف
*

الدكتور
جميل صليبا
*
الدكتور
جميل الملا
*
الدكتور
عمر فروخ
*
الدكتور
خليل بيرقدار
*
الاستاذ
عادل الزعيم
*
الاستاذ
جورج خوري
*
الاستاذ
جورج شاهين صايغ
*
الاستاذ
زهير الشربجي
*
الاستاذ
محمد عزة دروزه
*

الدكتور
حمدي المحلجي
*
الدكتور
عادل العوا
*
الدكتور
عمر النص
*
الاستاذ
صلاح دهني
*
الاستاذ
رضا الحواري
*
الاستاذ
شفيق شالاتي
*
الاستاذ
عزمي البغدادي
*
الاستاذ
سامي الدروبي
*
الاستاذ
منير الشريف
*

الاستاذ
اليان دراني
*
الاستاذ
صميم الشريف
*
الاستاذ
خيرت فخري
*
الاستاذ
أحمد الشيباني
*
الاستاذ
فائز الكردي
*
الاستاذ
أحمد الصعيدي
*
الاستاذ
ظافر كوجان
*
الاستاذ
مصطفى غالب
*
الاستاذ
جبران بشارة
*

فضيلة الاستاذ
الشيخ محمد جميل الشطي
*
الاستاذ
عبد القادر شكري
*
الاستاذ
محمود الشنيطي
*
الاستاذ
قدري القلعجي
*
الاستاذ
سعد صائب
*
الاستاذ
بشير كمدان
*
الاستاذ
شكري محمد عياد
*
الاستاذ
فتح الله مشمشع
*
الاستاذ
مصطفى الصواف
*

الاستاذ
ميسر السيد
*
الاستاذ المرحوم
سامي الشمعة
*
الاستاذ
روحي فيصل
*
الاستاذ
أحمد الصافي النجفي
*
الاستاذ
بديع الكسم
*
الاستاذ
خالد علي
*
الاستاذ
محمود عبدالمنعم مراد
*
الاستاذ
جرجيس فتح الله
*
الاستاذ
شاكر مصطفى
*

الآنسة
سعاد العلبي
*
الاستاذ
احسان النص
*
الاستاذ
خليل الهنداوي
*
السيدة
سلمى الحفار الكزبري
*
الاستاذ
أسعد الياس
*
الاستاذ
يوسف بنا
*
الاستاذ
سهيل أيوب
*
الاستاذ
ابراهيم الحلو
*
الاستاذ
مصطفي الصابوني

الاستاذ
زهير ميرزا
*
الاستاذ
أحمد راتب نفاخ
*
الاستاذ
محمد الواثقي
*
الاستاذ
زكي الأرسوزي
*
الاستاذ
حسن البحيري
*
الاستاذ
فريد أنطونيوس
*
الاستاذ
راتب الحسامي
*
الاستاذ
نسيب الاختيار
*
الاستاذ المرحوم
عبد الوهاب أبو السعود

الآنسة
نظمية السيوفي
*
الاستاذ
حنا نمر
*
السيدة
ألفة عمر باشا الادلبي
*
الاستاذ
حسن بحبوح
*
الاستاذ
أسعد الامام الحسيني
*
الاستاذ
كامل بنقسلي
*
الاستاذ
خير الدين الايوبي
*
الاستاذ
أنطون حمصي
*
الاستاذ
عدنان الذهبي

أسرة التأليف والترجمة العسكرية

المقدم
توفيق شاتيلا

*

المقدم
طارق كيلاني

*

العقيد
محمد صفا

*

المقدم
أمين نفوري

*

الرئيس
جميل حجار

*

الرئيس
يوسف شقرا

*

الرئيس
مصطفى شاكر

القائد
طارق الافريقي

*

المقدم
حسني جروس

*

المقدم
أسعد اسماعيل

*

المقدم
فائز القدسي

*

الرئيس
جودت أتاسي

*

الرئيس
برهان قصاب حسن

*

الرئيس
صبحي الشربجي

الرئيس بشير صادق	الملازم الاول نايف عطواني
*	*
الرئيس محمد منصور	الملازم الاول عقيل نجـار
*	*
الرئيس جادو عز الدين	الملازم الاول المرحوم سعد الدين همت
*	*
الملازم الاول رضا استانبولي	الملازم الاول عدنان شويكاني
*	*
الملازم الاول رمزي سعد الدين	الملازم عيسي عجي
*	*
الملازم الاول حيدر شرقية	الملازم الاول أسعد طبـاخ
*	*

الملازم
ابراهيم الشاعر

دار اليقظة العربية
للتأليف والترجمة والنشر

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم المترجم
٦٠٠	الأم	مكسيم جوركي	الدكتور فؤاد وسهيل أيوب
٣٥٠	تشيخوف المؤلفات الكاملة	أنطون تشيخوف	» » » »
٣٥٠	تولستوي	ستيفان زفايج	الدكتور فؤاد أيوب
٣٥٠	روائع من الادب الالماني	شللر وتوماس مان	» » »
٣٥٠	نيتوتشكا	دستويفسكي	الاستاذ سامي الدروبي
٣٥٠	قوي كالموت	جي ده موباسان	الاستاذ ابراهيم الحلو
١٥٠٠	الاخوة كرامازوف ١–٢	دستويفسكي	لجنة الترجمة
٥٠٠	الساقطون	مكسيم جوركي	الدكتور فؤاد أيوب
٤٥٠	عقل وعاطفة	جين اوستن	الاستاذ رضا حواري
٣٥٠	مراسلات بين جوركي وتشيخوف	جوركي وتشيخوف	جلال فاروق الشريف
٣٥٠	ابنة الضابط	بوشكين	الاستاذ سامي الدروبي
٣٠٠	حياة صاخبة	جي ده موباسان	الاستاذ ابراهيم الحلو
٢٥٠	حب وحرب	رومان رولان	الدكتور فؤاد أيوب
١٢٠٠	الجريمة والعقاب ١ – ٢	دستويفسكي	لجنة الترجمة

اسم المترجم	اسم المؤلف	اسم الكتاب	قروش
الاستاذ ليان ديراني	مكسيم جوركي	بين الناس	٤٥٠
لجنة الترجمة	ك . جيؤرجيو	الساعة الخامسة والعشرون	٧٠٠
الاستاذان حمصي وبنا	نيقولاس جوجول	النفوس الميتة	٤٥٠
لجنة الترجمة	اميلي برونتي	مرتفعات ويذرنج	٣٥٠
الاستاذ سهيل أيوب	نخبة من الكتاب	روائع من الادب السوفيتي	٣٥٠
لجنة الترجمة	ليو تولستوي	الحرب والسلم ١ - ٤	٢٨٠٠
» »	ايليا اهرنبورغ	سقوط باريس	١٠٠٠
» »	ايليا اهرنبورغ	العاصفة ١ - ٢	١٥٠٠
الدكتور فؤاد وسهيل أيوب	مكسيم جوركي	الاعماق	٤٠٠
الاستاذ جرجيس فتح الله	دستويفسكي	ذكريات بيت الموتى	٥٠٠
الاستاذ نظير زيتون	مكسيم جوركي	أين الله	٤٠٠
الدكتور فؤاد وسهيل أيوب	مكسيم جوركي	الفتاة والموت	٤٠٠
لجنة الترجمة	ايزادورا دنكان	حياتي	٨٠٠
لجنة الترجمة	الكسندر فاديف	حرس الفتوة	٤٠٠
الاستاذ فريد انطونيوس	اونوريه ده بلزاك	حب وطلسم أو الجلد المسحور	٤٠٠
الاستاذ سهيل أيوب	ل. كوسمودميانسكايا	قصة زويا وشورا	٤٥٠
الدكتور فؤاد أيوب	رومان رولان	بتهوفن	١٠٠
لجنة الترجمة	نخبة من الكتاب	في سبيل السلام	١٠٠
الاستاذ ابراهيم الحلو	جورج دو هاميل	صديقان	٢٠٠
لجنة الترجمة	بوريس جورباتوف	المتمردون	٢٠٠
الاستاذ فريد أنطونيوس	شاتوبريان	أتالا ورينه	١٠٠

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم المترجم
٤٠٠	مفكرو الثورة الالمانية	ادمون فرمي	الاستاذ خيرت فخري
٣٥٠	القادة السوفييت يتحدثون	الجنرال س. كالينوف	الرئيس يوسف شقرا
٢٥٠	أثر التسلح في التاريخ	الجنرال فوللر	لجنة الترجمة
٥٠٠	النصوص الأدبية	الدكتوران كناني وفيصل	
٥٠٠	إلى أين يسير الاستعمار الاميركي	هنري كلود	الدكتور بدر الدين السباعي
٢٠٠	قصص شامية	السيدة ألفة عمر باشا الادلبي	
٤٥٠	تاريخ الدعوة الاسماعيلية	الاستاذ مصطفى غالب	
١٠٠	٢٦ رجلاً وفتاة	مكسيم جوركي	الاستاذ سهيل أيوب
٢٥٠	الثمرات في اللغة والادب	الاستاذ أسعد الامام الحسيني	
٣٠٠	عبقرية العرب	الدكتور عمر فروخ	
٢٠٠	مذكرات علم النفس ١-٢	الاستاذ جبران بشارة	
٥٠٠	تاريخ الشرق والغرب	الدكتور عابدين حمادة	
٢٠٠	وقائع من الحرب الفلسطينية	القائد طارق الافريقي	
١٥٠	ماذا يجب على كل امرأة أن تعلم	آ. ف دارك	لجنة الترجمة
١٠٠٠	تاريخ الحضارة العربية	الدكتور جورج حداد وراتب الحسامي	
٥٠٠	اليد الماهرة	الاستاذان بنقسلي وصعيدي	
٢٠٠	مستقبل المرأة العربية	الاستاذ منير الشريف	
٤٥٠	مشاكل العالم العربي	الاستاذ محمد عزة دروزة	
٢٠٠	غانية وقديس	الاستاذ أحمد الشيباني	

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم المترجم
٥٠٠	التربية المثلى	الفريد بينه	الاستاذان فخري وبنقسلي
٣٥٠	أسس التربية البدنية	الاستاذ زهير الشربجي	
١٢٥	ليرمنتوف	الدكتور فؤاد أيوب	
١٢٥	المركيزة	جورج صاند	الاستاذ سهيل أيوب
١٢٥	في أميركا	مكسيم جوركي	لجنة الترجمة
١٥٠	مجموعة قصص	أوسكار وايلد	الاستاذ حسن البحيري
١٠٠	ديان بيان فو	الاستاذ صلاح دهني	
٧٠٠	بعث الأمة العربية ١ ـ ٧	الاستاذ زكي الأرسوزي	
١٥٠	في ظلال الوعي	الاستاذ سعد صائب	
١٠٠	تربية الوليد	الدكتور حمدي الحملجي	
١٥٠	الاهداف الاستعمارية وراء مشروع مرشال	الاستاذ أحمد الشيباني	
١٢٥	محاكمات نورمبرغ	الدكتور جلبرت	الاستاذان مشعشع وصايغ
٣٠٠	الخلافة	السير توماس أرنولد	الدكتور جميل مملا
٢٥٠	قدر يلهو	الدكتور شكيب الجابري	
٢٥٠	قوس قزح	الدكتور شكيب الجابري	
٧٥٠	ايليا أبو ماضي شعر ودراسة	الاستاذ زهير ميرزا	
٣٥٠	الوجيز في الأدب العربي	جماعة من الأساتذة	
٨٠٠	علم النفس ونتائجه التربوية	الاستاذان الدروبي والجالي	
٣٠٠	كافر ديوان شعر	الاستاذ زهير ميرزا	
٣٠٠	التيار » »	الاستاذ أحمد الصافي	
١٠٠٠	معجم الشعراء	أبو عبيد المرزباني	
٧٥٠	المؤتلف والمختلف	للآمدي	

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم المترجم
٣٠٠	ألحان اللهيب » »	الاستاذ احمد الصافي	
٦٠٠	سنوات المصير للحرب العالمية الثانية	فون ازيبيك	الملازم رضا استنبولي
٣٥٠	مختصر المنطق ١ ـ ٢	الدكتور جمال الحاسب	
٥٠٠	روض البشر في أعيان دمشق	الاستاذ الشيخ جميل الشطي	
٣٠٠	تراجم أعيان دمشق	» » » »	
٢٠٠	اللاأخلاقي	أندريه جيد	لجنة الترجمة
٣٥٠	التربية البدنية	الاستاذ ميسر السيد	
٤٥٠	أساطين الموسيقى العالمية	الاستاذ صميم الشريف	
٥٠٠	الأشياء وملاحظة البيئة	الاستاذان بنقسلي وواثقي	
٨٠٠	الوسيط في المنطق ١ ـ ٢	الدكتوران جمالي ومحاسب	
٥٠٠	الأخلاق والتربية المدنية	الدكتور جمال الحاسب	
٥٠٠	تاريخ الخلافة الاموية والعباسية	الدكتور رفيق المهايني	
٣٠٠	مختصر الاخلاق ١ ـ ٢	الدكتور جمال الحاسب	
٢٠٠	الانشاء الفلسفي	الدكتور جمال الحاسب	
١٠٠	الدستور السوري		
٠٥٠	مذكرات فيصل	الاستاذ سامي الشمعة	
٣٠٠	هؤلاء الصهيونيون	الاستاذان كمدان وشالاتي	
٢٠٠	أطفال تحت الطلب	الدكتور صبري القباني	
٣٥٠	من الادب اليوناني	بالامان وكريازي	المطران معوض

قروش	اسم الكتاب	اسم المؤلف والمترجم
٧٥٠	البخلاء	الجاحظ — لجنة الدراسة والتحقيق
٤٥٠	الأبيوردي	الدكتور ممدوح حقي
٧٥٠	عصر النبي وبيئته	الاستاذ عزة دروزة
٧٥٠	ديوان ابن حزم	الدكتور ممدوح حقي
٣٥٠	حجة الوداع	لابن حزم — تحقيق الدكتور ممدوح حقي
٢٥٠	العروض الواضح	للدكتور ممدوح حقي
٧٥٠	تاريخ الموسيقا	الاستاذ مصطفى الصواف
١٠٠	نظرات في الزواج	الدكتور شوكت الشطي
١٠٠	من النقد الفرنسي	الاستاذ محمد روحي فيصل
٢٠٠	ما وراء الطبيعة	الدكتور حافظ الجمالي
١٠٠	قصر الجماجم	الاستاذ خير الدين الايوبي
١٠٠	شاعر دمشق	الاستاذ ياسين الحموي
١٠٠	جنازة قلب	الاستاذ محمد حاج حسين
١٠٠	هاروت وماروت	الاستاذ خليل هنداوي
١٠٠	القضية العربية	الاستاذ زهير ميرزا
٢٠٠	خفايا الحياة الجنسية ١ـ٢	الدكتور وجيه الصباغ
١٠٠	القضية السورية	الاستاذ سامي الشمعة
٢٠٠	أيها العرب اتحدوا	الاستاذ منير الشريف
١٠٠	نظرات في الصيام	الدكتور شوكت الشطي
١٠٠	الشباب العربي	الاستاذ منير الشريف

أسرة التأليف والترجمة العسكرية

الفئة والحضيرة

للمقدم و الرئيس

توفيق شاتيلا جادو عزالدين

•

الرشاش برونينغ عيار ٧،٦٢

للرئيس و الملازم

مصطفى شاكر اسعد طباخ

•

١ — بطاقة مذكرات

٢ — نظام الكلية العسكرية

٣ — نظام مدارس الرتباء

•

قتال المشاة

للعقيد محمد صفا

•

السيارات الميكانيك والسواقة

للمقدم فائز موسى القدسي

•

قتال المدرعات

المقدم حسني جروس

•

قتال المشاة بالتعاون

للمقدم امين نفوري

•

المسدسات الرشاشة

برته طويلة وبرته قصيرة ستين

للرئيس برهان قصاب حسن

شرطة الجيش في الميدان

المقدم و الملازم

بشير طباع عيسى عجمي

•

السرية في النظام المنضم

للرئيس و الملازم

جادو عزالدين نايف عطواني

•

المشاة المنقولة

للرئيس و الملازم

مصطفى شاكر صبحي الشربتجي

•

إشارات مورس العالمية

المقدم و الملازم

طارق الكيلاني حيدر شريقة

•

الجندي والحضيرة

للعقيد محمد صفا

•

السيارات ـ الاصلاح والعناية

للمقدم فائز موسى القدسي

•

المدرعات

للمقدم اسعد اسماعيل

•

الطبغرافيـــة

للرئيس جميل حجار

قتال الوحدات المشاة
في الليل
الرئيس الركن جودة الاتاسي

•

المدفع الالماني عيار ٥٠ باك ٣٨
للملازم اسعد طباخ

•

شرطة الجيش
للملازم عيسى عجي

•

التعبئة الصغرى بالمشاة
للملازم عقيل نجار

•

المسدس برونينغ عيار ٩ مم
الملازم اسعد طباخ

•

الطبغرافية
للدكتور محمد علي صبري

المسدس الرشاش
نموذج ٤٥
للرئيس برهان قصاب حسن

•

مدفع الهجوم عيار ٧٥ مم
الملازم اسعد طباخ

•

الفارس المدرع
للملازم نايف عطواني

•

دليل الغيوم للطيارين
للملازم رمزي سعد الدين

•

الالغام
للملازم ابراهيم الشاعر

مجموعة كراسة عسكرية
وزارة الدفاع

البارودة ٣٦ صندوق الرمل
الهاون ٨١ مم الرشيش ٢٤-٢٩
قتال وحدات المشاة الهاون ٦٠ مم

مجموعة كراسة تدريب
مدارس الرتباء

(١) قتال الحراب (٣) فن الرمي
(٢) القتال القريب (٤) المخابرات

•

مجموعة كراسة فنية
للمقدم توفيق شاتيلا

في التدريب العسكري
في السلوك ازاء الطيران
في الجرائم ضد الوطن
في أوامر المراسلات
في بعض الحالات التعبوية
في صنوف الاسلحة

